كتاب النبوات

للإمام العلامة شيخ الإسلام

أحمد بن تيمية

المتوفى سنة ٧٢٨ هجرية

دار الكتب العلمية
بيروت

7,-

النبوات

كتاب

النبوات

للإمام العلامة شيخ الإسلام علم الاعلام
تقي الدين أبي العباس أحمد بن تيمية
المتوفى سنة ٧٢٨ هجرية

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

١٩٨٥ م. ـ ١٤٠٥ هـ.

يطلب من: دار الكتب العلمية بيروت ـ لبنان
هاتف: ٨٠١٣٣٢ ـ ٨٠٥٦٠٤ ـ ٨٠٠٨٤٢
ص.ب: ١١/٩٤٢٤ تلكس: Nasher 41245 Le

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين . قال شيخ الإسلام تقي الدين بن تيمية رحمه الله :

فصل

معجزات الانبياء وكرامات الاولياء

« في معجزات الانبياء التي هي آياتهم وبراهينهم كما سماها الله آيات وبراهين » .

... وللنظار طرق في التمييز بينها وبين غيرها وفي وجه دلالتها ، أما الأول فإن منهم من رأى أن كل ما يخرج عن الأمر المعتاد فإنه معجزة ، وهو الخارق للعادة إذا اقترن بدعوى النبوة . وقد علموا أن الدليل مستلزم للمدلول . فيلزم أن يكون كل من خرقت له العادة نبياً .

فقالت طائفة : لا تخرق العادة إلا لنبي ، وكذبوا بما يذكر من خوارق السحرة والكهان ، وبكرامات الصالحين . وهذه طريقة أكثر المعتزلة وغيرهم كأبي محمد بن حزم وغيره . بل يحكى هذا القول عن أبي اسحق الاسفرايني وأبي محمد بن أبي زيد . ولكن كأن في الحكاية عنهما غلطاً ، وإنما أرادوا الفرق بين الجنسين ، وهؤلاء يقولون أن ما جرى لمريم ، وعند مولد الرسول ، فهو إرهاص أي توطئة وإعلام بمجيء الرسول ، فما خرقت في الحقيقة إلا لنبي ، فيقال لهم : وهكذا الأولياء إنما خرقت لهم لمتابعتهم

الرسول ، فكما أن ما تقدمه فهو من معجزاته ، فكذلك ما تأخر عنه .

وهؤلاء يستثنون ما يكون أمام الساعة. لكن هؤلاء كذبوا بما تواتر من الخوارق لغير الأنبياء،والمنازع لهم يقول هي موجودة مشهودة لمن شهدها متواترة عند كثير من الناس أعظم مما تواترت عندهم بعض معجزات الأنبياء ، وقد شهدها خلق كثير لم يشهدوا معجزات الأنبياء ، فكيف يكذبون بما شهدوه ، ويصدقون بما غاب عنهم ، ويكذبون بما تواتر عندهم أعظم مما تواتر غيره ؟

كلام العلماء في المعجزات وكرامات الأولياء :

وقالت طائفة : بل كل هذا حق وخرق العادة جائز مطلقاً ، وكل ما خرق لنبي من العادات يجوز أن يخرق لغيره من الصالحين ، بل ومن السحرة والكهان . لكن الفرق أن هذه تقترن بها دعوى النبوة وهو التحدي . وقد يقولون أنه لا يمكن أحداً أن يعارضها بخلاف تلك ، وهذا قول من اتبع جهماً على أصله في أفعال الرب من الجهمية وغيرهم،حيث جوزوا أن يفعل كل ممكن فلزمهم جواز خرق العادات مطلقاً على يد كل أحد، واحتاجوا مع ذلك إلى الفرق بين النبي وغيره ، فلم يأتوا بفرق معقول ، بل قالوا هذا يقترن به التحدي ، فمن ادعى النبوة وهو كاذب لم يجز أن يخرق الله له العادة أو يخرقها له ، ولا يكون دليلاً على صدقه لما يقترن بها مما يناقض ذلك ، فإن هذين قولان لهم .

فقيل لهم : لم أوجبتم هذا في هذا الموضع دون غيره وأنتم لا توجبون على الله شيئاً ؟ فقالوا لأن المعجزة علم الصدق فيمتنع أن يكون لغير صادق : فالمجموع هو الممتنع وهو خارق العادة ودعوى النبوة ، أو هذان مع السلامة عن المعارض . فقيل لهم : ولم قلتم أنه علم الصدق على قولكم ؟ فقالوا : إما لأنه يفضي منع ذلك إلى عجزه ، وإما لأنه علم دلالته على الصدق

بالضرورة . فقيل لهم : إنما يلزم العجز لو كان التصديق على قولكم ممكناً ، وكون دلالتها معلومة بالضرورة هو مسلم، لكنه يناقض أصولكم ويوجب أن يكون أحد الشيئين معلوماً بالضرورة دون نظيره ، وهذا ممتنع فإنكم تقولون يجوز أن يخلق على يد مدعي النبوة والساحر والصالح ، لكن إن ادعى النبوة دلت على صدقه، وإن لم يدع النبوة لم يدل على شيء مع أنه لا فرق عند الله بين أن يخلقها على يد مدعي النبوة ، وغير مدعي النبوة ، بل كلاهما جائز فيه . فإذا كان هذا مثل هذا فلم كان أحدهما دليلاً دون الآخر ؟ ولم اقترن العلم بأحد المتماثلين دون الآخر ؟ ومن أين علمتم أن الرب لا يخرقها مع دعوى النبوة إلا على يد صادق وأنتم تجوزون على أصلكم كل فعل مقدور وخلقها على يد الكذاب مقدور ؟ .

ثم هؤلاء جوزوا كرامات الصالحين ، ولم يذكروا بين جنسها وجنس كرامات الانبياء فرقاً ، بل صرح أئمتهم أن كل ما خرق لنبي يجوز أن يخرق للأولياء حتى معراج محمد ، وفرق البحر لموسى . وناقة صالح وغير ذلك ولم يذكروا بين المعجزة والسحر فرقاً معقولاً ، بل قد يجوزون أن يأتي الساحر بمثل ذلك ، لكن بينهما فرق دعوى النبوة وبين الصالح والساحر والبر والفجور ، وحذاق الفلاسفة الذين تكلموا في هذا الباب مثل ابن سينا ،وهو أفضل طائفتهم، ولكنه أجهل من تكلم في هذا الباب. فإنهم جعلوا ذلك كله من قوى النفس ، لكن الفرق أن النبي والصالح نفسه طاهرة يقصد الخير ، والساحر نفسه خبيثة . وأما الفرق بين النبي والصالح فمتعذر على قول هؤلاء .

ومن الناس من فرق بين معجزات الانبياء ، وكرامات الأولياء بفروق ضعيفة ، مثل قولهم الكرامة يخفيها صاحبها،أو الكرامة لا يتحدى بها ، ومن الكرامات ما أظهرها أصحابها كإظهار العلاء بن الحضرمي المشي على الماء ، وإظهار عمر مخاطبة سارية على المنبر ، وإظهار أبي مسلم لما ألقي في

النار أنها صارت عليه برداً وسلاماً : وهذا بخلاف من يدخلها بالشياطين فإنه قد يطفئها، إلا أنها لاتصير عليه برداً وسلاماً، وإطفاء النار مقدور للأنس والجن . ومنها ما يتحدى بها صاحبها أن دين الإسلام حق كما فعل خالد ابن الوليد لما شرب السم ، وكالغلام الذي أتى الراهب وترك الساحر ، وأمر بقتل نفسه بسهمه باسم ربه ، وكان قبل ذلك قد خرقت له العادة فلم يتمكنوا من قتله ، ومثل هذا كثير .

فيقال المراتب ثلاثة : آيات الانبياء ، ثم كرامات الصالحين ، ثم خوارق الكفار والفجار كالسحرة والكهان ، وما يحصل لبعض المشركين وأهل الكتاب ، والضلال من المسلمين . أما الصالحون الذين يدعون إلى طريق الانبياء لا يخرجون عنها فتلك خوارقهم من معجزات الانبياء فإنهم يقولون نحن إنما حصل لنا هذا باتباع الانبياء ، ولو لم نتبعهم لم يحصل لنا هذا ، فهؤلاء إذا قدر أنه جرى على يد أحدهم ما هو من جنس . ما جرى للأنبياء ،كما صارت النار برداً وسلاماً على أبي مسلم ، كما صارت على إبرهيم

وكما يكثر الله الطعام والشراب لكثير من الصالحين كما جرى في بعض المواطن للنبي ، أو احياء الله ميتاً لبعض الصالحين كما أحياه للأنبياء . فهذه الأمور هي مؤكدة لآيات الانبياء ، وهي أيضاً من معجزاتهم بمنزلة ما تقدمهم من الإرهاص ، ومع هذا فالاولياء دون الانبياء والمرسلين ، فلا تبلغ كرامات أحد قط إلى مثل معجزات المرسلين ، كما أنهم لا يبلغون في الفضيلة والثواب إلى درجاتهم ، ولكن قد يشاركونهم في بعضها كما قد يشاركونهم في بعض أعمالهم . وكرامات الصالحين تدل على صحة الدين الذي جاء به الرسول لا تدل على أن الولي معصوم ،ولا على أنه يجب طاعته في كل ما يقوله .

ومن هنا ضل كثير من الناس من النصارى وغيرهم ، فإن الحواريين وغيرهم كانت لهم كرامات كما تكون الكرامات لصالحي هذه الأمة ، فظنوا أن ذلك يستلزم عصمتهم كما يستلزم عصمة الانبياء، فصاروا يوجبون موافقتهم في كل ما يقولون ، وهذا غلط ، فإن النبي وجب قبول كل ما يقول لكونه نبياً ادعى النبوة ، ودلت المعجزة على صدقه، والنبي معصوم، وهنا المعجزة ما دلت على النبوة بل على متابعة النبي وصحة دين النبي ، فلا يلزم أن يكون هذا التابع معصوماً ، ولكن الذي يحتاج إلى الفرقان الفرق بين الانبياء وأتباعهم وبين من خالفهم من الكفار والفجار كالسحرة والكهان وغيرهم، حتى يظهر الفرق بين الحق والباطل ، وبين ما يكون دليلاً على صدق صاحبه كمدعي النبوة ، وبين ما لا يكون دليلاً على صدق صاحبه فإن الدليل لا يكون دليلاً حتى يكون مستلزماً للمدلول متى وجد وجد المدلول ، وإلا فإذا وجد تارة مع وجود المدلول ، وتارة مع عدمه فليس بدليل . فآيات الانبياء وبراهينهم لا توجد إلا مع النبوة ولا توجد مع ما يناقض النبوة ، ومدعي النبوة إما صادق وإما كاذب ، والكذب يناقض النبوة ، فلا يجوز أن يوجد مع المناقض لها مثل ما يوجد معها ، وليس هنا شيء مخالف لها ولا مناقض ، فإن الكفر والسحر والكهانة كل هذا يناقض النبوة لا يجتمع هو والنبوة .

والناس رجلان : رجل موافق لهم ، ورجل مخالف لهم . فالمخالف مناقض ، وإذا كان كذلك فيقال جنس آيات الانبياء خارجة عن مقدور البشر ، بل وعن مقدور جنس الحيوان . وأما خوارق مخالفيهم كالسحرة والكهان فإنها من جنس أفعال الحيوان من الإنس وغيره من الحيوان والجن مثل : قتل الساحر ، وتمريضه لغيره ، فهذا أمر مقدور معروف للناس بالسحر وغير السحر ، وكذلك ركوب المكنسة أو الخابية أو غير ذلك حتى تطير به ، وطيرانه في الهواء من بلد إلى بلد، هذا فعل مقدور للحيوان ،

فإن الطير تفعل ذلك والجن تفعل ذلك ، وقد أخبر الله أن العفريت قال لسليمان : (أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبلَ أَنْ تَقومَ مِن مَقَامِكَ)[1] ، وهذا تصرف في اعراض الحي فإن الموت والمرض والحركة أعراض والحيوان يقبل في العادة مثل هذه الأعراض ليس في هذا قلب جنس إلى جنس ، ولا في هذا ما يختص الرب بالقدرة عليه ، ولا ما يختص به الملائكة . وكذلك إحضار ما يحضر من طعام أو نفقة أو ثياب ، أو غير ذلك من الغيب ، وهذا إنما هو نقل مال من مكان إلى مكان ، وهذا تفعله الأنس والجن ، لكن الجن تفعله والناس لا يبصرون ذلك ، وهذا بخلاف كون الماء القليل نفسه يفيض حتى يصير كثيراً ، بأن ينبع من بين الأصابع من غير زيادة يزادها ، فهذا لا يقدر عليه أنسي ولا جني .

وكذلك الاخبار ببعض الأمور الغائبة مع الكذب في بعض الأخبار ، فهذا تفعله الجن كثيراً مع الكهان وهو معتاد لهم مقدور بخلاف أخبارهم بما يأكلون، وما يدخرون مع تسمية الله على ذلك فهذا لا تظهر عليه الشياطين ، وبنو إسرائيل كانوا مسلمين يسمون الله . وأيضاً فخبر المسيح وغيره من الانبياء ليس فيه كذب قط ، والكهان لا بد لهم من الكذب والرب قد أخبر في القرآن أن الشياطين تنزل على بعض الناس فتخبره ببعض الأمور الغائبة ، لكن ذكر الفرق فقال : (هَلْ أُنَبِّئُكُم عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كاذِبُونَ)[2] ، وكذلك مسرى الرسول ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ليريه الرب من آياته، فخاصة الرسول ليست بمجرد قطع هذه المسافة ، بل قطعها ليريه الرب من الآيات الغائبة ما يخبّر به ، فهذا لا يقدر عليه الجن ، وهو نفسه لم يحتج بالمسرى على نبوته ، بل جعله مما يؤمن به فأخبرهم به ليؤمنوا به ، والمقصود إيمانهم بما أخبرهم من الغيب الذي

---

١ ــ سورة النمل آية ٣٩ .   ٢ ــ سورة الشعراء آية ٢٢٢ .

رآه تلك الليلة ، وإلا فهم كانوا يعرفون المسجد الأقصى ولهذا قال : (وَمَا جَعَلْنَا الرؤيَا التي أريْنَاكَ إلا فِتنةً للنّاس والشَجَرَةَ المَلْعُونَةَ في القُرْآن) (١) .

قال ابن عباس رضي الله عنه هي رؤيا عين أريها رسول الله ﷺ ليلة أسرى به ، وهذا كما قال في الآية : (وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى عِنْدَ سِدْرَةِ المُنْتَهى عِنْدَهَا جَنَّةُ المَأْوَى إذْ يَغْشَى السِدْرَةَ مَا يَغْشَى مَا زَاغَ البَصرُ وَمَا طغَى لَقَدْ رَأى مِن آياتِ رَبِّهِ الكبرى) (٢) .

وكذلك ما يخبر به الرسول من أنباء الغيب قال تعالى : (عَالِمُ الغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أحداً إلاَّ مَن ارتَضَى مِنْ رَسُولٍ فإنّه يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصداً) (٣) . فهذا غيب الربّ الذي اختص به ، مثل علمه بما سيكون من تفصيل الأمور الكبار على وجه الصدق ، فإن هذا لا يقدر عليه إلا الله . والجن غايتها أن تخبر ببعض الأمور المستقبلة كالذي يسترقه الجن من السماء مع ما في الجن من الكذب . فلا بد لهم من الكذب ، والذي يخبرون به هو مما يعلم بالمنامات وغير المنامات فهو من جنس المعتاد للناس .

وأما ما يخبر الرسل من الأمور البعيدة الكبيرة مفصلاً مثل اخباره « إنكم تُقاتِلونَ التُرك صِغارَ الأعينِ ذُلفَ الأنف (٤) يَنْتَعِلونَ الشَعرَ كأن وجوههم المجان المُطرقة» . وقوله : «لاتقوم الساعة حتى تخرج نارٌ من أرض الحجاز تُضيءُ لها أعناقُ الإبلِ بِبُصْرى» ونحو ذلك . فهذا لا يقدر عليه جني ولا أنسي والمقصود أن ما يخبر به غير النبي من الغيب

١ ـ سورة الاسراء آية ٦٠ . ٣ ـ سورة الجن اية ٢٦ .
٢ ـ سورة النجم آية ١٣ .
٤ ـ قال في النهاية الذلف بالتحريك قصر الانف وانبطاحه . وقيل ارتفاع طرفه مع صغر أرنبته . والذلف بسكون اللام جمع اذلف كاحمر وحمر والانف جمع قلة الانف وضع موضع جمع الكثرة ا هـ والله اعلم .

معتادمعروف نظيره من الجن والإنس فهو من جنس المقدور لهم ، وما يخبر به النبي خارج عن قدرة هؤلاء وهؤلاء ، فهو من غيب الله الذي قال فيه : (فلا يُظْهِرُ على غَيْبِهِ أحداً إلاّ من ارْتَضَى مِنْ رسول)[1] .

(والآيات الخارقة جنسان) :

جنس في نوع العلم ، وجنس في نوع القدرة ، فما اختص به النبي من العلم خارج عن قدرة الإنس والجن ، وما اختص به من المقدورات خارج عن قدرة الإنس والجن ، وقدرة الجن في هذا الباب كقدرة الإنس لأن الجن هم من جملة من دعاه الأنبياء إلى الإيمان ، وأرسلت الرسل إليهم قال تعالى : (يَا مَعْشَرَ الجنّ والإنسِ ألَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيكُمْ آياتي وَيُنْذِرونَكُمْ لقاءَ يومِكُمْ هَذا)[2] . ومعلوم أن النبي إذا دعا الجن إلى الإيمان به ، فلا بد أن يأتي بآية خارجة عن مقدور الجن ، فلا بد أن تكون آيات الانبياء خارجة عن مقدور الإنس والجن . وما يأتي به الكاهن من خبر الجن غايته أنه سمعه الجني لما استرق السمع مثل الذي يستمع إلى حديث قوم وهم له كارهون. وما أعطاه‌الله سليمان بمجموعه يخرج عن قدرة الأنس والجن كتسخير الرياح والطير . وأما الملائكة فالأنبياء لا تدعوا الملائكة إلى الإيمان بهم ، بل الملائكة تنزل بالوحي على الأنبياء وتعينهم وتؤيدهم ، فالخوارق التي تكون بأفعال الملائكة تختص بالأنبياء وأتباعهم ، لا تكون للكفار والسحرة والكهان . ولهذا أخبر الله تعالى أن الذي جاءه بالقرآن ملك لا شيطان فقال : (إنّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ذي قُوَّةٍ عِنْدَ ذي العَرْشِ مَكينٍ ، مُطاعٍ ثَمَّ أمينٍ وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ وَلَقَدْ رَآهُ بالأفقِ المبينِ وَمَا هُوَ على الغَيْبِ بِظَنينٍ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ)[3] وقال : (نَزَلَ بِهِ الروحُ الأمينُ عَلَى

---

١ ــ سورة الجن الآية ٢٦ ــ ٢٧ .
٢ ــ سورة الانعام آية ١٣٠ .
٣ ــ سورة الحاقة آية ٤٠ .

قلبك لتكون من المنذرين)(١) . وقال : (قل نزّله روح القدس من ربك بالحق) (٢) وقال : (من كان عدواً لجبريل فإنه نزّله على قلبك بإذن الله) (٣) وقال : (هل أنبئكم على من تنزّل الشياطين تنزّل على كل أفاك أثيم يلقون السمع وأكثرهم كاذبون)(٤) . فينبغي أن يتدبر هذا الموضع وتعرف الفروق الكثيرة بين آيات الانبياء ، وبين ما يشتبه بها كما يعرف الفرق بين النبي وبين المتنبي ، وبين ما يجيء به النبي،وما يجيء به المتنبي . فالفرق حاصل في نفس صفات هذا ، وصفات هذا ، وأفعال هذا ، وأفعال هذا ، وأمر هذا ، وأمر هذا، وخبر هذا ، وخبر هذا ، وآيات هذا ، وآيات هذا . إذ الناس محتاجون إلى هذا الفرقان أعظم من حاجتهم إلى غيره ، والله تعالى يبينه وييسره .

ولهذا أخبر أنه أرسل رسله بالآيات البينات ، وكيف يشبه خير الناس بشر الناس ، ولهذا لما مثلوا الرسول بالساحر وغيره قال تعالى : (أنظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلاً) (٥) وقد تنازع الناس في الخوارق هل تدل على صلاح صاحبها وعلى ولايته لله .

والتحقيق أن من كان مؤمناً بالانبياء لم يستدل على الصلاح بمجرد الخوارق التي قد تكون للكفار والفساق ، وإنما يستدل بمتابعة الرجل للنبي فيميز بين أولياء الله وأعدائه بالفروق التي بينها الله ورسوله كقوله : (ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون) (٦) .

وقد علق السعادة بالإيمان والتقوى في عدة مواضع ، كقوله لما ذكر

---

١ ــ سورة الشعراء آية ١٠٥ .
٢ ــ سورة النحل آية ١٠٢ .
٣ ــ سورة البقرة آية ٩٧ .
٤ ــ سورة الشعراء آية ٢٢٢ .
٥ ــ سورة الفرقان آية ٩ .
٦ ــ سورة يونس آية ٦٢ .

السحرة : (ولو أنهم آمنُوا وَاتقوا لمَثُوبَةٌ مِن عندِ اللهِ خيرٌ لو كانوا يَعلمون)[1] . وقوله عن يوسف : (نُصيبُ برحمتنا مَنْ نَشَاءُ وَلاَ نُضِيعُ أجرَ المُحسنينَ وَلأَجرُ الآخرةِ خَيْرٌ للذينَ آمنوا وَكانُوا يَتّقُون)[2] . وقوله في قصة صالح (وَنَجّيْنَا الذينَ آمنُوا وَكانُوا يَتقُونَ)[3] . وهذه طريقة الصحابة والسلف .

وأما دلالتها على ولاية المعين فالناس متنازعون ، هل الولي والمؤمن من مات على ذلك بحيث إذا كان مؤمناً تقياً وقد علم أنه يموت كافراً ، يكون في تلك الحال عدواً لله ، أو ينتقل من إيمان وولاية إلى كفر وعداوة وهما قولان معروفان : فمن قال بالأول : فالولي عنده كالمؤمن عند من علم أنه يموت على تلك الحال ، والخوارق لا تدل على ذلك : ولهذا قال هؤلاء كالقاضي أبي بكر وأبي يعلى وغيرهما ، أنها لا تدل : وأما من قال : الولاية تتبدل ، فالولاية هنا كالإيمان ، وقد يعلم أن الرجل مؤمن في الباطن تقي بدلائل كثيرة ، وقد يطلع الله بعض الناس على خاتمة غيره ، فهذا لا يمتنع ، لكن هذا مثل الشهادة لمعين بالجنة ، وفيها ثلاثة أقوال : قيل : لا يشهد بذلك لغير النبي ، وهو قول أبي حنيفة ، والأوزاعي . وعلي بن المديني وغيرهم : وقيل : يشهد به لمن جاء به نص إن كان خبراً صحيحاً كمن شهد له النبي بالجنة فقط ، وهذا قول كثير من أصحابنا وغيرهم : وقيل يشهد به لمن استفاض عند الأمة أنه رجل صالح ، كعمر بن عبد العزيز والحسن البصري ، وغيرهما وكان أبو ثور يشهد لأحمد بن حنبل بالجنة ، وقد جاء في الحديث الذي في المسند : « يُوشِكُ أن تعلموا أهلَ الجنّةِ من أهلِ النّارِ قالوا بماذا يا رسول الله ؟ قال : بالثناءِ الحسنِ والثناءِ السيءِ » .

---

١ — سورة البقرة آية ١٠٣ .
٢ — سورة يوسف آية ٥٦ — ٥٧ .
٣ — فصلت آية ١٨ .

وفي الصحيحين «أن النبي ﷺ مرَّ عليه بجنازة فأثنوا عليها خيراً فقال: وَجَبَتْ وَجَبَتْ، ومرَّ عليه بجنازة فأثنوا عليها شراً فقال وَجَبَتْ وَجَبَتْ. فَقِيل يا رسول الله ما قولك وجبت وجبت؟ قَالَ هذه الجَنازَةُ أثنيتُم عليها الخيرَ فقلتُ: وَجَبَتْ لهَا الجَنَّةُ، وهذه الجنازةُ أثنيتُم عليها شراً فقُلتُ وَجَبَتْ لهَا النَّارُ أنتُم شُهداءُ الله في الأرضِ».

وفي حديث آخر: «إذا سَمعتَ جيرانَكَ يَقُولُونَ قَدْ أحسنتَ فَقَد أحسنتَ، وإذا سمعتهُم يقولونَ قَدْ أسَأْتَ فَقَدْ أسأْتَ».

«وسئل عن الرجل يعمل العمل لنفسه فيحمده الناس عليه فقال: «تِلكَ عَاجِلُ بُشرى المُؤْمنِ».

والتحقيق أن هذا قد يعلم بأسباب وقد يغلب على الظن، ولا يجوز للرجل أن يقول بما لا يعلم: ولهذا لما قالت أم العلاء الأنصارية: «لما قدم المهاجرون المدينة اقترعت الأنصار على سكناهم فصار لنا عثمان بن مظعون في السكنى، فمرض فَمَرَّضناه، ثم توفي فجاء رسول الله ﷺ فدخل فقلت رحمة الله عليك أبا السائب فشهادتي أن قد أكرمك الله قال النبي ﷺ «وَمَا يُدرِيكِ أنَّ اللهَ قَد أكْرَمَهُ؟» قالت: لا والله لا أدري. فقال النبي ﷺ: «أما هوَ فَقَد أتاه اليقينُ مِنْ رَبهِ وَإني لأرجُو لَهُ الخيرَ، والله ما أدري وأنا رَسُولُ الله ما يُفْعَلُ بي وَلاَ بِكُم» قالت فوالله لا أزكي بَعدهُ أحداً أبدا قالت، ثم رأيت لعثمان رضي الله عنه بعد في النوم عيناً تجري فقصصتها على رسول الله ﷺ فقال: «ذَاكَ عملُهُ».

وأما من لم يكن مقراً بالأنبياء فهذا لا يعرف الولي من غيره، إذ الولي لا يكون ولياً إلا إذا آمن بالرسل. لكن قد تدل الخوارق على أن هؤلاء على الحق دون هؤلاء لكونهم من أتباع الأنبياء، كما قد يتنازع المسلمون والكفار في الدين، فيؤيد الله المؤمنين بخوارق تدل على صحة

دينهم : كما صارت النار على أبي مسلم برداً وسلاماً . وكما شرب خالد السم، وأمثال ذلك، فهذه الخوارق هي من جنس آيات الأنبياء، وقد يجتمع كفار ومسلمون ومبتدعة وفجار ، فيؤيد هؤلاء بخوارق تعينهم عليها الجن والشياطين ، ولكن جنهم وشياطنهم أقرب إلى الإسلام فيترجحون بها على أولئك الكفار عند من لا يعرف النبوات ، كما يجري لكثير من المبتدعة والفجار مع الكفار مثل ما يجري للأحمدية وغيرهم ، مع عباد المشركين البخشية قدام [1] التتار ، كانت خوارق هؤلاء أقوى لكونهم كانوا أقرب إلى الإسلام .

وعند من هو أحق بالإسلام منهم لا تظهر خوارقهم ، بل تظهر خوارق من هو أتم إيماناً منهم، وهذا يشبه رد أهل البدع على الكفار بما فيه بدعة، فإنهم وإن ضلوا من هذا الوجه فهم خير من أولئك الكفار ، لكن من أراد أن يسلك إلى الله على ما جاء به الرسول يضره هؤلاء ، ومن كان جائراً نفعه هؤلاء، بل كلام أبي حامد ينفع المتفلسف ويصير أحسن، فإن المتفلسف يسلم به إسلام الفلاسفة والمؤمن يصير به إيمانه مثل إيمان الفلاسفة ، وهذا أردأ من هذا بخلاف ذاك .

والخوارق ثلاثة أنواع :

إما أن تعين صاحبها على البر والتقوى ، فهذه أحوال نبينا ومن اتبعه خوارقهم لحجة في الدين أو حاجة للمسلمين ، والثاني : أن تعينهم على مباحات كمن تعينه الجن على قضاء حوائجه المباحة فهذا متوسط وخوارقه لا ترفعه ولا تخفضه وهذا يشبه تسخير الجن لسليمان عليه السلام . والأول مثل إرسال نبينا إلى الجن يدعوهم إلى الإيمان فهذا أكمل من استخدام

---

١ ــ هكذا الاصل ولعلها ايام .

الجن في بعض الأمور المباحة كاستخدام سليمان عليه السلام لهم في محاريب وتماثيل وجفان كالجوابي وقدور راسيات : قال تعالى . (يَعملونَ لَهُ مَا يَشاءُ مِن محَارِيبَ وَتماثِيلَ وَجِفَانٍ كَالجَوابي وَقُدُورٍ راسيات إعمَلُوا آل دَاود شُكراً ، وَقَليلٌ من عِبادِيَ الشَّكُورُ) [١] . وقالَ تعالى : (وَمَن يَزِغْ مِنهم عَن أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِن عَذَابِ السَّعيرِ) [٢] . ونبينا أرسل إليهم يدعوهم إلى الإيمان بالله وعبادته كما أرسل إلى الانس، فإذا اتبعوه صاروا سعداء فهذا أكمل له ولهم من ذاك. كما أن العبد الرسول أكمل من النبي الملك، ويوسف وداود وسليمان عليهم السلام أنبياء ملوك، وأما محمد ﷺ فهو عبد رسول كإبراهيم وموسى والمسيح عليهم السلام وهذا الصنف أفضل وأتباعهم أفضل .

والثالث : أن تعينه على محرمات مثل الفواحش والظلم والشرك والقول الباطل، فهذا من جنس خوارق السحرة والكهان والكفار والفجار . مثل أهل البدع من الرفاعية وغيرهم فإنهم يستعينون بها على الشرك ، وقتل النفوس بغير حق والفواحش ، وهذه الثلاثة هي التي حرمها الله في قوله : (والذينَ لاَ يَدعونَ مَعَ الله إلهاً آخرَ وَلاَ يَقتلُونَ النَّفسَ التي حَرَّمَ اللهُ إلاَّ بالحَقِ وَلاَ يَزنُونَ وَمَنْ يَفعَل ذَلِكَ يَلقَ أثاماً) [٣] ه

ولهذا كانت طريقهم من جنس طريق الكهان والشعراء والمجانين ، وقد نزه الله نبيه عن أن يكون مجنوناً وشاعراً وكاهناً ، فإن أخبارهم بالمغيبات عن شياطين تنزل عليهم كالكهان وأقوى أحوالهم لمؤلهيهم [٤] ، وهم من

---

١ ـ سورة سبأ آية ١٣ .
٢ ـ سورة سبأ آية ١٢ .
٣ ـ سورة الفرقان آية ٦٨ .
٤ ـ ومعنى الكلام ان الذين يؤلهون الجن والشياطين احوالهم وخوارقهم اشد



جنس المجانين وقد قال شيخهم : إن أصحاب الأحوال منهم يموتون على غير الإسلام ، وأما سماعهم ووجدهم فهو شعر الشعراء . ولهذا شبههم من رآهم بعباد المشركين من الهند الذين يعبدون الأنداد .

من غيرهم ويقوى حال الواحد منهم كلما اشتد تأليهه لهم وهم من جنس المجانين لان لهم اخذات ونوبات وتشنجات ورطانات وهذيانات فهذه الامراض نوع من الجنون اذ هو كما قيل فنون ويمكن صوغ العبارة بأوضح منها هكذا (واقوى خوارق هؤلاء انما تظهر فيمن يؤلهون الجن والشياطين وهم من جنس المجانين) الخ .

فصل

النبـــوة ، والوحدانيـــة

وحقيقة الأمر أن ما يدل على النبوة هو آية على النبوة وبرهان عليها ، فلا بد أن يكون مختصاً بها لا يكون مشتركاً بين الانبياء وغيرهم ، فإن الدليل هو مستلزم لمدلوله ، لا يجب أن يكون أعم وجوداً منه ، بل إما أن يكون مساوياً له في العموم والخصوص ، أو يكون أخص منه وحينئذ فآية النبي لا تكون لغير الانبياء ، لكن إذا كانت معتادة لكل نبي أو لكثير من الأنبياء لم يقدح هذا فيها فلا يضرها أن تكون معتادة للأنبياء ، وكون الآية خارقة للعادة أو غير خارقة هو وصف لم يصفه القرآن والحديث ،ولا السلف ، وقد بينا في غير هذا الموضع أن هذا وصف لا ينضبط وهو عديم التأثير ، فإن نفس النبوة معتادة للأنبياء خارقة للعادة بالنسبة إلى غيرهم .

إن كون الشخص يخبره الله بالغيب خبراً معصوماً هذا مختص بهم ، وليس هو موجوداً لغيرهم فضلاً عن كونه معتاداً .

فآية النبي لا بد أن تكون خارقة للعادة بمعنى أنها ليست معتادة للآدميين وذلك لأنها حينئذ لا تكون مختصة بالنبي بل مشتركة . وبهذا احتجوا على أنه لا بد أن تكون خارقة للعادة ، لكن ليس في هذا ما يدل على أن كل خارق آية ، فالكهانة والسحر هو معتاد للسحرة والكهان ،وهو خارق بالنسبة

إلى غيرهم ، كما أن ما يعرفه أهل الطب والنجوم والفقه والنحو هو معتاد لنظرائهم ، وهو خارق بالنسبة إلى غيرهم .

ولهذا إذا أخبر الحاسب بوقت الكسوف والخسوف تعجب الناس إذ كانوا لا يعرفون طريقه ، فليس في هذا ما يختص بالنبي ، وكذلك قراءة القرآن بعد أن بعث محمد ﷺ صارت مشتركة بين النبي وغيره . وأما نفس الابتداء به فهو المختص بالنبي ، وكذلك ما يرويه من أنباء الغيب من الانبياء لما صار مشتركاً بين النبي وغيره لم يبق آية بخلاف الابتداء به .

فالكهانة مثلاً وهو الاخبار ببعض الغائبات عن الجن أمر معروف عند الناس وأرض العرب كانت مملوءة من الكهان ، وإنما ذهب ذلك بنبوة محمد ﷺ وهم يكثرون في كل موضع نقص فيه أمر النبوة ، فهم كثيرون في أرض عباد الأصنام ، ويوجدون كثيراً عند النصارى . ويوجدون كثيراً في بلاد المسلمين حيث نقص العلم والإيمان بما جاء به الرسول . لأن هؤلاء أعداء الأنبياء ، والله تعالى قد ذكر الفرق بينهم وبين الانبياء فقال : (هل أُنبئكُم عَلَىَ مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيم يُلقُونَ السَّمْعَ وَأَكثرهم كَاذِبُون) [1] .

فهؤلاء لا بد أن يكون في أحدهم كذب وفجور ، وذلك يناقض النبوة فمن ادعى النبوة وأخبر بغيوب من جنس أخبار الكهان كان ما أخبر به خرقاً للعادة عند أولئك القوم ، لكن ليس خرقاً لعادة جنسه من الكهان ، وهم إذا جعلوا ذلك آية لنبوته كان ذلك لجهلهم لوجود هذا الجنس لغير الأنبياء كالذين صدقوا مسيلمة الكذاب، والأسود العنسي والحارث الدمشقي وبابا الرومي ، وغير هؤلاء من المتنبئين الكذابين ، وكان هؤلاء يأتون بأمور عجيبة خارقة لعادة أولئك القوم ، لكن ليست خارقة لعادة جنسهم ممن

١ ــ سورة الشعراء آية ٢٢٢ .

ليس بنبي ، فمن صدقهم ظن أن هذا مختص بالأنبياء ، وكان من جهله بوجود هذا لغير الأنبياء كما أنهم كانوا يأتون بأمور تناقض النبوة .

ولهذا يجب في آيات الانبياء أن لا يعارضها من ليس بنبي فكل ما عارضها صادراً ممن ليس من جنس الانبياء ، فليس من آياتهم . ولهذا طلب فرعون أن يعارض ما جاء به موسى لمّا ادعى أنه ساحر فجمع السحرة ليفعلوا مثل ما يفعل موسى ، فلا تبقى حجته مختصة بالنبوة ، وأمرهم موسى أن يأتوا أولاً بخوارقهم ، فلما أتت وابتلعتها العصا التي صارت حية علم السحرة إن هذا ليس من جنس مقدورهم فآمنوا إيماناً جازماً . ولما قال لهم فرعون : (لأُصلبنكُم في جُذُوعِ النّخْلِ ولتعلَمُنّ أيُّنا أشد عذاباً وأبقى قالوا لَنْ نُؤثرك على ما جاءَنا مِنَ البيّناتِ والّذي فطرَنا)[1] . وقالوا : (آمنّا بربِ العالمين رب موسى وهارون)[2] . فكان من تمام علمهم بالسحر أن السحر معتاد لأمثالهم ، وأن هذا ليس من هذا الجنس بل هذا مختص بمثل هذا ، فدل على صدق دعواه . وفرعون وقومه بين معاند وجاهل استخفه فرعون كما قال تعالى : (فاستخَفّ قومَه فأطاعُوه)[3] . فإذا قيل لهم المعجزة هي الفعل الخارق للعادة ، أو قيل هي الفعل الخارق للعادة المقرون بالتحدي ، أو قيل مع ذلك الخارق للعادة السليم عن المعارضة ، فكونه خارقاً للعادة ليس أمراً مضبوطاً ، فإنه إن أريد به أنه لم يوجد له نظير في العالم فهذا باطل ، فإنّ آيات الانبياء بعضها نظير بعض ، بل النوع الواحد منه كإحياء الموتى هو آية لغير واحد من الانبياء ، وإن قيل إن بعض الأنبياء كانت آيته لا نظير لها كالقرآن والعصا والناقة لم يلزم ذلك في سائر الآيات .

---

١ ـ سورة طه آية ٧١ .
٢ ـ سورة الاعراف آية ١٢٠ .
٣ ـ سورة الزخرف آية ٥٤ .

ثم هب أنه لا نظير لها في نوعها لكن وجد خوارق العادات للأنبياء غير هذا فنفس خوارق العادات معتاد جميعه للأنبياء ، بل هو من لوازم نبوتهم مع كون الأنبياء كثيرين ، وقد روى أنهم مائة ألف وأربعة وعشرون ألف نبي وما يأتي به كل واحد من هؤلاء لا يكون معدوم النظير في العالم ، بل ربما كثر نظيره ، وإن عني بكون المعجزة هي الخارق للعادة أنها خارقة لعادة أولئك المخاطبين بالنبوة بحيث ليس فيهم من يقدر على ذلك ، فهذا ليس بحجة ، فإن أكثر الناس لا يقدرون على الكهانة والسحر ونحو ذلك ، وقد يكون المخاطبون بالنبوة ليس فيهم هؤلاء كما كان أتباع مسيلمة والعنسي وأمثالهما لا يقدرون على ما يقدر عليه هؤلاء والمبرز في فن من الفنون يقدر على ما لا يقدر عليه أحد في زمنه ، وليس هذا دليلاً على النبوة، فكتاب سيبويه مثلاً مما لا يقدر على مثله عامة الخلق، وليس بمعجز إذ كان ليس مختصاً بالأنبياء ، بل هو موجود لغيرهم . وكذلك طب أبقراط بل وعلم العالم الكبير من علماء المسلمين خارج عن عادة الناس ، وليس هو دليلاً على نبوته ، وأيضاً فكون الشيء معتاداً هو مأخوذ من العود، وهذا يختلف بحسب الأمور فالحائض المعتادة ، من الفقهاء من يقول تثبت عادتها بمرة ، ومنهم من يقول بمرتين ، ومنهم من يقول لا تثبت إلا بثلاث، وأهل كل بلد لهم عادات في طعامهم ولباسهم وأبنيتهم لم يعتدها غيرهم ، فما خرج عن ذلك فهو خارق لعادتهم لا لعادة من اعتاده من غيرهم ، فلهذا لم يكن في كلام الله ورسوله وسلف الأمة وأئمتها وصف آيات الانبياء بمجرد كونها خارقة للعادة ، ولا يجوز أن يجعل مجرد خرق العادة هو الدليل ، فإن هذا لا ضابط له وهو مشترك بين الانبياء وغيرهم ، ولكن إذا قيل من شرطها أن تكون خارقة للعادة بمعنى أنها لا تكون معتادة للناس فهذا ظاهر يعرفه كل أحد . ويعرفون أن الأمر المعتاد مثل الأكل والشرب والركوب والسفر وطلوع الشمس وغروبها ونزول المطر في وقته ، وظهور الثمرة في وقتها ، ليس دليلاً ، ولا يدعي

أحد أن مثل هذا دليل له ، فإن فساد هذا ظاهر لكل أحد ، ولكن ليس مجرد كونه خارقاً للعادة كافياً لوجهين : أحدهما أن كون الشيء معتاداً وغير معتاد أمر نسبي إضافي ، ليس بوصف مضبوط تتميز به الآية ، بل يعتاد هؤلاء ما لم يعتد هؤلاء مثل كونه مألوفاً ومجرباً ومعروفاً ، ونحو ذلك من الصفات الإضافية .

الثاني : أن مجرد ذلك مشترك بين الأنبياء وغيرهم وإذا خص ذلك بعدم المعارضة فقد يأتي الرجل بما لا يقدر الحاضرون على معارضته ويكون معتاداً لغيرهم كالكهانة والسحر ، وقد يأتي بما لا يمكن معارضته . وليس بآية لشيء لكونه لم يختص بالأنبياء،وقد يقال في طب أبقراط ونحو سيبويه أنه لا نظير له ، بل لا بد أن يقال أنه مختص بالأنبياء والطب والنحو والفقه، وإن أتى الواحد بما لا يقدر غيره على نظيره فليس مختصاً بالانبياء ، بل معروف أن هذا تعلم بعضه من غيره واستخرج سائره بنظره،وإذا خص الله طبيباً أو نحوياً أو فقيهاً بما ميزه به على نظرائه لم يكن ذلك دليلاً على نبوته، وإن كان خارقاً للعادة . فإن ما يقوله الواحد من هؤلاء قد علمه بسماع أو تجربة أو قياس ، وهي طرق معروفة لغير الأنبياء . والنبي قد علمه الله من الغيب الذي عصمه فيه عن الخطأ ما لم يعلمه إلا نبي مثله . فإن قيل فحينئذ لا يعرف أن الآية مختصة بالنبي حتى تعرف النبوة قبل أما بعد وجود الانبياء في العالم فهكذا هو . ولهذا يبين الله عز وجل نبوة محمد في غير موضع باعتبارها بنبوة من قبله وتارة يبين أنه لم يرسل ملائكة بل رجالاً من أهل القرى ليبين أن هذا معتاد معروف ليس هو أمراً لم تجر به عادة الرب كقوله تعالى : (وَمَا أرسلنا قبلك إلا رِجَالاً يُوحَى إليهم فاسألوا أهلَ الذِكرِ إنْ كُنتُم لا تَعلمون)[1] . كما ذكره في سورة النحل والانبياء، وقال في يوسف : (وَمَا أرسلنَا مِن قَبلِكَ إلا رِجَالاً نُوحي إليهم

١ ــ سورة الزخرف آية ١٦ .

مِن أهلِ القُرى أفلَمْ يَسيروا في الأرضِ فيَنظُروا كيفَ كانَ عاقبةُ الذين مِن قبلِهم ولَدارُ الآخرةِ خيرٌ للذين اتّقوا أفلا تعقلون)[1]. فإن الكفار كانوا يقولون إنما يرسل الله ملكاً ، أو يرسل مع البشر ملكاً كما قال فرعون : (أم أنا خيرٌ من هذا الذي هو مَهينٌ ولا يكادُ يُبين ، فلولا أُلقيَ عليهِ أسوِرةٌ من ذهبٍ أو جاءَ معهُ الملائكةُ مُقترِنين)[2] ، وقال قوم نوح : (ما هذا إلا بشرٌ مثلكم يُريدُ أنْ يتفضّلَ عليكم ولو شاءَ اللهُ لأنزلَ ملائكةً ما سمعْنا بهذا في آبائنا الأوّلين)[3]. وقال مشركو العرب لمحمد : (ما لهذا الرسول يأكلُ الطعامَ ويمشي في الأسواقِ لولا أُنزلَ عليهِ ملَكٌ فيكونَ معهُ نذيراً ، أو يُلقى إليه كنزٌ أو تكونُ لهُ جنّةٌ يأكلُ منها)[4]. وقال تعالى : (وما منعَ الناسَ أن يؤمِنوا إذ جاءهم الهُدى إلا أنْ قالوا أبعثَ اللهُ بشراً رسولاً ، قلْ لو كانَ في الأرضِ ملائكةٌ يمشُونَ مُطمئنّينَ لنزّلنا عليهم منَ السماءِ ملَكاً رسولاً)[5].

وقال تعالى : (وقالوا لولا أُنزِلَ عليه ملَكٌ ولو أنزلنا ملَكاً لقُضِيَ الأمرُ ثم لا يُنظَرون ، ولو جعلناهُ ملَكاً لجعلناهُ رجُلاً وللبسنا عليهم ما يلبِسون)[6]. بيّن أنهم لا يطيقون الأخذ عن الملائكة إن لم يأتوا في صورة البشر ، ولو جاءوا في صورة البشر لحصل اللبس .

وقال تعالى : (أكانَ للناسِ عجباً ان أوحينا إلى رجلٍ منهم أنْ أنذرِ الناسَ)[7]. وكانت العرب لا عهد لها بالنبوة من زمن إسماعيل فقال الله لهم : (فاسألوا أهلَ الذِّكرِ) يعني أهل الكتاب (إن كنتم لا تعلمون)[8] ، هل أرسل إليهم رجالاً أو ملائكة ، ولهذا قال له :

---

١ ــ سورة يوسف آية ١٠٩ .
٢ ــ سورة الزخرف آية ٥٣ .
٣ ــ سورة المؤمنون آية ٢٤ .
٤ ــ سورة الفرقان آية ٨ .
٥ ــ سورة الاسراء آية ٩٥ .
٦ ــ سورة الانعام آية ٩ .
٧ ــ سورة يونس آية ٢ .
٨ ــ سورة النحل آية ٤٣ .

(قُل مَا كُنتُ بِدعاً مِنَ الرُسُلِ) [1] وقال : (وَمَا مُحمدٌ إلا رَسولٌ قد خلَتْ مِن قَبلِهِ الرُّسُلِ)[2]. بيّن أن هذا الجنس من الناس معروف قد تقدم له نظراء وأمثال ، وهو سبحانه أمر أن يسأل أهل الكتاب وأهل الذكر عما عندهم من العلم من أمور الأنبياء ، هل هو من جنس ما جاء به محمد ، أو هو مخالف له ليتبين بأخبار أهل الكتاب المتواترة جنس ما جاءت به الأنبياء ، وحينئذ فيعرف قطعاً أن محمداً نبي ، بل هو أحق بالنبوة من غيره . والثاني أن يسألوهم عن خصوص محمد وذكره عندهم ، وهذا يعرفه الخاصة منهم ليس هو معروفاً كالأول يعرفه كل كتابي قال تعالى : (قُلْ أرأيتُم إنْ كانَ مِن عندِ اللهِ وكفرتُمُ بهِ وَشهِدَ شاهدٌ مِن بني إسرائيلُ علىَ مثلِهِ) [3] .

وقوله (شهد شاهد) ليس المقصود شاهداً واحداً معيناً ، بل ولا يحتمل كونه واحداً وقول من قال: إنه عبدالله بن سلام ليس بشيء ، فإن هذه نزلت بمكة قبل أن يعرف ابن سلام ، ولكن المقصود جنس الشاهد كما تقول قام الدليل ، وهو الشاهد الذي يجب تصديقه سواء كان واحداً قد يقترن بخبره ما يدل على صدقه ، أو كان عدداً يحصل بخبرهم العلم بما تقول ، فإن خبرك بهذا صادق وقوله (على مثله) فإن الشاهد من بني إسرائيل على مثل القرآن ، وهو أن الله بعث بشراً وأنزل عليه كتاباً أمر فيه بعبادة الله وحده لا شريك له ، ونهى فيه عن عبادة ما سواه ، وأخبر فيه أنه خلق هذا العالم وحده ، وأمثال ذلك :

وقد ذكر في أول هذه السورة التوحيد ، وبين أن المشركين ليس معهم على الشرك لا دليل عقلي ، ولا سمعي ، فقال تعالى : (مَا خَلَقَ اللهُ السموات والأرضَ وَمَا بينَهُما إلا بالحَقِّ وأجلٌ مُسَمّى ، والذينَ كفروا عمّا

١ ــ سورة الاحقاف آية ٩ .
٢ ــ سورة آل عمران آية ١٤٤ .
٣ ــ سورة الاحقاف آية ١٠ .

أنذروا معرضون . قل أرأيتم ما تدعون من دون الله أروني ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك في السموات ائتوني بكتاب من قبل هذا أو إثارة من علم إن كنتم صادقين ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون ، وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء ؟ وكانوا بعبادتهم كافرين ، وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للحق لما جاءهم هذا سحر مبين . أم يقولون افتراه ، قل إن افتريته فلا تملكون لي من الله شيئاً هو أعلم بما تفيضون فيه كفى به شهيداً بيني وبينكم وهو الغفور الرحيم . قل ما كنت بدعاً من الرسل وما أدري ما يفعل بي ولا بكم إن أتبع إلا ما يوحى إلي وما أنا إلا نذير مبين. قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله)[1] إلى آخره.

ومثل ذلك قوله تعالى : (ويقول الذين كفروا لست مرسلاً قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب)[2] فمن عنده علم الكتاب شهد بما في الكتاب الأول وهو يوجب تصديق الرسول لأنه يشهد بالمثل ، ويشهد أيضاً بالعين ، وكل من الشهادتين كافية فمتى ثبت الجنس علم قطعاً أن المعين منه وقال تعالى : (فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرؤن الكتاب من قبلك لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين ، ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله فتكون من الخاسرين)[3]. وهذا سواء كان خطاباً للرسول والمراد به غيره أو خطاباً له وهو لغيره بطريق الأولى والمقدر قد يكون معدوماً أو ممتنعاً وهو يحرف إن كقوله (قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين)[4]. و (إن كنت قلته فقد علمته).

---

١ — سورة الاحقاف آية ١٠ .
٢ — سورة الاحقاف آية ٨ .
٣ — سورة يونس آية ٩٤ .
٤ — سورة الزخرف آية ٨١ .

والمقصود بيان الحكم على هذا التقدير إن كنت قلته فأنت عالم به وبما في نفسي ، وإن كان له ولد ، فأنا عابده ، وإن كنت شاكاً فاسأل إن قدر إمكان ذلك، فسؤال الذين يقرأون الكتاب قبله إذا أخبروا فما عندهم شاهد له ودليل وحجة ، ولهذا نهى بعد ذلك عن الامتراء والتكذيب . وأما تقدير الممتنع بحرف إن فكثير . ومن ذلك قوله : (فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقاً فِي الأَرْضِ أَوْ سُلَّماً فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ)[1] (فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ)[2] ،(أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ)[3] . (وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ)[4] . (فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ)[5]. وقد قال تعالى : (أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ)[6] وقال تعالى : (وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ)[7] وقال تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّداً وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً)[8] .

وقال تعالى : (الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ ، وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا)[9]. وهذا كله في السور المكية ، والمقصود الجنس ، فإذا شهد جنس هؤلاء مع العلم بصدقهم حصل المطلوب. لا يقف العلم على شهادة كل واحد واحد ، فإن

---

١ ـ سورة الانعام آية ٣٥ .
٢ ـ سورة المرسلات آية ٣٩ .
٣ ـ سورة النمل آية ٦٤ .
٤ ـ سورة البقرة آية ١١١ .
٥ ـ سورة يونس آية ٣٨ .
٦ ـ سورة الشعراء آية ١٩٧ .
٧ ـ سورة الانعام آية ١١٤ .
٨ ـ سورة الاسراء آية ١٠٧ .
٩ ـ سورة القصص آية ٥٢ .

هذا متعذر. ومن أنكر أو قال لا أعلم لم يضر إنكاره . وإن قال بل أعلم عدم ما شهدوا به علم افتراؤه في الجنس،وعلم في الشخص إذ كان لم يحط علماً بجميع نسخ الكتب المتقدمة ، وما في النبوات كلها فلا سبيل لأحد من أهل الكتاب أن يعلم انتفاء ذكر محمد في كل نسخة بكل كتاب من كتب الأنبياء إذ العلم بذلك متعذر ، ثم هذه النسخ الموجودة فيها ذكره في مواضع كثيرة قد ذكر قطعة منها في غير هذا الموضع . وما ينبغي أن يعلم أن أعظم ما كان عليه المشركون قبل محمد وفي مبعثه هو دعوى الشريك لله والولد والقرآن مملوء من تنزيه الله عن هذين وتنزيهه عن المثل والولد يجمع كل التنزيه ، فهذا في سورة الإخلاص .

وفي سورة الأنعام في مثل قوله : (وَجَعَلُوا لله شُرَكَاءَ الجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ علم سُبْحانَهُ وَتَعَالى عَمَّا يَصِفُون) (١) . وفي سورة الاسراء (وَقُلِ الحمدُ لله الذي لَم يَتَّخِذْ وَلَداً ولَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ في المُلْكِ) (٢) وفي سورة الكهف في أولها : (وَيُنْذِرُ الذين قالوا اتخذ اللهُ وَلَداً)(٣) وفي آخرها : (أفحَسِبَ الذينَ كَفَرُوا أن يَتَخِذُوا عبادي من دُوني أولياء إنا اعتدنا جهنمَ للكافرينَ نُزُلاً) (٤) وفي مريم تنزيهه عن الولد في أول السورة وآخرها ظاهر ، وعن الشريك في مثل قصة إبراهيم وفي تنزيل وغير ذلك ، وفي الانبياء تنزيهه عن الشريك والولد ، وكذلك في المؤمنين : (ما اتخذَ اللهُ مِنْ وَلَد وَمَا كانَ مَعهُ من إله) (٥) وأول الفرقـان : (الذي لَهُ ملكُ السمَّوات والأرضِ ولَمْ يَتخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَريكٌ في المُلكِ)(٦) وأما طه والشعراء مما بسط فيه قصة موسى.فالمقصود الأعظم بقصة موسى إثبات الصانع ورسالته إذ كان فرعون منكراً . ولهذا عظم

١ ـ سورة الانعام آية ١٠٠ .
٢ ـ سورة الاسراء آية ١١١ .
٣ ـ سورة الكهف آية ٤ .
٤ ـ سورة الكهف آية ١٠١ .
٥ ـ سورة المؤمنون آية ٩١ .
٦ ـ سورة الفرقان آية ٢ .

ذكرها في القرآن بخلاف قصة غيره فإن فيها الرد على المشركين المقرين بالصانع ، ومن جعل له ولداً من المشركين وأهل الكتاب . ومذهب الفلاسفة الملحدة دائر بين التعطيل وبين الشرك والولادة كما يقولونه في الإيجاب الذاتي ، فإنه أحد أنواع الولادة وهم ينكرون معاد الأبدان ، وقد قرن بين هذا وهذا في الكتاب والسنة في مثل قوله : (وَيَقُولُ الإنسانُ أإذا ما متُ لَسوفَ أُخرَجُ حياً أولاَ يذكرُ الإنسانُ إنا خلقناهُ من قبلُ ولمْ يكُ شيئا) [1]. إلى قوله (وقالوا اتخذَ الرحمنُ ولداً). وهذه في سورة مريم المتضمنة خطاب النصارى ومشركي العرب ، لأن الفلاسفة داخلون فيهم فإن اليونان اختلطوا بالروم فكان فيها خطاب هؤلاء وهؤلاء ، وفي الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال يقول الله تعالى « شتمني ابنُ آدمَ ومَا ينبغي لهُ ذلكَ ، وكذبني ابن آدم وما ينبغي لهُ ذلك ، فأما شتمهُ إياي فقولهُ إني اتخذتُ ولداً وأنا الأحدُ الصمدُ لم ألدْ ولم أولد ولم يكنْ لي كفواً أحد . وأما تكذيبه إياي فقوله لن يعيدني كما بدأني وليسَ أول الخلقِ بأهونَ علىَ من إعادتهْ » رواه البخاري عن ابن عباس .

ولما كان الشركُ أكثر في بني آدم من القول بأن له ولداً كان تنزيهه عنه أكثر وكلاهما يقتضي إثبات مثل وند من بعض الوجوه ، فإن الولد من جنس الوالد ، ونظير له وكلاهما يستلزم الحاجة والفقر فيمتنع وجود قادر بنفسه ، فالذي جعل شريكاً او فرض مكافئاً لزم افتقار كل منهما وهو ممتنع ، وإن كان غير مكافىء فهو مقهور . والولد يتخذه المتخذ لحاجته إلى معاونته له كما يتخذ المال ، فإن الولد إذا اشتد أعان والده ، قال تعالى : (قالُوا اتخذَ اللهُ ولداً سبحانهُ هوَ الغني لهُ ما في السمواتِ وما في الأرضِ) [2] وقال تعالى : (وقالُوا اتخذَ الرحمنُ ولداً لقد جئتمْ

---

١ ـ سورة مريم آية ٦٦ ـ ٦٧ . ٢ ـ سورة يونس آية ٦٨ .

شَيْئاً إِدّاً) إلى قوله (إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِ الرَّحْمنِ عَبداً) (١) وقال تعالى : (وَقَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلداً سُبْحانَهُ بَل لَهُ مَا فِي السَّمواتِ وَالأرضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونْ) (٢). فإن كون المخلوق مملوكاً لخالقه وهو مفتقر إليه من كل وجه، والخالق غني عنه يناقض اتخاذ الولد لأنه إنما يكون لحاجته إليه في حياته أو ليخلفه بعد موته ، والرب غني عن كل ما سواه وكل ما سواه فقير اليه وهو الحي الذي لا يموت والوالد في نفسه مفتقر الى ولد مخلوق لا حيلة له فيه بخلاف من يشتري المملوك فإنه باختياره ملكه ، ويمكنه ازالة ملكه فتعلقه به من جنس تعلقه بالأجانب والولادة بغير اختيار الوالد . والرب يمتنع أن يحدث شيء بغير اختياره. . واتخاذ الولد هو عوض عن الولادة لمن لم يحصل له فهو أنقص فيالولادة. ولهذا من قال بالإيجاب الذاتي بغير مشيئته وقدرته ، فقوله من جنس قول القائلين بالولادة الحاصلة بغير الإختيار ، بل قولهم شر من قول النصارى ومشركي العرب من بعض الوجوه ، كما قد بسط الكلام على هذا في تفسير : (قُلْ هُوَ اللهُ أحدٌ) (٣) وغيره .

والمقصود أن الله قال لمحمد (قُلْ مَا كُنتَ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ) (٤). وقال : (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبلِهِ الرُّسُل) (٥). فبين أن هذا الجنس من الناس معروف قد تقدم له نظراء وأمثال ، فهو معتاد في الآدميين وإن كان قليلاً فيهم . وأما من جاءهم رسول ما يعرفون قبله رسولاً كقوم نوح ، فهذا بمنزلة ما يبتديه الله من الأمور ، وحينئذ فهو يأتي بما يختص به مما يعرفون أن الله صدقه في إرساله ، فهذا يدل على النوع والشخص ، وإن كانت آيات غيره تدل على الشخص إذ النوع قد

---

١ - سورة مريم آية ٩٣ .
٢ - سورة البقرة آية ١١٦ .
٣ - سورة الاخلاص آية ١ .
٤ - سورة الاحقاف آية ٩ .
٥ - سورة ال عمران آية ١٤٤ .

عرف قبل هذا . فالمقصود أن آيته وبرهانه لا بد أن يكون مختصاً بهذا النوع لا يجب أن يختص بواحد من النوع ، ولا يجوز أن يوجد لغير النوع .

وقد قلنا أن ما يأتي به أتباع الأنبياء من ذلك هو مختص بالنوع ، فإنا نقول هذا لا يكون إلا لمن اتبع الأنبياء فصار مختصاً بهم . وأما ما يوجد لغير الانبياء وأتباعهم فهذا هو الذي لا يدل على النبوة كخوارق السحرة والكهان .

وقد عرف الناس أن السحرة لهم خوارق . ولهذا كانوا إذا طعنوا في نبوة النبي واعتقدوا علمه قالوا هو ساحر كما قال فرعون لموسى : (إِنَّ هَـٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ يريد أن يُخْرِجَكُمْ من أرْضِكم بسحره فَمَاذَا تَأْمُرُونَ)[1] وقال للسحرة لما آمنوا : (إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ)[2] وَ (إِنَّ هَـٰذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا)[3] .

كل هذا من كذب فرعون وكانوا يقولون : (يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ)[4] وكذلك المسيح قال تعالى: (وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ)[5] وقال تعالى عن كفار العرب : (وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ)[6] .

وإن نسبوه إلى عدم العلم قالوا مجنون كما قالوا عن نوح : (مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ) وقالوا عن موسى : (إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ

---

١ ــ سورة الشعراء آية ٣٥ .
٢ ــ سورة طه آية ٧١ .
٣ ــ سورة الاعراف آية ١٢٣ .
٤ ــ سورة الزخرف آية ٤٩ .
٥ ــ سورة الصف آية ٦ .
٦ ــ سورة القمر آية ٢

لمَجْنُونٌ) وقال عن مشركي العرب : (وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لمجنون)[1] وقد قال تعالى : (مَا أتى الذينَ مِن قَبْلِهِم مِنْ رَسُولٍ إلاَّ قَالُوا لَهُ سَاحِرٌ أو مجنُون أتَوَاصَوا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُون)[2]. فالسحر أمر معتاد في بني آدم ، كما أن النبوة معتادة فيهم ، كما أن العقلاء معتادون في بني آدم والمجانين معتادون فيهم .

فإذا قالوا عن الشخص إنه مجنون فإنه يعلم هل هو من العقلاء أو من المجانين بنفس ما يقوله ويفعله ، وكذلك يعرف هل هو من جنس الانبياء أو من جنس السحرة.وكذلك لما قالوا عن محمد أنه شاعر فإن الشعراء جنس معروفون في الناس . وقالوا إنه كاهن ، وشبهة الشعر أن القرآن كلام موزون والشعر موزون ، وشبهة الكهانة أن الكاهن يخبر ببعض الأمور الغائبة . فذكر الله تعالى الفرق بين هذين وبين النبي فقال : (هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُون)[3] ثم قال : (وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الغَاوُونَ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لاَ يَفْعَلُونَ إلاَّ الذينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللهَ كَثِيراً)[4] .

وما عَلَّمنَاهُ الشِعرَ وَمَا يَنبغي لَهُ إنْ هُوَ إلاَّ ذِكْرٌ وَقُرآنٌ مُبِينٌ)[5] وقال تعالى : (وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُونَ وَلاَ بِقَولِ كَاهِنٍ قَلِيلاً ما تَذَكَّرُون تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ العَالَمِينَ)[6]. ولهذا لما عرض الكفار على كبيرهم الوحيد أن يقولوا للناس هو شاعر

---

١ — سورة القلم آية ٥١ .
٢ — سورة الذاريات آية ٥٢ .
٣ — سورة الشعراء آية ٢٢٣ .
٤ — سورة الشعراء آية ٢٢٤ .
٥ — سورة يس آية ٦٩ .
٦ — سورة الحاقة آية ٤١ .

ومجنون وساحر وكاهن صار يبين لهم أن هذه أقوال فاسدة ، وأن الفرق معروف بينه وبين هذه الأجناس .

فالمقصود أن هذه الأجناس كلها موجودة في الناس معتادة معروفة ، وكل واحد منها يعرف بخواصه المستلزمة له ، وتلك الخواص آيات له مستلزمة له فكذلك النبوة لها خواص مستلزمة لها تعرف بها ، وتلك الخواص خارقة لعادة غير الانبياء ، وإن كانت معتادة للأنبياء فهي لا توجد لغيرهم فهذا هذا والله أعلم .

فإذا أتى مدعي النبوة بالأمر الخارق للعادة الذي لا يكون إلا لنبي لا يحصل مثله لساحر ولا كاهن ولا غيرهما كان دليلاً على نبوته . وكل من الساحر والكاهن يستعين بالشياطين . فإن الكهان تنزل عليهم الشياطين تخبرهم والسحرة تعلمهم الشياطين . قال تعالى : (واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر)[1] والساحر لا يتجاوز سحره الأمور المقدورة للشياطين كما تقدم بيانه . والساحر كما قال تعالى : (ولا يفلح الساحر حيث أتى)[2] وقال تعالى : (ولقد علموا لمن اشتراه ما له في الآخرة من خلاق)[3] فهم يعلمون أن السحر لا ينفع في الآخرة ولا يقرب إلى الله وأن من اشتراه ما له في الآخرة من خلاق فإن مبناه على الشرك والكذب والظلم مقصود صاحبه الظلم والفواحش .

وهذا مما يعلم بصريح العقل أنه من السيئات . فالنبي لا يأمر به ولا

---

١ ــ سورة البقرة آية ١٠٢ .
٢ ــ سورة طه آية ٦٩ .
٣ ــ سورة البقرة آية ١٠٢ .

يحمله يستعين على ذلك صاحبه بالشرك والكذب . وقد علم بصريح العقل مع ما تواتر عن الانبياء أنهم حرموا الشرك فمتى كان الرجل يأمر بالشرك وعبادة غير الله أو يستعين على مطالبه بهذا وبالكذب والفواحش والظلم علم قطعاً أنه من جنس السحرة لا من جنس الانبياء . وخوارق هذا يمكن معارضتها وإبطالها من بني جنسه وغير بني جنسه . وخوارق الانبياء لا يمكن غيرهم أن يعارضها ولا يمكن أحداً إبطالها لا من جنسهم ولا من غير جنسهم . فإن الأنبياء يصدق بعضهم بعضاً فلا يتصور أن نبياً يبطل معجزة آخر وإن أتى بنظيرها فهو يصدقه .

ومعجزة كل منهما آية له وللآخر أيضاً . كما أن معجزات أتباعهم آيات لهم بخلاف خوارق السحره فإنها إنما تدل على أن صاحبها ساحر يؤثر آثاراً غريبة مما هو فساد في العالم ، ويسر بما يفعله من الشرك والكذب والظلم ، ويستعين على ذلك بالشياطين . فمقصوده الظلم والفساد . والنبي مقصوده العدل والصلاح . وهذا يستعين بالشياطين ، وهذا بالملائكة . وهذا يأمر بالتوحيد لله وعبادته وحده لا شريك له ، وهذا إنما يستعين بالشرك وعبادة غير الله . وهذا يعظم إبليس وجنوده ، وهذا يذم إبليس وجنوده ، والإقرار بالملائكة والجن عام في بني آدم لم ينكر ذلك إلا شواذ من بعض الأمم . ولهذا قالت الأمم المكذبة : (لَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً) حتى قوم نوح وعاد وثمود وقوم فرعون . قال قوم نوح : (مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً) (١) وقال : (فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ) (٢) .

---

١ ــ سورة المؤمنون آية ٢٤ . ٢ ــ سورة فصلت آية ١٤ .

وفرعون وإن كان مظهراً لجحد الصانع فإنه ما قال : (فَلَوْلا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسَاوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ) (١) إلا وقد سمع بذكر الملائكة إما معترفاً بهم وإما منكراً لهم فذكر الملائكة والجن عام في الأمم . وليس في الأمم أمة تنكر ذلك إنكاراً عاماً ، وإنما يوجد إنكار ذلك في بعضهم مثل من قد يتفلسف فينكرهم لعدم العلم لا للعلم بالعدم ، فلا بد في آيات الانبياء من أن تكون مع كونها خارقة للعادة أمراً غير معتاد لغير الأنبياء بحيث لا يقدر عليه إلا الله الذي أرسل الأنبياء ليس مما يقدر عليه غير الأنبياء لا بحيلة ولا عزيمة ولا استعانه بشياطين ولا غير ذلك .

ومن خصائص معجزات الأنبياء أنه لا يمكن معارضتها فإذا عجز النوع البشري غير الانبياء عن معارضتها كان ذلك أعظم دليـــل على اختصاصها بالأنبياء بخلاف ما كان موجوداً لغيرها . فهذا لا يكون آية البتة . فأصل هذا أن يعرف وجود الأنبياء في العالم وخصائصهم كما يعلم وجود السحرة وخصائصهم . ولهذا من لم يكن عارفاً بالانبياء من فلاسفة اليونان والهند وغيرهم لم يكن له فيهم كلام يعرف كما لم يعرف لأرسطو وأتباعه فيهم كلام يعرف بل غاية من أراد أن يتكلم في ذلك كالفارابي وغيره أن يجعلوا ذلك من جنس المنامات المعتادة ، ولما أراد طائفة كأبي حامد وغيره أن يقرروا إمكان النبوة على أصلهم احتجوا بأن مبدأ الطب ومبدأ النجوم ونحو ذلك كان من الانبياء لكون المعارف المعتادة لا تنهض بذلك . وهذا إنما يدل على اختصاص من أتى بذلك بنوع من العلم ، وهذا لا ينكره عاقل .

وعلى هذا بنى ابن سينا أمر النبوة أنها من قوى النفس ، وقوى النفوس متفاوتة ، وكل هذا كلام من لا يعرف النبوة بل هو أجنبي عنها وهو أنقص

---

١ ــ سورة الزخرف اية ٥٣ .

ممن أراد أن يقرر أن في الدنيا فقهاء وأطباء وهو لم يعرف غير الشعراء ، فاستدل بوجود الشعراء على وجود الفقهاء والاطباء بل هذا المثال أقرب ، فإن بعد النبوة عن غير الانبياء أعظم من بعد الفقيه والطبيب عن الشاعر ولكن هؤلاء من أجهل الناس بالنبوة ، ورأوا ذكر الأنبياء قد شاع فأرادوا تخريج ذلك على أصول قوم لم يعرفوا الانبياء .

فإن قيل : موسى وغيره كانوا موجودين قبل أرسطو ، فإن أرسطو كان قبل المسيح بنحو ثلاثمائة سنة . وأيضاً فقد قال الله تعالى : (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ) [١] وقال : (إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ) [٢] فهذا يبين أن كل أمة قد جاءها رسول فكيف لم يعرف هؤلاء الرسل ؟ قلت عن هذا جوابان : أحدهما أن كثيراً من هؤلاء لم يعرفوا الرسل كما قال :

(وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ) [٣] فلم تبق أخبار الرسول وأقواله معروفة عندهم .

الثاني : أنه قال تعالى : (تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ) [٤] فإذا كان الشيطان قد زين لهم أعمالهم كان في هؤلاء من درست أخبار الأنبياء عندهم فلم يعرفوها ، وأرسطو لم يأت إلى أرض الشام . ويقال إن الذين كانوا قبله كانوا يعرفون الانبياء لكن المعرفة المجملة لا تنفع كمعرفة قريش

١ ـ سورة النحل آية ٣٦ .
٢ ـ سورة فاطر آية ٢٤ .
٣ ـ سورة النحل آية ٣٦ .
٤ ـ سورة النحل آية ٦٣ .

كانوا قد سمعوا بموسى وعيسى وإبراهيم سماعاً من غير معرفة بأحوالهم، وأيضاً فهم وأمثالهم المشاؤون أدركوا الإسلام وهم من أكفر الناس بما جاءت به الرسل، اما أنهم لا يطلبون معرفة أخبارهم وما سمعوه حرفوه أو حملوه على أصولهم. وكثير من المتفلسفة هم من هؤلاء، فإذا كان هذا حال هؤلاء في ديار الإسلام فما الظن بمن كان في بلاد لا تعرف فيها شريعة نبي.

بل طريق معرفة الانبياء كطريق معرفة نوع من الآدميين خصهم الله بخصائص يعرف ذلك من أخبارهم واستقراء أحوالهم كما يعرف الاطباء والفقهاء. ولهذا إنما يقرر الرب تعالى في القرآن أمر النبوة وإثبات جنسها بما وقع في العالم من قصة نوح وقومه، وهود وقومه، وصالح وقومه، وشعيب ولوط وإبراهيم وموسى وغيرهم فيذكر وجود هؤلاء وإن قوماً صدقوهم وقوماً كذبوهم. ويبين حال من صدقهم، وحال من كذبهم فيعلم بالإضطرار حينئذ ثبوت هؤلاء ويتبين وجود آثارهم في الأرض فمن لم يكن رأى في بلدة آثارهم فليسر في الأرض ولينظر آثارهم وليسمع أخبارهم المتواترة. يقول الله تعالى: (وإن يُكذِّبُوكَ فقد كذَّبتْ قبلهم قومُ نُوحٍ وعادٌ وثمودُ وقومُ إبراهيم وقومُ لوط وأصحابُ مَدين وكُذِّبَ مُوسَى فأمليتُ للكافرين ثمَّ أخذتُهم فكيفَ كانَ نكيرِ فكأينْ من قريةٍ أهلكناها وهي ظالمة فهي خاويةٌ على عروشها وبئرٍ معطلة وقصرٍ مشيد، أفلم يسيروا في الأرض فتكونَ لهم قلوبٌ يعقلونَ بها أو آذانٌ يسمعونَ بها فإنها لا تعمى الأبصارُ ولكن تعمى القلوبُ التي في الصدور ويستعجلونكَ بالعذابِ ولن يُخلفَ اللهُ وعدَه وإنَّ يوماً عندَ ربِّكَ كألفِ سنةٍ مما تعدُّون وكأيّن من قريةٍ أمليتُ لها وهيَ ظالمةٌ ثم أخذتُها وإليَّ المصير)(1).

---

1 — سورة الحج آية ٤٢ — ٤٨.

ولهذا قال مؤمن آل فرعون لما أراد إنذار قومه : (يَا قوم إني أخَافُ عليكم مثلَ يَومِ الأحزاب مثلَ دَأبِ قَومِ نُوحٍ وَعَادٍ وثمُود والذينَ مِنْ بَعدِهم ومَا اللهُ يُرِيدُ ظُلماً للعِبادِ) (١)

ولهذا لما سمع ورقة بن نوفل والنجاشي وغيرهما القرآن قال ورقة ابن نوفل هذا هو الناموس الذي كان يأتي موسى . وقال النجاشي إن هذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة فكانَ عندهم علم بما جاء به موسى اعتبروا به ، ولولا ذلك لم يعلموا هذا ، وكذلك الجن لما سمعت القرآن ولّوا إلى قومهم منذرين قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم .

ولما اراد سبحانه تقرير جنس ما جاء به محمد قال : (إنّا أرسلنا إليكم رَسُولاً شاهداً عليكم كمَا أرسلنا إلى فرعونَ رَسُولاً فعصى فرعونُ الرَّسُولَ فأخذناه أخذاً وبيلا) (٢) وقال تعالى : (ومَا قَدَرُوا اللهَ حقّ قَدْرِه إذْ قالُوا مَا أنزلَ اللهُ على بَشرٍ مِن شيءٍ قُلْ مَنْ أنزلَ الكِتابَ الذي جاءَ به مُوسى نُوراً وهُدىً للنَّاسِ تجعلونَه قراطيسَ تُبدونها وتُخفُونَ كثيراً وعُلِّمتُم مَا لَمْ تَعلموا أنتم ولاَ آباؤكُم قُلِ اللهُ ثم ذَرْهُم في خَوضِهِم يَلعَبُونَ وَهذا كِتابٌ أنزلناهُ مُبارَكٌ مُصدِّقُ الذي بَينَ يَديه ولِتُنذِرَ أمَّ القرى وَمَنْ حَولها) (٣) فهو سبحانه يثبت وجود جنس الانبياء ابتداء كما في السور المكية حتى يثبت وجود هذا الجنس وسعادة من اتبعه وشقاء من خالفه ، ثم نبوة عين هذا النبي تكون ظاهرة لأن الذي جاء به أكمل مما جاء به جميع الانبياء فمن أقر بجنس الانبياء كان إقراره بنبوة محمد في

---

١ — سورة غافر آية ٣٠ — ٣١ .
٢ — سورة المزمل آية ١٥ — ١٦ .
٣ — سورة الانعام آية ٩١ — ٩٢ .

غاية الظهور أبين مما أقر أن في الدنيا نحاة وأطباء وفقهاء ، فإذا رأى نحو سيبويه وطب أبقراط وفقه الأئمة الأربعة ونحوهم كان إقراره بذلك من أبين الأمور . ولهذا كان من نازع من أهل الكتاب في نبوة محمد إما أن يكون لجهله بما جاء به وهو الغالب على عامتهم ، أو لعناده وهو حال طلاب الرياسة بالدين منهم . والعرب عرفوا ما جاء به محمد ، فلما أقروا بجنس الأنبياء لم يبق عندهم في محمد شك . وجميع ما يذكره الله تعالى في القرآن من قصص الأنبياء يدل على نبوة محمد بطريق الأولى إذ كانوا من جنس واحد ونبوته أكمل فينبغي معرفة هذا ، فإنه أصل عظيم . ولهذا جميع مشركي العرب آمنوا به فلم يحتج أحد منهم أن تؤخذ منه جزية فإنهم لما عرفوا نبوته ، وأنه لا بد من متابعته أو متابعة اليهود والنصارى عرفوا أن متابعته أولى .

ومن كان من أهل الكتاب بعضهم آمن به وبعضهم لم يؤمن جهلاً وعناداً . وهؤلاء كان عندهم كتاب ظنوا استغناءهم به فلم يستقرئوا أخبار محمد وما جاء به خالين من الهوى بخلاف من لم يكن له كتاب فإنه نظر في الأمرين نظر خال من الهوى فعرف فضل ما جاء به محمد على ما جاء به غيره . ولهذا لا تكاد توجد أمة لا كتاب لها يعرض عليها دين المسلمين واليهود والنصارى إلا رجحت دين المسلمين كما يجري لأنواع الأمم التي لا كتاب لها فأهل الكتاب مقرون بالجنس منازعون في العين . والمتفلسفة من اليونان والهند منازعون في وجود كمال الجنس ، وإن أقروا ببعض صفات الأنبياء فإنما أقروا منها بما لا يختص بالأنبياء بل هو مشترك بينهم وبين غيرهم ، فلم يؤمن هؤلاء بالأنبياء البتة . هذا هو الذي يجب القطع به ، ولهذا يذكرون معهم ذكر الجنس الخارج عن أتباعهم فيقال : قالت الأنبياء والفلاسفة واتفقت الأنبياء والفلاسفة ، كما يقال المسلمون واليهود والنصارى ، وقال أيضاً رضي الله عنه .

فصل

نصر الله رسله

ومن آياته نصر الرسل على قومهم ، وهذا على وجهين : تارة ، يكون بإهلاك الأمم وانجاء الرسل وأتباعهم كقوم نوح وهود وصالح وشعيب ولوط وموسى ، ولهذا يقرن الله بين هذه القصص في سورة الأعراف وهود والشعراء ولا يذكر معها قصة إبراهيم [1] وإنما ذكر قصة إبراهيم في سورة الانبياء ومريم والعنكبوت والصافات ، فإن هذه السور لم يقتصر فيها على ذكر من أهلك من الأمم ، بل في سورة الانبياء كان المقصود ذكر الانبياء ، ولهذا سميت سورة الانبياء فذكر فيها إكرامه للأنبياء ، وإن لم يذكر قومهم كما ذكر قصة داود وسليمان وأيوب ، وذكر آخر الكل إن هذه أمتكم أمة واحدة وبدأ فيها بقصة إبراهيم إذ كان المقصود ذكر إكرامه للأنبياء قبل محمد وإبراهيم . أكرمهم على الله تعالى وهو خير البرية ، وهو أب أكثرهم إذ ليس هو أب نوح ولوط لكن لوط من أتباعه وأيوب من ذريته بدليل قوله في سورة الانعام : (وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ) [2] وأما سورة مريم فذكر الله تعالى

---

١ – قوله ولا يذكر معها قصة ابراهيم نعم ذكرت قصة ابراهيم في سورة الشعراء ولكن على نسق من القصص غير نسق ما بعدها من بقية الامم المذكورة فيها حيث ذكر هلاكهم وتدمير الله لهم .

٢ – سورة الانعام آية ٨٤ .

فيها إنعامه على الأنبياء المذكورين فيها فذكر فيها رحمته زكريا وهبته يحي عليهما السلام وأنه ورث نبوته وغيرها من علم آل يعقوب وأنه آتاه الحكم صبياً ، وذكر بدء خلق عيسى وما أعطاه الله تعالى من تعليم الكتاب وهو التوراة والنبوة ، وأن الله تعالى جعله مباركاً أينما كان وغير ذلك ، وذكر قصة إبراهيم وحسن خطابه لأبيه ، وأن الله تعالى وهبه إسحاق ويعقوب نبيين ووهبه من رحمته وجعل له لسان صدق علياً ، ثم ذكر موسى وأنه خصصه الله تعالى بالتقريب والتكليم ووهبه أخاه وغيرذلك، وذكر إسماعيل وأنه كان صادق الوعد وكأنه والله أعلم من ذلك أو أعظمه صدقه فيما وعد به أباه من صبره عند الذبح فوفى بذلك .

وذكر إدريس وأن الله تعالى رفعه مكاناً علياً ثم قال : (أولئكَ الذينَ أنعمَ اللهُ عَلَيهم)[1]. وأما سورة العنكبوت فإنه ذكر فيها امتحانه للمؤمنين ونصره لهم وحاجتهم إلى الصبر والجهاد . وذكر فيها حسن العاقبة لمن صبر وعاقبة من كذب الرسل . فذكر قصة إبراهيم لأنها من النمط الأول ونصرة الله له على قومه . وكذلك سورة الصافات قال فيها : (وَلَقَدْ ضَلَّ قَبلهمأكثر الأولينَ وَلَقَدْ أرسلنَا فيهم مُنذِرينَ فَانْظُرْ كَيفَ كَانَ عَاقِبةُ المُنذرين) [2] وهذا يقتضي أنها عاقبة رديئة ، إما بكونهم غلبوا وذلوا وإما بكونهم أهلكوا ولهذا ذكر فيها قصة الياس ولم يذكرها في غيرها ولم يذكر هلاك قومه بل قال : (فكذبُوه فإنهم لمُحضَرون إلا عِبَادَ اللهِ المُخلصين) [3] والياس قد روى أن الله تعالى رفعه وهذا يقتضي عذابهم في الآخرة فإن الياس لم يقم فيهم ، والياس المعروف بعد موسى عليه السلام من بني إسرائيل ، وبعد موسى لم يهلك المكذبين بعذاب الاستئصال ، وبعد نوح عليه السلام لم يهلك جميع النوع وقد بعث في كل

---

١ ـ سورة مريم آية ٥٨ .
٢ ـ سورة الصافات آية ٧١ .
٣ ـ سورة الصافات آية ١٢٧ .

أمة نذيراً والله تعالى لم يذكر قط عن قوم إبراهيم عليه السلام أنهم أهلكوا كما ذكر ذلك عن غيرهم بل ذكر أنهم ألقوه في النار فجعلها الله عليه برداً وسلاماً وأرادوا به كيداً فجعلهم الله الأسفلين الأخسرين وفي هذا ظهور برهانه وآيته وأنه أظهره عليهم بالحجة والعلم . وأظهره أيضاً بالقدوة حيث أذلهم ونصره . وهذا من جنس المجاهد الذي هزم عدوه . وتلك من جنس المجاهد الذي قتل عدوه وإبراهيم بعد هذا لم يقم بينهم . بل هاجر وتركهم . وأولئك الرسل لم يزالوا مقيمين بين ظهراني قومهم حتى هلكوا فلم يوجد في حق قوم إبراهيم سبب الهلاك وهو إقامته فيهم وانتظار العذاب النازل . وهكذا محمد مع قومه لم يقم فيهم بل خرج عنهم حتى أظهره الله تعالى عليهم بعد ذلك .

ومحمد وإبراهيم أفضل الرسل [1] فإنهم إذا علموا الدعوة حصل المقصود وقد يتوب منهم من يتوب بعد ذلك . كما تاب من قريش من تاب .

وأما حال إبراهيم عليه السلام فكانت إلى الرحمة أميل فلم يسع في هلاك قومه لا بالدعاء ولا بالمقام ودوام إقامة الحجة عليهم . وقد قال تعالى : (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ) [2] وكان كل قوم يطلبون هلاك نبيهم إلا عوقبوا وقوم إبراهيم أوصلوه إلى العذاب . لكن جعله الله عليه برداً وسلاماً . ولم يفعلوا بعد ذلك ما يستحقون به العذاب إذ الدنيا ليست دار الجزاء التام وإنما فيها من الجزاء ما تحصل به الحكمة والمصلحة كما في العقوبات

---

١ ـ ولذا لم يقيما بين قوميهما بعد ما قاما بإبلاغهم الدعوة ولم ينتظرا نزول العذاب بهم .

٢ ـ سورة ابراهيم آية ١٣ ـ ١٤ .

الشرعية فمن أراد أعداؤه من أتباع [1] الأنبياء أن يهلكوه فعصمه الله وجعل صورة الهلاك نعمة في حقه ولم يهلك أعداءه بل أخزاهم ونصره فهو أشبه بإبراهيم وإذا عصمه من كيدهم وأظهره حتى صارت الحرب بينه وبينهم سجالاً ، ثم كانت العاقبة له فهو أشبه بحال محمد ﷺ فإن محمداً سيد الجميع وهو خليل الله كما أن إبراهيم خليله والخليلان هما أفضل الجميع وفي طريقتهما من الرأفة والرحمة ما ليس في طريقة غيرهما ولم يذكر الله عن قوم إبراهيم ديناً غير الشرك وكذلك عن قوم نوح .

وأما عاد فذكر عنهم التجبر وعمارة الدنيا ، وقوم صالح عليه السلام ذكر عنهم الإشتغال بالدنيا عن الدين ، لم يذكر عنهم من التجبر ما ذكر عن عاد ، وإنما أهلكهم لما عقروا الناقة ، وأما أهل مدين فذكر عنهم الظلم في الأموال مع الشرك : ﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ ﴾ [2] وقوم لوط ذكر عنهم استحلال الفاحشة ولم يذكروا بالتوحيد بخلاف سائر الأمم ، وهذا يدل على أنهم لم يكونوا مشركين ، وإنما ذنبهم استحلال الفاحشة وتوابع ذلك ، وكانت عقوبتهم أشد . إذ ليس في ذلك تدين بل شر يعلمون أنه شر . وهذه الأمور تدل على حكمة الرب وعقوبته لكل قوم بما يناسبهم ، فإن قوم نوح أغرقهم إذ لم يكن فيهم خير يرجى .

---

١ ــ من اتباع بيان لن في قوله فمن اراد .

٢ ــ سورة هود آية ٨٧ .

فصل

في آيات الانبياء وبراهينهم

وهي الأدلة والعلامات المستلزمة لصدقهم ، والدليل لا يكون إلا مستلزماً للمدلول عليه مختصاً به ، لا يكون مشتركاً بينه وبين غيره . فإنه يلزم من تحققه تحقق المدلول ، وإذا انتفى المدلول انتفى هو ، فما يوجد مع وجود الشيء ، ومع عدمه لا يكون دليلاً عليه ، بل الدليل ما لا يكون إلا مع وجوده فما وجد مع النبوة تارة ومع عدم النبوة تارة لم يكن دليلاً على النبوة ، بل دليلها ما يلزم من وجوده وجودها . وهنا اضطرب الناس فقيل دليلها جنس يختص بها وهو الخارق للعادة ، فلا يجوز وجوده لغير نبي : لا ساحر ، ولا كاهن ، ولا ولي ، كما يقول ذلك من يقوله من المعتزلة وغيرهم كابن حزم وغيره . وقيل : بل الدليل هو الخارق للعادة بشرط الإحتجاج به على النبوة والتحدي بمثله ، وهذا منتف في السحر والكرامة كما يقول ذلك من يقوله من متكلمي أهل الإثبات كالقاضيين أبي بكر وأبي يعلى وغيرهما .

وقد بسط القاضي أبو بكر الكلام في ذلك في كتابه المصنف في الفرق بين المعجزات ، والكرامات ، والحيل ، والكهانات ، والسحر ، والنيرنجيات. وهؤلاء جعلوا بمجرد كونه خارقاً للعادة هو الوصف المعتبر ، وفرق بين أن يقال لا بد أن يكون خارقاً للعادة ، وبين أن يقال كونه

خارقاً للعادة هو المؤثر ، فإن الأول يجعله شرطاً لا موجباً ، والثاني يجعله موجباً . وفرق بين أن يقال العلم والبيان وقراءة القرآن لا يكون إلا من حي ، وبين أن يقال كونه حياً يوجب أن يكون عالماً قارئاً . ومن هنا دخل الغلط على هؤلاء . وليس في الكتاب والسنة تعليق الحكم بهذا الوصف ، بل ولا ذكر خرق العادة ولا لفظ المعجز . وإنما فيه آيات وبراهين ، وذلك يوجب اختصاصها بالأنبياء . وأيضاً فقالوا في شرطها أن لا يقدر عليها إلا الله ، لا تكون مقدورة للملائكة ، ولا للجن ، ولا للأنس ، بأن يكون جنسها مما لا يقدر عليه إلا الله ، كإحياء الموتى ، وقلب العصا حية . وإذا كانت من أفعال العباد لكنها خارقة للعادة ، مثل حمل الجبال والقفز من المشرق إلى المغرب ، والكلام المخلوق الذي يقدر على مثله البشر ففيه لهم قولان : أحدهما أن ذلك يصح أن يكون معجزة .

والثاني أن المعجزة إنما هي أقدار المخلوق على ذلك بأن يخلق فيه قدرة خارجة عن قدرته المعتادة ، وهذا اختيار القاضي أبي بكر ومن اتبعه كالقاضي أبي يعلى . وظنوا أن هذا يوجب طرد قولهم أنها لا تكون مقدورة لغير الله بخلاف القول الأول ، فإنه تقع فيه شبهة إذ كان الجنس معتاداً . وإنما الخارق هو الكثير الخارج عن العادة ، وهذا الفرق الذي ذكره ضعيف فإنه إذا كان قادراً على اليسير ، فخرق العادة في قدرته حتى جعله قادراً على الكثير فجنس القدرة معتاد مثل جنس المقدور ، وإنما خرقت العادة بقدرة خارجة عن العادة ، كما خرقت بفعل خارج عن القدرة . وعنده أن خلق القدرة خلق لمقدورها ، والقدرة عنده مع الفعل فلا فرق . وهذا القول وهو أن المعجزة لا تكون إلا مقدورة للرب ، لا للعباد قول كثير من أهل الكلام من القدرية والمثبتة للقدر وغيرهم . ثم إنهم لما طولبوا بالدليل على أنه لا يجوز أن تقدر العباد على مثل إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى ونحو ذلك مما ذكروا أنه يمتنع أن يكون مقدوراً لغير الله ، إعتمدوا في

الدلالة على أن القابل للشيء لا يخلو عنه وعن ضده . فلو جاز أن يكون العبد قادراً على هذه الأمور ، لوجب أن لا يخلو من ذلك ومن ضده ، وهو العجز أو القدرة على ضد ذلك الفعل ، كما يقولونه في فعل العبد إنه إذا لم يقدر على الفعل فلا بد أن يكون عاجزاً أو قادراً على ضده . هذا احتجاج من يقول القدرة مع الفعل والقدرة عنده لا تصلح للضدين كالأشعرية فيقول لا يخلو من القدرة أو العجز فهذه مقدمة .

والمقدمة الثانية ونحن لا نحس من أنفسنا عجزاً عن ابراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى ونحو هذه الأمور لكنا غير قادرين عليها . ولا يجوز أن نقدر عليها . وهؤلاء يقولون لا يكون الشيء عاجزاً إلا عما يصح أن يكون قادراً عليه بخلاف ما لا يصح أن يكون قادراً عليه فلا يصح أن يكون عاجزاً عنه . ولهذا قالوا لا ينبغي أن تسمى هذه معجزات لأن ذلك يقتضي أن الله أعجز العباد عنها ، وإنما يعجز العباد عما يصح قدرتهم عليه .

هذا كلام القاضي أبي بكر ومن وافقه . وكلا المقدمتين دعوى مجردة لم يقم على واحدة منها حجة ، فكيف يجوز أن يكون الفرق بين المعجزة وغيرها مبنياً على مثل هذا الكلام الذي ينازعه فيه أكثر العقلاء . ولو كان صحيحاً لم يفهم إلا بكلفة ، ولا يفهمه إلا قليل من الناس . فكيف إذا كان باطلاً ، والذين آمنوا بالرسل لما رأوه وسمعوه من الآيات لم يتكلموا بمثل هذا الفرق بل ولا خطر بقلوبهم . ولهذا لما رأى المتأخرون ضعف هذا الفرق كأبي المعالي والرازي والآمدي وغيرهم حذفوا هذا القيد وهو كون المعجزة مما ينفرد الباري بالقدرة عليها وقالوا كل حادث فهو مقدور للرب ، وأفعال العباد هي أيضاً مقدورة للرب وهو خالقها ، والعبد ليس خالقاً لفعله . فالإعتبار بكونها خارقة للعادة قد استدل بها على النبوة ، وتحدى بمثلها فلم يمكن أحداً معارضته هذه القيود الثلاثة وحذفوا ذلك القيد . وزعم القاضي أبو بكر أن ما يستدل به على أن المعجزات

يمتنع دخولها تحت قدر العباد لا يصح على أصول القدرية ، وبسط القول في ذلك بكلام يصح بعضه دون بعض كعادته في أمثال ذلك ، ثم جعل هذا الفرق هو الفرق بين المعجزات وبين السحر والحيل. فقال وأما على قولنا إن المعجز لا يكون إلا من مقدورات القديم ومما يستحيل دخوله ودخول مثله تحت قدر العباد ، فإذا كان كذلك استحال أن يفعل أحد من الخلق شيئاً من معجزات الرسل ، أو ما هو من جنسها ، لأن المحتال إنما يحتال ويفعل ما يصح دخوله تحت قدرته دون ما يستحيل كونه مقدوراً له .

قال وأما القائلون بأنه يجوز أن يكون في معجزات الرسل ما يدخل جنسه تحت قدر العباد ، وإن لم يقدروا على كثيره ، وما يخرق العادة منه فإنهم يقولون قد علمنا أنه لا حيلة ولا شيء من السحر يمكن أن يتوصل به الساحر والمشعبذ إلى فعل الصعود في السماء ، ولا قفز من المشرق إلى المغرب ، وقفز الفراسخ الكثيرة ، والمشي على الماء ، وحمل الجبال الراسيات. هذا أمر لا يتم بحيلة محتال ولا سحر ساحر . وتكلم على أبطال قول من قال إن السحر لا يكون إلا تخييلاً لا حقيقة له . وذكر أقوال العلماء والآثار عن الصحابة بأن الساحر يقتل بسحره ، وقول أنه يقتل حداً عند أكثرهم وقصاصاً عند بعضهم . ثم قال :

باب القول في الفصل بين المعجز والسحر :

وهو لم يفرق بين الجنسين ، بل يجوز أن يكون ما هو معجزة للرسول يظهر على يد الساحر ، لكن قال الفرق هو تحدي الرسول بالإتيان بمثله وتقريع مخالفه بتعذر مثله عليه ، فمتى وجد الذي ينفرد الله بالقدرة عليه من غير تحد منه واحتجاج لنبوته بظهوره لم يكن معجزاً ، وإذا كان كذلك نخرج السحر عن أن يكون معجزاً ومشبهاً لآيات الانبياء ، وكان ما يظهر عند فعل الساحر من جنس بعض معجزات الرسل وما يفعله الله عند

عند تحديهم به غير أن الساحر إذا احتج بالسحر وادعى به النبوة أبطله الله بوجهين : أحدهما أن ينسيه عمل السحر أو لا يفعل عند سحره شيئاً في المسحور من موت أو سقم أو بغض . ولم يخلق فيه الصعود إلى جهة العلو والقدرة على الدخول في بقرة ، فإذا منعه هذه الأسباب بطل السحر . والثاني أن الساحر تمكن معارضته فإن أبواب السحر معلومة عند السحرة ، فإذا تحدى ساحر بشيء يفعل عند سحره لم يلبث أن يجد خلقاً من السحرة يفعلون مثل فعله ويعارضونه بأدق وأبلغ مما أورده . والرسول إذا ظهر عليه مثل ذلك وادعاه آية له قال لهم هذا آيتي وحجتي ودليل ذلك أنكم لا تقدرون على مثله ولا يفعله الله في وقتي هذا ، ومع تحدي ومطالبتي بمثله عند سحر ساحر وفعل كاهن ، وقد كان يظهر من سحرتكم وكهانكم وهي آية لا تظهر اليوم على أحد من الخلق وإن دق سحره وعظم في الكهانة علمه ، فإذا ظهر ذلك عليه وامتنع ظهور مثله على يد ساحر أو كاهن مع أنه قد كان يظهر من قبل صار هذا خرق عادة البشر وعادة السحرة والكهنة خاصة :

قال ولم يبعد أن يقال هذه الآية أعظم من غيرها وأن لها فضل مزية ، ذكر هذا بعد أن قال : فإن قال قائل : فإذا أجزتم أن يكون من عمل السحر ما يفعل الله عنده سقم الصحيح وموته ويفعل عنده بغض المحب وحب المبغض ، وبغض الوطن والرد إليه من السفر ، وضيق الصدر والعجز عن الوطء بالربط والشد الذي يعلمه السحرة والصعود في جهة العلو على خيط أو بعض الآلات في الفصل بين هذا وبين معجزات الرسل ، وكيف ينفصل مع ذلك المعجزات من السحر ، ويمكن الفرق بين النبي والساحر . أوليس لو قال نبي مبعوث إني أصعد على هذا الخيط نحو السماء وأدخل جوف هذه البقرة ، وأخرج وإني أفعل فعلاً أفرق به بين المرء وزوجه ، وأفعل فعلاً أقتل به هذا الحي وأسقم هذا الصحيح ، فهل كان

يكون ذلك لو ظهر على يده آية ودليلاً على صدقه ، وما الفصل إذاً بين السحر والمعجز ، ثم قال في الجواب يقال له جواب هذا قريب ، وذلك انّا قد بينا في صدر هذا الكتاب إن من حق المعجزات لا يكون معجزاً حتى يكون واقعاً من فعل الله على وجه خرق عادة البشر مع تحدي الرسول بالإتيان إلى آخر ما كتب .

قلت هذا عمدة القوم ، ولهذا طعن الناس في طريقهم وشنع عليهم ابن حزم وغيره وذلك أن هذا الكلام مستدرك من وجوه . أحدها أنه إذا جوز أن يكون ما ينفرد الرب بالقدرة عليه على قوله يأتي به النبي تارة والساحر تارة ولا فرق بينهما إلا دعوى النبوة والإستدلال به ، والتحدي بالمثل فلا حاجة إلى كونه مما انفرد الباري بالقدرة عليه ، لا سيما وقد ظهر ضعف الفرق بين ما يمتنع قدرة العباد عليه وما لا يمتنع . ولهذا أعرض المتأخرون عن هذا القيد .

الوجه الثاني وبه تنكشف حقيقة طريقهم إنه على هـذا لم تتميز المعجزات بوصف تختص به وإنما امتازت باقترانها بدعوة النبوة وهذا حقيقة قولهم وقد صرحوا به . فالدليل والبرهان إن استدل به كان دليلاً ، وإن لم يستدل به لم يكن دليلاً ، وإن اقترنت به الدعوى كان دليلاً وإن لم تقترن به الدعوى لم يكن دليلاً عندهم ، ولهذا لم يجعلوا دلالة المعجز دلالة عقلية بل دلالة وضعية كدلالة الألفاظ بالإصطلاح ، وهذا مستدرك من وجوه . منها أن كون آيات الانبياء مساوية في الحد والحقيقة بسحر السحرة أمر معلوم الفساد بالإضطرار من دين الرسل .

الثاني أن هذا من أعظم القدح في الانبياء إذا كانت آياتهم من جنس سحر السحرة وكهانة الكهان .

الثالث أنه على هذا التقدير لا تبقى دلالة فإن الدليل ما يستلزم المدلول

ويختص به فإذا كان مشتركاً بينه وبين غيره لم يبق دليلاً فهؤلاء قدحوا في آيات الانبياء ولم يذكروا دليلاً على صدقهم .

الرابع أنه على هذا التقدير يمكن الساحر دعوى النبوة وقوله أنه عند ذلك يسلبه الله القدرة على السحر ، أو يأتي بمن يعارضه دعوى مجردة فإن المنازع يقول لا نسلم انـــه إذا ادعى النبوة فلا بد أن يفعل الله ذلك ، لا سيما على أصله ، وهو أن الله يجوز أن يفعل كل مقدور وهذا مقدور للرب فيجوز أن يفعله وادعى أن ما يخرق العادة من الأمور الطبيعية والطلسمات هي كالسحر . فقال : ولأجل ذلك لم تلتبس آيات الرسل بما يظهر من جذب حجر المغناطيس ، وما يوجد ويكون عند كتب الطلسمات قال : وذلك أنه لو ابتدأ نبي بإظهار حجر المغناطيس لوجب أن يكون ذلك آية له ، ولو أن أحداً أخذ هذا الحجر وخرج إلى بعض البلاد وادعى أنه آية له عند من لم يره ، ولم يسمع به لوجب أن ينقضه الله عليه بوجهين :

أحدهما : أن يؤثر دواعي خلق من البشر إلى حمل جنس تلك الحجارة إلى ذلك البلد ، وكذلك سبيل الزناد الذي يقدح النار وتعرفه العرب ، وكذلك سبيل الطلسمات التي يقال أنها تنفي الذباب والبق والحيات .

والوجه الآخر أن لا يفعل الله عند ذلك ما كان يفعله من قبل فيقال هذه دعوى مجردة ، ومما يوضح ذلك الوجه الخامس وهو أن جعل قادح الزناد وجذب حجر المغناطيس والطلسمات من جنس معجزات الانبياء ، وأنه لو بعث نبي ابتداء ، وجعل ذلك آية له جاز ذلك غلط عظيم . وعدم علم بقدر معجزات الانبياء وآياتهم ، وهذا إنما أتاهم حيث جعلوا جنس الخارق هو الآية كما فعلت المعتزلة ، وأولئك كذبوا بوجود ذلك لغير الأنبياء ، وهؤلاء ما أمكنهم تكذيب ذلك لدلالة الشرع والأخبار المتواترة والعيان على وجود حوادث من هذا النوع فجعلوا الفرق افتراق الدعوى والإستدلال والتحدي دون الخارق ، ومعلوم أن ما ليس بدليل لا يصير دليلاً بدعوى

المستدل أنه دليل وقد بسط الكلام في ذلك . وجوز أن تظهر المعجزات على يد كاذب إذا خلق الله مثلها على يد من يعارضه فعمدته سلامتها من المعارضة بالمثل مع أن المثل عنده موجود وآيات الانبياء لها أمثال كثيرة لغير الأنبياء لكن يقول أن من ادعى الإتيان فإما أن لا يظهرها الله على يديه وإما أن يقيض من يعارضه بمثلها هذا عمدة القوم . وليس فرقاً حقيقياً بين النبي والساحر ، وإنما هو مجرد دعوى . وهذا يظهر بالوجه السادس وهو أن من الناس من ادعى النبوة وكان كاذباً وظهرت على يده بعض هذه الخوارق فلم يمنع منها ولم يعارضه أحد بل عرف أن هذا الذي أتى به ليس من آيات الانبياء وعرف كذبه بطرق متعددة كما في قصة الأسود العنسي ومسيلمة الكذاب والحارس الدمشقي وبابا الرومي وغير هؤلاء ممن ادعى النبوة .

فقولهم : إن الكذاب لا يأتي بمثل هذا الجنس ليس كما ادعوه .

الوجه السابع : أنه إنما أوجب أن لا يظهر الله الخوارق على يد الكذاب لأن ذلك يفضي إلى عجز الرب ، وهذه عمدة الأشعري في أظهر قوليه وهي المشهورة عند قدمائهم وهي التي سلكها القاضي أبو يعلى ونحوه .

قال القاضي أبو بكر فإن قال قائل من القدرية : فلم لا يجوز أن يظهر المعجزات على يد مدعي النبوة ليلبس بذلك على العباد ويضل به عن الدين وأنتم تجوزون خلقه الكفر في قلوب الكفار وإضلالهم في الفصل بين اضلالهم بهذا وبين إضلالهم بإظهار المعجزات على يد الكاذبين ؟ قال فيقال لمن سأل عن هذا من القدرية: الفصل بين الأمرين ظاهر معلوم ، وقد نص القرآن والاخبار بأنه يضل ويهدي ويختم على القلوب والأسماع والأبصار ، فأما مطالبتهم بالفرق بين إضلال العباد بهذه الضروب من الأفعال ، وبين إضلالهم بإظهار المعجزات على أيدي الكذابين ، فجوابه أنا لم نحل إضلالهم بهذا الضرب لأنه إضلال عن الدين . أو لقبحه من الله لو وقع أو لاستحقاقه

الذم عليه تعالى عن ذلك ، أو لكونه ظالماً لهم بالتكليف مع هذا الفعل ، كل ذلك باطل محال من تمويههم وإنما أحلناه لأنه يوجب عجز القديم عن تمييز الصادق من الكاذب . وتعريفنا الفرق بين النبي والمتنبي من جهة الدليل ، إذ لا دليل في قول كل أحد أثبت النبوة على نبوة الرسل وصدقهم إلا ظهور أعلام المعجزة على أيديهم ، أو خبر من ظهرت المعجزة على يده عن نبوة آخر مرسل فهذا إجماع لا خلاف فيه ، فلو أظهر الله على يد المتنبي الكاذب ذلك لبطلت دلائل النبوة ، وخرجت المعجزات عن كونها دلالة على صدق الرسول ، ولوجب لذلك عجز القديم عن الدلالة على صدقهم ، ولما لم يجز عجزه وارتفاع قدرته عن بعض المقدورات لم يجز لذلك ظهور المعجزات على أيدي الكذابين ، بخلاف خلق الكفر في قلوب الكافرين. قلت هذا عمدة القوم والمتأخرون عرفوا ضعف هذا فلم يسلكوه كأبي المعالي والرازي وغيرهما بل سلكوا الجواب الآخر وهو أن العلم بالصدق عند المعجز يحصل ضرورة فهو علم ضروري وبيان ضعف هذا الجواب مع أنه يحتج به وقال فهذا هذامن وجوه : أحدها أن يقال إن كان الأمر كما زعمتم فإنما يلزم العجز إذا كان خلق الدليل الدال على صدقهم بجنسه لا يدل ، بل جنسه يقع مع عدم النبوة ولم يبق عندكم بجنس من الادلة يخص النبوة فلم قلتم : إن تصديقهم والحال هذه ممكن ولا ينفعكم هنا الإستدلال بالإجماع ونحوه من الأدلة السمعية لأن كلامكم مع منكري النبوات فيجب أن تقيموا عليهم كون المعجزات دليلاً على صدق النبي .

وأما من أقر بنبوتهم بطريق غير طريقكم فإنه لا يحتاج إلى كلامكم فإذا قال لكم منكرو النبوة : لا نسلم إمكان طريق يدل على صدقهم لم يكن معكم ما يدل على ذلك ، وقد أورد هذا السؤال وأجاب عنه بأنه يمكنه[1] تصديقهم بالقول ، والمعجزات تقوم مقام التصديق بالقول ، بل

---

١ — الضمير عائد لله .

التصديق بالفعل أوكد وضرب المثل بمدعي الوكالة إذا قال قم أو إقعد ففعل ذلك عند استشهاد وكيله ، فإن العقلاء كلهم يعلمون أنه أقام تلك الأفعال مقام القول :

قلت : وهذا يعود إلى الإحتجاج بالطريقة الثانية ، وهي العلم بالتصديق ضرورة ، فلا حاجة إلى طريقة المعجزات . الثاني أنه يمكن أن يخلق علماً ضرورياً بصدقهم ، وقد سلم القاضي أبو بكر ذلك لكن قال : إذا اضطررنا إلى العلم بصدق مدعي النبوة ، وأنه أرسله إلينا كان في ضمن هذا العلم اضطراره لنا إلى العلم بذاته ، وإلى أنه قد أرسل مدعي النبوة ، وإذا علمنا ذلك اضطراراً لم يكن للتكليف بالعلم بصدقه وجهاً ، وخرجنا بذلك عن أن نكون مكلفين بالعلم بالدين ، وهذا كلام يؤدي إلى خروجنا عن حد المحنة والتكليف فيقال له : إذا حصل العلم الضروري بوجود الخالق وبصدق رسوله كان التكليف بالإقرار بالصانع وعبادته وحده لا شريك له وبتصديق رسله وطاعة أمره ، وهذا هو الذي أمرت به الرسل أمرت الخلق أن يعبدوا الله وحده ، وأن يطيعوا رسله ولم يأمروا جميع الخلق بأن يكتسبوا علماً نظرياً بوجود الخالق وصدق رسله لكن من جحد الحق أمروه بالإقرار به ، وأقاموا الحجة عليه ، وبينوا معاندته ، وأنه جاحد للحق الذي يعرفه ، وكذلك الرسول كانوا يعلمون أنه صادق ويكذبونه فليتدبر هذا الموضع فإنه موضع عظيم .

الوجه الثالث أن يقال نحن نسلم أن المعجزات تدل على الصدق وأنه لا يجوز إظهارها على يد الكاذب لكن هو لأن الله منزه عن ذلك وأن حكمته تمنع ذلك ، ولا يجوز عليه كل فعل ممكن وأنتم مع تجويزكم عليه كل ممكن يلزمكم تجويز خلق المعجزة على يد الكاذب فما علم بالعقل والإجماع من امتناع ظهورها على يد الكاذب يدل على فساد أصلكم .

الوجه الرابع : أن يقال لم قلتم أنه لا دليل على صدقهم إلا المعجزات، وما ذكرتم من الإجماع على ذلك لا يصح الإستدلال به لوجهين : أحدهما أنه لا إجماع في ذلك بل كثير من الطوائف يقولون إن صدقهم بغير المعجزات . الثاني : إنه لا يصح الإحتجاج بالإجماع في ذلك، فإن الإجماع إنما يثبت بعد ثبوت النبوة والمقدمات التي يعلم بها النبوة لا يحتج عليها بالإجماع ، وقولكم لا دليل سوى المعجز مقدمة ممنوعة ، وذكر عن الأشعري أنه ذكر جواباً آخر فقال : وأيضاً فإن قول القائل : ما أنكرتم من جواز إظهار المعجزات على أيدي الكذابين قول متناقض والله على كل شيء قدير، ولكن ما طالب السائل بإجازته محال لا تصح القدرة عليه ولا العجز عنه ، لأنه بمنزلة كونه أظهر المعجزات على أيديهم ، فإنه أوجب أنهم صادقون ، لأن المعجز دليل على الصدق ومتضمن له ، وقوله مع ذلك أنهم كاذبون نقض لقوله أنهم صادقون قد ظهرت المعجزات على أيديهم فوجب إحالة هذه المطالبة ، وصار هذا بمثابة قول من قال : ما أنكرتم من [1] صحة ظهور الأفعال المحكمة الدالة على علم فاعلها والمتضمنة لذلك من جهة الدليل من الجاهل بها في أنه قول باطل متناقض ، فيجب إذا كان الأمر كذلك استحالة ظهور المعجزات على يد الكاذبين ، واستحالة ثبوت قدرة قادر عليه وكيف يصح على هذا الجواب أن يقال ما أنكرتم وزعمتم أنه من فعل المحال الذي لا يصح حدوثه ، وتناول القدرة له هو من قبيل الجائز قياساً على صحة خلق الكفر وضروب الضلال التي يصح حدوثها وتناول القدرة لها .

قلت هذا كلام صحيح إذا علم أنها دليل الصدق يستحيل وجوده بدون الصدق والممتنع غير مقدور فيمتنع أن يظهر على أيدي الكاذبين

---

١ ـ هكذا الاصل ولعل صوابه هكذا فهو من قبيل وقوله بعد ذلك من الجاهل بها متعلق بظهور .

ما يدل على صدقهم لكن المطالب يقول : كيف يستقيم على أصلكم أن يكون ذلك دليل الصدق ، وهو أمر حادث مقدور ، وكل مقدور يصح عندكم أن يفعله الله ولو كان فيه من الفساد ما كان فإنه عندكم لا ينزه عن فعل ممكن ولا يقبح منه فعل فحينئذ إذا خلق على يد الكاذب مثل هذه الخوارق لم يكن ممتنعاً على أصلكم ، وهي لا تدل على الصدق البتة على أصلكم ويلزمكم إذا لم يكن دليل إلهي ألا يكون في المقدور دليل على صدق مدعي النبوة فيلزم أن الرب سبحانه لا يصدق أحداً ادعى النبوة وإذا قلتم هذا ممكن بل واقع ونحن نعلم صدق الصادق إذا ظهرت هذه الأعلام على يده ضرورة .

قيل : فهذا يوجب أن الرب لا يجوز عليه إظهارها على يد كاذب ، وهذا فعل من الأفعال هو قادر عليه وهو سبحانه لا يفعله ، بل هو منزه عنه ، فأنتم بين أمرين : إن قلتم لا يمكنه خلقها على يد الكاذب وكان ظهورها ممتنعاً فقد قلتم أنه لا يقدر على احداث حادث ، قد فعل مثله ، وهذا تصريح بعجزه ، وأنتم قلتم فليست بدليل فلا يلزم عجزه فصارت دلالتها مستلزمة لعجزه على أصلكم ، وإن قلتم يقدر لكنه لا يفعل فهذا حق وهو ينقض أصلكم .

وحقيقة الأمر أن نفس ما يدل على صدق الصادق بمجموعه امتنع أن يحصل للكاذب وحصوله له ممتنع غير مقدور. وأما خلق مثل تلك الخارقة على يد الكاذب فهو ممكن والله سبحانه وتعالى قادر عليه لكنه لا يفعله لحكمته ، كما أنه سبحانه يمتنع عليه أن يكذب أو يظلم والمعجز تصديق وتصديق الكاذب هو منزه عنه ، والدال على الصدق قصد الرب تصديق الصادق ، وهذا القصد يمتنع حصوله للكاذب فيمتنع جعل من ليس برسول

رسولاً ، وجعل الكاذب صادقاً ويمتنع من الرب قصد المحال وهو غير مقدور ، وهو إذا صدق الصادق بفعله علم بالإضطرار ، والدليل أنه صدقه وهذا العلم يمتنع حصوله للكاذب واستشهادكم بالعلم هو من هذا الباب ، فأنتم تقولون أن الرب لا يخلق شيئاً لشيء ، وحينئذ فلا يكون قاصداً لما في المخلوقات من الاحكام فلا يكون الاحكام دالاً على العلم على أصلكم ، فإن الاحكام إنما هو جعل الشيء محصلاً للمطلوب بحيث يجعل لأجل ذلك المطلوب ، وهذا عندهم لا يجوز فإثباته علمه وتصديق رسله مشروط بأن يفعل شيئاً لشيء وهذا عندكم لا يجوز فلهذا يقال : إنكم متناقضون والله سبحانه وتعالى أعلم .

الوجه الثامن : أن حقيقة الأمر على قول هؤلاء الذين جعلوا المعجزة الخارق مع التحدي أن المعجز في الحقيقة ليس إلا منع الناس من المعارضة بالمثل سواء كان المعجز في نفسه خارقاً ، أو غير خارق وكثير مما يأتي به الساحر والكاهن أمر معتاد لهم ، وهم يجوزون أن يكون آية للنبي ، وإذا كان آية منع الله الساحر والكاهن من مثل ما كان يفعل أو قيض له من يعارضه ، وقالوا هذا أبلغ فإنه منع المعتاد ، وكذلك عندهم إحدى نوعي المعجزات منعهم من الأفعال المعتادة وهو مأخذ من يقول بالصرفة ، وإذا كان كذلك جاز أن يكون كل أمر كالأكل والشرب والقيام والقعود معجزة إذا منعهم أن يفعلوا كفعله وحينئذ فلا معنى لكونها خارقاً ، ولا لاختصاص الرب بالقدرة عليها ، بل الإعتبار بمجرد عدم المعارضة وهم يقرون بخلاف ذلك والله أعلم .

الوجه التاسع : أنه إذا كانت المعجزة هي مجموع دعوى الرسالة مع التحدي فلا حاجة إلى كونه خارقاً كما تقدم ، ويجب إذا تحدى بالمثل أن يقول فليأت بمثل القرآن من يدعي النبوة ، فإن هذا هو المعجز عندهم ،

وإلا القرآن مجرداً ليس بمعجز فلا يطلب مثل القرآن إلا ممن يدعي النبوة، كما في الساحر والكاهن إذا ادعى النبوة سلبه الله ذلك أوقيض له من يعارضه، وإذا لم يدع النبوة جاز أن يظهر على يده مثل ما يظهر على يد النبي ، فكذلك يلزمهم مثل هذا في القرآن وسائر المعجزات والله أعلم .

فصل

في أن الرسول لا بد أن يبين أصول الدين

وهي البراهين الدالة على أن ما يقوله حق من الخبر والأمر ، فلا بد أن يكون قد بين الدلائل على صدقه في كل ما أخبر . ووجوب طاعته في كل ما أوجب وأمر . ومن أعظم أصول الضلال الإعراض عن بيان الرسول للأدلة والآيات والبراهين والحجج . فإن المعرضين عن هذا إما أن يصدقوه ويقبلوا قوله . ويؤمنوا به بلا دليل أصلاً ولا علم . وإما أن يستدلوا على ذلك بغير أدلته . فإن لم يكونوا عالمين بصدقه فهم ممن يقال له في قبره ما قولك في هذا الرجل الذي بعث فيكم . فأما المؤمن أو الموقن فيقول : هو عبدالله ورسوله جاءنا بالبينات والهدى فآمنا به واتبعناه .

وأما المنافق أو المرتاب فيقول : هاه هاه لا أدري سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته . فيضرب بمرزبة من حديد فيصيح صيحة يسمعها كل شيء إلا الثقيلين . وإن استدل على ذلك بغير الآيات والأدلة التي دعا بها الناس فهو مع كونه مبتدعاً لا بد أن يخطيء ويضل فإن ظن الظان أنه بأدلة وبراهين خارجة عما جاء به تدل على ما جاء به فهو من جنس ظنه أنه يأتي بعبادات غير ما شرعه توصل إلى مقصوده ، وهـذا الظن وقع فيه طوائف من النظار الغالطين أصحاب الإستدلال والإعتبار والنظر كما وقع في الظن الأول طوائف من العباد الغالطين أصحاب الإرادة والمحبة والزهد .

وقوله ﷺ في خطبته يوم الجمعة : « خيرُ الكَلام كَلامُ الله ، وخَيْرُ الهَدْى هَدْي محمد ، وَشَرُّ الأمورِ مُحدثاتُها ، وَكُلُّ بِدعَة ضَلالة » يتناول هذا وهذا ، وقد أرى الله تعالى عباده الآيات في الآفاق وفي أنفسهم حتى تبين لهم أن ما قاله فهو حق ، فإن أرباب العبادة والمحبة والإرادة والزهد الذين سلكوا غير ما أمروا به ضلوا كما ضلت النصارى ومبتدعة هذه الأمة من العباد وأرباب النظر والإستدلال الذين سلكوا غير دليله وبيانه أيضاً ضلوا قال تعالى : (فَإمّا يَأْتِيَنّكُم مِنِي هُدىً فمَنْ اتّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِل وَلا يَشقى وَمَنْ أعرَضَ عَن ذِكري فَإنَّ لَهُ مَعيشةً ضَنْكاً ونَحشُرُهُ يَومَ القيامَة أعمى قَال : رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أعمى وَقَدْ كُنتُ بَصيراً قَالَ كَذَلِكَ أتَتْكَ آياتُنا فَنَسيتَها وَكَذَلِكَ اليَومَ تُنْسَى) [1] .

وفي الكلام المأثور عن الإمام أحمد أصول الإسلام أربعة : دال ودليل ومبين ومستدل . فالدال هو الله، والدليل هو القرآن ، والمبين هو الرسول. قال الله تعالى : (لِتُبَيّنَ لِلنّاسِ مَا نزل إليهم) . والمستدل هم أولو العلم ، وأولو الألباب الذين أجمع المسلمون على هدايتهم ودرايتهم ، وقد ذكره ابن المنى عن أحمد وهو مذكور في العدة للقاضي أبي يعلى ، وغيرها ،أما أن أحمد قال له ، أو قيل له فاستحسنه . ولهذا صار كثير من النظار يوجبون العلم والنظر والإستدلال وينهون عن التقليد ويقول كثير منهم أن إيمان المقلد لا يصح ، أو أنه وإن صح ،لكنه عاص بترك الإستدلال ثم النظر .

والإستدلال الذي يدعون إليه ويوجبونه ويجعلونه أول الواجبات وأصل العلم هو نظر واستدلال ابتدعوه ليس هو المشروع لا خبراً ولا

---

١ ـ سورة طه آية ١٢٣ ـ ١٢٦ .

أمراً وهو استدلال فاسد لا يوصل إلى العلم فإنهم جعلوا أصل العلم بالخالق هو الإستدلال على ذلك بحدوث الأجسام والإستدلال على حدوث الأجسام بأنها مستلزمة للأعراض لا يخلو عنها ولا ينفك منها، ثم استدلوا على حدوث الأعراض قالوا : فثبت أن الأجسام مستلزمة للحوادث لا يخلو عنها فلا تكون مثلها ، ثم كثير منهم قالوا : وما لم يخل من الحوادث ، أو ما لم يسبق الحوادث فهو حادث ، وظن أن هذه مقدمة بديهية معلومة بالضرورة لا يطلب عليها دليل ، وكان ذلك بسبب أن لفظ الحوادث يشعر بأن لها ابتداء كالحادث المعين والحوادث المحدودة ، ولو قدرت ألف ألف ألف حادث، فإن الحوادث إذا جعلت مقدرة محدودة فلا بد أن يكون لها ابتداء، فإن ما لا ابتداء له ليس له حد معين ابتدأ منه إذ قد قيل لا ابتداء له بل هو قديم أزلي دائم ، ومعلوم أن هذه الحوادث ما لم يسبقها فهو حادث ، فإنه يكون إما معها وإما بعدها وكثير منهم يفطن للفرق بين جنس الحوادث وبين الحوادث المحدودة ، فالجنس مثل أن يقال ما زالت الحوادث توجد شيئاً بعد شيء أو ما زال جنسها موجوداً، أو ما زال الله متكلماً إذا شاء ، أو ما زال الله فاعلاً لما يشاء أو ما زال قادراً على أن يفعل قدرة يمكن معها اقتران المقدور بالقدرة لا تكون قدرة يمتنع معها المقدور ، فإن هذه في الحقيقة ليست قدرة ، ومثل أن يقال في المستقبل ، لا بد أن الله يخلق شيئاً بعد شيء ، ونعيم أهل الجنـــة دائم لا يزول ، ولا ينفد ، وقد يقال في النوعين كلمات الله لا تنفد ولا نهاية لها لا في الماضي ، ولا في المستقبل ونحو ذلك . فالكلمة في دوام الجنس وبقائه ، وأنه لا ينفد ولا ينقضي ، ولا يزول ،ولا ابتداء له غير الكلام فيما يقدر محدوداً له ابتداء أو له ابتداء وانتهاء ، فإن كثيراً من النظار من يقول جنس الحوادث إذا قدر له ابتداء وجب أن يكون له انتهاء ، لأنه يمكن فرض تقدمه على ذلك الحد فيكون أكثر مما وجد ، وما لا يتناهى لا يدخله التفاضل ، فإنه ليس وراء عدم النهاية شيء أكثر منها بخلاف ما لا ابتداء له ، ولا انتهاء ، فإن هذا لا يكون شيء

فوقه فلا يفضي إلى التفاضل فيما لا يتناهى ،وبسط هذا له موضع آخر . والمقصود هنا أن هؤلاء جعلوا هذا أصل دينهم وإيمانهم ، وجعلوا النظر في هذا الدليل هو النظر الواجب على كل مكلف وأنه من لم ينظر في هذا الدليل ، فإما أنه لا يصح إيمانه فيكون كافراً على قول طائفة منهم ، وإما أن يكون عاصياً على قول آخرين ، وإما أن يكون مقلداً لا علم له بدينه لكنه ينفعه هذا التقليد ويصير به مؤمناً غير عاص .

والأقوال الثلاثة باطلة لأنها مفرعة على أصل باطل ، وهو أن النظر الذي هو أصل الدين والإيمان ، هو هذا النظر في هذا الدليل ، فإن علماء المسلمين يعلمون بالإضطرار أن الرسول لم يدع الخلق بهذا النظر ، ولا بهذا الدليل لا عامة الخلق ولا خاصتهم ، فامتنع أن يكون هذا شرطاً في الإيمان والعلم ، وقد شهد القرآن والرسول لمن شهد له من الصحابة وغيرهم بالعلم وأنهم عالمون بصدق الرسول ، وبما جاء به ، وعالمون بالله وبأنه لا إله إلا الله ولم يكن الموجب لعلمهم هذا الدليل المعين كما قال تعالى : (وَيَرَى الذينَ أوتُوا العِلمَ الذي أُنزِلَ إليْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الحَقُّ ويَهْدي إلى صِراطِ العَزيزِ الحَميد) (1) وقال : (شَهِدَ اللهُ أنْ لا إلهَ إلاَّ هُوَ والملائكَةُ وأولوا العِلمِ قائماً بالقِسْطِ)(2) . وقال : (أفَمَنْ يَعْلَمُ أنَّ ما أُنزِلَ إليكَ مِنَ رَبِّكَ الحَقُّ كَمَنْ هُوَ أعمَى) (3) .

وقد وصف باليقين والهدى والبصيرة في غير موضع كقوله : (وَبِالآخرة هُمْ يُوقِنُونَ) وقوله : (أولئكَ على هُدىً مِن رَبِّهِم)(4). وقوله : قُلْ هَذِهِ سَبيلي أدعوُ إلى اللهِ عَلَى بَصيرة إنَا وَمَنْ اتبعَني)(5).

---

1 ـ سورة سبأ آية ٦ .
2 ـ سورة آل عمران آية ١٨ .
3 ـ سورة الرعد آية ١٩ .
4 ـ سورة البقرة آية ٥ .
5 ـ سورة يوسف آية ١٠٨

وأمثال ذلك فتبين أن هذا النظر والإستدلال الذي أوجبه هؤلاء وجعلوه أصل الدين ليس مما أوجبه الله ورسوله ، ولو قدر أنه صحيح في نفسه ، وأن الرسول أخبر بصحته لم يلزم من ذلك وجوبه إذ قد يكون للمطلوب أدلة كثيرة ، ولهذا طعن الرازي وأمثاله على أبي المعالي في قوله أنه لا يعلم حدوث العالم إلا بهذا الطريق ، وقالوا هب أنه يدل على حدوث العالم فمن أين يجب أن لا يكون ثم طريق آخر ، وسلكوا هم طرقاً أخر ،فلو كانت هذه الطريق صحيحة عقلاً ، وقد شهد لها الرسول والمؤمنون الذين لا يجتمعون على ضلالة بأنها طريق صحيحة لم يتعين مع إمكان سلوك طرق أخرى ، كما أنه في القرآن سور وآيات قد ثبت بالنص والإجماع أنها من آيات الله الدالة على الهدى . ومع هذا فإذا اهتدى الرجل بغيرها وقام بالواجب ومات ولم يعلم بها ولم يتمكن من سماعها لم يضره كالآيات المكية التي اهتدى بها من آمن ومات في حياة النبي ﷺ قبل أن ينزل سائر القرآن ، فالدليل يجب طرده لا يجب عكسه .

ولهذا أنكر كثير من العلماء على هؤلاء إيجاب سلوك هذه الطريق مع تسليمهم أنها صحيحة كالخطابي والقاضي أبي يعلى وابن عقيل وغيرهم والأشعري نفسه أنكر على من أوجب سلوكها أيضاً في رسالته إلى أهل الثغر مع اعتقاده صحتها واختصر منها طريقة ذكرها في أول كتابه المشهور المسمى باللُّمع في الرد على أهل البدع ، وقد اعتنى به أصحابه حتى شرحوه شروحاً كثيرة ،والقاضي أبو بكر شرحه ، ونقض كتاب عبد الجبار الذي صنفه في نقضه وسماه نقض اللمع ، وأما أكابر أهل العلم من السلف والخلف فعلموا أنها طريقة باطلة في نفسها مخالفة لصريح المعقول وصحيح المنقول ، وأنه لا يحصل بها العلم بالصانع ولا بغير ذلك بل يوجب سلوكها اعتقادات باطلة توجب مخالفة كثير مما جاء به الرسول مع مخالفة صريح المعقول كما أصاب من سلكها من الجهمية ، والمعتزلة ، والكلابية ،والكرامية ،

ومن تبعهم من الطوائف ، وإن لم يعرفوا غورها وحقيقتها فإن أئمة هؤلاء الطوائف صار كل منهم يلتزم ما يراه لازماً له ليطردها فيلتزم لوازم مخالفة للشرع والعقل فيجيء الآخر فيرد عليه ويبين فساد ما التزمه ويلتزم هو لوازم أخر لطردها فيقع أيضاً في مخالفة الشرع والعقل .

فالجهمية التزموا لأجلها نفي أسماء الله وصفاته إذ كانت الصفات أعراضاً تقوم بالموصوف ولا يعقل موصوف بصفة إلا الجسم فإذا اعتقدوا حدوثه اعتقدوا حدوث كل موصوف بصفة والرب تعالى قديم فالتزموا نفي صفاته واسماؤه مستلزمة لصفاته فنفوا أسماءه الحسنى وصفاته العلى .

والمعتزلة استعظموا نفي الأسماء لما فيه من تكذيب القرآن تكذيباً ظاهر الخروج عن العقل والتناقض ، فإنه لا بد من التمييز بين الرب وغيره بالقلب واللسان فما لا يميز من غيره لا حقيقة له ولا إثبات وهو حقيقة قول الجهمية ، فإنهم لم يثبتوا في نفس الأمر شيئاً قديماً البتـــة ، كما أن المتفلسفة الذين سلكوا مسلك الإمكان والوجوب ، وجعلوا ذلك بدل الحادث والقديم لم يثبتوا واجباً بنفسه البتة ، وظهر بهذا فساد عقلهم وعظيم جهلهم مع الكفر ، وذلك أنه يشهد وجود السموات وغيرها فهذه الأفلاك إن كانت قديمة واجبة فقد ثبت وجود الموجود القديم الواجب ، وإن كانت ممكنة أو محدثة فلا بد لها من واجب قديم ، فإن وجود الممكن بدون الواجب، والمحدث بدون القديم،ممتنع في بداية العقول..فثبت وجود موجود قديم واجب بنفسه على كل تقدير ، فإذا كان ما ذكروه من نفي الصفات عن القديم والواجب يستلزم نفي القديم مطلقاً ونفي الواجب علم أنه باطل وقد بسط هذا في مواضع ، وبين أن كل من نفى صفة مما أخبر به الرسول لزمه نفي جميع الصفات فلا يمكن القول بموجب أدلة العقول إلا مع القول بصدق الرسول فأدلة العقول مستلزمة لصدق الرسول ، فلا يمكن مع عدم

تصديقه القول بموجب العقول بل من كذبه فليس معه لا عقل ولا سمع كما أخبر الله تعالى عن أهل النار .

قال تعالى : (كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ، وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ، فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ) [1] وهذا مبسوط في غير هذا الموضع .

والمقصود هنا أن المعتزلة لما رأوا الجهمية قد نفوا أسماء الله الحسنى إستعظموا ذلك ، وأقروا بالاسماء ، ولما رأوا هذه الطريق توجب نفي الصفات نفوا الصفات ، فصاروا متناقضين ، فإن إثبات حي عليم قدير حكيم سميع بصير بلا حياة ، ولا علم ولا قدرة ولا حكمة ولا سمع ولا بصر ، مكابرة للعقل كإثبات مصل بلا صلاة ، وصائم بلا صيام ، وقائم بلا قيام ، ونحو ذلك من الاسماء المشتقة كأسماء الفاعلين والصفات المعدولة عنها .

ولهذا ذكروا في أصول الفقه أن صدق الإسم المشتق كالحي والعليم لا ينفك عن صدق المشتق منه كالحياة والعلم . وذكروا النزاع مع من ذكروه من المعتزلة كأبي علي وأبي هاشم فجاء ابن كلاب ومن اتبعه كالأشعري والقلانسي فقرروا أنه لا بد من إثبات الصفات متابعة للدليل السمعي والعقلي مع إثبات الاسماء ، وقالوا ليست أعراضاً لأن العرض لا يبقى زمانين ، وصفات الرب باقية وسلكوا في هذا الفرق ، وهو أن العرض لا يبقى زمانين مسلكاً أنكره عليهم جمهور العقلاء ، وقالوا أنهم خالفوا الحس وضرورة العقل ، وهم موافقون لأولئك على صحة هذه

---

١ ـ سورة الملك آية ٨ .

الطريقة طريقة الاعراض قالوا : وهذه تنفي عن الله أن يقوم به حادث وكل حادث فإنما يكون بمشيئته وقدرته قالوا : فلا يتصف بشيء من هذه الأمور لا يتكلم بمشيئته وقدرته ولا يقوم به فعل اختياري يحصل بمشيئته وقدرته كخلق العالم وغيره ، بل منهم من قال : لا يقوم به فعل بل الخلق هو المخلوق كالأشعري ومن وافقه ، ومنهم من قال بل فعل الرب قديم أزلي وهو من صفاته الأزلية وهو قول قدماء الكلابية ، وهو الذي ذكره أصحاب ابن خزيمة لما وقع بينه وبينهم بسبب هذ الأصل فكتبوا عقيدة اصطلحوا عليها ، وفيها إثبات الفعل القديم الأزلي ، وكان سبب ذلك أنهم كانوا كلابية يقولون : إنه لا يتكلم بمشيئته وقدرته بل كلامه المعين لازم لذاته أزلاً وأبداً .

وكان ابن خزيمة وغيره على القول المعروف للمسلمين وأهل السنة أن الله يتكلم بمشيئته وقدرته ، وكان قد بلغه عن الإمام أحمد أنه كان يذم الكلابية ، وأنه أمر بهجر الحارث المحاسبي لما بلغه أنه على قول ابن كلاب ، وكان يقول حذروا عن حارث الفقير ، فإنه جهمي واشتهر هذا عن أحمد ، وكان بنيسابور طائفة من الجهمية والمعتزلة ممن يقولون أن القرآن وغيره من كلام الله مخلوق ، ويطلقون القول بأنه متكلم بمشيئته وقدرته لكن مرادهم بذلك أنه يخلق كلاماً بائناً عنه ، قائماً بغيره كسائر المخلوقات ، وكان من هؤلاء من عرف أصل ابن كلاب فأراد التفريق بين ابن خزيمة وبين طائفة من أصحابه فأطلعه على حقيقة قولهم فنفر منه ، وهم كانوا قد بنوا ذلك على أصل ابن كلاب واعتقدوا أنه لا تقوم به الحوادث بناء على هذه الطريقة طريقة الاعراض ، وابن خزيمة شيخهم وهو الملقب بإمام الائمة ، وأكثر الناس معه ، ولكن لا يفهمون حقيقة النزاع فاحتاجوا لذلك إلى ذكر عقيدة لا يقع فيها نزاع بين الكلابية وبين أهل الحديث والسنة فذكروا فيها أن كلام الله غير مخلوق وأنه لم يزل متكلماً ، وأن فعله أيضاً

غير مخلوق فالمفعول مخلوق ، ونفس فعل الرب له قديم غير مخلوق ، وهذا قول الحنفية وكثير من الحنبلية والشافعية والمالكية وهو اختيار القاضي أبي يعلى وغيره في آخر عمره وبسط هذا له موضع آخر .

والمقصود التنبيه على افتراق الأمة بسبب هذه الطريقة ، ولما عرف كثير من الناس باطن قول ابن كلاب ، وأنه يقول إن الله لم يتكلم بالقرآن العربي ، وأن كلامه شيء واحد هو معنى آية الكرسي ، وآية الدين عرفوا ما فيه من مخالفة الشرع والعقل ، فنفروا عنه وعرفوا أن هؤلاء يقولون إنه لا يتكلم بمشيئته وقدرته ، فأنكروه ، وكان ممن أنكر ذلك الكرامية وغير الكرامية كأصحاب أبي معاذ التومني ، وزهير البابي وداود بن علي وطوائف فصار كثير من هؤلاء يقولون أنه يتكلم بمشيئته وقدرته فأنكروه ، لكن يراعي تلك الطريقة لاعتقاده صحتها فيقول : إنه لم يكن في الأزل متكلماً لأنه إذا كان لم يزل متكلماً بمشيئته لزم وجود حوادث لا تتناهى .

وأصل الطريقة أن هذا ممتنع فصار حقيقة قول هؤلاء أنه صار متكلماً بعد أن لم يكن متكلماً فخالفوا قول السلف والأئمة ، أنه لم يزل متكلماً إذا شاء وبسط هذه الأمور له موضع آخر .

والمقصود هنا أن كثيراً من أهل النظر صار ما يوجبونه من النظر والإستدلال ويجعلونه أصل الدين والإيمان هو هذه الطريقة المبتدعة في الشرع المخالفة للعقل الذي اتفق سلف الأمة وأئمتها على ذمها وذم أهلها فذمهم للجهمية الذين ابتدعوا هذه الطريقة أولاً متواتر مشهور قد صنف فيه مصنفات ، وذمهم للكلام والمتكلمين مما عنى به أهل هذه الطريقة كذم الشافعي لحفص الفرد الذي كان على قول ضرار بن عمرو ، وذم أحمد ابن حنبل لأبي عيسى محمد بن عيسى برغوث الذي كان على قول حسين النجار ، وذمهما وذم أبي يوسف ومالك وغيرهم لأمثال هؤلاء الذين سلكوا هذه الطريقة .

وقد صنف في ذم الكلام وأهله مصنفات أيضاً وهو متناول لأهل هذه الطريقة قطعاً فكان إيجاب النظر بهذا التفسير باطلاً قطعاً ، بل هذا نظر فاسد يناقض الحق والإيمان ، ولهذا صار من يسلك هذه الطريقة من حذاق الطوائف يتبين لهم فسادها كما ذكر مثل ذلك أبو حامد الغزالي وأبو عبدالله الرازي وأمثالهما، ثم الذي يتبين له فسادها إذا لم يجد عند من يعرفه من المتكلمين في أصول الدين غيرها بقي حائراً مضطرباً ، والقائلون بقدم العالم من الفلاسفة والملاحدة وغيرهم تبين لهم فسادها ، فصار ذلك من أعظم حججهم على قولهم الباطل فيبطلون قول هؤلاء أنه صار فاعلاً ، أو فاعلاً ومتكلماً بمشيئته بعد أن لم يكن ويثبتون وجوب دوام نوع الحوادث ويظنون أنهم إذ أبطلوا كلام أولئك المتكلمين بهذا حصل مقصودهم وهم أضل وأجهل من أولئك ، فإن أدلتهم لا توجب قدم شيء بعينه من العالم ، بل كل ما سوى الله فهو محدث مخلوق كائن بعد أن لم يكن ودلائل كثيرة غير تلك الطريقة ، وإن كان الفاعل لم يزل فاعلاً لما يشاء ومتكلماً بما يشاء وصار كثير من أولئك إذا ظهر له فساد أصل أولئك المتكلمين المبتدعين وليس عنده إلا قولهم ، وقول هؤلاء يميل الى قول هؤلاء الملاحدة ، ثم قد يبطن ذلك ، وقد يظهر لمن يأمنه وابتلي بهذا كثير من أهل النظر والعبادة والتصوف وصاروا يظهرون هذا في قالب المكاشفة ويزعمون أنهم أهل التحقيق والتوحيد والعرفان ، فأخذوا من نفي الصفات أن صانع العلم لا داخل العالم ولا خارجه ، ومن قول هؤلاء إن العالم قديم ، ولم يروا موجوداً سوى العالم فقالوا إنه هو الله ، وقالوا هو الوجود المطلق والوجود واحد، وتكلموا في وحدة الوجود ، وأنه الله بكلام ليس هذا موضع بسطه. ثم لما ظهر أن كلامهم يخالف الشرع والعقل صاروا يقولون يثبت عندنا في الكشف ما يناقض صريح العقل ويقولون القرآن كله شرك وإنما التوحيد في كلامنا ومن أراد أن يحصل له هذا العلم اللدني الأعلى ، فليترك العقل والنقل ، وصار حقيقة قولهم الكفر بالله وبكتبه ورسله وباليوم الآخر من

جنس قول الملاحدة الذين يظهرون التشيع ، لكن أولئك لما كان ظاهر قولهم هو ذم الخلفاء أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم صارت وصمة الرفض تنفر عنهم خلقاً كثيراً لم يعرفوا باطن أمرهم ، وهؤلاء صاروا ينتسبون إلى المعرفة والتوحيد واتباع شيوخ الطريق ، كالفضيل وإبراهيم ابن أدهم والتستري والجنيد ، وسهل بن عبدالله .

وأمثال هؤلاء ممن له في الأمة لسان صدق فاغتر بهؤلاء من لم يعرف باطن أمرهم وهم في الحقيقة من أعظم خلق الله خلافاً لهؤلاء المشايخ السادة ، ولمن هو أفضل منهم من السابقين الأولين والأنبياء المرسلين ، وكان من أسباب ذلك أن العبادة والتأله والمحبة ونحو ذلك مما يتكلم فيه شيوخ المعرفة والتصوف أمر معظم في القلوب ، والرسل إنما بعثوا بدعاء الخلق إلى أن يعرفوا الله ويكون أحب إليهم من كل ما سوه فيعبدوه ويألهوه ، ولا يكون لهم معبود مألوه غيره .

وقد أنكر جمهور أولئك المتكلمين ، أن يكون الله محبوباً ، أو أنه يحب شيئاً أو يحبه أحد ، وهذا في الحقيقة إنكار لكونه إلهاً معبوداً فإن الإله هو المألوه الذي يستحق أن يؤله ويعبد ، والتأله والتعبد يتضمن غاية الحب بغاية الذل ، ولكن غلط كثير من أولئك فظنوا أن الإلهية هي القدرة على الخلق ، وأن الإله بمعنى الإله (1) وأن العباد يألهم الله ، لا انهم هم يألهون الله ، كما ذكر ذلك طائفة منهم الأشعري وغيره ، وطائفة ثالثة لما رأت ما دل على أن الله يحب أن يكون محبوباً من أدلة الكتاب والسنة ، وكلام السلف وشيوخ أهل المعرفة ، صاروا يقرون بأنه محبوب لكنه هو نفسه لا يحب شيئاً إلا بمعنى المشيئة ، وجميع الأشياء مرادة له فهي محبوبة له ، وهذه

---

1 ـ اي اسم الفاعل من فعل اله كنصر

طريقة كثير من أهل النظر والعبادة والحديث كأبي إسماعيل الأنصاري وأبي حامد الغزالي وأبي بكر بن العربي .

وحقيقة هذا القول أن الله يحب الكفر والفسوق والعصيان ويرضاه وهذا هو المشهور من قول الأشعري وأصحابه ، وقد ذكر أبو المعالي أنه أول من قال ذلك ، وكذلك ذكر ابن عقيل أن أول من قال إن الله يحب الكفر والفسوق والعصيان هو الأشعري وأصحابه ، وهم قد يقولون لا يحبه ديناً ولا يرضاه ديناً كما يقولون لا يريده ديناً أي لا يريد أن يكون فاعله مأجوراً ، وأما هو نفسه فهو محبوب له كسائر المخلوقات ، فإنها عندهم محبوبة له إذكان ليس عندهم إلا إرادة واحدة شاملة لكل مخلوق ، فكل مخلوق فهو عندهم محبوب مرضي .

وجماهير المسلمين يعرفون أن هذا القول معلوم الفساد بالضرورة من دين أهل الملل ، وأن المسلمين واليهود والنصارى متفقون على أن الله لا يحب الشرك ، ولا تكذيب الرسل ، ولا يرضى ذلك ، بل هو يبغض ذلك ويمقته ويكرهه ، كما ذكر الله في سورة بني إسرائيل ما ذكره من المحرمات ، ثم قال كل ذلك كان سيئة عند ربك مكروهاً وبسط هذه الأمور له مواضع أخر .

والمقصود هنا أن الذين أعرضوا عن طريق الرسول في العلم والعمل وقعوا في الضلال والزلل ، وأن أولئك لما أوجبوا النظر الذي ابتدعوه صارت فروعه فاسدة إن قالوا ان من لم يسلكها كفر أو عصى ، فقد عرفنا بالإضطرار من دين الإسلام أن الصحابة والتابعين لهم بإحسان لم يسلكوا طريقهم ، وهم خير الأمة ، وإن قالوا إن من ليس عنده علم ولا بصيرة بالإيمان ، بل قاله تقليداً محضاً من غير معرفة يكون مؤمناً فالكتاب والسنة يخالف ذلك . ولو أنهم سلكوا طريقة الرسول لحفظهم الله من هذا

التناقض ، فإن ما جاء به الرسول جاء من عند الله ، وما ابتدعوه جاؤا به من عند غير الله،وقد قال تعالى : (ولَوْ كَانَ من عند غير الله لَوجَدوا فيه اختلافاً كثيراً)[1]. وهؤلاء بنوا دينهم على النظر والصوفية ، بنوا دينهم على الإرادة ، وكلاهما لفظ مجمل يدخل فيه الحق والباطل ، فالحق هو النظر الشرعي والإرادة الشرعية ، فالنظر الشرعي هو النظر فيما بعث به الرسول من الآيات والهدى ، كما قال : (شَهْرُ رمضان الذي أُنزِل فيه القُرآنُ هُدىً للناسِ وبَيِّنَاتٍ من الهُدى والفُرقَان)[2]. والإرادة الشرعية إرادة ما أمر الله به ورسوله ، والسماع الشرعي سماع ما أحب الله سماعه كالقرآن ، والدليل الذي يستدل به هو الدليل الشرعي وهو الذي دل الله به عباده ، وهداهم به إلى صراط مستقيم ، فإنه لما ظهرت البدع والتبس الحق بالباطل صار اسم النظر والدليل والسماع والإرادة يطلق على ثلاثة أمور : منهم من يريد به البدعي دون الشرعي فيريدون بالدليل ما ابتدعوه من الأدلة الفاسدة ، والنظر فيها ومن السماع والإرادة ما ابتدعوه من اتباع ذوقهم ووجدهم ، وما تهواه أنفسهم وسماع الشعر والغناء الذي يحرك هذا الوجد التابع لهذه الإرادة النفسانية التي مضمونها اتباع ما تهوى الأنفس بغير هدى من الله .

ومنهم من يريد مطلق الدليل والنظر ومطلق السماع والإرادة من غير تقييدها لا بشرعي ولا ببدعي ، فهؤلاء يفسرون قوله : الذين يستمعون القول : بمطلق القول الذي يدخل فيه القرآن والغناء ويستمعون إلى هذا وهذا وأولئك يفسرون الإرادة بمطلق المحبة للإله من غير تقييدها بشرعي ولا بدعي ، ويجعلون الجميع من أهل الإرادة سواء عبدالله بما أمر الله به ورسوله من التوحيد وطاعة الرسول ، أو كان عابداً للشيطان مشركاً عابداً بالبدع ، وهؤلاء أوسطهم،وهم أحسن حالاً من الذين قيدوا ذلك بالبدعي.

---

١ ـ سورة النساء آية ٨١ . ٢ ـ سورة البقرة آية ١٨٦ .

وأما القسم الثالث فهم صفوة الأمة وخيارها المتبعون للرسول علماً وعملاً، يدعون إلى النظر والإستدلال والإعتبار بالآيات والأدلة والبراهين التي بعث الله بها رسوله، وتدبر القرآن وما فيه من البيان ويدعون إلى المحبة والإرادة الشرعية، وهي محبة الله وحده وإرادة عبادته وحده لا شريك له بما أمر به على لسان رسوله فهم لا يعبدون إلا الله ويعبدونه بما شرع وأمر، ويستمعون ما أحب استماعه وهو قوله الذي قال فيه: (أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ) وهو الذي قال فيه (فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ)[1] كما قال: (واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم)[2] وقال (وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ، فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا)[3].

والله سبحانه بين القدرة على الابتداء كقوله: (إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ) الآية[4]. ومثل قوله: (وَيَقُولُ الْإِنسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا، أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا) الآية[5]. ومثل قوله: (وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ)[6] وغير ذلك.

فالإستدلال على الخالق بخلق الإنسان في غاية الحسن والإستقامة، وهي طريقة عقلية صحيحة وهي شرعية دل القرآن عليها وهدى الناس

---

١ ـ سورة الزمر آية ١٨ .
٢ ـ سورة الزمر آية ٥٥ .
٣ ـ سورة الاعراف آية ١٤٤ .
٤ ـ سورة الحج آية ٥ .
٥ ـ سورة مريم آية ٦٦ .
٦ ـ سورة يس آية ٧٨ .

إليها وبينها وأرشد إليها وهي عقلية ، فإن نفس كون الإنسان حادثاً بعد أن لم يكن ، ومولوداً ومخلوقاً من نطفة ، ثم من علقة ، هذا لم يعلم بمجرد خبر الرسول ، بل هذا يعلمه الناس كلهم بعقولهم سواء أخبر به الرسول أو لم يخبر لكن الرسول أمر أن يستدل به ، ودل به وبينه واحتج به فهو دليل شرعي لأن الشارع استدل به وأمر أن يستدل به ، وهو عقلي لأنه بالعقل تعلم صحته وكثير من المتنازعين في المعرفة ، هل تحصل بالشرع أو بالعقل لا يسلكونه ، وهو عقلي شرعي ، وكذلك غيره من الأدلة التي في القرآن مثل الإستدلال بالسحاب والمطر هو مذكور في القرآن في غير موضع وهو عقلي شرعي كما قال تعالى : (أَوَلَمْ يَرَوا أَنَّا نَسُوقُ المَاءَ إلى الأرضِ الجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرعاً تَأْكُلُ مِنهُ أنعامهم وأَنفُسُهم أَفَلاَ يُبْصِرون)[1] . فهذا مرئي بالعيون . وقال تعالى : (سَنُرِيهِم آياتنا في الآفاق وفي أنفُسِهِم حَتَّى يَتَبَيَّنَ لهُم أَنهُ الحَقّ)[2] . ثم قال : (أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنهُ عَلَى كُلِّ شيءٍ شَهِيد)[3] .

فالآيات التي يريها الناس حتى يعلموا أن القرآن حق هي آيات عقلية يستدل بها العقل على أن القرآن حق وهي شرعية دل الشرع عليها وأمر بها ، والقرآن مملوء من ذكر الآيات العقلية التي يستدل بها العقل وهي شرعية لأن الشرع دل عليها وأرشد إليها ، ولكن كثير من الناس لا يسمى دليلاً شرعياً إلا ما دل بمجرد خبر الرسول ، وهو اصطلاح قاصر ، ولهذا يجعلون أصول الفقه هو لبيان الأدلة الشرعية الكتاب والسنة والإجماع ، والكتاب يريدون به أن يعلم مراد الرسول فقط والمقصود من أصول الفقه هو معرفة الأحكام الشرعية العملية فيجعلون الأدلة الشرعية ما دلت على الاحكام العملية فقط ويخرجون ما دل بإخبار الرسول عن أن يكون شرعياً

---

١ ـ سورة السجدة آية ٢٧ .
٢ ـ سورة السجدة آية ٥٣ .
٣ ـ سورة السجدة آية ٥٣ .

فضلاً عما دل بإرشاده وتعليمه ، ولكن قد يسمون هذا دليلاً سمعياً ، ولا يسمونه شرعياً ، وهو اصطلاح قاصر ، والأحكام العملية أكثر الناس يقولون أنها تعلم بالعقل أيضاً ، وأن العقل قد يعرف الحسن والقبح فتكون الأدلة العقلية دالة على الأحكام العملية أيضاً ، ويجوز أن تسمى شرعية ، لأن الشرع قررها ووافقها أو دل عليها وأرشد إليها ، كما قيل مثل ذلك في المطالب الخبرية كإثبات الرب ووحدانيته وصدق رسله وقدرته على المعاد أن الشرع دل عليها وأرشد إليها . وبسط هذا له موضع آخر .

والمقصود هنا أن الأشعري بنى أصول الدين في اللمع ورسالة الثغر على كون الإنسان مخلوقاً محدثاً فلا بد له من محدث ، لكون هذا الدليل مذكوراً في القرآن فيكون شرعياً عقلياً لكنه في نفس الأمر سلك في ذلك طريقة الجهمية بعينها ، وهو الإستدلال على حدوث الإنسان بأنه مركب من الجواهر الفردة فلم يخل من الحوادث ، وما لم يخل من الحوادث فهو حادث ، فجعل العلم بكون الإنسان محدثاً ويكون غيره من الأجسام المشهودة محدثاً، إنما يعلم بهذه الطريقة وهو أنه مؤلف من الجواهر المفردة ، وهي لا تخلو من اجتماع وافتراق ، وتلك أعراض حادثة ، وما لم ينفك من الحوادث فهو محدث وهذه الطريقة أصل ضلال هؤلاء فإنهم أنكروا المعلوم بالحس والمشاهدة والضرورة العقلية من حدوث المحدثات المشهود حدوثها ، وادعوا أنه إنما نشهد حدوث أعراض لا حدوث أعيان مع تنازعهم في الأعراض ، ثم قالوا والأجسام لا تخلو من الأعراض ، وهذا صحيح ، ثم قالوا والأعراض حادثة ، فاضطربوا هنا ثم قالوا : وما لم يخل من الحوادث فهو حادث . وهذا أصل دينهم وهو أصل فاسد مخالف للسمع والعقل كما قد بسط في غير هذا الموضع .

والمتفلسفة أشد مخالفة للعقل والسمع منهم ، لكنهم عرفوا فساد طريقتهم هذه العقلية فاستطالوا عليهم بذلك وسلكوا ما هو أفسد منها كطريقة الإمكان

والوجوب كما قد بسط في موضع آخر ، فلبسوا هذا الباطل بالحق الذي جاء به الرسول وهو الإستدلال بحدوث الإنسان وغيره من المحدثات التي يشهد حدوثها ، فصار في كلامهم حق وباطل من جنس ما أحدثه أهل الكتاب ، حيث لبسوا الحق بالباطل ، واحتاجوا في ذلك إلى كتمان الحق الذي جاء به الرسول الذي يخالف ما أحدثوه فصاروا يكرهون ظهور ما جاء به الرسول ، بل يمنعون عن قراءة الأحاديث وسماعها وقراءة كلام السلف وسماعه ، ومنهم من ينكره قراءة القرآن وحفظه ، والذين لا يقدرون على المنع من ذلك صاروا يقرأون حروفه ولا يعلمون حدود ما أنزل الله على رسوله ، بل إن اشتغلوا بعلومه اشتغلوا بتفسير من يشركهم في بدعتهم ممن يحرفون الكلم كلم الله عن مواضعه ، والأصل العقلي الحسي الذي به فارقوا العقل والسمع هو حدوث ما يشهد حدوثه مثل حدوث الزرع والثمار ، وحدوث الإنسان وغيره من الحيوان ، وحدوث السحاب والمطر ونحو ذلك من الأعيان القائمة بنفسها ، غير حدوث الأعراض ، كالحركة والحرارة والبرودة والضوء والظلمة وغير ذلك . بل تلك الأعيان التي يسمونها أجساماً وجواهر ، هي حادثة، فإنه معلوم أن الإنسان مخلوق من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة ، وأن الثمار تخلق من الأشجار وأن الزرع تخلق من الحب ، والشجر تخلق من النوى .

قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ فَالِقُ الحَبِّ وَالنَّوى يُخْرِجُ الحَيَّ مِنَ المَيِّتِ وَمُخْرِجُ المَيِّتِ مِنَ الحَيِّ ذلكم اللهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَاعِلُ الليل سَكَناً وَالشَّمْسَ وَالقَمَرَ حُسْبَاناً ذلك تَقْدِيرُ العزيزِ العَلِيمِ وَهُوَ الذي جَعَلَ لكم النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا في ظُلُمَاتِ البَرِّ وَالبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يعلمون وَهُوَ الذي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ وَهُوَ الذي أنزل مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ

شيء فأخرجنا منه خضراً نخرج منه حباً متراكباً ومن النخل من طلعها قنوان دانية ، وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبهاً وغير متشابه انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون) [1]. فهذا الإنسان والشجر والزرع المخلوق من مادة قد خلق منها عين قائمة بنفسها .

وهم يقولون إنما هي من الجسم القائم بنفسه ، وهو الجوهر العام في اصطلاحهم الذي يقولون أنه مركب من الجواهر المفردة . وهل الذي خلق من المادة هو أعيان أم لم يخلق إلا أعراض قائمة بغيرها، وأما الأعيان فهي الجواهر المفردة ، وتلك منها شيء في هذه الحوادث ، ولكن أحدث فيها جمع وتفريق ، فكان خلق الإنسان وغيره هو تركيب تلك الجواهر وإحداث هذا التركيب لا إحداث تلك الجواهر . وأما حدوث تلك الجواهر فإنما يعلم بالإستدلال فيستدل عليه بأن الجواهر التي تركبت منها هذه الأجسام لا تخلو من اجتماع وافتراق والإجتماع والإفتراق حادث ، وما لم يخل من الحوادث فهو حادث فهذه طريق هؤلاء الجهمية أهل الكلام المحدث .

وأما جمهور [2] العقلاء فيقولون بل نحن نعلم حدوث هذه الأعيان

---

١ — سورة الانعام آية ٩٥ — ٩٦ — ٩٧.

٢ — قوله : واما جمهور العقلاء فيقولون : الخ يمكن توجيه هذا الالزام الذي ذكره رحمه الله الى أولئك الفلاسفة ومن تابعهم من المتكلمين الذين يرون ما حكاه عنهم من ان الجواهر الفردة في الاصول والآباء تظل متنقلة في الفروع والمواليد الى ما لا نهاية ، وهذا منتهى ما وصلت اليه عقول المخصصين من جميع الناس في هذه الامصار ، وليس الامر كما زعم هذا ، ولا هذا ولكن لا ينبغي ان يتهكم على ذلك الاغرار بسرد ما كشفته الطبيعة والكيمياء اليوم ، فلو كان ابن تيمية في هذا العصر لبز اهل المشارق والمغارب في فلسفتهم الحاضرة بعبقريته التي لا يستطيع التاريخ ان يعثر لها على نظير في الفلاسفة او المتكلمين ، ولو كان مثل داروين ونيوتن ووليم طمسون وديكارت ، واضرابهم من اساطين

القائمة بنفسها، لا نقول أنه لم يحدث إلا عرض ، فإن هذا القول يقتضي أن تلك الجواهر التي ركب منها آدم باقية لم يزل في كل آدمي منها شيء، وهذا مكابرة، فإن بدن آدم لا يحتمل هذا كله ، لا يحتمل أن يكون فيه جواهر بعدد ذريته لا سيما وكل آدمي إنما خلق من مني أبويه ، وهم يقولون تلك الجواهر التي في مني الأبوين باقية بأعيانها في الولد ، وهم يقولون أن الجواهر لا تفنى بل تنتقل من حال إلى حال .

وكثير منهم يقول أنها مستغنية عن الرب بعد أن خلقها، وتحيروا فيما إذا أراد أن يفنيها، كيف يفنيها؟ كما قد ذكر في غير هذا الموضع. إذ المقصود هنا التنبيه على أن أصل الأصول معرفة حدوث الشيء من الشيء كحدوث الإنسان من المني ، فهؤلاء ظنوا أنه لا يحدث إلا الأعراض . ولهذا لما ذكر أبو عبدالله بن الخطيب الرازي في كتبه الكبار والصغار، الطرق الدالة على إثبات الصانع لم يذكر طريقاً صحيحاً ، وليس في كتبه وكتب أمثاله طريق صحيح لإثبات الصانع ، بل عدلوا عن الطرق العقلية التي يعلمها العقلاء بفطرتهم ، وهي التي دلتهم عليها الرسل إلى طرق سلكوها مخالفة للشرع والعقل ، لا سيما من سلك طريقة الوجوب والإمكان متابعة لابن سينا كالرازي، فإن هؤلاء من أفسد الناس استدلالاً كما قد ذكرنا طرق عامة



الفلسفة الحاضرة في أيام ابن تيمية ما داناه احد منهم في عقليته الفلسفية ، ولكانوا عيالا عليه .

يوقن بذلك من عرف الرجل وخبره وطالع كتبه الكثيرة مطولة ومختصرة في مناقشة الفلاسفة والمتكلمين .

هذا وقد اثبتت علوم الطبيعة والكيمياء الآن ان جميع الاجسام مركبة من ذرات باقية تتحلل وتتركب وتخرج من هذا الجسم وتدخل في الآخر ، وان الاجسام المغتذية وهي مواليد الطبيعة الثلاثة الانسان والحيوان والنبات ليست لها شخصيات ثابتة بل هي دائمة التحليل والتركيب بالافراز والاغتذاء حتى ان جسم الانسان يتجدد كله بعد بضع سنين لا تبقى فيه ذرة مما كان قبل ذلك فذرات المادة باقية ثابتة هي موجودة قبل جميع المركبات ولا يحدث ولا ينعدم الا الاعراض .

النظار في غير هذا الموضع ،مثل كتاب منع تعارض العقل والنقل وغير ذلك.

والمقصود هنا أن الرازي ذكر أن ما يستدل به على إثبات الصانع ، إما حدوث الأجسام ، وإما حدوث صفاتها ، وإما إمكانها ، وإما إمكان صفاتها. وذكر في بعض المواضع. وإما الاحكام والإتقان ، لكن الإحكام والإتقان يدل على العلم ابتداء ، والإستدلال بحدوث الأجسام وإمكانها وإمكان صفاتها طرق فاسدة ، فإن دلالة حدوثها مبنية على امتناع حوادث لا أول لها ، ودلالة إمكانها مبنية على أن ما قامت به الصفات يمتنع أن يكون واجباً بنفسه لأنه مركب ودلالة صفاتها مبنية على تماثلها ، فلا بد لتخصيص بعضها بالصفات من مخصص ، وهذه كلها طرق باطلة ، قال : وأما الإستدلال بحدوث الصفات فهو الإستدلال بحدوث الأعراض وهذه الطريق أجود ما سلكوه من الطرق مع أنها قاصرة ، فإن مدارها على أنهم لم يعرفوا حدوث شيء من الأعيان،وإنما علموا حدوث بعض الصفات ، وهذا يدل على أنه لا بد لها من محدث .

قال وهذا لا ينفي كون المحدث جسماً بخلاف تلك الطرق ، وهذه الطريق تدل على أن الاعراض كتركيب الإنسان لا بد له من مركب ولا ينفي بها شيء من قدم الأجسام والجواهر ، بل يجوز أن يكون جميع جواهر الإنسان وغيره قديمة أزلية ، لكن حدثت فيها الأعراض . ويجوز أن يكون المحدث للأعراض بعض أجسام العالم ، فهذه الطريق لا تنفي أن يكون الرب بعض أجسام العالم وتلك باطلة ، مع أن مضمونها أن الرب لا يتصف بشيء من الصفات ، فهي لا تدل على صانع وإن دلت على صانع فليس بموجود بل معدوم أو متصف بالوجود والعدم ، كما قد بسط في غير موضع .

ولهذا يقول الرازي في آخر مصنفاته[1] : لقد تأملت الطرق الكلامية

---

١ ــ ذكر هذا في كتابه نهاية العقول كما يأتي بوجه بعد قريبا .

والمناهج الفلسفية فما رأيتها تشفي عليلاً ، ولا تروي غليلاً ، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن ، اقرأ في الإثبات : (إليه يصعد الكلم الطيب)[1] . (الرحمن على العرش استوى) واقرأ في النفي : (ليس كمثله شيء)[2] . (ولا يحيطون به علماً)[3] . قال ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي .

ولما ذكر الرازي الإستدلال بحدوث الصفات كالحيوان والنبات والمطر ، ذكر أن هذه طريقة القرآن ولا ريب أن القرآن يذكر فيه الإستدلال بآيات الله كقوله : (إن في خلق السموات والإرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون)[4]. وهذا مذكور بعد قوله : (وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم)[5] وقبل قوله : (ومن الناس من يتخذ من دونه أنداداً يحبونهم كحب الله)[6] . لكن القرآن لم يذكر أن هذه صفات حادثة ، وأنه ليس فيها أحداث عين قائمة بنفسها ، بل القرآن يبين أن في خلق الأعيان القائمة بنفسها آيات ويذكر الآيات في خلق الأعيان والأعراض كقوله : (إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس) وهي أعيان ، ثم قال (وما أنزل الله من السماء من ماء) ، والماء عين قائمة بنفسها ، وقوله (فأحيا به الأرض بعد موتها) هو بما يخلقه فيها من النبات وهو أعيان ، وكذلك قوله : (وبث فيها من كل

---

١ ــ سورة فاطر آية ١٠ .
٢ ــ سورة الشورى آية ١١ .
٣ ــ سورة آل عمران آية ١١٠ .
٤ ــ سورة البقرة آية ١٦٤ .
٥ ــ سورة البقرة آية ١٦٣ .
٦ ــ سورة البقرة آية ١٦٥ .

دابّةٍ)، وقوله (وَتَصْريفِ الرِّياح) فالرياح أعيان وتصريفها أعراض.
وقوله : (والسَّحَابِ المسخرِ بَيْنَ السَّمَاء والأرض) والسحاب أعيان (لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعقِلون) . وقد تقدم أن أصل الإشتباه في هذا أن خلق الشيء من مادة هل هو خلق عين أم احداث اجتماع وافتراق واعراض فقط ، والناس مختلفون في هذا على ثلاثة أقوال : فالقائلون بالجواهر الفردة من أهل الكلام القائلون بأن الاجسام مركبة من الجواهر الصغار التي قد بلغت من الصغر إلى حد لا يتميز منها جانب عن جانب ، يقولون تلك الجواهر باقية تنقلت في الحوادث ولكن تعتقب عليها الاعراض الحادثة والاستدلال بالاعراض على حدوث ما يلزمه من الجواهر ، ثم الإستدلال بذلك على المحدث غير الإستدلال بحدوث هذه الأعراض على المحدث لها، فتلك هي طريقة الجهمية المشهورة ، وهي التي سلكها الأشعري في كتبه كلها متابعة للمعتزلة ، ولهذا قيل الأشعرية مخانيث المعتزلة .

وأما الإستدلال بالحوادث على المحدث ، فهي الطريقة المعروفة لكل أحد ، لكن تسمية هذه أعراضاً هو تسمية القائلين بالجوهر الفرد ، مع أن الرازي توقف في آخر أمره فيه ، كما ذكر ذلك في نهاية العقول . وذكر أيضاً عن أبي الحسين البصري وأبي المعالي أنهما توقفا فيه . والمقصود أن القائلين بالجوهر الفرد يقولون إنما أحدث أعراضاً كجمع الجواهر وتفريقها ، فالمادة التي هي الجواهر المنفردة باقية عندهم بأعيانها ولكن أحدث صوراً هي أعراض قائمة بهذه الجواهر ، وأما المتفلسفة فيقولون أحدث صوراً في مواد باقية كما يقول هؤلاء، لكن يقولون أحدث صوراً هي جواهر في مادة هي جوهر ، وعندهم ثم مادة باقية بعينها والصور الجوهرية ، كصورة الماء والهواء والتراب والمولدات تعتقب عليها ، وهذه المادة عندهم جوهر عقلي ، وكذلك الصورة المجردة جوهر عقلي ، ولكن الجسم مركب من المادة والصورة ، ولهذا قسموا الموجودات ، فقالوا إما

أن يكون الموجود حالاً بغيره أو محلاً أو مركباً من الحال والمحل ، أو لا هذا ولا هذا ، فالحال في غيره هو الصورة ، والمحل هو المادة ، والمركب منهما هو الجسم ، وما ليس كذلك إن كان متعلقاً بالجسم فهو النفس ، وإلا فهو العقل ، وهذا التقسيم فيه خطأ كثير من وجوه ليس هذا موضعها ، إذ المقصود أنهم يقولون أيضاً أنه لم يحدث جسماً قائماً بنفسه ، بل إنما أحدث صورة في مادة باقية ، ولا ريب أن الأجسام بينها قدر مشترك في الطول والعرض والعمق ، وهو المقدار المجرد الذي لا يختص بجسم بعينه ، ولكن هذا المقدار المجرد هو في الذهن لا في الخارج كالعدد المجرد ، والسطح المجرد ، والنقطة المجردة ، وكالجسم التعليمي وهو الطويل العريض العميق الذي لا يختص بمادة بعينها .

فهذه المادة المشتركة التي أثبتوها هي في الذهن وليس بين الجسمين في الخارج شيء اشتركا فيه بعينه ، فهؤلاء جعلوا الأجسام مشتركة في جوهر عقلي ، وأولئك جعلوها مشتركة في الجواهر الحسية ، وهؤلاء قالوا إذا خلق كل شيء من شيء فإنما أحدثت صورة مع أن المادة باقية بعينها لكن أفسدت صورة وكونت صورة ، ولهذا يقولون عن ما تحت الفلك عالم الكون والفساد ، ولهذا قال ابن رشد أن الأجسام المركبة من المادة والصورة هي في عالم الكون والفساد بخلاف الفلك فإنه ليس مركباً من مادة وصورة عند الفلاسفة .

قال وإنما ذكر أنه مركب من هذا ، وهذا ابن سينا ، وهؤلاء تحيروا في خلق الشيء من مادة كخلق الإنسان من النطفة ، والحب من الحب ، والشجرة من النواة . وظنوا أن هذا لا يكون إلا مع بقاء أصل تلك المادة ، أما الجواهر عند قوم ، وإما المادة المشتركة عند قوم . وهم في الحقيقة ينكرون أن يخلق الله شيئاً من شيء فإنه عندهم لم يحدث إلا الصورة التي

هي عرض عند قوم أو جوهر عقلي عند قوم، وكلاهما لم يخلق من مادة، والمادة عندهم باقية بعينها لم يخلق ولن يخلق منها شيء .

وقد ذكروا في قوله (أم خلِقـُوا من غيرِ شيْءٍ) [1] ثلاثة أمور : قال ابن عباس والأكثرون ، أم خلقوا من غير خالق وهو الذي ذكره الخطابي . وقال الزّجاجْ وابن كيسان أم خلقوا عبثاً وسدى فلا يبعثون ولا يحاسبون ولا يؤمرون ، ولا ينهون كما يقول : فعلت هذا من غير شيء أي لغير علة .

وقيل أم خلقوا من غير مادة أي من غير أب وأم . ثم من هؤلاء من قال فهم كالجماد ، ومنهم من قال كالسموات ظناً منه أنها خلقت من غير مادة . ذكر الاربعة أبو الفرج . وذكر البغوي الوجهين الأولين .

والذي ذكرناه من قول أولئك المتكلمين والفلاسفة معنى آخر ، وهو أن من قال المادة باقية بعينها وإنما حدث عرض أو صورة ، وذلك لم يخلق من غيره ، ولكن أحدث في المادة الباقية . فلا يكون الله خلق شيئاً من شيء ، لأن المادة عندهم لم تخلق ، أما المتفلسفة فعندهم المادة قديمة أزلية باقية بعينها ، وأما المتكلمون فالجواهر عندهم موجودة ما زالت موجودة ، لكن من قال أنها حادثة من أهل الملل وغيرهم قالوا يستدل على حدوثها بالدليل، لا أن خلقها معلوم للناس، فهو عندهم مما يستدل عليه بالأدلة الدقيقة الخفية مع أن ما يذكرونه منتهاه إلى أن ما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث وهو دليل باطل ، فلا دليل عندهم على حدوثها ، وإذا كانت لم تخلق إذ خلق الإنسان بل هي باقية في الانسان ، والأعراض الحادثة لم تخلق من مادة ، فإذا خلق الإنسان لم يخلق من شيء لا جواهره ولا أعراضه . وعلى قولهم ما جعل الله من الماء كل شيء حي ، ولا خلق كل

---

1 ـ سورة الطور آية ٣٥ .

دابة من ماء ، ولا خلق آدم من تراب ، ولا ذريته من نطفة ، بل نفس الجواهر الترابية باقية بعينها لم تخلق حينئذ ، ولكن أحدث فيها أعراض أو صورة حادثة ، وتلك الاعراض ليست من التراب ، فلما خلق آدم لم يخلق شيء من تراب وكذلك النطفة جواهرها ، باقية. أما الجواهر المنفردة ، وأما المادة والحادث هو عرض أو صورة في مادة ولا هذا ولا هذا خلق من نطفة ، وليس قولهم أنه لم يخلق من مادة معناه أن الخالق أبدعه لا من شيء ، وأنهم قصدوا بها تعظيم الخالق ، بل الإنسان لا ريب أنه جوهر قائم بنفسه ، وعندهم ذلك القائم بنفسه ما زال موجوداً لم يخلق إذ خلق الإنسان والجوهر الحامل لصورته ما زال موجوداً أيضاً فلم يخلق عند هؤلاء إلا الاعراض ، وعند هؤلاء إلا صورة مجردة ، وكلاهما ليس هو الإنسان بل صفة له أو صورة له ، هذا هو المخلوق عندهم يخلق الإنسان فقط . وقد قال تعالى : (أَوَلَا يَذَّكَّرُ الإنسان أَنَّا خَلَقْنَاهُ من قَبْلُ ولَمْ يَكُ شيئاً)[1] . وقال تعالى : (وَقَدْ خلقْتُكَ مِنْ قبلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً)[2] . فقد أمر الإنسان أن يتذكر أن الله خلقه ولم يك شيئاً ، والإنسان إذا تذكر إنما يذكر أنه خلق من نطفة .

وعندهم ما زال جواهر الإنسان شيئاً وذلك الشيء باق ، وإنما حدث أعراض لتلك الاشياء . ومعلوم أن تلك الاعراض وحدها ليست هي الإنسان ، فإن الإنسان مأمور منهي حي عليم قدير متكلم سميع بصير موصوف بالحركة والسكون ، وهذه صفات الجواهر والعرض لا يوصف بشيء لا سيما وهم يقولون العرض لا يبقى زمانين . فالمخلوق على قولهم لا يبقى زمانين بل يفنى عقب ما يخلق ، ولهذا اضطربوا في المعاد ، فإن معرفة المعاد مبنية على معرفة المبدأ ، والبعث مبني على الخلق ، فقال بعضهم : هو تفريق تلك الاجزاء ثم جمعها وهي باقية بأعيانها . وقال بعضهم بل

---

١ ـ سورة مريم آية ٦٧

٢ ـ سورة مريم آية ٨ .

يعدمها ويعدم الأعراض القائمة بها ثم يعيدها، وإذا أعادها فإنه يعيد تلك الجواهر التي كانت باقية ، إلى أن حصلت في هذا الإنسان ، فلهذا اضطربوا لما قيل لهم فالإنسان إذا أكله حيوان آخر ، فإن أعيدت تلك الجواهر من الأول نقصت من الثاني وبالعكس . أما على قول من يقول انها تفرق ، ثم تجمع فقيل له : تلك الجواهر إن جمعت للآكل نقصت من المأكول وإن أعيدت للمأكول نقصت من الآكل .

وأما الذي يقول تعدم ثم تعاد بأعيانها فقيل له : أتعدم لما أكلها الآكل أم قبل أن يأكلها ؟ فإن كان بعد أن أكلها فإنها تعاد في الآكل فينقص المأكول . وإن كان قبل الأكل فالآكل لم يأكل إلا أعراضاً ، لم يأكل جواهر . فهذا مكابرة ، ثم إن المشهور أن الإنسان يبلى ويصير تراباً كما خلق من تراب وبذلك أخبر الله فإن قيل إنه إذا صار تراباً عدمت تلك الجواهر فهو لما خلق من تراب عدمت أيضاً تلك الجواهر فكونهم يجعلون الجواهر باقية في جميع الاستحالات إلا إذا صار تراباً تناقض بين، ويلزمهم عليه الحيوان المأكول وغير ذلك . وكأن هذا الضلال أصل ضلالهم في تصور الخلق الأول والنشأة الأولى التي أمرهم الرب أن يتذكروها ويستدلوا بها على قدرته على الثانية . قال تعالى : (أفرأيتم ما تُمنُون أأنتم تخلقُونَه أم نحنُ الخالقون ، نحنُ قدّرنا بينكُم الموتَ وما نحنُ بمسبُوقين على أن نُبدّلَ أمثالَكُم ونُنشئكُم فيما لا تعلمُون ، ولقد علمتُم النشأةَ الأولى فلولا تذكّرُون) [1] .

والفلاسفة أجود تصوراً في هذا الموضع حيث قالوا : تفسد الصورة الأولى وهي جوهر وتحدث صورة أخرى ، فإن هذا أجود من أن يقال يزول عرض ويحدث عرض . ولكن الفلاسفة غلطوا في توهمهم أن هناك

---

١ ــ سورة الواقعة آية ٥٩ .

مادة باقية بعينها، و إنما تفسد صورتها. والحق أن المادة التي منها يخلق الثاني تفسد وتستحيل وتفنى وتتلاشى وينشىء الله الثاني ويبتديه، ويخلق من غير أن يبقى من الأول شيء لا مادة ولا صورة ولا جوهر ولا عرض. فإذا خلق الله الإنسان من المني فالمني استحال و صار علقة، والعلقة استحالت وصارت مضغة، والمضغة استحالت إلى عظام وغير عظام. والإنسان بعد أن خلق خلق كله جواهره وأعراضه وابتدأه الله ابتداء كما قال تعالى: (الذي أحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإنسان من طين، ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ)(1). وقال تعالى: (أَوَلا يَذَّكر الإنسانُ أنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا)(2). فالإنسان مخلوق، خلق الله جواهره وأعراضه كلها من المني من مادة استحالت ليست باقية بعد خلقه كما تقول المتفلسفة أن هناك مادة باقية. ولفظ المادة مشترك.

فالجمهور يريدون به ما منه خلق وهو أصله وعنصره، وهؤلاء يريدون بالمادة جوهر باق وهو محل للصورة الجوهرية، فلم يخلق عندهم الإنسان من مادة، بل المادة باقية، وأحدث صورته فيها كما أن الصور الصناعية كصورة الخاتم والسرير والثياب والبيوت وغير ذلك، إنما أحدث الصانع صورته العرضية في مادة لم تزل موجودة ولم تفسد، لكن حولت من صفة إلى صفة. فهكذا تقول الجهمية المتكلمة المبتدعة أن الله أحدث صورة عرضية في مادة باقية لم تفسد، فيجعلون خلق الإنسان بمنزلة عمل الخاتم والسرير والثوب.

والمتفلسفة تقول أيضاً إن مادته باقية لم تفسد كمادة الصورة الصناعية، لكن يقولون أنه أحدث صورة جوهرية، وهم قد يخلطون ولا يفرقون بين

---

1 — سورة السجدة آية ٧ . ٢ — سورة مريم آية ٦٧ .

الصور العرضية والجوهرية، فإنهم يسمون صورة الإنسان صورة في مادة، وصورة الخاتم صورة في مادة، فيكون خلق الإنسان عند هؤلاء وهؤلاء من جنس ما يحدثه الناس في الصور من المواد ويكون خلقه بمنزلة تركيب الحائط من اللبن. ولهذا قال من قال منهم أنه يستغني عن الخالق بعد الخلق كما يستغني الحائط عن البنّاء.

والأشعرية عندهم أن البناء والخياط وسائر أهل الصنائع لم يحدثوا في تلك المواد شيئاً. فإن القدرة المحدثة عندهم لا تتعلق إلا بما هو في محلها لا خارجاً عن محلها. ويقولون إن تلك المصنوعات كلها مخلوقة لله ليس الإنسان فيها صنع، وخلق الله لها على أصلهم هو إحداث أعراض فيها كما تقدم فينكرون ما يصنعه الإنسان وهو في الحقيقة مثلما يجعلونه مخلوقاً للرحمن، وهم لا يشهدون للرحمن احداثاً ولا افناء، بل إنما يحدث عندهم الاعراض، وهي تفنى بأنفسها لا بافنائه، وهي تفنى عقب احداثها.

وهذا لا يعقل وهم حائرون إذا أراد أن يعدم الأجسام كيف يعدمها والمشهور عندهم أنها تعدم بأنفسها إذا لم يخلق لها أعراضاً. فالعرض يفنى عندهم بنفسه والجوهر يفنى بنفسه إذا لم يخلق له عرض بعد عرض، هذا في الافناء. وأما في الاحداث فإنهم استدلوا على حدوثها بدليل باطل لو كان صحيحاً للزم حدوث كل شيء من غير محدث.

فحقيقة أصل أهل الكلام المتبعين للجهمية أنه لا يحدث شيئاً ولا يفنى شيئاً بل يحدث كل شيء بنفسه ويفنى بنفسه، ويلزمهم جواز أن يكون الرب محدثاً أيضاً بلا محدث. وهذه الأصول هي أصول دينهم العقلية التي بها يعارضون الكتاب والسنة والمعقولات الصريحة، وهي في الحقيقة لا عقل ولا سمع، كما حكى الله عن من قال: ﴿ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ ما كُنَّا في أَصْحابِ السَّعِيرِ ﴾[1]. والخلق يشهدون أحداث الله

---

١ ـ سورة الملك آية ١٠.

لما يحدثه وافناءه لما يفنيه ، كالمني الذي استحال وفني وتلاشى وأحدث منه هذا الإنسان ، وكالحبة التي فنيت واستحالت وأحدث منها الزرع ، وكالهواء الذي استحال وفني وحدث منه النار أو الماء؛ وكالنار التي استحالت وحدث منها الدخان ، فهو سبحانه دائماً يحدث ما يحدثه ويكونه ويفني ما يفنيه ويعدمه . والإنسان إذا مات وصار تراباً فني وعدم ، وكذلك سائر ما على الأرض كما قال : (كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ) [1] . ثم يعيده من التراب كما خلقه ابتداء من التراب ويخلقه خلقاً جديداً . ولكن للنشأة الثانية أحكام وصفات ليست للأولى فمعرفة الإنسان بالخالق الأول ، وما يخلقه من بني آدم وغيرهم من الحيوان، وما يخلقه من الشجر والنبات والثمار ، وما يخلقه من السحاب والمطر وغير ذلك هو أصل لمعرفته بالخالق والبعث بالمبدأ والمعاد، وإن لم يعرف أن الله يخلقه كله من المني جواهره وأعراضه ، وإلا فما عرف أن الله خلقه . ومن ظن أن جواهره ، لم يخلقها ، إذ خلقه بل جواهر المني وجواهر ما يأكله ويشربه باقية بعينها فيه لم يخلقها أو أن مادته التي تقوم بها صورته لم يخلقها إذ خلقه بل هي باقية أزلية أبدية لم يكن قد عرف أنه مخلوق محدث .

والعلماء ينكرون على من يقول : أن روح الإنسان قديمة أزلية من المنتسبين إلى الإسلام ، وهؤلاء الذين يقولون أن مادة جسمه باقية بعينها وهي أزلية أبدية أبعد عن العقل والنقل منهم ، وأولئك أنكروا عليهم حيث قالوا : الإنسان مركب من قديم ومحدث من لاهوت قديم وناسوت محدث . أو هؤلاء جعلوه مركباً من مادة قديمة أزلية وصورة محدثة ، وجعلوا القديم الأزلي فيه أخس ما فيه وهو المادة ، فإنها عندهم أخس الموجودات وهي قديمة أزلية، وأولئك جعلوا القديم الأزلي أشرف ما فيه

---

١ - سورة الرحمن آية ٢٦ .

وهي النفس الناطقة . وكلا الطائفتين وإن كان ضالاً ، فالشريف العالي أولى بالقدم من الخسيس السافل وهذا أولى بالحدوث .

وأما المتكلمة الجهمية فهم لا يتصورون ما يشهدونه من حدوث هذه الجواهر في جواهر أخر من مادة ، ثم يدعون أن الجواهر جميعها أبدعت ابتداء لا من شيء ، وهم لم يعرفوا قط جوهراً أحدث لا من شيء كما لم يعرفوا عرضاً أحدث لا في محل. وحقيقة قولهم أن الله لا يحدث شيئاً من شيء لا جوهراً ولا عرضاً ، فإن الجواهر كلها أحدثت لا من شيء والأعراض كذلك .

والمشهود المعلوم للناس [1] إنما هو إحداثه لما يحدثه من غيره لا احداثاً من غير مادة ، ولهذا قال تعالى : (وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً)[2]. ولم يقل خلقتك لا من شيء وقال تعالى : (واللهُ خَلَقَ كُلَّ دابةٍ من ماءٍ)[3] . ولم يقل خلق كل دابة لا من شيء . وقال تعالى : (وَجَعَلْنَا مِنَ الماءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ)[4]. وهذا هو القدرة التي تبهر العقول وهو أن يقلب حقائق الموجودات فيحيل الأول ويفنيه ويلاشيه ، ويحدث شيئاً آخر كما قال : (فَالِقُ الحَبِّ والنَّوى يُخرِجُ

---

١ ـ قوله والمشهود الخ اطال في هذه المسألة واسهب سابقا ولاحقا واورد الزامات ونقوضا عقلية ونقلية . وكل ذلك انما يرد على هذه المسألة اذا كانت حقيقتها هي بحسب ما وصلت اليه مدارك اولئك الفلاسفة ومن تابعهم من المتكلمين ، فهذا ابدع النقوض عليهم واسجبها . ولكن حقيقة هذه المسألة تجلت الآن على غير ذلك ، فان الكيمياء الآن بقسميها عضوية وغير عضوية تقوم بتحليل جميع الاجسام الى عناصرها التي تركبت منها بعملية دقيقة هي برهان حسي لا ريب فيه .

بل تستطيع الكيمياء غير العضوية التي تعمد الى العناصر البسيطة فتركب منها اجساما جديدة ذات خواص واوصاف غير خواص عناصرها واوصافها ، ثم تحلل تلك الاجسام فتعيدها الى عناصرها ثانية ، واما ما ذكر من النصوص النقلية فليست نصا فيما اراده ولا تناقض ما كشفه العلم اليوم من امر المسألة .

٢ ـ سورة مريم آية ٨ .

٣ ـ سورة النور آية ٤٥ .

٤ ـ سورة الانبياء آية ٣٨ .

الحَيَّ مِن المَيْتِ ومُخْرِجُ المَيْتِ مِن الحَيِّ) [1] ويخرج الشجرة الحية والسنبلة الحية من النواة والحبة الميتة ، ويخرج النواة الميتة والحبة الميتة من الشجرة والسنبلة الحية كما يخرج الإنسان الحي من النطفة الميتة ، والنطفة الميتة من الإنسان الحي ، وعندهم لا يخرج حياً من ميت ولا ميتاً من حي ، فإن الحي والميت إنما هو الجوهر القائم بنفسه ، فإن الحياة عرض لا يقوم إلا بجوهر ، والعرض نفسه لا يقوم بعرض آخر ، وإن كان العرض يوصف بأنه حي كما يقال قد أحييت العلم والإيمان ، وأحييت الدين ، وأحييت السنة والعدل ، كما يقال أمات البدعة . فهؤلاء عندهم لا يخرج جوهراً من جوهر ولا عرضاً من عرض ، فلا يخرج حياً من ميت ولا ميتاً من حي ، بل الجواهر التي كانت في الميت هي بعينها باقية كما كانت ، ولكن أحدث فيها حياة لم تكن .

وتلك الحياة لم تخرج من ميت ، فما أخرج عندهم حي من ميت ولا ميت من حي . ولهذا ينكرون أن يقلب الله جنساً إلى جنس آخر . ويقولون الجواهر كلها جنس واحد ، فإذا خلق النطفة إنساناً لم يقلب عندهم جنساً إلى جنس ، بل نفس الجواهر هي باقية كما كانت ، وخاصية الخلق إنما هي بقلب جنس إلى جنس ، وهذا لا يقدر عليه إلا الله كما قال تعالى : (يَا أيهَا النَّاسُ ضُرِب مثلٌ فَاستمعوا لَهُ إنَّ الَّذين تَدْعُون من دُون الله لَنْ يخْلقُوا ذُبَاباً ولَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وإنْ يسلبهُم الذُبابُ شَيئاً لا يَسْتَنقِذُوهُ مِنهُ ضعف الطَّالِبُ والمَطْلُوبُ مَا قَدرُوا الله حَقَّ قَدْرِهِ إنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ) [2] .

ولا ريب أن النخلة ما هي من جنس النواة ، ولا السنبلة من جنس الحبة ، ولا الإنسان من جنس المني ، ولا المني من جنس الإنسان ، وهو يخرج هذا من هذا ، وهذا من هذا ، فيخرج كل جنس من جنس آخر

---

١ ـ سورة الانعام آية ٩٥ .

٢ ـ سورة الحج آية ٧٣ .

بعيد عن مماثلته . وهذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه وهو سبحانه إذا جعل الأبيض أسود أعدم ذلك البياض ، وجعل موضعه السواد، لا أن الأجسام تعدم تلك المادة فتحيلها وتلاشيها وتجعل منها هذا المخلوق ، الجديد، ويخلق الضد من ضده ، كما جعل من الشجر الأخضر ناراً فإذا حك الأخضر بالأخضر سخن ما يسخنه با لحركة حتى ينقلب نفس الأخضر فيصير ناراً . وعلى قولهم ما جعل فيه ناراً بل تلك الجواهر باقية بعينها وأحدث فيها عرض لم يكن . وخلق الشيء من غير جنسه أبلغ في قدرة القادر الخالق سبحانه وتعالى كما وصف نفسه بذلك في قوله : ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾[1] . ولهذا قال للملائكة ﴿ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾[2] وقال : ﴿ أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ ﴾[3] .

ولهذا امتنع اللعين كما قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً ﴾[4] ، وقال : ﴿ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ﴾[5] . وأيضاً فكون الشيء مخلوقاً من مادة وعنصر أبلغ في العبودية من كونه خلق لا من شيء وأبعد عن مشابهة الربوبية ، فإن الرب هو أحد

---

١ ـ سورة آل عمران آية ٢٦ .
٢ ـ سورة ص آية ٧١
٣ ـ سورة المرسلات آية ٢٠ .
٤ ـ سورة الاسراء آية ٦١ .
٥ ـ سورة الحجر آية ٢٣ .

صمد ، لم يلد ، ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد ، فليس له أصل وجد منه ولا فرع يحصل عنه ، فإذا كان المخلوق له أصل وجد منه كان بمنزلة الولد له ، وإذا خلق له شيء آخر كان بمنزلة الوالد ، وإذا كان والداً ومولوداً كان أبعد عن مشابهة الربوبية والصمدية ، فإنه خرج من غيره ، ويخرج منه غيره ، لا سيما إذا كانت المادة التي خلق منهامهينة كما قال تعالى : (أَلَمْ نَخْلُقكُّمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ) [1] وقال تعالى : (فَلْيَنظُرِ الإِنسانُ مِمَّ خُلِقَ خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ) [2]. وفي المسند عن بشر بن جحاش قال : « بصق رسول الله ﷺ في كفه فوضع عليها إصبعه ثم قال : يقول الله تعالى : ابن آدم أنى تُعجزني وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن مِثْلِ هَذه حتى إذا سَوَّيتكَ وَعَدلتك مشَيْتَ بَيْنَ بَرْدين وَلِلأَرض مِنكَ وَئيدٌ فَجَمعتَ وَمَنَعْتَ حَتى إذا بَلَغَتَ التَراقي قُلتَ أتصدق وأنى أوان الصدقة ». وكذلك إذا خلق في محل مظلم وضيق كما خلق الإنسان في ظلمات ثلاث كان أبلغ في قدرة القادر . وأدل على عبودية الإنسان وذله لربه وحاجته إليه .

وقد يقول المُعيّر للرجل مالك أصل ولا فصل ، ولكن الإنسان أصله التراب وفصله الماء المهين. ولهذا لما خلق المسيح من غير أب وقعت به الشبهة لطائفة . وقالوا إنه ابن الله مع أنه لم يخلق إلا من مادة من أمه ، ومن الروح التي نفخ فيها . كما قال تعالى : (وَمَرْيَمَ ابْنَةَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا) [3] وقال تعالى أيضاً : (فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا) [4]. فما خلق

---

١ ــ سورة المرسلات آية ٢٠ .
٢ ــ سورة الطارق آية ٥ ــ ٦ .
٣ ــ سورة التحريم آية ١٢ .
٤ ــ سورة مريم آية ١٩ .

من غير مادة تكون كالأب له قد يظن فيه أنه ابن الله ، وأن الله خلقه من ذاته .

فلهذا كانت الانبياء مخلوقة من مادة لها أصول ومنها فروع لها والد ومولود، والأحد الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد . وحدوث الشيء لا من مادة قد يشبه حدوثه من غير رب خالق وقد يظن أنه حدث من ذات الرب كما قيل مثل ذلك في المسيح والملائكة أنها بنات الله لما لم يكن لها أب مع أنها مخلوقة من مادة كما ثبت في الصحيح ، صحيح مسلم عن عائشة « أن النبي ﷺ قال : خُلِقَتْ المَلائِكَة مِنْ نُور ، وَخُلِقَ الجَانّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ ، وَخُلِقَ آدَمَ مِمَا وُصِفَ لَكُم [1] » .

ولما ظن طائفة أنها لم تخلق من مادة ظنوا أنها قديمة أزلية ، وأيضاً فالدليل الذي احتج به كثير من الناس على أن كل حادث لا يحدث إلا من شيء أو في شيء ، فإن كان عرضاً لا يحدث إلا في محل ، وإن كان عيناً قائمة بنفسها لم تحدث إلا من مادة ، فإن الحادث إنما يحدث إذا كان حدوثه ممكناً ، وكان يقبل الوجود والعدم فهو مسبوق بإمكان الحدوث وجوازه فلا بد له من محل يقوم به هذا الإمكان والجواز ، وقد تنازعوا في هذا هل الإمكان صفة خارجية لا بد لها من محل ، أو هي حكم عقلي لا يفتقر إلى غير الذهن . والتحقيق أنه نوعان : فالإمكان الذهني وهو تجويز الشيء أو عدم العلم بامتناعه محل الذهن والإمكان الخارجي المتعلق بالفاعل ، أو المحل مثل أن تقول يمكن القادر أن يفعل .

والمحل مثل أن تقول هذه الأرض يمكن أن تزرع ، وهذه المرأة يمكن أن تحبل ، وهذا لا بد له من محل خارجي . فإذا قيل عن الرب يمكن أن يخلق فمعناه أنه يقدر على ذلك ويتمكن منه ، وهذه صفة قائمة به ، وإذا

---

١ ــ الجان الجن ، والمارج اللهب المختلط بسواد النار .

قيل يمكن أن يحدث حادث ، فإن قيل يمكن حدوثه بدون سبب حادث فهو ممتنع ، وإذا كان الحدوث لا بد له من سبب حادث ، فذاك السبب إن كان قائماً بذات الرب فذاته قديمة أزلية . واختصاص ذلك الوقت بقيام مشيئة أو تمام تمكن ، ونحو ذلك لا يكون إلا لسبب قد أحدثه قبل هذا في غيره ، فلا يحدث حادث مباين إلا مسبوقاً بحادث مباين له .

فالحدوث مسبوقاً بإمكانه ، ولا بد لإمكانه من محل . ولهذا لم يذكر الله قط أنه أحدث شيئاً إلا من شيء . والذي يقول أن جنس الحوادث حدثت لا من شيء هو كقولهم أنها حدثت بلا سبب حادث ، مع قولهم أنها كانت ممتنعة ثم صارت ممكنة من غير تجدد سبب. بل حقيقة قولهم أن الرب صار قادراً بعد أن لم يكن من غير تجدد شيء ، يوجب ذلك .

وهذه الأمور كلها من أقوال الجهمية أهل الكلام المحدث المبتدع المذموم ، وهو بناء على قولهم أنه تمتنع حوادث لا أول لها . وهؤلاء وأمثالهم غلطوا فيما جاء به الشرع وأخبرت به الرسل كما غلطوا في المعقولات . فكل واحد مما يسمى شرعاً وعقلاً وسمعاً قد وقع فيه اشتباه . فالشرع يطلق تارة على ما جاء به الرسول من الكتاب والسنة ، هذا هو الشرع المنزل ، وهو الحق الذي ليس لأحد خلافه . ويطلق على ما يضيفه بعض الناس إلى الشرع إما بالكذب والافتراء ، وإما بالتأويل والغلط ، وهذا شرع مبدل لا منزل ولا يجب ، بل ولا يجوز اتباعه .

وكذلك لفظ السنة فإن السنة التي يجب اتباعها هي سنة رسول الله ﷺ والسنة تذكر في الأصول والإعتقادات وتذكر في الأعمال والعبادات ، وكلاهما يدخل فيما أخبر به وأمر به . فما أخبر به وجب تصديقه فيه ، وما أوجبه وأمر به وجبت طاعته فيه . ثم كثير من الناس يضيف إلى السنة ما أدخله بعض الناس فيها إما بالكذب وإما بالتأويل مثل أحاديث كثيرة

ضعيفة بل موضوعة ، واستدلالات بأقواله على ما لا يدل عليه . ومثل أقوال أحدثها قوم انتسبوا إلى السنة في بعض الأمور ، مثل إثبات الصفات والقدر ، فإن المنتسبين لذلك يضافون إلى السنة ، لأن نفاة الصفات والقدر مبتدعة ، وكذلك حب الخلفاء الراشدين وموالاتهم يضاف أهله إلى السنة لأن الطاعنين فيهم أهل بدعة . ومثل الإستدلال بالنصوص على موارد النزاع فإن أهل ذلك يضافون إلى السنة لكونهم يقصدون اتباع القرآن والحديث والمخالفون لذلك الذين يردون الاخبار الصحيحة أو لا يحتجون بالقرآن مبتدعون .

ثم قد يقول المضافون إلى السنة أشياء ليست من السنة مثل أحاديث كثيرة يروونها في فضائل بعض الصحابة وهي كذب . ومثل تقى الحكمة والأسباب في مسائل القدر . ومثل كلامهم في الأجسام والاعراض وتناهي الحوادث ، ونحو ذلك مما لم يأخذوه عن الرسول . فهذا ليس من السنة وإن كان أهلها وافقوا السنة في مواضع خالفهم فيها من تنازعهم في هذه المسائل .

فلا يجب إذا كانوا أصابوا حيث وافقوا السنة أن يصيبوا حيث لم يوافقوها . وكذلك مسمى العقل فإن مسمى العقل قد مدحه الله في القرآن في غير آية ، لكن لما أحدث قوم من الكلام المبتدع المخالف للكتاب والسنة ، بل وهو في نفس الأمر مخالف للمعقول ، وصاروا يسمون ذلك عقليات وأصول دين ، وكلاماً في أصول الدين صار من عرف أنهم مبتدعة ضلال في ذلك ينفر عن جنس المعقول والرأي والقياس والكلام والجدل ، فإذا رأى من يتكلم بهذا الجنس اعتقده مبتدعاً مبطلاً ، كما أن هؤلاء لما رأوا أن جنس المنتسبين إلى السنة والشرع والحديث قد أخطأوا في مواضع وخالفوا فيها صريح المعقول ، وهم يقولون أن السنة جاءت بذلك صار هؤلاء ينفرون عن جنس ما يستدل في الأصول بالشرع والسنة ويسمونهم

حشوية وعامة ، وكل من هؤلاء وهؤلاء أدخلوا في مسمى الشرع والعقل والسمع ما هو محمود ومذموم .

ثم هؤلاء قبلوا من مسمى الشرع والسنة عندهم محمودة ومذمومة ، وخالفوا مسمى العقل محموده ومذمومه . وأولئك قبلوا مسمى العقل عندهم محموده ومذمومه وخالفوا مسمى الشرع محموده ومذمومه . فيجب البيان والتفصيل والإستفسار وبيان الفرقان بين الحق والباطل فإن ذلك يوجب التصديق بما جاء به الشرع المنزل والسنة الغراء وهو المعقول الحق ، وهو الكلام الصدق ، وهو الجدل بالتي هي أحسن . ويوجب رد ما أدخل في الشرع والسنة وليس منها ورد ما سمي معقولاً وهو باطل ، وسمي كلاماً صدقاً وهو كذب وسمي جدلاً بالتي هي أحسن ، وهو جدل بالباطل بغير علم .

ولهذا حصل من الذين لبسوا الحق بالباطل تبديل لما بدلوه من الدين وتحريف الكلم عن مواضعه. ومضاهاة لأهل الكتاب مما ذمهم الله عليه . والبخاري في أول كتاب خلق أفعال العباد ذكر الرد على المعطلة الذين يبدلون كلام الله من الجهمية وذكر من كلام السلف والأئمة فيهم ما عرف به مقصودهم .

والتبديل نوعان : أحدهما أن يناقضوا خبره. والثاني أن يناقضوا امره. فإن الله بعثه بالهدى ودين الحق وهو صادق فيما أخبر به عن الله آمر بما أمر الله به كما قال : (مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ)[1] . وأهل التبديل الذين يضيفون إلى دينه وشرعه ما ليس منه . وهم أهل الشرع المبدل تارة يناقضونه في خبره فينفون ما أثبته أو يثبتون ما نفاه كالجهمية

---

١ - سورة النساء آية ٧٩ .

الذين ينفون ما أثبته من صفات الله وأسمائه . والقدرية الذين ينفون ما أثبته من قدر الله ومشيئته وخلقه وقدرته .

والقدرية المجبرة الذين ينفون ما أثبته من عدل الله وحكمته ورحمته ، ويثبتون ما نفاه من الظلم والعبث والبخل ونحو ذلك عنه وأمثال ذلك ، ومسائل أصول الدين عامتها من هذا الباب ، ثم أنهم أيضاً يوجبون ما لم يوجبه بل حرمه ، ويحرمون ما لم يحرمه بل أوجبه ، فيوجبون اعتقاد هذه الأقوال والمذاهب المناقضة لخبره وموالاةأهلها ومعاداة من خالفها. ويوجبون النظر المعين في طريقهم الذي أحدثوه كما أوجبوا النظر في دليل الإعراض الذي استدلوا به على حدوث الأجسام، وقالوا يجب على كل مكلف أن ينظر فيه ليحصل له العلم بإثبات الصانع . قالوا لأن معرفة الله واجبة ولا طريق إليها إلا هذا النظر وهذا الدليل ، ولما علم كثير من موافقيهم أن الإستدلال بهذا الدليل لم يوجبه الرسول خالفوهم في إيجابهم مع موافقتهم لهم على صحته

والتحقيق ما عليه السلف أنه ليس بواجب أمراً ولا هو صحيح خبراً بل هو باطل منهي عنه شرعاً . فإن الله تعالى لا يأمر بقول الكذب والباطل بل ينهى عن ذلك . لكن غلطوا حيث اعتقدوا أنه حق وأن الدين لا يقوم إلا على هذا الأصل الذي أصلوه . كما أن طوائف من أهل العبادة والزهد والإرادة والمحبة والتصوف سلكوا طرقاً ظنوا أنه لا يوصل إلى الله إلا بها. ثم منهم من يوجبها ويذم من لم يسلكها ومنهم من لم ير أن سالكيها أفضل من غيرهم ويوسع الرحمة لأنه قد علم أن الرسول والصحابة لم يأمروا بها الناس مع اعتقادهم أنها طرق صحيحة موصلة إلى رضوان الله ، وهي عند التحقيق طرق مضلة إنما توصل إلى رضى الشيطان وسخط الرحمن كالعبادات التي ابتدعها ضلال أهل الكتاب والمشركين وخالفوا بها دين المرسلين فهؤلاء في الاحوال البدعية وأولئك في الأقوال البدعية .

والقول الحق هو القرآن، والحال الحق هو الإيمان، كما قال جندب وابن عمر تعلمنا الإيمان ، ثم تعلمنا القرآن ، فازددنا إيماناً . وفي الصحيحين عن أبي موسى عن النبي ﷺ أنه قال : « مَثَـلُ المُؤْمِنِ الذي يقرأ القُرآن كَمَثَلِ الأُتْرجَةِ طَعْمُهَا طَيِّبٌ وريحُهَا طَيِّبٌ ، ومَثَلُ المؤْمِنِ الذي لا يَقْرأ القُرآن مَثَلِ التمرة طَعْمُهَا طَيِّبٌ ولا ريح لهَا ومَثَلُ المُنَافِقِ الذي يقرأ القُرآن كَمَثَلِ الريحَانة ريحُهَا طَيبٌ وطَعْمُهَا مُرٌّ ، ومَثَلُ المُنَافِقِ الذي لا يَقْرَأُ القُرآن مَثَلُ الحَنْظَلَةِ طَعْمُهَا مُرٌ ولا ريحَ لهَا » .

فالنّاسُ أربعة أصناف : صاحب قول قرآني وَحَال إيماني ، فهم أفضل الخلق ، وصاحب قول قرآني وحال ليس بإيماني ، وصاحب حال إيماني وليس له قول ، ومن ليس له لا قول قرآني ولا حال إيماني. وكثير من المنتسبين إلى القول والكلام والعلم والنظر والفقه والإستدلال ابتدعوا أقوالاً تخالف القرآن. وكثير من المنتسبين إلى العمل والعبادة والإرادة والمحبة وحسن الخلق والمجاهدة ابتدعوا أحوالاً وأعمالاً تخالف الإيمان وصار مع كل طائفة نوع من الحق الذي جاء به الرسول لكن ملبوس بغيره ، وصار كثير من الطائفتين يُنكر ما عليه الأخرى مطلقاً. كما قالت اليهود ليست النصارى على شيء . وقالت النصارى ليست اليهود على شيء .

وفي كل من الطائفتين شبه من أحد الأمتين، ففي المنتسبين إلى العلم إذا لم يوافقوا العلم النبوي ويعملوا به شبه من اليهود . وفي أهل العمل إذا لم يوافقوا العمل الشرعي ويعملوا بعلم شبه من النصارى . وصار كثير من أهل الكلام والرأي ينكرون جنس محبة الله وإرادته كما صار كثير من أهل الزهد والتصوف ينكر جنس العلم والكلام والنظر . وأولئك الذين أنكروا محبة الله وإرادته بنوا ذلك على أصل لهم للقدرية المجبرة والنافية ،

وهو أن المحبة والإرادة والرضا والمشيئة شيء واحد ، ولا يتعلق ذلك إلا بمعدوم وهو إرادة الفاعل أن يفعل ما لم يكن فعله ، فاعتقدوا أن المحبة والإرادة لا تتعلق إلا بمعدوم . فالموجود لا يحب ولا يراد، والقديم الأزلي لا يحب ولا يراد، والباقي لا يحب ولا يراد. فأنكروا أن يكون الله محبوباً أو مراداً، وهم لإنكار كونه يحب أبلغ وأبلغ فلا يثبتون إلا مشيئته أن يخلق فقط وهي لا تتعلق إلا بمعدوم، فأما أن يحب موجوداً من خَلْقه فهذا باطل عند الطائفتين . لكن المجبرة يقولون محبته هي مشيئته ، وقد شاء خلق كل شيء فهو يحب كل شيء. والنفاة يقولون محبته هي إرادته إثابة المطيعين ، وهي مشيئة خاصة والذي جاء به الكتاب والسنة واتفق عليه سلف الأمة ، وعليه مشايخ المعرفة وعموم المسلمين أن الله يحب ويحب كما نطق بذلك الكتاب والسنة في مثل قوله (يُحِبُّهم ويُحِبُّونَه). ومثل قوله : (والذينَ آمنُوا أشَدّ حُباً لله) [1] وقوله : (قُل إنْ كُنْتُم تُحِبونَ اللهَ فاتبعوني يُحْبِبْكُمُ اللهُ) [2] .

بل لا شيء يستحق أن يحب لذاته محبة مطلقة إلا الله وحده، وهذا من معنى كونه معبوداً فحيث جاء القرآن بالأمر بالعبادة والثناء على أهلها أو على المنيبين إلى الله والتوابين إليه أو الأوابين أو المطمئنين بذكره أو المحبين له ، ونحو ذلك . فهذا كله يتضمن محبته وما لا يحب ممتنع كونه معبوداً ومألوهاً ومطمأناً بذكره ، ومن أطيع لعوض يؤخذ منه أو لدفع ضرره فهذا ليس بمعبود ، ولا إله بل قد يكون الشخص كافراً وظالماً يبغض ويلعن ومع هذا يعمل معه عمل بعوض فمن جعل العمل لله لا يكون إلا لذلك فلم يثبت الرب إلهاً معبوداً ، ولا رباً محموداً وهو حقيقة قول النفاة من الجهمية والقدرية النافية والمثبتة والله سبحانه وتعالى رغب في

---

١ ـ سورة البقرة آية ١٦٥ .   ٢ ـ سورة آل عمران آية ٣١ .

عبادته والعمل له بما ذكره من الوعد ورهب من الكفر به والشرك بما ذكره من الوعيد وهو حق ، لكنه لم يقل أن العابد لله والعامل له لا يحصل له إلا ما ذكر ، بل وقد قال تعالى : (فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخفي لهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ) (١) . وفي الحديث الصحيح يقول الله تعالى : «أعددْتُ لِعِبَادي الصَّالحِينَ مَا لا عَيْنٌ رأتْ ولا أذنٌ سَمِعتْ ولا خَطَرَ عَلى قَلْبِ بَشَرٍ ذخْراً بله ما أطلعتهم عليه اقرأوا إنْ شئْتُمْ فَلا تعلم نفسٌ ما أخْفِيَ لهُمْ مِنْ قُرَّةِ أعْيُنٍ جَزاءً كَانُوا يَعْمَلُون » (٢) . وقدْ ثبت في الحديث الصحيح عن صهيب عن النبي ﷺ قال : « يَقُولُ اللهُ يَا أهل الجَنَّةِ إنَّ لَكُم عِندي مَوْعِداً أُريدُ أنْ أنجزكموه فيقولون مَا هُو ألَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا وتثقلُ مَوازِينَنا وتُدخِلْنَا الجَنَّة وتُجِرْنَا مِنَ النَّارِ قَال فَيُكْشفُ الحجابُ فَيَنظرون إليه فما أعطاهم شيئاً أحبَّ إليهم مِنَ النَّظرِ إليهِ وهي الزيادة (٣) » . وفي الحديث الذي رواه النسائي : لما صلى عمار فأوجز وقال دعوت في الصلاة بدعاء سمعته من النبي ﷺ « اللَّهُمَّ بعلمك الغَيْبَ ، وقدرتك على الخَلْقِ أحيني ما كانت الحياة خيراً لي ، وتوفني إذا كانت الوفاةُ خَيْراً لي ، اللهم إني أسألك خشيتك في الغَيْبِ والشَّهادة ، وكَلِمة الحَقِّ في الغَضَبِ والرضا ، والقصدُ في الفقرِ والغنى ، وأسألك نعيماً لا يَنفَدُ ، وقُرَّة عَيْنٍ لا تَنْقَطِعْ ، وأسألك الرضا بَعد القَضاء ، وأسألك بَرْدَ العَيْشِ بَعْدَ

---

١ — سورة السجدة آية ١٧ .

٢ — قوله ذخرا منصوب متعلق باعددت اي اعددت ذلك لهم مذخورا ، وقوله بله هو بفتح الباء الموحدة ، وسكون اللام وفتح الهاء معناه دع الذي اطلعتم عليه ، وقيل معناه سوى ، أي سوى ما اطلعتم عليه الذي ذكره الله في القرآن .

قال الخطابي كأنه يريد به دع ما اطلعتم عليه ، وانه سهل يسير في جنب ما ادخره لهم ، والله أعلم .

٣ — الزيادة يعني الواردة في قوله : (للذين احسنوا الحسنى وزيادة) .

المَوْتِ ، وأسألك لذّة النَّظرِ إلى وجْهِكَ ، والشَّوق إلى لِقَائِكَ مِنْ غَيْرِ ضَرّاء مُضِرّة ، ولا فِتنة مُضِلّة ، اللّهم زيِّنّا بزينة الإيمان واجْعَلْنَا هُدَاة مُهْتَدِينَ » .

وروى نحو هذا من وجه آخر فقد أخبر الصادق المصدوق أنه لم يعط أهل الجنة أحب إليهم من النظر إليه وسن أن يدعى بلذة النظر إلى وجهه الكريم ، وأهل الجنة قد تنعموا من أنواع النعيم بالمخلوقات بما هو غاية النعيم ، فلما كان نظرهم إليه أحب إليهم من كل أنواع النعيم علم أن لذة النظر إليه أعظم عند أهل الجنة من جميع أنواع اللذات . والجنة فيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين فما لذت أعينهم بأعظم من لذتها بالنظر إليه ، واللذة تحصل بإدراك المحبوب فلو لم يكن أحب إليهم من كل شيء ما كان النظر إليه أحب إليهم من كل شيء ، وكانت لذته أعظم من كل لذة والله تعالى وعد عباده المؤمنين بالجنة وهي إسم لدار فيها جميع أنواع اللذات المتعلقة بالمخلوق وبالخالق ، كما أن النار إسم لدار فيها أنواع الآلام لكن غلط من ظن أن التنعيم بالنظر إليه ليس من نعيم أهل الجنة . وصار هؤلاء حزبين : حزباً أنكروا التنعيم بالنظر إليه وهم المنكرون للمحبة حتى قال أبو المعالي ونحوه ممن ينكر محبته أنهم إذا رأوه لم يلتذوا بنفس النظر بل يخلق لهم لذة ببعض المخلوقات مع النظر .

وكذلك قال من شاركهم في التجهم من أهل الوحدة كابن عربي قال : ما التذ عارف بمشاهدة قط . وادعى أبو المعالي أن إنكار محبته من أسرار التوحيد ، وهو من أسرار توحيد الجهمية المعطلة المبدلة . وحكي عن ابن عقيل أنه سمع رجلاً يقول: أسألك لذة النظر إلى وجهك الكريم ، فقال له : هب أن له وجهاً أله وجه يلتذ بالنظر إليه . وهذا بناء على هذا الأصل فإنه وشيخه أبا يعلى ونحوهما وافقوا الجهمية في إنكار أن يكون الله محبوباً

واتبعوا في ذلك قول أبي بكر بن الباقلاني ونحوه ممن ينكر محبة الله . وجعل القول بإثباتها قول الحلولية .

والجواب الثاني أن طائفة من الصوفية والعباد شاركوا هؤلاء في أن مسمى الجنة لا يدخل فيه النظر إلى الله ، وهؤلاء لهم نصيب من محبة الله تعالى والتلذذ بعبادته ، وعندهم نصيب من الخوف والشوق والغرام ، فلما ظنوا أن الجنة لا يدخل فيها النظر إليه صاروا يستخفون بمسمى الجنة ويقول أحدهم ما عبدتك شوقاً إلى جنتك ، ولا خوفاً من نارك . وهم غلطوا من وجهين : أحدهما أن ما يطلبونه من النظر إليه والتمتع بذكره ومشاهدته كل ذلك في الجنة .

الثاني أن الواحد من هؤلاء لو جاع في الدنيا أياماً أو ألقي في بعض عذابها طار عقله وخرج من قلبه كل محبة . ولهذا قال سمنون :

وليس لي في سواك حظ فكيفما شئت فامتحني

إبتلى بعسر البول فصار يطوف على المكاتب ويقول : ادعوا لعمكم الكذاب. وأبو سليمان لما قال قد أعطيت من الرضا نصيباً لو ألقاني في النار لكنت راضياً. ذكر أنه ابتلى بمرض فقال : إن لم يعافني وإلا كفرت أو نحو هذا ، والفضيل بن عياض ابتــلى بعسر البول فقال : بحبي لك الا فرجت عني. فبذل حبه في عسر البول فلا طاقة لمخلوق بعذاب الخالق ولا غنى به عن رحمته .

وقد قال النبي ﷺ لرجل: « مَا تَدعُو في صلاتِك » ؟ قال: أسأل الله الجنة وأعوذ به من النار اما أني لا أحسن دندنتك ولا دندنة معاذ. فقال حولها ندندن . ودخل على أعرابي قد صار مثل الفرخ فقال هل كنت تدعو الله بشيء قال كنت أقول اللهم ما كنت معاقبي به في الآخرة فعجله لي

في الدنيا ، فقال : سبحان الله إنك لا تستطيعه ولا تطيقه هلا قلت اللهم آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار .

والعدوان في الإرادة والعبادة والعمل حصل من اعراضهم عن العلم الشرعي واتباع الرسول ، وقد قال تعالى : (قُلْ إنْ كُنتُم تُحِبون الله فاتبعُوني يُحبِبْكُمُ اللهُ)[1] . قال بعضهم ليس الشأن في أن تحبه ، الشأن في أن يكون هو يحبك ، وهو إنما يحب من اتبع الرسول وإلا فالمشركون وأهل الكتاب يدعون أنهم يحبونه وأولئك غلطوا بنفي محبته وهؤلاء أثبتوا محبة شركية لم يثبتوا محبة توحيدية خالصة ، وقد قال تعالى : (ومِنْ الناسِ مَن يتَخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أنْدَاداً يُحبونَهم كَحُبِّ اللهِ ، وَالّذينَ آمَنُوا أشدُ حُباً لله)[2] .

فالاقسام ثلاثة أولئك معطلة للمحبة وحقيقة قولهم تعطيل العبادة مطلقاً ، وهؤلاء مشركون في المحبة فهم مشركون في العبادة ، أولئك مستكبرون عن عبادته والكبر لليهود ، وهؤلاء مشركون في عبادته ،والشرك للنصارى ، وكل واحد من المستكبرين والمشركين ليسوا مسلمين ، بل الإسلام هو الإستسلام لله وحده . ولفظ الإسلام يتضمن الإسلام ويتضمن إخلاصه لله ، وقد ذكر ذلك غير واحد حتى أهل العربية كأبي بكر ابن الانباري وغيره .

ومن المفسرين من يجعلهما قولين كما يذكر طائفة منهم البغوي أن المسلم هو المستسلم لله ، وقيل هو المخلص . والتحقيق أن المسلم يجمع هذا وهذا فمن لم يستسلم له لم يكن مسلماً ، ومن استسلم لغيره كما يستسلم له ، لم يكن مسلماً ، ومن استسلم له وحده فهو المسلم كما في القرآن : (بلَى مَنْ أسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أجرهُ عِندَ رَبّه

---

١ ــ سورة آل عمران آية ٣١ .   ٢ ــ سورة البقرة آية ١٦٥ .

وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُون) [1] وقال : (وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتبعَ مِلَّةَ إبراهيم حَنِيفاً وَاتَّخَذَ اللهُ إبراهيمَ خَلِيلاً) [2] والإستسلام له يتضمن الإستسلام لقضائه وأمره ونهيه ، فيتناول فعل المأمور ، وترك المحظور ، والصبر على المقدور : (إِنَّــهُ مَنْ يَتَّقِ وَيصبر فَإِنَّ اللهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ المُحسنين) [3] . قال ابن أبي حاتم ، حدثنا عصام بن وران ، حدثنا آدم عن أبي جعفر عن الربيع عن أبي العالية في قوله : (بَــلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله)، يقول من أخلص لله،قال ابن أبي حاتم ، وروى عن الربيع نحو ذلك ، وقال ذكر عن يحيى بن آدم ، حدثنا ابن المبارك عن حيوة بن شريح عن عطاء بن دينار ، عن سعيد بن جُبير من أسلم وجهه لله ،قال : من أسلم أخلص وجهه قال : دينه .

وقال أبو الفرج أسلم بمعنى أخلص . وفي الوجه قولان أحدهما : أنه الدين ، والثاني العمل، وقال البغوي من أسلم وجهه لله أخلص دينه لله . وقيل : أخلص عبادته لله ، وقيل خضع وتواضع لله ، وأصل الإسلام الإستسلام والخضوع ، وخص الوجه لأنه اذا جاد بوجهه في السجود لم يبخــل بسائر جوارحه ، وهو محسن في عمله قيل : مؤمن ، وقيــل مخلص .

قلت قول من قال خضع وتواضع لربه ، هو داخل في قول من قال أخلص دينه أو عمله أو عبادته لله ، فإن هذا إنما يكون إذا خضع له وتواضع له دون غيره ، فإن العبادة والدين والعمل له لا يكون إلا مع الخضوع له والتواضع ، وهو مستلزم لذلك ، ولكن أولئك ذكروا مع هذا أن يكون هذا الإسلام لله وحده ، فذكروا المعنيين الإستلزام ، وأن يكون لله .

---

١ ــ سورة البقرة آية ١١٢ .
٢ ــ سورة النساء آية ١٢٤ .
٣ ــ سورة يوسف آيه ٩٠ .

قول من قال خضع وتواضع لله يتضمن أيضاً أنه أخلص عبادته ودينه لله فإن ذلك يتضمن الخضوع والتواضع لله دون غيره ، وأما ذكره التوجه فقد بسط الكلام عليه في غير هذا الموضع ، وتبين أن الله ذكر إسلام الوجه له ، وذكر إقامة الوجه له في قوله (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ) (١) وذكر توجيه الوجه له في قوله : (إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ) (٢) لأن الوجه إنما يتوجه إلى حيث توجه القلب ، والقلب هو الملك فإذا توجه الوجه نحو جهة كان القلب متوجهاً إليها ، ولا يمكن الوجه أن يتوجه بدون القلب ، فكان إسلام الوجه وإقامته وتوجيهه مستلزماً لإسلام القلب وإقامته وتوجيهه ، وذلك يستلزم إسلام كله لله ، وتوجيه كله لله ، وإقامة كلها لله ، وبسط الكلام على ما يناسب ذلك (٣) .

وهذا حقيقة دين الإسلام ، لكن الذين أنكروا ذلك لهم شبهتان : إحداهما أن المحبة تقتضي المناسبة ، قالوا وهي منتفية فلا مناسبة بين المحدث والقديم فيقال لهم : هذا كلام مجمل تعنون بالمناسبة الولادة أو المماثلة ، ونحو ذلك مما يجب تنزيه الرب عنه ، فإن الشيء ينسب إلى أصله بأنه ابن فلان وإلى فرعه بأنه أبو فلان ، وإلى نظيره بأنه مثل فلان ، ولما سأل المشركون النبي ﷺ عن نسب ربه أنزل الله تعالى : (قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ اللهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ) (٤) فلم يخرج من شيء ولا يخرج منه شيء ولا له مثل ، فإن عنيتم هذا لم نسلم أن المحبة لا بد فيها من هذا .

وإن أردتم بالمناسبة أن يكون المحبوب متصفاً بمعنى يحبه المحب فهذا لازم للمحبة والرب متصف بكل صفة تحب وكل ما يحب فإنما هو منه فهو أحق بالمحبة من كل محبوب ، وإذا كان الإنسان يحب الملائكة وهم من

---

١ ـ سورة الروم آية ٣٠ .
٢ ـ سورة الانعام آية ٧٩ .
٣ ـ بياض في الاصل مقدار سطرين .
٤ ـ سورة الاخلاص آية ١ .

غير جنسه لما اتصفوا به من الصفات الحميدة فالسبوح القدوس رب الملائكة والروح الذي كلما اتصفت به الملائكة وغيرهم فهو من جوده وإحسانه وهو العزيز الرحيم إذ كان المخلوق كثيراً ما يتصف بالعزة دون الرحمة أو تكون فيه رحمة بلا عزة ، وهو سبحانه العزيز الرحيم الغفور الودود المجيد . والودود فعول من الود .

وقال شعيب (إنَّ ربي رحِيمٌ ودودٌ) [1] وقال تعالى : (وهُو الغَفُورُ الودُودُ) [2] فقرنه بالرحيم في موضع وبالغفور في موضع . قال أبو بكر ابن الانباري الودود معناه المحب لعباده من قولهم وددت الرجل أوده وداً ووداً ووداً ويقال وددت الرجل وداداً ووداداً وودادة. وقال الخطابي هو إسم مأخوذ من الود وفيه وجهان : أحدهما أن يكون فعولاً في محل مفعول كما قيل رجل هيوب بمعنى مهيب ، وفرس ركوب بمعنى مركوب .

والله سبحانه وتعالى مودود في قلوب أوليائه لما يعرفونه من احسانه إليهم . والوجه الآخر أن يكون بمعنى الود أي أنه يود عباده الصالحين بمعنى أنه يرضى عنهم ويتقبل أعمالهم ، ويكون معناه أن يوددهم إلى خلقه كقوله : (سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحمَنُ وِداً) [3] قلت قوله : (سيجعلُ لهمُ الرَّحمَنُ وداً) فسروها بأنه يحبهم ويحببهم إلى عباده كما في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال : « إذا أحبَّ اللهُ العبد نادى يا جبْريلُ اني أُحِبُّ فلاناً فأحبَهُ فيُحِبهُ جبريل ، ثُمَّ يُنادي في السمَاء إنَّ الله يُحِبُّ فُلاناً فأحِبوهُ فيُحِبهُ أهلُ السَّماءِ ، ثُمَّ يُوضعُ لهُ القَبُولُ في الأرْضِ». وقال في البغض مثل ذلك . وقال عبد بن حميد

---

١ – سورة هود آية ٩٠ .
٢ – سورة البروج آية ١٤ .
٣ – سورة مريم آية ٩٧ .

انبأ عبيدالله بن موسى عن ابن أبي ليلى عن الحكم ، عن سعيد بن جُبير عن ابن عباس (سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وِدّاً) قال يحبهم ويحببهم. ورواه ابن أبي حاتم أيضاً وقال عبد أخبرني شبابة عن ورقاء عن ابن أبي نجيح عن مجاهد : (سَيَجعلُ لهُمُ الرَّحْمَنُ وِدّاً) قال : يحبهم ويحببهم إلى المؤمنين .

أخبرنا عبد الرازق عن الثوري عن مسلم عن مجاهد عن ابن عباس (سَيَجْعَلُ لهُم الرَّحْمَنُ وِدّاً) قال محبة وهذا فيه إثبات حبه لهم بعد أعمالهم بقوله : (سيجعل لهم الرحمن وداً) وهو نظير قوله : (قُلْ إنْ كُنتُم تُحِبُّونَ الله فَاتَّبِعُوني يُحْبِبْكُم اللهُ) ، فهو يحبهم إذا اتبعوا الرسول. ونظير قوله في الحديث الصحيح : « ولا يَزالُ عَبْدي يَتَقَرَّبُ إلي بالنَّوافِلِ حَتى أحِبَّهُ فَإذا أحْبَبْتَهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الذي يَسْمَعُ بِهِ وبَصَرَهُ الذي يُبْصِرُ بهِ ويَدَهُ التي يَبْطُشُ بها ورِجْلَهُ التي يَمْشي بِهَا »

وكذلك قوله (واحسِنوا إنَّ الله يُحِبُّ المحسنين) [1] (إنَّ الله يُحِبُّ التَوَّابين ويحب المتطهرين) [2] (إنَّ الله يُحِبُّ المُتَّقين). (إنَّ الله يُحِبُّ الَّذين يُقَاتِلون في سبيلِهِ صفّاً كأنَّهم بُنيانٌ مرصوص) [3] . وهذه الآيات وأشباهها تقتضي أن الله يحب أصحاب هذه الأعمال فهو يحب التوابين ، وإنما يكونون توابين بعد الذنب ففي هذه الحال يحبهم وهذا مبني على الصفات الإختيارية فمن نفاها رد هذا كله ، ولهم قولان : أحدهما أن المحبة قديمة فهو يحبهم في الأزل إذا علم أنهم يموتون على حال مرضية ويقولون إنَّ الله يحب الكفار في حال كفرهم إذا علم أنهم يموتون

---

١ ـ سورة البقرة آية ١٩٥ .
٢ ـ سورة البقرة آية ٢٢٢ .
٣ ـ سورة الصف آية ٣ .

على الإيمان ، ويبغض المؤمن إذا علم أنه يرتد هذا قول ابن كلاب ومن تبعه . ثم منهم من يفسر المحبة بالإرادة . ومنهم من يقول هي صفة زائدة على الإرادة .

والقول الثاني يجعلون هذا من باب الفعل ، فالمحبة عندهم إحسانه إليهم ، والإحسان عندهم ليس فعلاً قائماً به بل بائناً عنه ، والكتاب والسنة وأقوال السلف والأئمة والأدلة العقلية إنما تدل على القول الأول كما قد بسط في غير هذا الموضع إذ المقصود هنا ذكر إسمه الودود والأكثرون على ما ذكره ابن الأنباري وأنه فعول بمعنى فاعل أي هو الواد كما قرنه بالغفور وهو الذي يغفر وبالرحيم وهو الذي يرحم .

قال ابن أبي حاتم حدثنا أبي ثنا عيسى بن جعفر قاضي الري ثنا سفيان في قوله إن ربي رحيم ودود قال محب وقال قرىء على يونس ثنا ابن وهب قال وقال ابن زيد قوله : الودود قال : الرحيم ، وقد ذكر فيه قولين : القول الأول رواه من تفسير الوالبي عن ابن عباس قوله الودود قال الحبيب. والثاني قول ابن زيد الرحيم . وما ذكره الوالبي الحبيب قد يراد به المعنيان أنه يحب ويحب فإن الله يحب من يحبه واولياؤه يحبهم ويحبونه والبغوي ذكر الأمرين فقال : وللودود معنيان أن يحب المؤمنين ، وقيل هو بمعنى المودود أي محبوب المؤمنين . وقال أيضاً في قوله : (وهُو الغَفُورُ الودُود) أي المحب لهم ، وقيل معناه المودود كالحلوب والركوب بمعنى المحلوب والمركوب ، وقيل يغفر ويود أن يغفر ، وقيل المتودد إلى أوليائه بالمغفرة قلت هذا اللفظ معروف في اللغة أنه بمعنى الفاعل كقول النبي ﷺ « تزوجوا الودُود الولُود » وفعول بمعنى فاعل كثير كالصبور والشكور ، وأما بمعنى مفعول فقليل وأيضاً فإن سياق القرآن يدل على أنه صح أراد أنه هو الذي يود عباده كما أنه هو الذي يرحمهم ويغفر لهم فإن شعيباً قال: واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربي رحيم ودود، فذكر

رحمته ووده كما قال تعالى: (وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً)[1]. وهو أراد وصفاً يبين لهم أنه سبحانه يغفر الذنب ويقبل على التائب وهو كونه ودوداً كما قال أن الله يحب التوابين ، ويحب المتطهرين وقد ثبت في الصحاح من غير وجه عن النبي ﷺ : « أن الله يَفْرَحُ بِتَوْبَةِ التَائبِ أشَدَّ مِنْ فَرَحِ مَنْ فَقَدَ رَاحِلَتَهُ بأرض دوية [2] مُهْلِكَةٍ ثُمَّ وَجَدَهَا بعد اليَأْسِ » فهذا الفَرَحُ منه بتوبة التائب يناسب محبته له ومودته له ، وكذلك قوله في الآية الأخرى (وَهُوَ الغَفُورُ الوَدُودُ) فإنه مثل قوله (وَهُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ) وأيضاً فإن كونه مودوداً أي محبوباً يذكر على الوجه الكامل الذي يتبين اختصاصه به مثل الإسم الإله فإن الإله المعبود هو مودود بذلك ، ومثل اسمه الصمد ومثل ذي الجلال والإكرام ، ونحو ذلك . وكونه مودوداً ليس بعجيب ، وإنما العجب جوده وإحسانه فإنه يتودد إلى عباده كما جاء في الأثر : « يَا عَبْدِي كَمْ أَتَوَدَّدُ إليكَ بالنِعَمِ ، وأَنْتَ تَتَمَقَّتُ إليَّ بالمعاصي ، ولا يَزَالُ مَلَكٌ كَرِيمٌ يَصْعَدُ إليَّ مِنكَ بِعَمَلٍ سَيِّءٍ » وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال : يقول الله تعالى : « مَنْ تَقَرَّبَ إليَّ شبراً تقربتُ إليهِ ذراعاً ومَنْ تَقَرَّبَ مني ذراعاً تَقَرَّبْتُ إليهِ بَاعاً ومَنْ أتَاني يمشي أتيتُهُ هَرْوَلة » .

وجاء في تفسير اسمه الحنان المنان أن الحنان الذي يقبل على من أعرض عنه ، والمنان الذي يجود بالنوال قبل السؤال ، وأيضاً فمبدأ الحب والود منه لكن اسمه الودود يجمع المعنيين ، كما قال الوالبي عن ابن عباس أنه الحبيب ، وذلك أنه إذا كان يود عباده فهو مستحق لأن يوده العباد بالضرورة. ولهذا من قال أنه يحب المؤمنين قال إنهم يحبونه ، فإن كثيراً من الناس يقول

1 - سورة الروم آية ٢١ .

2 - رواه مسلم وهي منسوبة الى الدو وهو الصحراء .

أنه محبوب وهو لا يحب شيئاً مخصوصاً لكن محبته بمعنى مشيئته العامة ، ومن الناس من قال أنه لا يحب مع أنه يثبت محبته للمؤمنين ، فالقسمة في المحبة رباعية ، فالسلف وأهل المعرفة أثبتوا النوعين ، قالوا: إنه يحب ويحب. والجهمية والمعتزلة تنكر الأمرين ، ومن الناس من قال: إنه يحبه المؤمنون. وأما هو فلا يحب شيئاً دون شيء ، ومنهم من عكس فقال بل هو يحب المؤمنين مع أن ذاته لا يحب كما يقولون أنه يرحم ولا يرحم ، فإذا قيل إن الودود بمعنى الواد لزم أن يكون مودوداً بخلاف العكس ، فالصواب القطع بأن الودود هو الذي يود ، وإن كان ذلك متضمناً لأنه يستحق أن يود ليس هو بمعنى المودود فقط ، ولفظ الوداد بالكسر هو مثل الموادة والتواد ، وذاك يكون من الطرفين كالتحاب وهو سبحانه لما جعل بين الزوجين مودة ورحمة كان كل منهما يود الآخر ويرحمه ، وهو سبحانه كما ثبت في الحديث الصحيح أرحم بعباده من الوالدة بولدها ، وقد بين الحديث الصحيح أن فرحه بتوبة التائب أعظم من فرح الفاقد ماله ومركوبه في مهلكة إذ أوجدهما بعد اليأس وهذا الفرح يقتضي أنه أعظم مودةلعبده، المؤمن من المؤمنين بعضهم لبعض كيف وكل ود في الوجود فهو من فعله فالذي جعل الود في القلوب هو أولى بالود كما قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما في قوله : (سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وِداً) قال يحبهم ويحببهم وقد دل الحديث الذي في الصحيحين على أن ما يجعله من المحبة في قلوب الناس هو بعد أن يكون هو قد أحبه وأمر جبريل أن ينادي بأن الله يحبه فنادى جبريل في السماء أن الله يحب فلاناً فأحبوه وبسط هذا له موضع آخر .

وفي مناجاة بعض الداعين ليس العجب من حبي لك مع حاجتي إليك العجب من حبك لي مع غناك عني . وفي أثر آخر يا عبدي وحقي إني لك محب فبحقي عليك كن لي محباً . ويروى يا داود حببني إلى عبادي وحبب

عبادي إلي، مرهم بطاعتي فأحبهم، وذكرهم آلائي فيحبوني فإنهم لا يعرفون مني إلا الحسن الجميل ، وهو سبحانه كما قال كلما خالقه فإنه من نعمه على عباده ولهذا يقول : (فبأيِ آلاءِ رَبِّكُمَا تكذِّبان) [1]. والخير بيديه لا يأتي بالحسنات إلا هو ولا يذهب بالسيئات إلا هو ولا حول ولا قوة إلا به ولا ملجأ ولا منجا منه إلا إليه ووده سبحانه هو لمن تاب إليه وأناب إليه كما قال : (إنَّ الذينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالحَاتِ سيَجعلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وِدّاً) [2] وقال : (إنَّ اللهَ يُحِبُّ التوَّابينَ وَيُحِبُّ المُتَطَهِّرينَ) [3] فلا يستوحش أهل الذنوب وينفرون منه كأنهم حمر مستنفرة ، فإنه ودود رحيم بالمؤمنين يحب التوابين ويحب المتطهرين .

ولهذا قال شعيب : (واستَغْفِروا رَبَّكُمْ ثُم تُوبُوا إليه إنَّ رَبِّي رَحيمٌ وَدُودٌ)[4]. وقال هنا : (وَهُوَ الغَفُورُ الوَدُودُ). فذكر الودود في الموضعين لبيان مودته للمذنب إذا تاب إليه بخلاف القاسي الجافي الغليظ الذي لا ود فيه .

والحجة الثانية لهم قالوا إن الإرادة والمحبة لا تتعلق إلا بمعدوم يراد فعله فإنه لو جاز أن يراد الموجود وأن يراد القديم ، لجاز أن يكون العالم قديماً مع كونه مراداً مقدوراً ، كما يقول ذلك من يقوله من المتفلسفة ؛ فإن القائلين أنه موجب بذاته والعالم قديم منهم من يصفه بالإرادة كأبي البركات وغيره قالوا ومن المعلوم بالإضطرار للعقلاء إذ قالوا هذا الأمر حصل بالإرادة أن يكون محدثاً كائناً بعد أن لم يكن ، ولهذا لا يجوز أن يقال إن قدرته ومشيئته تعلقت بوجوده ولا ببقائه ، ولا بكونه حياً ، ومن قال أن صفاته قديمة الأعيان لا يقول إن كلامه وإرادته حصلت بإرادته

---

١ ــ سورة الرحمن آية ١٣ .
٢ ــ سورة مريم آية ٩٧ .
٣ ــ سورة البقرة آية ٢٢٢ .
٤ ــ سورة هود آية ٩٠ .

وقدرته ، فيقال هذا الذي قالوه صحيح لكن هنا نوعان أحدهما إرادة أن يفعل الشيء ويكون فهذه لا تكون إلا مع حدوثه ، والثانية محبة نفس ذاته من غير أن يفعل في الذات شيء فهذه التي تتعلق بالموجود والباقي والقديم وإرادة الفعل تابعة لهذه ، فإنه لولا أن تكون الإرادة متعلقة بنفس الشيء الموجود امتنع أن يراد إيجاده ، فإن من أراد أن يبني بيتاً ليسكنه إنما مراده نفس البيت لسكناه والإنتفاع وإنما البناء وسيلة إلى ذلك ، ولولا إرادة الغاية المقصودة بالذات لم ترد الوسيلة ، وإذا بناه فهو مريد له بعد البناء ؛ ولهذا يكره خرابه وزواله وكذلك من أراد أن يلبس ثوباً فلبسه فهو في حال اللبس مريد له ، فمن أراد إحداث أمر وفعله كانت إرادة فعله لغاية مقصودة بعد الفعل هي العلة الغائية والفعل المطلوب لغاية لفاعله إرادتان ، إرادة الفعل وإرادة الغاية وهذه هي الأصل وتلك تبع لهذه ، والإرادة إرادة لا تتعلق بالمعدوم من جهة كونه معدوماً ، بل تتعلق بوجود الفعل لكن يمتنع أن يراد فعله إلا إذا كان معدوماً .

فالعدم شرط في إرادة فعله ، ولهذا جعل من جملة علل الفعل ولهذا كان جماهير العقلاء مطبقين على أن كل مفعول فهو حادث ، وكل ما أريد أن يفعل فإنه يكون حادثاً وكل ما تعلقت المشيئة والقدرة بفعله فهو حادث ، ثم من الناس من يقول هذا مختص بكونه مفعولاً بالإختيار وإلا إذا كان معلولاً لعلة موجبة لم يلزم حدوثه وهو غلط بل كل ما فعل فلا يكون إلا محدثاً سواء كان ذلك ممكناً أو ممتنعاً بل نفس كونه مفعولاً مستلزم حدوثه ، ونفس تصور العلم بكونه مفعولاً يوجب العلم بحدوثه وإن لم يخطر بالبال كونه مفعولاً بالقدرة والإختيار ، ثم قد يقال ما من مفعول إلا وهو مفعول بالإختيار ، والقديم إذا قدر فاعلاً بلا مشيئة كان ذلك ممتنعاً ، والموجب بالذات إذا قيل هو موجب بذاته المتصفة بمشيئته وقدرته لما يشاؤه ، وهذا حق وهو مستلزم لكونه فاعلاً بمشيئته وقدرته ، وأما موجب بلا

مشيئة أو موجب يقارنه موجبه ، فهذان باطلان وبهما ضل من ضل من المتفلسفة القائلين بقدم الفلك ، ونفي الصفات ، ولكن من أراد إحداث شيء وأحدثه لم يجب أن تنقطع إرادته بل قد يكون مريداً له ما دام موجوداً ، ولولا أنه مريد لوجوده لما فعله فكلما شاء الرب وجوده فهو مريد لإحداثه وبقائه ما دام باقياً ، وأما الإرادة والمحبة المتعلقة بالقديم فليست إرادة فعل فيه بل هي محبة ذاته وكل إرادة ومحبة فلا بد أن تنتهي إلى محبوب لذاته وكل فاعل بالإرادة فإرادته تستلزم محبة عامة لأجلها فعل فالحب أصل وجود كل موجود والرب تعالى يحب نفسه .

ومن لوازم حبه نفسه أنها محبة مريدة لما يريد أن يفعله ، وما أراد فعله فهو يريده لغاية يحبها فالحب هو العلة الغائية التي لأجله كان كل شيء والمتفلسفة يصفونه بالإبتهاج والفرح كما جاءت به النصوص النبوية لكنهم يقصرون في معرفة هذا وأمثاله من الأمور الإلهية فإنهم يقولون اللذة إدراك الملائم من حيث هو ملائم وهو مدرك لذاته بأفضل إدراك فهو أفضل مدرك لأفضل مدرك بأفضل إدراك ، وقد قصروا في ذلك من ثلاثة أوجه :

أحدها أن اللذة والفرح والسرور والبهجة ليس هو مجرد الإدراك بل هو حاصل عقب الإدراك فالإدراك موجب له ولا بد في وجوده من محبة . فهنا ثلاثة أمور محبة وإدراك لمحبوب ولذة تحصل بالإدراك، وهذا في اللذات الدنيوية الحسية وغيرها فإن الإنسان يشتهي الحلو ويحبه فإذا ذاقه التذ بذوقه والذوق هو الإدراك ، وكذلك في لذات قلبه يحب الله ، فإنه إذا ذكره وصلى له وجد حلاوة ذلك كما قال ﷺ : « جُعِلَتْ قُرة عيني في الصلاةِ »، وأهل الجنة إذا تجلى لهم فنظروا إليه قال فما أعطاهم شيئاً أحب إليهم من النظرِ إليه ، والله أعلم .

فصل

في تمام القول في محبة الله
وانقسام المراد إلى ما يراد لذاته وإلى ما يراد لغيره

ثم ذلك الغير لا بد أن يكون مراداً لذاته ، فالمراد لذاته لازم لجنس الإرادة ، والإرادة لازمة لجنس الحركة ، فإن الحركة القسرية مستلزمة للحركة الإرادية ، والحركة الإرادية مستلزمة لمراد لذاته ، فكان جنس الحركات الموجودة في العالم مستلزمة للمراد لذاته ، وهو المعبود الذي يستحق العبادة لذاته ، وهو الله لا إله إلا هو ، فلو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا وكل عمل لا يراد به وجهه فهو باطل ، وكل عامل لا يكون عمله لله بل لغيره وهو المشرك فإنه كما قال الله تعالى : (فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ) [1]. فإن قوام الشيء بطبيعته الخاصة به فالحي قوامه بطبيعته المستلزمة لحركته الإرادية، وقوامها بالمراد لذاته ، فإذا لم يكن حركتها لإرادة المعبود لذاته لم يكن لنفسه قوام ، بل بقيت ساقطة خارة كما ذكر الله تعالى . ولهذا يهوي في الهاوية وهو ذنب لا يغفر ، لأنه فسد الأصل كالمريض الذي فسد قلبه لا ينفع مع ذلك إصلاح اعضائه ، ولفظ دعاء الله في القرآن يراد به دعاء العبادة ، ودعاء المسألة فدعاء العبادة يكون الله هو المراد به ، فيكون الله هو المراد ، ودعاء المسألة يكون المراد منه[1] كما في قول المصلي: إياك

١ — سورة الحج آية ٣١ .

٢ — الجار والمجرور خبر يكون والضمير عائد لله .

نعبد وإياك نستعين . فالعبادة إرادته ، والإستعانة وسيلة إلى العبادة . إرادة المقصود وإرادة الاستعانة إرادة الوسيلة إلى المقصود ، ولهذا قدم قوله : إياك نعبد، وإن كانت لا تحصل إلا بالاستعانة ، فإن العلة الغائية مقدمة في التصور والقصد وإن كانت مؤخرة في الوجود ، والحصول ، وهذا إنما يكون لكونه هو المحبوب لذاته .

لكن المراد به محبة مختصة به على سبيل الخضوع له والتعظيم وعلى سبيل تخصيصها به فيعبر عنها بلفظ الإنابه والعبادة ونحو ذلك إذا كان لفظ المحبة جنس عام يدخل فيه أنواع كثيرة فلا يرضى لله بالقدر المشترك ، بل إذا ذكر من يحب غير الله ، قال تعالى : (والذينَ آمنُوا أشدُّ حُبّاً لله) وإذا ذكر محبتهم لربهم ذكرت محبته لهم وجهادهم كما في قوله (فَسَوْفَ يأتي اللهُ بقَوم يُحبهُم ويُحبونَهُ أذلة على المؤمنينَ أعزّة على الكافرينَ يُجاهِدُونَ في سبيلِ اللهِ ولاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائم)[1] . وفي مثل قوله: (أحَبَّ إليكم مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٌ في سَبيلِه)[2] . ولهذا كانت القلوب تطمئن بذكره كما قال تعالى : (ألاَ بِذِكْرِ اللهِ تَطمئِنُ القُلوبُ)[3]. فتقديم المفعول يدل على أنها لا تطمئن إلا بذكره وهو تعالى : إذا ذكر وجلت فحصل لها اضطراب ووجل ، لما تخافه من دونه وتخشاه من فوات نصيبها منه . فالوجل إذا ذكر حاصل بسبب من الإنسان وإلا فنفس ذكر الله يوجب الطمأنينة لأنه هو المعبود لذاته والخير كله منه قال تعالى : (نَبىء عِبَادي أني أنَا الغَفُورُ الرَّحيمُ وأن عَذَابي هُوَ العَذَابُ الأليمُ)[4]. وقال تعالى : (إعلموا أنَّ اللهَ شَدِيدُ العِقَاب وأنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحيمٌ).وقال علي رضي الله عنه « لا يرجون عبد إلا ربه ولا يخافن عبد إلا ذنبه » فالخوف الذي يحصل عند ذكره هو بسبب

---

١ ــ سورة المائدة آية ٥٧ .
٢ ــ سورة التوبة آية ٢٥
٣ ــ سورة الرعد آية ٣٠ .
٤ ــ سورة الحجر آية ٤٩ .

من العبد وإلا فذكر الرب نفسه يحصل الطمأنينة والأمن، فما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك — كما قال ذلك المريض الذي سئل كيف تجدك ؟ فقال أرجو الله وأخاف ذنوبي فقال النبي ﷺ « مَا اجتَمَعَا في قَلبِ عَبْدٍ في مثلِ هذا المَوطِنْ إلا أعطَاهُ اللهُ مَا يَرجُو وآمنهُ مِمَّا يَخَافُ » .

ولم يقل بذكر الله توجل القلوب كما قال ألا بذكر الله تطمئن القلوب ، بل قال إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، ثم قال : وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون ، وإنما يتوكلون عليه لطمأنينتهم إلى كفايته ، وأنه سبحانه حسب من توكل عليه يهديه وينصره ويرزقه بفضله ورحمته وجوده فالتوكل عليه يتضمن الطمأنينة إليه والاكتفاء به عما سواه وكذلك قال في الآية الأخرى (فَإلهُكُمْ إلهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أسلِمُوا وَبَشِّرْ المُخبتينَ الَّذينَ إذا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهم والصَّابرِينَ عَلى ما أصَابَهم والمُقيمي الصَّلاةَ ، وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقونَ)[1] . فهم مخبتون والمخبت المطمئن الخاضع لله والأرض الخبت المطمئنة، روى ابن أبي حاتم من حديث ابن مهدي عن الثوري عن ابن أبي نجيح وبشر المخبتين قال : المطمئنين، وعن الضحاك المتواضعين، فوصفهم بالطمأنينة مع الوجل كما وصفهم هناك بالتوكل عليه مع الوجل ، وكما قال في وصف القرآن تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ، فذكر أنه بعد الإقشعرار تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله . فذكره بالذات يوجب الطمأنينة ، وإنما الاقشعرار والوجل عارض بسبب ما في نفس الإنسان من التقصير في حقه والتعدي لحده فهو كالزبد مع ما ينفع الناس الزبد يذهب جفاء ، وما ينفع الناس يمكث في الأرض فالخوف

---

١ — سورة الحج آية ٣٥ .

مطلوب لغيره ليدعو النفس إلى فعل الواجب ، وترك المحرم ، وأما الطمأنينة بذكره وفرح القلب به ومحبته فمطلوب لذاته، ولهذا يبقى معهم هذا في الجنة فيلهمون التسبيح كما يلهمون النفس .

والمتفلسفة رأوا اللذات في الدنيا ثلاثة : حسية ووهمية وعقلية . والحسية في الدنيا غايتها دفع الألم ، والوهمية خيالات وأضغاث ، واللذة الحقيقية هي العلم فجعلوا جنس العلم غاية ، وغلطوا من وجوه أحدها أن العلم بحسب المعلوم فإذا كان المعلوم محبوباً تكمل النفس بحبه كان العلم به كذلك ، وإن كان مكروهاً كان العلم به لحذره ودفع ضرره كالعلم بما يضر الإنسان من شياطين الإنس والجن،فلم يكن المقصود نفس العلم بل المعلوم، ولهذا قد يقولون سعادتها في العلم بالأمور الباقية وأنها تبقى ببقاء معلومها، ثم يظنون أن الفلك والعقول والنفوس أمور باقية، وأن بمعرفة هذه تحصل سعادة النفس . وأبو حامد في مثل معراج السالكين ونحوه يشير إلى هذا فإن كلامه برزخ بين المسلمين وبين الفلاسفة ففيه فلسفة مشوبة بإسلام وإسلام مشوب بفلسفة ، ولهذا كان في كتبه كالاحياء وغيره يجعل المعلوم بالأعمال ، والأعمال كلها إنما غايتها هو العلم فقط ، وهذا حقيقة قول هؤلاء الفلاسفة،وكان يعظم الزهد جداً ويعتني به أعظم من اعتنائه بالتوحيد الذي جاءت به الرسل وهو عبادة الله وحده لا شريك له ، وترك عبادة ما سواه ، فإن هذا التوحيد يتضمن محبة الله وحده ، وترك محبة المخلوق مطلقاً إلا إذا أحبه الله فيكون داخلاً في محبة الله بخلاف من يحبه مع الله فإن هذا شرك ,هؤلاء المتفلسفة إنما يعظمون تجريد النفس عن الهيولى ، وهي المادة ، وهي البدن، وهو الزهد في أغراض البدن وهو الزهد في الدنيا، وهذا ليس فيه إلا تجريد النفس عن الإشتغال بهذا فتبقى النفس فارغة فيلقي إليها الشيطان ما يلقيه ويوهمه أن ذلك من علوم المكاشفات والحقائق وغايته وجود مطلق هو في الاذهان لا في الاعيان ، ولهذا جعل أبو حامد

السلوك إلى الله ثلاثة منازل بمنزلة السلوك إلى مكة فإن السالك إليها له ثلاثة أصناف من الشغل: الأول تهيئة الاسباب كشراء الزاد والراحلة وخرز الراوية، والثاني: السلوك، ومفارقة الوطن بالتوجه إلى الكعبة منزلاً بعد منزل، والثالث: الاشتغال بأركان الحج ركناً بعد ركن، ثم بعد النزوع عن لبسة الإحرام، وطواف الوداع، استحق التعرض للملك والسلطنة قال: فالعلوم ثلاثة: قسم يجري مجرى سلوك البوادي وقطع العقبات، وهو تطهير الباطن عن كدورات الصفات، وطلوع تلك العقبة الشامخة التي عجز عنها الأولون والآخرون إلا الموفقون، قال: فهذا سلوك للطريق وتحصيل علمه كتحصيل علم جهات الطريق ومنازله، وكما لا يغني علم المنازل وطريق البوادي دون سلوكها. فكذا لا يغني علم تهذيب الأخلاق دون مباشرة التهذيب، لكن المباشرة دون العلم غير ممكن قال: وقسم ثالث يجري مجرى نفس الحج وأركانه وهو العلم بالله وصفاته وملائكته وأفعاله وجميع ما ذكرناه في تراجم علم المكاشفة قال وههنا نجاة وفوز بالسعادة والنجاة حاصلة لكل سالك للطريق إذا كان غرضه المقصد وهو السلامة، وأما الفوز بالسعادة فلا ينالها إلا العارفون فهم المقربون المنعمون في جوار الله بالروح والريحان وجنة ونعيم.

وأما الممنوعون دون ذروة الكمال فلهم النجاة والسلامة كما قال الله تعالى: (فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ)[1]. وقال وكل من لم يتوجه إلى المقصد أو انتهض إلى جهته لا على قصد الإمتثال بالأمر والعبودية، بل لغرض عاجل فهو من أصحاب الشمال، ومن الضالين فله نزل من حميم وتصليه جحيم قال: واعلم أنه هذا هو الحق اليقين عند العلماء الراسخين في العلم أعني أنهم أدركوه بمشاهدة

---

١ – سورة الواقعة آية ٩١ .

من الباطن ومشاهدة الباطن أقوى وأجل من مشاهدة الابصار ، وترقوا فيه عن حد التقليد إلى الاستبصار . قلت وكلامه من هذا الجنس كثير ، ومن لم يعرف حقيقة مقصده فهو لهمثل هذا الكلام، لأن صاحبه يتكلم بخبرة ومعرفة بما يقوله لا بمجرد تقليد لغيره ، لكن الشأن فيما خبره هل هو حق مطابق ، ومن سلك مسلك المتكلمين الجهمية والفلاسفة ولم يكن عنده خبرة بحقائق ما بعث به رسوله ، وأنزل به كتبه بل ولا بحقائق الأمور عقلاً وكشفاً فإن هذا الكلام غايته .

أما من عرف حقيقة ما جاءت به الرسل أو عرف مع ذلك بالبراهين العقلية والمكاشفات الشهودية صدقهم فيما أخبروا به فإنه يعلم غاية مثل هذا الكلام وأنه إنما ينتهي إلى التعطيل ، ولهذا ذاكرني مرة شيخ جليل له معرفة وسلوك وعلم في هذا فقال : كلام أبي حامد يشوقك فتسير خلفه وهو يشوقك فتسير خلفه منزلاً بعد منزل، فإذا هو ينتهي إلى لا شيء، وهذا الذي جعله هنا الغاية ، وهو معرفة الله وصفاته وأفعاله وملائكته قد ذكره في المضنون به على غير أهله ، وهو فلسفة محضة قول المشركين من العرب خير منه دع قول اليهود والنصارى ، بل قوم نوح وهود وصالح ونحوهم كانوا يقرون بالله وبملائكته وصفاته وأفعاله خيراً من هؤلاء ، لكن لم يقروا بعبادته وحده لا شريك له ولا بأنه أرسل رسولاً من البشر ، وهذا حقيقة قول هؤلاء فإنهم لا يأمرون بعبادة الله وحده لا شريك له ولا يثبتون حقيقة الرسالة بل النبوة عندهم فيض من جنس المنامات ، وأولئك الكفار ما كانوا ينازعون في هذا الجنس، فإن هذا الجنس موجود لجميع بني آدم، ومع هذا فقد أخبر الله تعالى عنهم أنهم كانوا يقرون بالملائكة كما قال : (فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُم صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ إِذ جَاءَتهُم الرُّسُلُ مِن بَيْنِ أَيدِيهِم وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ تَعبُدُوا إِلا

الله قالوا لو شاء ربنا لأنزل ملائكة) [1] وقال قوم نوح : (ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ولو شاء الله لأنزل ملائكة ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين) [2] بل فرعون قال لموسى : (أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين فلولا ألقي عليه أساورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين فاستخف قومه فأطاعوه انهم كانوا قوماً فاسقين) [3] .

والعبادات كلها عندهم مقصودها تهذيب الأخلاق والشريعة سياسة مدنية ، والعلم الذي يدعون الوصول إليه لا حقيقة لمعلومه في الخارج ، والله أرسل رسوله بالإسلام والإيمان بعبادة الله وحده وتصديق الرسول فيما أخبر ، فالأعمال عبادة الله والعلوم تصديق الرسول . وكان النبي ﷺ يقرأ في ركعتي الفجر تارة بسورتي الإخلاص . وتارة (قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا) [4] الآية.فإنها تتضمن الإيمان والإسلام وبالآية من آل عمران (قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم)[5]. والذين سلكوا خلف أبي حامد أو ضاهوه في السلوك كابن سبعين وابن عربي صرحوا بحقيقة ما وصلوا إليه . وهو أن الوجود واحد ، وعلموا أن أبا حامد لا يوافقهم على هذا فاستضعفوه ونسبوه إلى أنه مقيد بالشرع والعقل،وأبو حامد بين علماء المسلمين وبين علماء الفلاسفة . علماء المسلمين يذمونه على ما شارك فيه الفلاسفة مما يخالف دين الإسلام . والفلاسفة يعيبونه على ما بقي معه من الإسلام وعلى كونه لم ينسلخ عنه بالكلية إلى قول الفلاسفة ، ولهذا كان الحفيد ابن رشد ينشد فيه :

يوماً يمان إذا ما جئت ذا يمن ... وإن لقيت معدياً فعدنان

1 – سورة السجدة آية ١٣ .
2 – سورة المؤمنون آية ٢٤ .
3 – سورة الزخرف آية ٥٢ .
4 – سورة البقرة آية ١٣٦ .
5 – سورة آل عمران آية ٦٤ .

وأبو نصر القشيري وغيره ذمّوه على الفلسفة وأنشدوا فيه أبياتاً معروفة يقولون فيها :

برئنا إلى الله من معشرٍ بهم مرضٌ من كتاب الشفا (١)
وكم قلتُ يا قوم أنتم على شفا حفرةٍ ما لها من شفا
فلما استهانوا بتعريفنا رجعنا إلى الله حتى كفا
فماتوا على دين برسطالس وعشنا على سنّة المصطفى

ولهذا كانوا يقولون : أبو حامد قد أمرضه الشفاء ، وكذلك الطرطوسي والمازري وابن عقيل ، وأبو البيان ، وابن حمدين ، ورفيق أبي حامد أبو نصر المرغيناني ، وأمثال هؤلاء لهم كلام كثير في ذمه على ما دخل فيه من الفلسفة ، ولعلماء الأندلس في ذلك مجموع كبير ، ولهذا لما سلك خلفه ابن عربي وابن سبعين ، كان ابن سبعين في كتاب اليد وغيره يجعل الغاية هو المقرب وهو نظير المقرب في كلام أبي حامد . ويجعل المراتب خمسة : أدناها الفقيه ، ثم المتكلم ، ثم الفيلسوف ، ثم الصوفي الفيلسوف وهو السالك ، ثم المحقق .

وابن عربي له أربع عقائد : الأولى عقيدة أبي المعالي واتباعه مجردة عن حجة . والثانية تلك العقيدة مبرهنة بحججها الكلامية . والثالثة عقيدة الفلاسفة إبن سينا وأمثاله الذين يفرقون بين الواجب والممكن . والرابعة التحقيق الذي وصل إليه وهو أن الوجود واحد وهؤلاء يسلكون مسلك الفلاسفة الذي ذكره أبو حامد في ميزان العمل ، وهو أن الفاضل له ثلاث عقائد : عقيدة مع العوام يعيش بها في الدنيا كالفقه مثلاً ، وعقيدة مع الطلبة يدرسها لهم كالكلام . والثالثة لا يطلع عليه أحد إلا الخواص .

---

١ ـ يشير الى كتاب الشفا لابن سينا .

ولهذا صنف الكتب المضنون بها على غير أهلها وهي فلسفة محضة سلك فيها مسلك إبن سينا . ولهذا يجعل اللوح المحفوظ هو النفس الفلكية إلى أمور أخرى قد بسطت في غير هذا الموضع ذكرنا ألفاظه بعينها في مواضع منها الرد على ابن سبعين وأهل الوحدة وغير ذلك ، فإنه لما انتشر الكلام في مذهب أهل الوحدة ، وكنت لما دخلت إلى مصر بسببهم ، ثم صرت في الإسكندرية جاءني من فضلائهم من يعرف حقيقة أمرهم وقال : إن كنت تشرح لنا كلام هؤلاء وتبين مقصودهم ثم تبطله ، وإلا فنحن لا نقبل منك كما لا نقبل من غيرك ، فإن هؤلاء لا يفهمون كلامهم ، فقلت نعم أنا أشرح لك ما شئت من كلامهم مثل كتاب اليد والإحاطة لابن سبعين وغير ذلك ، فقال لي : لا ولكن لوح الأصالة فإن هذا يعرفون وهو في رؤوسهم ؛ فقلت له : هاته ، فلما أحضره شرحته له شرحاً بيناً حتى تبين له حقيقة الأمر ، وإن هؤلاء ينتهي أمرهم إلى الوجود المطلق فقال : هذا حق .

وذكر لي أنه تناظر إثنان متفلسف سبعيني ، ومتكلم على مذهب ابن التومرت فقال ذاك : نحن شيخنا يقول بالوجود المطلق ، فقال الآخر : ونحن كذلك امامنا . قلت له : والمطلق في الأذهان لا في الاعيان فتبين له ذلك وأخذ يصنف في الرد عليهم ولم أكن أظن ابن التومرت يقول بالوجود المطلق حتى وقفت بعد هذا على كلامه المبسوط فوجدته كذلك . وأنه كان يقول الحق حقان : الحق المقيد والحق المطلق وهـــو الرب وتبينت أنه لا يثبت شيئاً من الصفات ولا ما يتميز به موجود عن موجود فإن ذلك يقيد شيئاً من الإطلاق ، وسألني هذا عما يحتجون به من الحديث مثل الحديث المذكور في العقل وأن أول ما خلق الله تعالى العقل ، ومثل حديث : كنت كنزاً لا أعرف فأحببت أن أعرف ، وغير ذلك . فكتبت له جواباً مبسوطاً وذكرت أن هذه الأحاديث موضوعة وأبو حامد وهؤلاء لا يعتمدون على هذا . وقد نقلوه إما من رسائل أخوان الصفا ، أو من كلام أبي حيـــان

التوحيدي ، أو من نحو ذلك ، وهؤلاء في الحقيقة هم من جنس الباطنية الإسماعيلية ، ولكــن أولئك يتظاهــرون بالتشيع والرفض وهؤلاء غالبهم يميلون إلى التشيع ويفضلون علياً رضي الله عنه ، ومنهم من يفضله بالعلم الباطن ويفضل أبا بكر رضي الله عنه في العلم الظاهر كأبي الحسن الحرلي [1] وفيه نوع من مذهب الباطنية الإسماعيلية لكن لا يقول بوحدة الوجود مثل هؤلاء ولا أظنه يفضل غير الانبياء عليهم فهو أنبل من هؤلاء من وجه ، لكنه ضعيف المعرفة بالحديث والسير وكلام الصحابة والتابعين ، فيبني له أصولاً على أحاديث موضوعة ، ويخرج كلامه من تصوف وعقليات وحقائق وهو خير من هؤلاء وفي كلامه أشياء حسنة صحيحة وأشياء كثيرة باطلة ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

الثاني أن صلاح النفس في محبة المعلوم المعبود وهي عبادته لا في مجرد علم ليس فيه ذلك ، وهم جعلوا غاية النفس التشبه بالله على حسب الطاقة ، وكذلك جعلوا حركة الفلك للتشبه به ، وهذا ضلال عظيم ، فإن جنس التشبه يكون بين إثنين مقصودهما واحد كالإمام والمؤتم به .

وليس الأمر هنا كذلك بل الرب هو معبود لذاته ، وهو يعرف نفسه ويحب نفسه ويثني على نفسه والعبد نجاته وسعادته في أن يعرف ربه ويحبه ويثني عليه والتشبه به أن يكون هو محبوباً لنفسه مثنياً بنفسه على نفسه ، وهذا فساد في حقه وضار به والقوم أضل من اليهود والنصارى بل ومن مشركي العرب ، فإنه ليس الرب عندهم لا رب العالمين وخالقهم ولا إلههم ومعبودهم .

ومشركو العرب كانوا يقرون بأنه خالق كل شيء ، وما سواه مخلوق له محدث ، وهؤلاء الضالون لا يعترفون بذلك كما قد بسط في غير هذا الموضع . والوجه الثالث أنهم يظنون أن ما عندهم هو علم بالله ، وليس

---

١ ـ لعله الشاذلي .

كذلك بل هو جهل . والرازي لما شاركهم في بعض أمورهم صار حائراً معترفاً بذلك لما ذكر أقسام اللذات ، وأن اللذة العقلية هي الحق وهي لذة العلم وأن شرف العلم بشرف المعلوم وهو الرب . وأن العلم به ثلاث مقامات : العلم بالذات والصفات والأفعال .

قال وعلى كل مقام عقدة . فالعلم بالذات فيه أن وجود الذات هل هو زائد عليها أم لا ؟ وفي الصفات هل الصفات زائدة على الذات أم لا ؟ وفي الأفعال هل الفعل مقارن أم لا ؟ ثم قال : ومن الذي وصل إلى هذا الباب أو من الذي ذاق من هذا الشراب .

نِهَايَةُ إِقْدَامِ العُقُولِ عِقَالُ ... وَأَكْثَرُ سَعْيِ العَالَمِينَ ضَلَالُ
وَأَرْوَاحُنَا فِي وَحْشَةٍ مِنْ جُسُومِنَا ... وَغَايَةُ دُنْيَانَا أَذَىً وَوَبَالُ
وَلَمْ نَسْتَفِدْ مِنْ بَحْثِنَا طُولَ عُمْرِنَا ... سِوَى أَنْ جَمَعْنَا فِيهِ قِيلَ وَقَالُ

لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيتها تشفي غليلاً . ولا تروي غليلاً ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن ، اقرأ في الإثبات الرحمن على العرش استوى إليه يصعد الكلم الطيب ، واقرأ في النفي ليس كمثله شيء ولا يحيطون به علماً ، ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي .

فالسعادة هو أن يكون العلم المطلوب هو العلم بالله وما يقرب إليه ويعلم أن السعادة في أن يكون الله هو المحبوب المراد المقصود ، ولا يحتجب بالعلم عن المعلوم كما قال ذلك الشيخ العارف للغزالي لما قال له : أخلصت أربعين صباحاً فلم يتفجر لي شيء ! فقال : يا بني أنت أخلصت للحكمة لم يكن الله هو مرادك ، والإخلاص لله أن يكون الله هو مقصود المرء ومراده فحينئذ تتفجر ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه كما في حديث مكحول

عن النبي ﷺ « مَنْ أَخْلَصَ لله أربعين صَبَاحاً تَفَجَّرَتْ يَنَابِيعُ الحِكْمَةِ مِنْ قَلْبِهِ عَلَى لِسَانِهِ » ولهذا تقول العامة قيمة كل امرىء ما يحسن ، والعارفون يقولون قيمة كل امرىء ما يطالب ، وفي الاسرائيليات يقول الله تعالى : « إني لا أنظر إلى كلام الحكيم ، وإنما أنظر إلى همته » . فالنفس لها قوة الإرادة مع الشعور ، وهما متلازمــان ، وهؤلاء لحظوا شعورها وأعرضوا عن إرادتها ، وهي تتقوم بمرادها لا بمجرد ما تشعر به فإنها تشعر بالخير والشر ، والنافع والضار ، ولكن لا يجوز أن يكون مرادها ومحبوبها إلا ما يصلحها وينفعها وهو الإله المعبود الذي لا يستحق العبادة غيره ، وهو الله لا إله إلا هو سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً .

ثم مع هذا يكون العلم حقاً وهو ما أخبرت به الرسل فالعلم الحق هو ما أخبروا به والإرادة النافعة إرادة ما أمروا به ، وذلك عبادة الله وحده لا شريك له ، فهذا هو السعادة وهو الذي اتفقت عليه الانبياء كلهم ، فكلهم دعوا إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، وذلك إنما يكون بتصديق رسله وطاعتهم ، فلهذا كانت السعادة متضمنة لهذين الأصلين الإسلام والإيمان عبادة الله وحده وتصديق رسله ، وهو تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله قال تعالى : (فَلَنَسْأَلَنَّ الذينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ ولنسألنَّ المُرْسَلِينَ) [1] قال أبو العالية هما خصلتان يسأل عنهما كل أحد يقال لمن كنت تعبد وبماذا أجبت المرسلين وقد بسط هذا في غير هذا الموضع والله أعلم . [2]

وأتبع لها أسعد الناس في الدنيا والآخرة وخير القرون القرن الذين شاهدوه مؤمنين به وبما يقول ، إذ كانوا أعرف الناس بالفرق بين الحق الذي جاء به وبين ما يخالفه ، وأعظم محبة لما جاء به وبغضاً لما خالفه ، وأعظم جهاداً

---

١ ـ سورة الاعراف آية ٥ .

٢ ـ هنا بياض في الاصل مقدار ثلاثة أسطر .

عليه فكانوا أفضل ممن بعدهم في العلم والدين والجهاد أكمل علماً بالحق والباطل وأعظم محبة للحق وبغضاً للباطل وأصبر على متابعة الحق واحتمال الأذى فيه وموالاة أهله ومعاداة أعدائه واتصل بهم ذلك إلى القرن الثاني والثالث فظهر ما بعث به من الهدى ودين الحق على كل دين في مشارق الأرض ومغاربها كما قال ﷺ « زُوِيَتْ لي الأرضُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبهَا وَسَيَبْلُغُ مُلْكُ أمتي ما زُوِي لي منها » .

وكان لا بد أن يظهر في أمته ما سبق به القدر واقتضته نشأة البشر من نوع من التفرق والإختلاف كما كان فيما غبر ، لكن كانت أمته خير الأمم ، فكان الخير فيهم أكثر منه في غيرهم ، والشر فيهم أقل منه في غيرهم ، كما يعرف ذلك من تأمل حالهم وحال بني إسرائيل قبلهم ، وبنو إسرائيل هم الذين قال الله فيهم (وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الكِتَابَ والحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُم مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى العَالَمِينَ وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ العِلْمُ بَغْياً بَينهم إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ فيما كَانُوا فيه يَخْتَلِفُونَ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الأَمْرِ فَاتبعهَا وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللهِ شَيْئاً وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللهُ وَلِيُّ المُتَّقِينَ) (١) وقال لهم موسى : (يَا قَوم اذكُروا نعمةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أنبياءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكاً وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَداً مِنَ العَالَمِينَ) (٢) . فإذا كان بنو إسرائيل الذين فضلهم على العالمين في تلك الأزمان ، وكانت هذه الأمة خيراً منهم كانوا خيراً من غيرهم بطريق الأولى ، فكان مما خصهم الله به أنه لا يعذبهم بعذاب عام لا من

---

١ ــ سورة الجاثية آية ١٥ ــ ١٩ . ٢ ــ سورة المائدة آية ٢٢ .

السماء ولا بأيدي الخلق ، فلا يهلكهم بسنة عامة ، ولا يسلط عليهم عدواً من غيرهم فيجتاحهم كما كان يسلط على بني إسرائيل عدواً يجتاحهم حتى لا يبقى لهم دين قائم منصور ، ومن لا يقبل منهم يبقى مقهوراً تحت حكم غيرهم .

بل لا تزال في هذه الأمة طائفة ظاهرة على الحق إلى يوم القيامة ولا يجتمعون على ضلالة ، فلا تزال فيهم أمة يدعون إلى الخير ، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون .

وقد ثبت في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال « سَأَلتُ رَبِّي ثلاثاً فأعطاني إثنَتَين وَمَنَعَني عنْ واحدة سَأَلتُ رَبِّي أنْ لا يُسَلِّطَ عَليهم عَدواً من غَيرِهم فيجتاحَهم فَأعطَانيهَا ، وسأَلتُه أن لا يهلكهم بِسُنَةٍ عَامةٍ فأعطانيها ، وسألته أن لا يجعل بأسَهم بينَهم فَمَنَعَنيهَا » .

وهذا البأس نوعان أحدهما : الفتن التي تجري عليهم والفتنة ترد على القلوب فلا تعرف الحق ولا تقصده فيؤذي بعضهم بعضاً بالأقوال والأعمال. والثاني : أن يعتدي أهل الباطل منهم على أهل الحق منهم فيكون ذلك محنة في حقهم يكفر الله بها سيآتهم ويرفع بالصبر عليها درجاتهم ، وبصبرهم وتقواهم لا يضرهم كيد الظالمين لهم ، بل تكون العاقبة للتقوى ، ويكونون من أولياء الله المتقين وحـــزب الله المفلحين ، وجند الله الغالبين إذا كانوا من أهل الصبر واليقين ، فإنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ، والمتعدي منهم إما أن يتوب الله عليه كما تاب على أخوة يوسف بعد عدوانهم عليه وآثره الله عليهم بصبره وتقواه كما قال لما قالوا (أئنكَ لأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أنَا يُوسف وَهَذا أخي قَدْ مَنَّ اللهُ عَلَيْنَا أنه من يَتَّقِ وَيَصْبِر فَإنَّ اللهَ لاَ يُضيعُ أجْرَ المُحسنينَ قَالُوا تَاللهِ لَقَد آثَرَكَ

اللهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ قَالَ لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ) [1] .

وكما فعل سبحانه بقادة الأحزاب الذين كانوا عدواً لله وللمؤمنين وقال فيهم (لاَ تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ) [2] ثم قال : (عَسَى اللهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَاللهُ قَدِيرٌ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) [3] وفي هذا ما دل على أن الشخص قد يكون عدواً لله ، ثم يصير ولياً لله موالياً لله ورسوله والمؤمنين فهو سبحانه يتوب على من تاب ومن لم يتب فإلى الله إيابه ، وعليه حسابه ، وعلى المؤمنين أن يفعلوا معه ومع غيره ما أمر الله به ورسوله من قصد نصيحتهم وإخراجهم من الظلمات إلى النور وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر ، كما أمر الله ورسوله لا اتباعاً للظن وما تهوى الانفس حتى يكون من خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤمنون بالله ، وهؤلاء يعلمون الحق ويقصدونه ويرحمون الخلق ، وهم أهل صدق وعدل ، أعمالهم خالصة لله صواب موافقة لأمر الله كما قال تعالى : (ليبلوكم أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً) [4] . قال إبن عياض وغيره أخلصه وأصوبه والخالص أن يكون لله والصواب أن يكون على السنة وهو كما قالوا فإن هذين الأصلين هما دين الإسلام الذي ارتضاه الله كما قال : (وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَاتَّخَذَ اللهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً) [5] . فالذي أسلم وجهه لله هو الذي يخلص نيته لله ويبتغي بعمله وجه الله ، والمحسن هو الذي يحسن عمله فيعمل الحسنات ، والحسنات هي العمل الصالح ، والعمل الصالح هو ما أمر الله

---

١ – سورة يوسف آية ٩٠ – ٩٢ .
٢ – سورة الممتحنة آية ١ .
٣ – سورة الممتحنة آية ٧ .
٤ – سورة هود آية ٧ .
سورة الملك آية ٢ .
٥ – سورة النساء آية ١٢٥ .

به ورسوله ، من واجب ومستحب ، فما ليس من هذا ولا هذا ليس من الحسنات والعمل الصالح فلا يكون فاعله محسناً .

وكذلك قال لمن قال : (لَنْ يَدْخُلَ الجَنَّةَ إِلاَّ مَنْ كَانَ هُوداً أَو نَصَارىَ قالَ : تِلْكَ أَمَانِيهِمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ بَلَى مَنْ أَسلَمَ وَجْهَهُ للهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلاَ خَوفٌ عَلَيهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُون) (١) وقد قال تعالى : (وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ ديناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنهُ وَهُوَ فِي الآخرةِ مِنَ الخَاسِرِين) (٢) .

والإسلام هو دين جميع الانبياء والمرسلين ومن اتبعهم من الأمم كما أخبر الله بنحو ذلك في غير موضع من كتابه فأخبر عن نوح وإبراهيم وإسرائيل عليهم السلام أنهم كانوا مسلمين ، وكذلك عن اتباع موسى وعيسى عليهما السلام وغيرهم . والإسلام هو أن يستسلم لله لا لغيره فيعبد الله ولا يشرك به شيئاً ويتوكل عليه وحده ويرجوه ويخافه وحده ويحب الله المحبة التامة لا يحب مخلوقاً كحبه لله بل يحب لله ويبغض لله ويوالي لله ويعادي لله ، فمن استكبر عن عبادة الله لم يكن مسلماً ، ومن عبد مع الله غيره لم يكن مسلماً ، وإنما تكون عبادته بطاعته ، وهو طاعة رسله ، من يطع الرسول فقد أطاع الله ، فكل رسول بعث بشريعة فالعمل بها في وقتها هو دين الإسلام ، وأما ما بدل منها فليس من دين الإسلام ، وإذا نسخ منها ما نسخ لم يبق من دين الإسلام كاستقبال بيت المقدس في أول الهجرة بضعة عشر شهراً ، ثم الأمر باستقبال الكعبة وكلاهما في وقته دين الاسلام ، فبعد النسخ لم يبق دين الاسلام إلا أن يولي المصلي وجهه شطر المسجد الحرام .

---

١ ــ سورة البقرة آية ١١١ .
٢ ــ سورة ال عمران آية ٨٥ .

فمن قصد أن يصلي إلى غير تلك الجهة لم يكن على دين الاسلام لأنه يريد أن يعبد الله بما لم يأمره ، وهكذا كل بدعة تخالف أمر الرسول ، إما أن تكون من الدين المبدل الذي ما شرعه الله قط ، أو من المنسوخ الذي نسخه الله بعد شرعه كالتوجه إلى بيت المقدس . فلهذا كانت السنة في الاسلام كالإسلام في الدين هو الوسط كما قد شرح هذا في غير موضع .

والمقصود هنا أنه إذا رد ما تنازع فيه الناس إلى الله والرسول سواء كان في الفروع أو الأصول كان ذلك خيراً وأحمد عاقبة كما قال تعالى : (يَا أيهَا الَّذينَ آمَنُوا أطيعُوا اللهَ وَأطيعُوا الرَّسُولَ وَأولي الأمرِ مِنْكُمْ ، فَإنْ تَنَازَعتُم في شَيءٍ فَرُدُّوهُ إلى الله وَالرَّسُول إنْ كُنتُم تُؤْمِنُونَ بالله وَاليَوْمِ الآخرِ ذَلكَ خَيرٌ وأحسَنُ تأويلاً)(١) . وقال تعالى : (كَانَ النَاسُ أمةً وَاحدةً فَبَعَثَ اللهُ النَبيينَ مُبَشِرينَ وَمُنْذِرينَ وَأنْزَلَ مَعَهُم الكِتابَ بالحق لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَاسِ فيما اخْتَلَفُوا فيه وَمَا اخْتَلَفَ فيه إلاَّ الذين أوتُوهُ مِنْ بَعْد مَا جَاءَتهم البَيِّنَاتُ بَغياً بَيْنَهُم فَهَدَى اللهُ الذينَ آمَنُوا لمَا اخْتَلَفُوا فيهِ مِنَ الحَق بإذنِهِ وَاللهُ يهدي مَنْ يَشَاءُ إلى صِراطٍ مُستقيم)(٢) . وفي صحيح مسلم عن عائشة « فإن النبي ﷺ كان إذا قام من الليل يقول : أللهم رَبَّ جبريلَ وَميكائيلَ وإسرافيلَ فَاطِرَ السمَوات والأرضِ عَالِمَ الغَيْبِ وَالشَهَادَةِ أنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فيمَا كَانُوا فيهِ يَخْتَلِفُونَ اهدني لما اختُلِفَ فيهِ مِنَ الحَقّ بإذنِكَ إنَّكَ تَهدي مَنْ تَشَاءُ إلى صِراطٍ مُستقيم » .

---

١ – سورة النساء آية ٥٨ – ٥٩ .

٢ – سورة البقرة آية ٢١٣ .

وهذه حال أهل العلم والحق والسنة يعرفون الحق الذي جاء به الرسول وهو الذي اتفق عليه صريح المعقول وصحيح المنقول ، ويدعون إليه ويأمرون به نصحاً للعباد وبياناً للهدى والسداد ، ومن خالف ذلك لم يكن لهم معه هوى ، ولم يحكموا عليه بالجهل ، بل حكمه إلى الله والرسول ، فمنهم من يكفره الرسول ، ومنهم من يجعله من أهل الفسق أو العصيان ، ومنهم من يعذره ويجعله من أهل الخطأ المغفور ، والمجتهد من هؤلاء المأمور بالإجتهاد يجعل له أجراً على فعل ما أمر به من الاجتهاد وخطؤه مغفور له ، كما دل الكتاب ، وأما أهل البدع فهم أهل أهواء وشبهات يتبعون أهواءهم فيما يحبونه ويبغضونه ، ويحكمون بالظن والشبه فهم يتبعون الظن وما تهوى الأنفس ، ولقد جاءهم من ربهم الهدى ، فكل فريق منهم قد أصَّلَ لنفسه أصل دين وضعه إما برأيه وقياسه الذي يسميه عقليات ، وإما بذوقه وهواه الذي يسميه ذوقيات ، وإما بما يتأوله من القرآن ويحرف فيه الكلم عن مواضعه ويقول إنه إنما يتبع القرآن كالخوارج ، وإما بما يدعيه من الحديث والسنة ويكون كذباً وضعيفاً كما يدعيه الروافض من النص والآيات ، وكثير ممن يكون قد وضع دينه برأيه أو ذوقه يحتج من القرآن بما يتأوله على غير تأويله ويجعل ذلك حجة لا عمدة وعمدته في الباطن على رأيه كالجهمية والمعتزلة في الصفات والأفعال بخلاف مسائل الوعد والوعيد ، فإنهم قد يقصدون متابعة النص .

فالبدع نوعان : نوع كان قصد أهلها متابعة النص والرسول لكن غلطوا في فهم المنصوص وكذبوا بما يخالف ظنهم من الحديث ومعاني الآيات كالخوارج وكذلك الشيعة المسلمين بخلاف من كان منافقاً زنديقاً يظهر التشيع وهو في الباطن لا يعتقد الإسلام وكذلك المرجئة قصدوا اتباع الأمر والنهي وتصديق الوعيد مع الوعد .

ولهذا قال عبدالله بن المبارك ، ويوسف بن اسباط وغيرهما إن الثنتين وسبعين فرقة أصولها أربعة : الشيعة والخوارج والمرجئة والقدرية . وأما الجهمية النافية للصفات فلم يكن أصل دينهم اتباع الكتاب والرسول ، فإنه ليس في الكتاب والسنة نص واحد يدل على قولهم ، بل نصوص الكتاب والسنة متظاهرة بخلاف قولهم ، وإنما يدعون التمسك بالرأي المعقول ، وقد بسط القول على بيان فساد حججهم العقلية وما يدعيه بعضهم من السمعيات وبين أن المعقول الصريح موافق للمنقول الصحيح في بطلان قولهم لا مخالف له .

والمقصود هنا الكلام في أفعال الرب فإن الجهمية والمعتزلة ومن اتبعهم صاروا يسلكون فيه بأصل أصل بالمعقول ، ويجعلون العمدة ، وخاضوا في لوازم القدر برأيهم المحض فتفرقوا فيه تفرقاً عظيماً، وظهر بذلك حكمة نهي النبي ﷺ لأمته عن التنازع في القدر مع أن المتنازعين كان كل منهما يدلي بآية ، لكن كان ذلك يفضي إلى إيمان كل طائفة ببعض الكتاب دون البعض ، فكيف إذا كان المتنازعون عمدتهم رأيهم ، والحديث رواه أهل المسند والسنن مفصلاً ، ورواه مسلم مجملاً عن عبدالله بن رباح الأنصاري أن عبدالله بن عمرو قال : « هجرت إلى رسول الله ﷺ يوماً فسمع صوت رجلين اختلفا في آية فخرج علينا ﷺ يعرف في وجهه الغضب فقال : « إنما هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبلكُم باختلافهِم في الكتاب». وقال الإمام أحمد في المسند حدثنا أبو معاوية ثنا داود بن أبي هند عن عمرو ابن شعيب عن أبيه عن جده قال : « خرج رسول الله ﷺ ذات يوم والناس يتكلمون في القدر قال فكأنما يفقأ في وجهه حب الرمان من الغضب قال : فقال : مَا لَكُمْ تَضربونَ كِتَابَ الله بَعْضَهُ ببعْضٍ بِهذا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ ، قال فما غبطت نفسي بمجلس فيه رسول الله ﷺ لم أشهده ما غبطت نفسي بذلك المجلس إني لم أشهده ». وهذا

حديث محفوظ من رواية عمرو بن شعيب وقد رواه ابن ماجه من حديث أبي معاوية .

وكتب أحمد في رسالته إلى المتوكل هذا الحديث ، وجعل يقول في مناظرته لهم يوم الدار في المحنة إنا قد نهينا عن أن نضرب كتاب الله بعضه ببعض ، وروى هذا المعنى الترمذي من حديث أبي هريرة ، وقال : حديث حسن غريب قال : وفي الباب الذي فررت منه فإنه كما قيل إن له حياة وعلماً وقدرة وإرادة وغضباً ورضى ونحو ذلك .

قلت : هذا يستلزم أن يكون موافقاً للمخلوق في مسمى هذه الاسماء، وهذا تشبيه ، فقيل لك : هذا يلزم مثله في الذات فإن قيل بتعطيل الذات ، فذلك يستلزم ما فررت منه من ثبوت جسم قديم حامل للأعراض والحركات ، وإذا كان هذا لازماً لك على تقدير نفي الذات كما ثبت أنه لازم على تقدير إثباتها كان لازماً على تقدير النقيضين النفي والإثبات ، وما كان كذلك لم يكن نفيه ، وأما نحن فقد بينا أن اللازم على تقدير إثباتها لا محذور فيه وإنما المحذور لازم على تقدير نفيها ؛ وهذا قد بسط في غير هذا الموضع .

والمقصود هنا أنه يقال لهؤلاء الذين ينفون الحكمة ؛ ثم الإرادة ؛ ثم الفعل في الافعال نظير ما قيل لأولئك في الصفات ، ويجعل مبدأ الكلام من الإرادة في الموضعين فيقال لمن أثبتها ونفى الحكمة من المنتسبين إلى إثبات القدر والمنتسبين إلى السنة والجماعة لم نفيتم الحكمة ، فإذا قالوا لأنا لا نعرف من يفعل الحكمة إلا من يفعل لغرض يعود إليه ؛ وهذا لا يكون إلا فيمن يجوز عليه اللذة والألم والإنتفاع والضرر والله منزه عن ذلك، فيقال لهم ما قاله نفاة الإرادة ، وأنتم لا تعقلون إرادة إلا فيمن يجوز عليه اللذة والألم والإنتفاع والضرر ، وقد قلتم أن الله تعالى مريد فإما أن تطردوا أصلكم النافي فتنفوا الإرادة ، أو المثبت فتثبتوا اللذة ، وإلا فما الفرق ؟

فإذا قال نفاة الإرادة فلهذا نفينا الإرادة كما رجحه الرازي في المطالب العالية ، واحتج به للفلاسفة قيل لهم : فانفوا أن يكون فاعلاً فإنكم لا تعلمون فاعلاً غير مقهور إلا بإرادة ، ولا يعقلون ما يفعل ابتداء إلا بإرادة أو فاعلاً حياء إلا بإرادة ، أو فاعلاً مطلقاً إلا بإرادة ، فإن قال اتباع أرسطو فلهذا قلنا إنه لا يفعل شيئاً ، وليس بموجب بذاته شيئاً لكن قلنا إن الفلك يتشبه به أو قال من هو أعظم تعطيلاً منهم ، فلهذا نفينا الأول بالكلية ولم نثبت علة تفعل ولا علة يتشبه بها ؟ قيل لهم : فهذه الحوادث مشهودة وحركة الكواكب والشمس والقمر مشهودة ، فهذه الحركات الحادثة وغيرها من الحوادث مثل السحاب والمطر والنبات والحيوان والمعدن وغير ذلك مما يشهد حدوثه أحدثَ بنفسه من غير أن يحدثه محدث قديم أو لا بد للحوادث من محدث قديم ؟ فإن قالوا : بل حدث كل حادث بنفسه من غير أن يحدثه أحد ؟ كان هذا ظاهر الفساد يعلم بضرورة العقل إنه في غاية المكابرة ونهاية السفسطة مع لزوم ما فروا منه ، فإنهم فروا من أن يكون ثم فاعل محدث وقد أثبتوا فاعلاً محدثاً لكن جعلوا كل حادث هو يحدث نفسه ويفعلها فجعلوا ما ليس بشيء يجعل الشيء ، وجعلوا المعدوم يحدث الموجود فلزمهم ما فروا منه من إثبات فاعل مع ما لزمهم من الكفر العظيم ، وغاية الجهل وغاية فساد العقل ، وإن قالوا بل كل محدث يحدثه محدث وللمحدث محدث ؟ قيل لهم : هذا أيضاً ممتنع في صريح العقل ، فإن التسلسل في الفاعل ممتنع بصريح العقل واتفاق العقلاء فإنه كلما كثر ما يقدر أنه حادث كان أحوج إلى القديم فليس في تقدير حوادث لا تتناهى ما يوجب استغناءها عن القديم بل إذا كان المحدث الواحد لا بد له من محدث غيره فمجموع الحوادث أولى بالإفتقار إلى محدث لها خارج عنها كلها ، فإن المحدث لمجموعها يمتنع أن يكون واحداً منها فإنه يلزم أن يحدث نفسه ، ويمتنع أن يكون المجموع أحدث المجموع فإن الشيء لا يحدث نفسه .

والمجموع هي الآحاد الحادثة وهيئتها الإجتماعية وتلك الهيئة محتاجة إلى المجموع الذي هو كل واحد واحد والمجموع ليس إلا الآحاد واجتماعها وكل ذلك مفتقر إلى محدث مباين لها فلا بد للحوادث من قديم ليس بحادث ، ثم يقال لهم إذا قدر تسلسل الفاعلين وإن ما كان محدثاً له محدث وهلم جرا ، فهذا فيه إثبات ما فررتم منه ، وهو أن هذا المحدث فعل هذا وهذا فعل هذا، لكن أثبتم ما لا يتناهى من ذلك في آن واحد فركبتم ما فررتم منه مع لزوم هذه الجهالات التي تقتضي غاية فساد العقل والكفر بالسمع ، وإذا كان المحذور يلزمهم على تقدير أن يكون الحادث أحدث نفسه أو أحدث كل حادث حادثاً آخر مع فساد هذين تبين أنه لا ينفعه إنكار القديم . وإن قال بل أقر بالمحدث القديم قيل : فقد أقررت بفعل القديم للمحدث ، وإذا ثبت أن القديم فعل المحدث ، وأنت لا تعلم فاعلاً إلا لجلب منفعة أو دفع مضرة قيل له : فما كان جوابك عن هذا كان جواباً عن كونه يفعل بإرادته . وقيل لمثبت الإرادة ما كان جوابك عن هذا كان جواباً عن حكمته فقد بين أن من نفى الحكمة فلا بد أن ينقض قوله ويلزمه مع التناقض نفي الصانع ، وهو مع نفي الصانع تناقضه أشد .

والمحذور الذي فر منه ألزم فلم يغن عنه فراره من إثبات الحكمة إلا زيادة الجهل والشر ، وهكذا يقال لمن نفى حبه ورضاه وبغضه وسخطه، وهذا مقام شريف من تدبره وتصوره تبين له أنه لا بد من الإقرار بما جاء به الرسول . وأنه هو الذي يوافق صريح المعقول . وأن من خالفه فهو ممن لا يسمع ولا يعقل وهو أسوأ حالاً ممن فر من الملك العادل الذي يلزمه بطعام امرأته وأولاده . والزكاة الشرعية إلى بلاد مالكها ظالم ألزمه بإخراج أضعاف ذلك لخنازيره وكلابه مع قلة الكسب في بلاده .

وبمنزلة من فر من معاشرة أقوام أهل صلاح وعدل ألزموه ما يلزم واحداً منهم من الأمور المشتركة إذ كانوا مقيمين أو مسافرين أن يخرج

مثلما يخرجه الواحد منهم ، فكره هذا وفر إلى بلد فألزمه أهلها بأن ينفق عليهم ويخدمهم وإلا قتلوه وما أمكنه الهرب منهم ، فمن فر من حكم الله ورسوله أمراً وخبراً أو ارتد عن الإسلام أو بعض شرائعه خوفاً من محذور في عقله أو عمله أو دينه أو دنياه ، كان ما يصيبه من الشر أضعاف ما ظنه شراً في اتباع الرسول قال تعالى : (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ، وإذا قِيلَ لَهُم تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا . فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا) [١] .

---

١ – سورة النساء آية ٥٦ – ٦٥ .

فصل

الله غني عن العالمين

ويقال لهم: لم فررتم من إثبات المحبة والحكمة والإرادة والفعل؟ فإن قالوا لأن ذلك لا يعقل إلا في حق من يلتذ ويتألم وينتفع ويتضرر، والله منزه عن ذلك. قيل للفلاسفة: فأنتم تثبتون أنه مستلذ مبتهج فهذا غير محذور عندكم. وإن قلتم: لأن ذلك يستلزم لذة حادثة. قيل لكم: في حلول الحوادث قولان، وليس معكم في النفي إلا ما يدل على نفي الصفات مطلقاً كدليل التركيب. وقد عرف فساده من وجوه..

وقيل للجهمية والمعتزلة: إن أردتم أن ذلك يقتضي حاجته إلى العباد وأنهم يضرونه أو ينفعونه. فهذا ليس بلازم، ولهذا كان الله منزها عن ذلك كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح الإلهي: «يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضُرِّي فَتَضُرُّونِي. وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي».

فالله أجل من أن يحتاج إلى عباده لينفعوه أو يخاف منهم أن يضروه، وإذا كان المخلوق العزيز لا يتمكن غيره من قهره، فمن له العزة جميعاً، وكل عزة فمن عزته أبعد عن ذلك. وكذلك الحكيم المخلوق إذا كان لا يفعل بنفسه ما يضرها فالخالق جل جلاله أولى أن لا يفعل ذلك لو كان ممكناً فكيف إذا كان ممتنعاً قال تعالى: (وَلَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ

حَظّاً في الآخرةِ ولهُمْ عذابٌ عظيمٌ)[1]. وقال تعالى : (وَظَلَّلْنا عليْهمُ الغمامَ وأنزلنا عليْهِمُ المَنَّ والسَّلوى كُلُوا مِن طيباتِ ما رَزَقْناكم وما ظلمُونا ولكنْ كانُوا أنفسهم يَظْلِمُونَ)[2] .
فقد بيّن أن العصاة لا يضرونه ولا يظلمونه كعصاة المخلوقين فإن مماليك السيد وجند الملك وأعوان الرجل وشركاءه إذا عصوه فيما يأمرهم ويطلبه منهم فقد يحصل له بذلك ضرر في نفسه أو ماله أو عرضه أو غير ذلك ، وقد يكون ذلك ظلماً له ،والله تعالى لا يقدر أحد على أن يضره ولا يظلمه وإن كان الكافر على ربه ظهيراً فمظاهرته على ربه ومعاداته له ومشاقته ومحاربته عادت عليه بضرره وظلمه لنفسه وعقوبته في الدنيا والآخرة ، وأما النفع فهو سبحانه غني عن الخلق لا يستطيعون نفعه فينفعوه فما أمرهم به إذا لم يفعلوه لم يضروه بذلك كما قال تعالى : (وَلِلهِ على النّاسِ حِجُّ البَيتِ مَنْ استطاعَ إليه سبيلاً ، ومَنْ كفرَ فإنَّ اللهَ غنيٌ عن العالمين)[3] وقال : (ومَنْ شكرَ فإنما يشكرُ لنفسه ومَنْ كفرَ فإنَّ ربي غنيٌ كريمٌ)[4] وقال : (إنْ تكفُروا فإنَّ اللهَ غنيٌ عنكم ولا يرضى لعبادِهِ الكفرَ وإنْ تشكرُوا يرضَهُ لكُمْ ولا تزرُ وازرةٌ وِزْرَ أخرى)[5] .

وإن أردتم أنه سبحانه لا يريد ولا يفعل ما يفرح به ويسر به ويجعل عباده المؤمنين يفعلون ما يفرح به فمن أين لكم هذا ، وإن سمي هذا لذة فالألفاظ المجملة التي قد يفهم منها معنى فاسد إذا لم يرد في كلام الشارع لم نكن محتاجين إلى إطلاقها كلفظ العشق ، وإن أريد به المحبة التامة وقد أطلق بعضهم على الله أنه يعشق ويعشق ، وأراد به أنه يحب ويحب محبة

---

١ ــ سورة آل عمران آية ١٧٦ .
٢ ــ سورة البقرة آية ٢ .
٣ ــ سورة آل عمران آية ٩٧ .
٤ ــ سورة النمل آية ٤٠ .
٥ ــ سورة الزمر آية ٧ .

تامة فالمعنى صحيح والمعنى فيه نزاع ، واللذة يفهم منها لذة الأكل والشرب والجماع كما يفهم من العشق المحبة الفاسدة ، والتصور الفاسد ، ونحو ذلك مما يجب تنزيه الله عنه فإن الذين قالوا لا يجوز وصفه بأنه يعشق منهم من قال : لأن العشق هو الإفراط في المحبة والله تعالى لا إفراط في حبه ومنهم من قال : لأن العشق لا يكون إلا مع فساد التصور للمعشوق ، وإلا فمع صحة التصور لا يحصل إفراط في الحب ، وهذا المعنى لا يمدح فاعله فإن من تصور في الله ما هو منزه عنه فهو مذموم على تصوره ولوازم تصوره.

ومنهم من قال : لأن الشرع لم يرد بهذا اللفظ وفيه إبهام وإيهام فلا يطلق . وهذا أقرب ، وآخرون ينكرون محبة الله وأن يحب ويحب كالمعتزلة والجهمية ومن وافقهم من الاشعرية وغيرهم فهؤلاء يكون الكلام معهم في كونه يحب ويحب كما نطق به الكتاب والسنة في مثل قوله : (فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ)[1] لا في لفظ العشق كذلك لفظ اللذة فيه إبهام وإيهام والشرع لم يرد بإطلاقه ولكن استفاض عن النبي ﷺ أن الله يفرح بتوبة التائب أعظم من فرح من وجد راحلته بعد أن فقدها ، وأيس منها في مفازة مهلكة ، ويئس من الحياة والنجاة من تلك الأرض ، ومن وجود مركبه ومطعمه ومشربه ثم وجد ذلك بعد اليأس قال النبي ﷺ : «فَكَيْفَ تَجِدُونَ فَرَحَهُ بِدَابَّتِهِ قَالُوا عَظِيماً يَارَسُولَ اللهِ قَالَ للهَ أشدُّ فَرَحاً بِتَوبَةِ عَبْدِهِ مِنْ هَذَا بِرَاحِلَتِهِ »[2] وقد نطق الكتاب والسنة بأنه يحب المتقين والمحسنين والصابرين والتوابين والمتطهرين والذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص وأنه يرضى عن المؤمنين . فإذا كنتم نفيتم حقيقة الحب والرضى لأن ذلك يستلزم اللذة بحصول المحبوب قيل لكم : إن كان هذا لازماً فلازم الحق حق ، وإن لم يكن لازماً بطل

١ ـ سورة المائدة آية ٥٧ .
٢ ـ هذا الحديث ذكره بمعناه على سبيل الحكاية لمعناه لا بلفظه تنبه .

نفيكم والفرح في الإنسان هو لذة تحصل في قلبه بحصول محبوبه .

وقد جاء أيضاً وصفه تعالى بأنه يسر في الاثر والكتب المتقدمة وهو مثل لفظ الفرح ، وأما الضحك فكثير في الأحاديث ولفظ البشبشة جاء أيضاً أنه يتبشبش للداخل إلى المسجد كما يتبشبش أهل الغائب بغائبهم إذا قدم ، وجاء في الكتاب والسنة ما يلائم ذلك ويناسبه شيء كثير فيقال لمن نفى ذلك لم نفيته ولم نفيت هذا المعنى وهو وصف كمال لا نقص فيه ؟ ومن يتصف به أكمل ممن لا يتصف به ؟ وإنما النقص فيه أن يحتاج فيه إلى غيره والله تعالى لا يحتاج إلى أحد في شيء بل هو فعال لما يريد لكن القدرية قد يشكل هذا على قولهم فإن العباد عندهم مستقلون باحداث فعلهم ولكن هذا مثل إجابة دعائهم وإثابتهم على أفعالهم ونحو ذلك مما فيه أن أفعالهم تقتضي أموراً يفعلها هو وهم لا يفرون من كونه يجب عليه أشياء وأنه يفعل ما يجب عليه فيكون العبد قد جعله مريداً لما لم يكن مريداً له ، وحينئذ فإذا كان العباد يجعلونه مريداً عندهم فالقول في لوازم الإرادة كالقول فيها ، وهذا إما أن يدل على فساد قولهم في القدر وهو الصواب ، وإما أن يقولوا إن مثل ذلك جائز على الله وجائز أن يجعله العبد مريداً بدون مشيئته لذلك وبدون أن يكون هو الذي شاء ذلك من العبد فيلزمهم في لوازمها ما يلزمهم فيها ، وأما على قول المثبتة فكلما يحدث فهو بمشيئته وقدرته فما جعله أحد مريداً فاعلاً بل هو الذي يحدث كل شيء ويجعل بعض الأشياء سبباً لبعض .

فإن قال نافي المحبة والفرح والحكمة ونحو ذلك هذا يستلزم حاجته إلى المخلوق ظهر فساد قوله :

وإن قيل إن ذلك إنْ كانَ وصف كمال فقد كان فاقداً له ، وإن كان نقصاً فهو منزه عن النقص ، قيل له : هو كمال حين اقتضت الحكمة

حدوثه ، وحدوثه قبل ذلك قد يكون نقصاً في الحكمة أو يكون ممتنعاً غير ممكن كما يقال في نظائر ذلك ، وتمام البسط في هذا الأصل مذكور في غير هذا الموضع .

والمقصود هنا التنبيه على لوازم ذلك فإن نفاة ذلك نفوا أن يكون في الممكن فعل ينزه عنه فليس عندهم فعل يحسن منه وفعل ينزه عنه بل عنده تقسيم الأفعال ، أفعال الرب والعبد إلى حسن وقبيح لا يكون عندهم إلا بالشرع ، وذلك لا يرجع إلى صفة في الفعل ، بل الشارع عندهم يرجح مثلاً على مثل ، والحسن والقبيح إنما يعقل إذا كان الحسن ملائماً للفاعل ، وهو الذي يلتذ به والقبيح ينافيه ، وهو الذي يتألم به والحسن والقبح في أفعال العباد بهذا الاعتبار متفق على جوازه ، وإنما النزاع في كونه يتعلق به المدح والثواب ، وهذا في الحقيقة يرجع إلى الألم واللذة ، فلهذا سلم الرازي في آخر عمره ما ذكره في كتاب [1]..

إن الحسن والقبح العقليين ثابتان في أفعال العباد دون الرب إذا كان معناهما يؤول إلى اللذة والألم ، والمعتزلة أثبتوا حسناً وقبحاً عقليين في فعل القادر مطلقاً سواء كان قديماً أو محدثاً ، وقال الحسن : ما للقادر فعله والقبيح ما ليس له فعله ، وقالوا : إن ذلك ثابت بدون كونه مستلزماً للذة والألم كما ادعوا ثبوت حكمته للفاعل القادر ولا تعود إليه ولا يستلزم اللذة فادعوا ما هو خلاف الموجود والمعقول ولهذا تساط عليهم النفاة فكان حجتهم عليهم أن يثبتوا أن هذا أمر لا يعقل إلا مع اللذة والألم ثم يقولون وذلك في حق الله محال فحجتهم مبنية على مقدمتين إن الحُسْنَ والقُبْحَ والحكمة مستلزم للذة والألم وذلك في حق الله محال والمعتزلة منعوا المقدمة الأولى فغلبوا معهم والمقدمة الثانية جعلوها محل وفاق وهي مناسبة لأصول

1 ـ هنا بياض في الأصل مقدار كلمتين ـ ولعل مكان هذا البياض اسم الكتاب

المعتزلة لكونهم ينفون الصفات ، فنفي الفعل القائم به أولى على أصلهم ونفي مقتضى ذلك أولى على أصلهم وهذه المقدمة التي اشتركوا فيها تقتضي نفي كونه مريداً ونفي كونه فاعلاً ،ونفي حدوث شيء من الحوادث، كما أن نفي الصفات يقتضي نفي قائم بنفسه موصوف بالصفات .

فنفي اتصافه بالصفات يستلزم أن لا يكون في الوجود شيء يتصف بصفة ونفي فعله واحداثه يقتضي أن لا يكون في الوجود شيء حادث ، فكان ما نفوه مستلزماً نهاية السفسطة وجحدالحقائق،ولهذا كان من وافق هؤلاء على نفي محبة الله لما أمر به من الصوفية يلزمهم تعطيل الأمر والنهي ، وأن لا ينفي إلا القدر العلم ، وقد التزم ذلك طائفة من محققيهم وكان نفي الصفات يستلزم نفي الصفات، وأن لا يكون موجودان أحدهما واجب قديم خالق، والآخر ممكن أو محدث أو مخلوق وهكذا التزمه طائفة من محققيهم وهم القائلون بوحدة الوجود ، وهم يقولون بكون العبد أولاً يشهد الفرق بين الطاعة والمعصية ، ثم يشهد طاعة بلا معصية ، ثم لا طاعة ولا معصية بل الوجود واحد فالذين أثبتوا الحسن والقبح في الأفعال ، وأن لها صفات تقتضي ذلك قالوا بما قاله جمهور العقلاء من المسلمين وغيرهم .

قال أبو الخطاب هذا قول أكثر الفقهاء والمتكلمين لكن تناقضوا فلم يثبتوا لازم ذلك ، فتسلط عليهم النفاة ، والنفاة لما نفوا الحسن والقبح في نفس الأمر قالوا : لا فرق في ما يخلقه الله وما يأمره به بين فعل وفعل ، وليس في نفس الأمر حسن ولا قبيح ولا صفات توجب ذلك ، واستثنوا ما يوجب اللذة والألم ، لكن اعتقدوا ما عتقدته المعتزلة أن هذا لا يجوز إثباته في حق الرب ، وأما في حق العبد فظنوا أن الأفعال لا تقتضي إلا لذة وألماً في الدنيا ، وأما كونها مشتملة على صفات تقتضي لذة وألماً في الآخرة ، فذلك عندهم باطل ولم يمكنهم أن يقولوا أن الشارع يأمر بما فيه لذة مطلقاً وينهي عما فيه ألم مطلقاً ، وكون الفعل يقتضي ما يوجب اللذة

هو عندهم من باب التولد وهم لا يقولون به بل قدرة العبد عندهم لا تتعلق إلا بفعل في محلها ، مع أنها عند شيخهم غير مؤثرة في المقدور ، ولا يقول أن العبد فاعل في الحقيقة بل كاسب .

ولم يذكروا بين الكسب والفعل فرقاً معقولاً بل حقيقة قولهم قول جهم : إن العبد لا قدرة له ولا فعل ولا كسب ، والله عندهم فاعل فعل العبد ، وفعله هو نفس مفعوله فصار الرب عندهم فاعلاً لكل ما يوجد من أفعال العباد ، ويلزمهم أن يكون هو الفاعل للقبائح وأن يتصف بها على قولهم أنه يوصف بالصفات الفعلية القائمة بغيره .

وقد تناقضوا في هذا الموضع فجعلوه متكلماً بكلام يقوم بغيره وجعلوه عادلاً ومحسناً بعدل وإحسان يقوم بغيره ، كما قد بسط في غير هذا الموضع ، وحينئذ فما بقي يمكنهم أن يفرقوا بين ممكن وممكن من جميع الأجناس أي يقولوا هذا يحسن من الرب فعله ، وهذا ينزه عنه ، بل يجوز عندهم أن يفعل كل ممكن مقدور والظلم عندهم هو فعل ما نهى المرء عنه أو التصرف في ملك الغير ، وكلاهما ممتنع في حق الله ، فإما أن يكون هنالك أمر ممكن مقدور وهو منزه عنه فهذا عندهم لا يجوز .

فلهذا جوزوا عليه كل ما يمكن ولا ينزهونه عن فعل لكونه قبيحاً أو نقصاً أو مذموماً ، ونحو ذلك ، بل يعلم ما يقع وما لا يقع بالخبر أي بخبر الرسول كما علم بخبره المأمور والمحظور ، والوعد والوعيد والثواب والعقاب ، أو بالعادة مع أن العادة يجوز انتقاضها عندهم ، لكن قالوا قد يعلم بالضرورة عدم ما يجوز وقوعه من غير فرق لا في الوجود ولا في العلم بين ما علموا انتفاءه وما لم يعلموه إذ كان أصل قولهم هو جواز التفريق بين المتماثلين بلا سبب ، فالإرادة القديمة عندهم ترجح مثلاً على مثل بلا سبب في خلق

الرب وفي أمره ، وكذلك عندهم قد يحدث في قلب العبد علماً ضرورياً بالفرق بين المتماثاين بلا سبب ، فلهذا قالوا : إن الشرع لا يأمر وينهى لحكمة ، ولم يعتمدوا على المناسبة وقالوا : علل الشرع امارات ، كما قالوا : إن أفعال العباد أمارة على السعادة والشقاء فقط من غير أن يكون في أحد الفعلين معنى يناسب الثواب أو العقاب .

ومن أثبت المناسبة من متأخريهم كأبي حامد ، ومن تبعه قالوا : عرفنا بالاستقراء أن المأمور به تقترن به مصلحة العباد وهو حصول ما ينفعهم ، والمنهي عنه تقترن به المفسدة ، فإذا وجد الأمر والنهي علم وجود قرينه الذي علم بعادة الشرع من غير أن يكون الرب آمر به لتلك المصلحة ولا نهى عنه لتلك المفسدة وجمهورهم وأئمتهم على أنه يمتنع أن يفعل لحكمة ، لكن الآمدي قال : إن ذلك جائز غير واجب ، فلم يجعله واجباً ولا ممتنعاً .

فصل

العدالـــة الإلهيـــة

وهذا الأصل دخل في جميع أبواب الدين أصوله وفروعه في خلق الرب لما يخلقه ورزقه واعطائه ومنعه وسائر ما يفعله . تبارك وتعالى ، ودخل في أمره ونهيه وجميع ما يأمر به وينهى عنه . ودخل في المعاد فعندهم يجوز أن يعذب الله جميع أهل العدل والصلاح والدين والانبياء والمرسلين بالعذاب الأبدي . وأن ينعم جميع أهل الكذب والظلم والفواحش بالنعيم الأبدي ، لكن بمجرد الخبر عرفنا أنه لا يفعل هذا ويجوز عندهم أن يعذب من لا له ذنب أصلاً بالعذاب الأبدي .

بل هذا واقع عند من يقول بأن أطفال الكفار يعذبون في النار مع آبائهم فإنهم كلهم يجوزون تعذيبهم إذ كان عندهم يجوز تعذيب كل حي العذاب المؤبد بلا ذنب ولا غرض ولا حكمة . لكن هل يقع هذا في أطفال المشركين؟ منهم من جزم بوقوعه كالقاضي أبي يعلى ومن وافقه ، ومنهم من توقف لعدم الدليل السمعي عنده لا لمانع عقلي كالقاضي أبي بكر ونحوه . وليس عندهم من أفعال الرب ما ينزهونه عنه أو ما تقتضي الحكمة وجوده ، بل يجوز عندهم أن يفعل كل ممكن ويجوز أن لا يفعل شيئاً من الخير .

لكن إذا أخبر أنه يفعل شيئاً أو أنه لا يفعله علم أنه واقع أو غير واقع بالخبر ، ويجوز عندهم أن يعذب من لا ذنب له ، ومن هو أبر الناس ،

وأعدلهم وأفضلهم عذاباً مؤبداً لا يعذبه أحداً من العالمين ويجوز أن ينعم شر الخلق من شياطين الأنس والجن نعيماً في أعلى درجات الجنة لا ينعم مثله المخلوق ، لكن لما أخبر بأن المؤمنين يدخلون الجنة والكفار يدخلون النار علم ما يقع مع أنه لو وقع ضده لم يكن بينهما فرق عندهم ، ثم مع مجيء الخبر فكثير منهم وافقه ، أما في جنس الفساق مطلقاً فيجوزون أن يدخل جميعهم الجنة ، ويجوزون أن يدخل جميعهم النار ، ويجوزون أن يدخل بعضهم كما يقوله من يقوله ممن وافق الشيعة والأشعرية كالقاضي أبي بكر ، لأن القرآن عنده لم يدل على شيء والاخبار أخبار آحاد بزعمه فلا يحتج بها في ذلك ،

وأما جمهور المنتسبين إلى السنة من أصحاب مالك والشافعي وأحمد وأبي حنيفة وغيرهم فيقطعون بأن الله يعذب بعض أهل الذنوب بالنار ، ويعفو عن بعضهم كما قال تعالى : (إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ) (1) . فهذا فيه الاخبار بأنه يغفر ما دون الشرك ، وأنه يغفره لمن يشاء لا لكل أحد ، لكن هل الجزاء والثواب والعقاب مبني على الموازنة بالحكمة والعدل كما أخبر الله بوزن الأعمال ، أو يغفر ويعذب بلا سبب ولا حكمة ، ولا اعتبار الموازنة فيه ، لهؤلاء قولان : فمن جوز ذلك فإنه يجوز عندهم أن يعذب الله من هو من أبر الناس وأكثرهم طاعات وحسنات على سيئة صغيرة عذاباً أعظم من عذاب أفسق الفاسقين ، ويجوز عندهم أن يغفر لأفسق الفاسقين من المسلمين وأعظمهم كبائر كل ذنب ويدخله الجنة ابتداء مع تعذيب ذلك في النار على صغيرة .

ولهذا قال جمهور الناس عن هؤلاء أنهم لا ينزهون الرب عن السفه

1 ــ سورة النساء آية ٤٨ ــ ١١٦ .

والظلم ، بل يصفونه بالأفعال التي يوصف بهـا المجانين والسفهاء ، فإن المجنون والسفيه قد يعطي مالاً عظيماً لمن ليس هو له بأهل ، وقد يعاقب عقوبة عظيمة من هو أهل للإكرام والإحسان ، والرب تعالى أحكم الحاكمين ، وأعدل العادلين ، وخير الراحمين ، والحكمة وضع الاشياء مواضعها ، والظلم وضع الشيء في غير موضعه .

ومن تدبر حكمته في مخلوقاته ومشروعاته رأى ما يبهر العقول ، فإنه مثلاً خلق العين واللسان ونحوهما من الاعضاء لمنفعة ، وخلق الرجل والظفر ونحو ذلك لمنفعة ، فلا تقتضي الحكمة أن يستعمل العين واللسان حيث يستعمل اليد والرجل والظفر ، ولا أن يستعمل الرجل واليد حيث يستعمل العين واللسان وهذا من حكمته موجود في أعضاء الانسان وسائر الحيوان والنبات وسائر المخلوقات ، فكيف يجوز في حكمته وعدله ورحمته في من هو دائماً يفعل ما يرضيه من الطاعات والعبادات والحسنات ، وقد نظر نظرة منهياً عنها أن يعاقبه على هذه النظرة بما يعاقب به أفجر الفساق ، وأن يكون أفجر الفساق في أعلى عايين وهو سبحانه يفعل ما يشاء ويحكم ما يريده .

لكن لا يشاء إلا ما يناسب حكمته ورحمته وعدلـه كما لا يشاء ويريد إلا ما علم أنه سيكون ، فلو قيل هل يجوز أن يشاء ما علـم أنه لا يكون لم يجر ذلك باتفاقهم لمناقضة علمه والعلم يطابق المعلوم ، فكيف يشاء ما يناقض حكمته ورحمته وعدله وبسط هـذه الأمور له مواضع متعددة .

والمقصود أن هؤلاء لما احتاجوا إلى إثبات النبوات اضطربوا في صفة النبي وما يجوز عليه وفي الآيات التي بها يعلم صدقه ، فجوزوا أن يرسل الله من يشاء بما يشاء لا يشترطون في النبي إلا أن يعلم ما أرسل به لأن تبليغ الرسالة بدون العلم ممتنع ، ومن جوز منهم تكليف ما لا يطاق مطلقاً

يلزمه جواز أن يأمره الله بتبليغ رسالة لا يعلم ماهي ، وجوزوا من جهة العقل ما ذكره القاضي أبو بكر أن يكون الرسول فاعلاً للكبائر . إلا أنه لا بد أن يكون عالماً بمرسله ، لكن ما علم بالخبر أن الرسول لا يتصف به علم من جهة الخبر فقط ، لا لأن الله منزه عن إرسال ظالم أو مرتكب للفواحش أو مكاس أو مخنث أو غير ذلك ، فإنه لا يعلم نفي شيء من ذلك بالعقل لكن بالخبر وهم في السمعيات عمدتهم الاجماع .

وأما الإحتجاج بالكتاب والسنة فأكثر ما يذكرونه تبعاً للعقل أو الاجماع . والعقل والاجماع مقدمان عندهم على الكتاب والسنة فلم يعتمد القاضي أبو بكر وأمثاله في تنزيه الانبياء لا على دليل عقلي ولا سمعي من الكتاب والسنة . فإن العقل عنده لا يمنع أن يرسل الله من شاء إذ كان يجوز عنده على الله فعل كل ما يقدر عليه ، وإنما اعتمد على الإجماع ، فما أجمع المسلمون عليه أنه لا يكون في النبي نزه عنه ، ثم ذكر ما ظنه إجماعاً كعاداته وعادات أمثاله في نقل إجماعات لا يمكن نقلها عن واحد من الصحابة ولا ثلاثة من التابعين ، ولا أربعة من الفقهاء المشهورين كدعواه الإجماع على أن الصلاة في الدار المغصوبة مجزئة . مع قوله أن العقل يحيل أن يكون مأموراً به فيدعي الإجماع على براءة المأمور من فعل ما أمر به لكونه فعل ما نهى عنه . ولأهل الكلام والرأي من دعوى الاجماعات التي ليست صحيحة ، بل قد يكون فيها نزاع معروف . وقد يكون إجماع السلف على خلاف ما ادعوا فيه الإجماع ما يطول ذكره هنا .

وقد ذكرنا قطعة من الاجماعات الفروعية التي حكاها طائفة من أعيان العلماء العالمين بالإختلاف مع أنها منتقضة وفيها نزاع ثابت لم يعرفوه ، وقد يكون غيرهم حكى الإنجماع على نقيض قولهم ؛ وربما كان من السلف

كقول الشافعي ما أعلم أحداً قبل شهادة العبد . وقبله من الصحابة أنس ابن مالك . يقول ما أعلم أحداً رد شهادة العبد ، وكدعوى ابن حـــزم الإجماع على إبطال القياس ، وأكثر الأصوليين يذكرون الإجماع على إثبات القياس . وبسط هذا له موضع آخر .

فصل

تأييده سبحانه رسله بالمعجزات

ولما أرادوا إثبات معجزات الانبياء عليهم السلام ، وأن الله سبحانه لا يظهرها على يد كاذب ، مع تجويزهم عليه فعل كل شيء فعوا معاً (١) فقالوا لو جاز ذلك ، لزم أن لا يقدر على تصديق من ادعى النبوة ، وما لزم منه نفي القدرة كان ممتنعاً ، فهذا هو المشهور عن الأشعري ، وعليه اعتمد القاضي أبو بكر ، وابن فورك والقاضي أبو يعلى وغيرهم ، وهو مبني على مقدمات .

أحدها أن النبوة لا تثبت إلا بما ذكروه من المعجزات ، وأن الرب لا يقدر على أعلام الخلق بأن هذا نبي إلا بهذا الطريق ، وأنه لا يجوز أن يعلموا ذلك ضرورة وأن اعلام الخلق بأن هذا نبي بهذا الطريق ممكن .

فلو قيل لهم : لا نسلم أن هذا ممكن على قولكم فإنكم إذا جوزتم عليه فعل كل شيء وإرادة كل شيء لم يكن فرق بين أن يظهرها على يد صادق أو كاذب ، ولم يكن إرسال رسول يصدقه بالمعجزات ممكناً على أصلكم ، ولم يكن لكم حجة على جواز إرسال الرسول وتصديقه بالمعجزات إذ كان لا طريق عندهم إلا خلق المعجز ، وهذا إنما يكون دليلاً إذا علم أنه

---

١ ـ هكذا الاصل فتامل ولعله فنفوا منعا .

إنما خلقه لتصديق الرسول وأنتم عندكم لا يفعل شيئاً لشيء ، ويجوز عليه فعل كل شيء .

وسلك طائفة منهم طريقاً آخر وهي طريقة أبي المعالي وأتباعه ، وهو أن العلم بتصديقه لمن أظهر على يديه المعجز علم ضروري ، وضربوا له مثلاً بالملك ، وهذا صحيح إذا منعت أصولهم ، فإن هذه تعلم إذا كان المعلم بصدق رسوله ممن يفعل شيئاً لحكمة ، فأما من لا يفعل شيئاً لشيء ، فكيف يعلم أنه خلق هذه المعجزة لتدل على صدقه لا لشيء آخر ، ولم لا يجوز أن يخلقها لا لشيء على أصلهم ، وقالوا أيضاً ما ذكره الأشعري المعجز علم الصدق ودليله ، فيستحيل وجوده بدون الصدق فيمتنع وجوده على يد الكاذب وهذا كلام صحيح ، لكن كونه علم الصدق مناقض لأصولهم فإنه إنما يكون علم الصادق إذا كان الرب منزهاً عن أن يفعله على يد الكاذب ، أو علم بالإضطرار أنه إنما فعله لتصديق الصادق ، أو أنه لا يفعله على يد كاذب ، وإذا علم بالإضطرار تنزهه عن بعض الافعال بطل أصلهم .

فصل

مناقشة المعتزلة فى خوارق العادات

والمعتزلة قبلهم ظنوا أن مجرد كون الفعل خلاقاً للعادة هو الآية على صدق الرسول فلا يجوز ظهور خارق إلا لنبي ، والتزموا طرداً لهذا إنكار أن يكون للسحر تأثير خارج عن العادة مثل أن يموت ويمرض بلا مباشرة شيء ، وأنكروا الكهانة وأن تكون الجن تخبر ببعض المغيبات وأنكروا كرامات الأولياء ، فأتى هؤلاء فأثبتوا ما أثبته الفقهاء وأهل الحديث من السحر والكهانة والكرامات .

لكن قيل لهم فميزوا بين هذا وبين المعجزات ؟ فقالوا : لا فرق في نفس الجنس ، وليس في جنس مقدورات الرب ما يختص بالأنبياء ، لكن جنس خرق العادة واحد ، فهذا إذا اقترن بدعوى النبوة وسلم عن المعارضة عند تحدي الرسول بالمثل فهو دليل ، فهي عندهم لم تدل لكونها في نفسها وجنسها دليلاً ، بل إذا استدل بها المدعي للنبوة كانت دليلاً وإلا لم تكن دليلاً ، ومن شرط الدليل سلامته عن المعارضة ،وهي عندهم غاية الفرق ، فإذا قال المدعي للنبوة : ائتوا بمثل هذه الآية فعجزوا كان هذا هو المعجز المختص بالنبي وإلا فيجوز عندهم أن تكون معجزات الرسول من جنس ما للسحرة والكهان من الخوارق إذا استدل بها الرسول .

فالحجة عنده بمجموع الدعوى والخارق لا الخارق وحده ، والإعتبار

بالسلامة عن المعارض بل قد لا يشترطون أن يكون خارقاً للعادة ، لكن يشترطون أن لا يعارض وعجز الناس عن المعارضة مع أنه معتاد لا خارق للعادة ، فالإعتبار عندهم بشيئين باقترانه بالدعوى وتحديه لمن دعاهم أن يأتوا بمثله فلا يقدرون .

قالوا وخوارق الانبياء يظهر مثلها على يد الساحر والكاهن والصالح ولا يدل على النبوة لأنه لم يدعها قالوا ولو ادعى النبوة أحد من أهل هذه الخوارق مع كذبه لم يكن بد من أن الله يعجزه عنها فلا يخلقها على يده أو يقيض له من يعارضه فتبطل حجته ، وإذا قيل لهم لم قلتم أن الله لا بد أن يفعل هذا وهذا ، وعندكم يجوز عليه كل شيء ؟ ولا يجب عليه فعل شيء ؟ ولا يجب منه فعل شيء ؟ قالوا : لأنه لو لم يمنعه من ذلك أو يعارضه بآخر لكان قد أتى بمثل ما يأتي به النبي الصادق فتبطل دلالة آيات الانبياء.

فإذا قيل لهم : وعلى أصلكم يجوز أنه يبطل دلالتها ، وعندكم يجوز عليه فعل كل شيء؟أجابوا بالوجهين المتقدمين :أما لزوم أنه ليس بقادر ، أو أن الدلالة معلومة بالإضطرار ، وقد عرف ضعفهما ، ثم هنا يلزمهم شيء آخر ، وهو أنه لم قلتم أن المعجز الذي يدل به على صدق الانبياء ما ذكرتموه من مجرد كونه خارقاً مع الدعوى ، وعدم المعارضة فإن هذا يقال أنه باطل من وجوه .

أحدها أنه إذا كان ما يأتي به النبي يأتي به الساحر والكاهن ، لكان اولئك يعارضون وهذا لا يعارض،فالإعتبار إذن بعدم المعارضة ، فقولوا كل من ادعى النبوة وقال : معجزتي أن لا يدعيها غيري فهو صادق ، أو لا يقدر غيري على دعواها فهو صادق،أوأفعل أمراً معتاداً من الأكل والشرب واللباس ، ومعجزتي أن لا يفعله غيري أو لا يقدر غيري على فعله ، فهو صادق . فالتزموا هذا ، وقالوا المنع من المعتاد كإحداث غير

المعتاد ، وعلى هذا فلو قال الرسول : معجزتي أني أركب الحمار ، أو الفرس ، أو آكل هذا الطعام أو ألبس هذا الثوب أو أعدو إلى ذلك المكان وأمثال ذلك ، وغيره لا يقدر على ذلك ، كان هذا آية دعواه وهذا لا ضابط له ، فإن ما يعجز عنه قوم دون قوم لا ينضبط ، ولكن هذا يفسد قول من فسرها بخرق العادة ، فإن العادات تختلف وقد ذكروا هذا وقالوا المعجزة عند كل قوم ما كان خرقاً لعادتهم ، وقالوا يشترط أن تكون خارقة لعادة من دعاهم ، وإن كان معتاداً لغيرهم ، وقالوا إذا كان المدعي كذاباً فإن الله يقيض له من يعارضه من أهل تلك الصناعة ، أو يمنعه من القدرة عليها وهذا وجه ثان يدل على فساد ما أصلوه هم والمعتزلة .

الوجه الثالث أن المعارضة بالمثل أن يأتي بحجة مثل حجة النبي وحجته عندهم مجموع دعوى النبوة والإثبات بالخارق ، فيلزم على هذا أن تكون المعارضة بأن يدعي غيره النبوة ، ويأتي بالخارق ، وعلى هذا فليست معارضة الرسول بأن يأتوا بالقرآن ، أو عشر سور أو سورة ، مثل أن يدعي أحدهم النبوة ، ويفعل ذلك ، وهذا خلاف العقل والنقل ، ولو قال الرسول لقريش لا يقدر أحد منكم أن يدعي النبوة ويأتي بمثل القرآن ، وهذا هو الآية ، وإلا فمجرد تلاوة القرآن ليس آية ، بل قد يقرأه المتعلم له ، فلا تكون آية ، لأنه لم يدع النبوة ولو ادعاها لكان الله ينسيه إياه ، أو يقيض له من يعارضه كما ذكرتم ، لكانت قريش وسائر العلماء يعلمون أن هذا باطل.

الرابع أنه إذا كان اعتمادكم على عدم المعارضة فقولوا ما قاله غيركم وهو أن آية سلامة ما يقوله من التناقض وأن كل من ادعى النبوة ، وكان كاذباً فلا بد أن يتناقض أو يقيض الله له من يقول مثل ما قال ، وأما السلامة من التناقض من غير دعوى النبوة فليست دليلاً فهذا خير من قولكم فإنه قد علم أن كل ما جاء من عند غير الله فإنه لا بد أن يختلف ويتناقض وما

جاء من عند الله لا يتناقض كما قال تعالى : (وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدوا فيهِ اخْتِلافاً كَثيراً) [1] .

وأما دعوى الضرورة فمن ادعى الضرورة في شيء دون شيء مع تماثلهما ، وعدم الفرق بينهما في نفس الأمر كانت دعواه مردودة بل كذباً ، فإن وجود العلم الضروري بشيء دون شيء لا بد أن يكون لفرق أما في المعلوم وأما في العالم ، وإلا فإذا قدر تساوي المعلومات وتساوي حال العالم بها لم يعلم بالضرورة أحد المتماثلين دون الآخر .

الخامس : أنه لا بد أن تكون الآية التي للنبي أمراً مختصاً بالانبياء فإن الدليل مستلزم للمدلول عليه ، فآية النبي هي دليل صدقه وعلامة صدقه وبرهان صدقه فلا توجد قط إلا مستلزمة لصدقه ، وقد ادعوا أن آيات صدقهم تكون منفكة عن صدقهم تكون لساحر وكاهن ورجل صالح، ولمدعي الإلهية لكن لا تكون لمن يكذب في دعوى النبوة فجوزوا وجود الدليل مع عدم المدلول عليه إلا إذا ادعى المدلول عليه كاذب،واستدلوا على ذلك بأن الساعة تخرق عندها خوارق ، ولا تدل على صدق أحد ، ولو ادعى مدعي النبوة مع تلك الخوارق لدلت،قالوا فعلم إن جنس ماهو معجز يوجد بدون صدق النبي ، لكن مع دعوى النبوة لا يوجد إلا مع الصدق والآية عندهم الدعوى والخارق والصدق هو المدلول عليه فلا يكون ذلك كذلك إلا مع هذا ، وأما وجود الخارق مجرداً عن الدعوى فليس بدليل ولا فرق عندهم بين خارق وخارق ، وخارق معتاد عند قوم دون قوم وليس لهم ضابط في العادات .

ولسائل أن يقول : جميع ما يفعله الله من الآيات في العالم فهو دليل على صدق الانبياء ومستلزم له ، وإن كانت الآيات معتادة لجنس الانبياء

---

١ ـ سورة النساء آية ٨٢ .

أو بجنس الصالحين الذين يتبعون الانبياء فهي مستلزمة لصدق مدعي النبوة فإنها إذا لم تكن إلا لنبي ، أو من يتبعه لزم أن يكون من أحد القسمين، والكاذب في دعوى النبوة ليس واحداً منهما ، فالتابع الانبياء الصالح لا يكذب في دعوى النبوة قط ولا يدعيها إلا وهو صادق كالانبياء المتبعين لشرع موسى ، فإذا كان آية نبي احياء الله الموتى لم يمتنع أن يحيي الله الموتى لنبي آخر ، أو لمن يتبع الانبياء كما قد أحيى الميت لغير واحد من الأنبياء ومن اتبعهم ، وكان ذلك آية على نبوة محمد ﷺ ونبوة من قبله إذا كان إحياء الموتى مختصاً بالانبياء وأتباعهم .

وكذلك ما يفعله الله من الآيات والعقوبات بمكذبي الرسل كتغريق فرعون وإهلاك قوم عاد بالريح الصرصر العاتية ، وإهلاك قوم صالح بالصيحة وأمثال ذلك ، فإن هذا جنس لم يعذب به إلا من كذب الرسل، فهو دليل على صدق الرسل ، وقد يميت الله بعض الناس بأنواع معتادة من البأس كالطواعين ونحوها ، لكن هذا معتاد لغير مكذبي الرسل ، أما ما عذب الله به مكذبي الرسل فمختص بهم ، ولهذا كان من آيات الله كما قال : (وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفاً)[1] . وكذلك ما يحدثه من أشراط الساعة كظهور الدجال ويأجوج ومأجوج ، وظهور الدابة ، وطلوع الشمس من مغربها بل والنفخ في الصور وغير ذلك هو من آيات الانبياء فإنهم أخبروا به قبل أن يكون فكذبهم المكذبون ، فإذا ظهر بعد مئين أو ألوف من السنين كما أخبروا به كان هذا من آيات صدقهم ، ولم يكن هذا إلا لنبي أو لمن يخبر عن نبي والخبر عن النبي هو خبر النبي ، ولهذا كان وجود ما أخبر به الرسول من المستقبلات من آيات نبوته إذا ظهر المخبر به كما كان أخبر فيما مضى

---

١ ـ سورة الاسراء آية ٥٩ .

عرف صدقه فيما أخبر به إذ كان هذا ، وهذا لا يمكن أن يخبر به إلا نبي أو من أخذ عن نبي ، وهو لم يأخذ عن أحد من الانبياء شيئاً ، فدل على نبوته . ولهذا يحتج الله له في القرآن بذلك كما قد بسط في غير هـــذا الموضع .

وأخبار الكهان فيها كذب كثير ، والكاهن قد عرف أنه يكذب كثيراً مع فجوره قال تعالى : (هَلْ أُنَبِّئُكُم عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُم كَاذِبُونَ) [1] . والكهانة جنس معروف ، ومعروف أن الكاهن يتلقى عن الشيطان ولا بد من كذبهم وفجورهم والنبي لا يكذب قط ، ولا يكون إلا براً تقياً ، فالفرق بينهما ثابت في نفس صفاتهما وأفعالهما وآياتهما، لا يقول عاقل إن مجرد ما يفعله الكاهن هو دليل إن اقترن بصادق ، وليس بدليل إذا لم يقترن بصادق ، وأنه متى ادعاه كاذب لم يظهر على يده ، وهذا أيضاً باطل .

ويظهر بالوجه السادس وهو أنه قد ادعى جماعة من الكذابين النبوة وأتوا بخوارق من جنس خوارق الكهان والسحرة ، ولم يعارضهم أحد في ذلك المكان والزمان وكانوا كذابين . فبطل قولهم أن الكذاب إذا أتى بمثل خوارق السحرة والكهان فلا بد أن يمنعه الله ذلك الخارق ، أو يقيض له من يعارضه . وهذا كالأسود العنسي الذي ادعى النبوة باليمن في حياة النبي ﷺ واستولى على اليمن وكان معه شيطان سحيق ومحيق ، وكان يخبر باشياء غائبة من جنس أخبار الكهان ، وما عارضه أحد وعرف كذبه بوجوه متعددة . وظهر من كذبه وفجوره ما ذكره الله بقوله : (هَلْ

---

(١) سورة الشعراء آية ٢٢١ – ٢٢٣.

أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ)[1].

وكذلك مسيلمة الكذاب ، وكذلك الحارث الدمشقي ومكحول الحلبي وبابا الرومي لعنة الله عليهم ، وغير هؤلاء كانت معهم شياطين كما هي مع السحرة والكهان .

السابع : أن آيات الانبياء ليس من شرطها استدلال النبي بها ولا تحديه بالإتيان بمثلها بل هي دليل على نبوته ، وإن خلت عن هذين القيدين وهذا كأخبار من تقدم بنبوة محمد ، فإنه دليل على صدقه ، وإن كان هو لم يعلم بما أخبروا به ، ولا يستدل به ، وأيضاً فما كان يظهره الله على يديه من الآيات مثل تكثير الطعام والشراب مرات كنبع الماء من بين أصابعه غير مرة ، وتكثير الطعام القليل حتى كفى أضعاف أضعاف من كان محتاجاً إليه ، وغير ذلك كله من دلائل النبوة ، ولم يكن يظهرها للإستدلال بها ولا يتحدى بمثلها بل لحاجة المسلمين إليها ، وكذلك إلقاء الخليل في النار ، إنما كان بعد نبوته ودعائه لهم إلى التوحيد .

الثامن : إن الدليل الدال على المدلول عليه ليس من شرط دلالته استدلال أحد به ، بل ما كان النظر الصحيح فيه موصلاً إلى علم فهو دليل ، وإن لم يستدل به أحد فالآيات أدلة وبراهين تدل سواء استدل به النبي أو لم يستدل وما لا يدل إذا لم يستدل به لا يدل إذا استدل به ، ولا ينقلب ما ليس بدليل دليلاً إذا استدل به مدع لدلالته .

التاسع أن يقال آيات الانبياء لا تكون إلا خارقة للعادة ، ولا تكون مما يقدر أحد على معارضتها فاختصاصها بالنبي وسلامتها عن المعارضة شرط فيها بل وفي كل دليل فإنه لا يكون دليلاً حتى يكون مختصاً بالمدلول عليه ولا يكون مختصاً إلا إذا سلم عن المعارضة ، فلم يوجد مع عدم المدلول

---

١ ــ سورة الشعراء آية ٢٢٢ .

عليه مثله ، وإلا إذا وجد هو أو مثله بدون المدلول لم يكن مختصاً فلا يكون دليلاً ، لكن كما أنه لا يكفي مجرد كونه خارقاً لعادة أولئك القوم دون غيرهم فلا يكفي أيضاً عدم معارضة أولئك القوم ، بل لا بد أن يكون مما لم يعتده غير الانبياء فيكون خارقاً لعادة غير الانبياء فمتى عرف أنه يوجد لغير الانبياء بطلت دلالته ، ومتى عارض غير النبي النبيَّ بمثل ما أتى به بطل الإختصاص .

وما ذكره المعتزلة وغيرهم كابن حزم من أن آيات الانبياء مختصة بهم كلام صحيح ، لكن كرامات الأولياء هي من دلائل النبوة ، فإنها لا توجد إلا لمن اتبع النبي الصادق فصار وجودها كوجود ما أخبر به النبي من الغيب ، وأما ما يأتي به السحرة والكهان من العجائب فتلك جنس معتاد لغير الانبياء وأتباعهم بل الجنس معروف بالكذب والفجور فهو خارق بالنسبة إلى غير أهله ، وكل صناعة فهي خارقة عند غير أهلها ، ولا تكون آية وآيات الانبياء هي خارقة لغير الأنبياء وإن كانت معتادة للأنبياء .

العاشر : إن آيات الأنبياء خارجة عن مقدور من أرسل الأنبياء إليه وهم الجن والإنس ، فلا تقدر الإنس والجن أن يأتوا بمثل معجز الانبياء ، كما قال تعالى : (قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً) [1] . وأما الملائكة فلا تضر قدرتهم على مثل ذلك فإن الملائكة إنما تنزل على الأنبياء لا تنزل على السحرة ، والكهان ، كما أن الشياطين لا تنزل على الأنبياء والملائكة لا تكذب على الله ، فإذا كانت الآيات من أفعال الملائكة مثل أخبارهم للنبي عن الله بالغيب ، ومثل نصرهم له على عدوه وإهلاكهم له نصراً وهلاكاً خارجين عن العادة كما فعلته الملائكة يوم

١ ــ سورة الاسراء آية ٨٨ .

بدر وغيره ، وكما فعلت بقوم لوط ، وكما فعلت بمريم والمسيح ونحو ذلك وكإتيانهم لسليمان بعرش بلقيس ، فقد روى أن الملائكة جاءته به وهي أقدر من الجن لم يكن هذا خارجاً عما اعتاده الأنبياء ، بل هذا ليس لغير الأنبياء فلا يقول أن غير الانبياء اعتادوه فنقضت عادتهم ، بل هذا لم يعتده إلا الانبياء وهو مناقض لجنس عادات الآدميين بمعنى أنه لا يوجد فيما اعتاده بنو آدم في جميع الأصناف غير الانبياء كما اعتادوا العجائب من السحر والكهانة والصناعات العجيبة ، وما يستعينون عليه بالجن والإنس والقوى الطبيعية ، مثل الطلاسم وغيرها ، فكل هذا معتاد معروف لغير الانبياء ، وهؤلاء جعلوا الطلاسم من جنس المعجزات وقالوا : لو أتى بها نبي لكانت آية له ، وإذا أتى بها من لم يدع النبوة جاز ، وإن ادعاها كاذب سلبه الله علمها أو قيض له من يعارضه ، وهذا قول قبيح ، فإنه لو جعل شيء من معجزات الأنبياء وآياتهم من جنس ما يـأتي به ساحر أو كاهن أو مطلسم أو مخدوم من الجن لاستوى الجنسان ، ولم يكن فرق بين الانبياء وبين هؤلاء ، ولم يتميز بذلك النبي من غيره ، وهذا مما عظم غلط هؤلاء فيه فلم يعرفوا خصائص النبي وخصائص آياته .

كما أن المتفلسفة أبعد منهم عن الإيمان فجعلوا للنبوة ثلاث خصائص: حصول العلم بلا تعلم ، وقوة نفسه المؤثرة في هيولى العالم ، وتخيل السمع والبصر . وهذه الثلاثة توجد لكثير من عوام الناس ، ولم يفرقوا بين النبي والساحر إلا بأن هذا بر ، وهذا فاجر ، والقاضي أبو بكر وأمثاله يجعلون هذا الفرق سمعياً ، والفرق الذي لا بد منه عندهم الاستدلال بها والتحدي بالمثل ، وكل من هؤلاء وهؤلاء أدخلوا مع الأنبياء من ليس بنبي ولم يعرفوا خصائص الانبياء ، ولا خصائص آياتهم فلزمهم جعل من ليس بنبي نبياً أو جعل النبي ليس بنبي إذ كان ما ذكروه في النبوة مشتركاً بين الانبياء وغيرهم ، فمن ظن أنه يكون لغير الأنبياء قدح في الآنبياء أن يكون هذا

هو دليلهم بوجود مثل ما جاءوا به لغير النبي . ومن ظن أنه لا يكون إلا لنبي إذا رأى مز فعله من متنبي كاذب وساحـــر وكاهن ظن أنه نبي ، والإيمان بالنبوة أصل النجاة والسعادة ، فمن لم يحقق هذا الباب إضطرب عليه باب الهدى والضلال والإيمان والكفر ، ولم يميز بين الخطأ والصواب.

ولما كان الذين اتبعوا هؤلاء وهؤلاء من المتأخرين مثل أبي حامـــد والرازي والآمدي وأمثالهم ، هذا ونحوه مبلغ علمهم بالنبوة لم يكن لها في قلوبهم من العظمة ما يجب لها فلا يستدلون بها على الأمور العلمية الخبرية. وهي خاصة النبي وهو الإخبار عن الغيب والإنباء به ، فلا يستدلون بكلام الله ورسوله على الإنباء بالغيب التي يقطع بها بل عمدتهم ما يدعونه من العقليات المتناقضة . ولهذا يقرون بالحيرة في آخر عمرهم كما قال الرازي :

نِهَايَةُ إقدَامِ العُقُولِ عِقَـــالُ   وَأَكثَرُ سَعي العَالَمِينَ ضَلاَلُ
وَأَروَاحنَا في وَحشَة مِن جُسُومنا   وَحَاصِلُ دُنيَانَا أذى وَوَبَالُ
وَلَم نستفِدْ من بحثنَا طول عمرِنَا   سِوَى أنْ جمعنا فيه قِيلُ وقالُ

لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية : فما رأيتها تشفي عليلاً ولا تروي غليلاً ، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن إقرأ في الإثبات (إليه يَصعَدُ الكَلِمُ الطَيِّبُ) [1] (الرَّحمَنُ عَلَى العَرشِ استَوَى) واقرأ في النفي (لَيسَ كَمِثلِهِ شَيء) [2] (وَلاَ يُحِيطُونَ بِهِ علماً) [3] ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي .

الوجه الحادي عشر : إن آيات الأنبياء مما يعلم العقلاء أنها مختصة بهم ليست مما تكون لغيرهم فيعلمون أن الله لم يخلق مثلها لغير الأنبياء، وسواء

---

١ ــ سورة فاطر آية ١٠ .
٢ ــ سورة الشورى آية ١١ .
٣ ــ سورة آل عمران آية ١١٠ .

في آياتهم التي كانت في حياة قومهم وآياتهم التي فرق الله بها بين أتباعهم وبين مكذبيهم بنجاة هؤلاء وهلاك هؤلاء ، ليست من جنس ما يوجد في العادات المختلفة لغيرهم ، وذلك مثل تغريق الله لجميع أهل الأرض إلا لنوح ، ومن ركب معه في السفينة ، فهذا لم يكن قط في العالم نظيره ، وكذلك إهلاك قوم عاد إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد مع كثرتهم وقوتهم وعظم عماراتهم التي لم يخلق مثلها في البلاد . ثم أهلكوا بريح صرصر عاتية مسخرة سبع ليال وثمانية أيام حسوماً ، حتى صاروا كلهم كأنهم أعجاز نخل خاوية ونجا هود ومن اتبعه ، فهذا لم يوجد نظيره في العالم ، وكذلك قوم صالح أصحاب مدائن ومساكن في السهل والجبل وبساتين أهلكوا كلهم بصيحة واحدة ، فهذا لم يوجد نظيره في العالم .

وكذلك قوم لوط أصحاب مدائن متعددة رفعت إلى السماء ، ثم قلبت بهم واتبعوا بحجارة من السماء تتبع شاذهم ونجا لوط وأهله ، إلا امرأته أصابها ما أصابهم ، فهذا لم يوجد نظيره في العالم ، وكذلك قوم فرعون وموسى جمعان عظيمان ينفرق لهم البحر كل فرق كالطـــود العظيم ، فيسلك هؤلاء ويخرجون سالمين فإذا سلك الآخرون انطبق عليهم الماء ، فهذا لم يوجد نظيره في العالم ، فهذه آيات تعرف العقلاء عموماً أنها ليست من جنس ما يموت به بنو آدم ، وقد يحصل لبعض الناس طاعون ولبعضهم جدب ونحو ذلك، وهذا مما اعتاده الناس وهو من آيات الله من وجه آخر بل كل حادث من آيات الله تعالى .

ولكن هذه الآيات ليست من جنس ما اعتيد ، وكذلك الكعبة فإنها بيت من حجارة بواد غير ذي زرع ، ليس عندها أحد يحفظها من عدو ، ولا عندها بساتين وأمور يرغب الناس فيها، فليس عندها رغبة ولا رهبة، ومع هذا فقد حفظها بالهيبة والعظمة ، فكل من يأتيها يأتيها خاضعاً ذليلاً متواضعاً في غاية التواضع ، وجعل فيها من الرغبة ما يأتيها الناس من

أقطار الأرض محبة وشوقاً من غير باعث دنيوي ، وهي على هذه الحال من ألوف من السنين . وهذا مما لا يعرف في العالم لبنية [1] غيرها . والملوك يبنون القصور العظيمة فتبقى مدة ، ثم تهدم لا يرغب أحد في بنائها ولا يرهبون من خرابها .

وكذلك ما بُني للعبادات قد تتغير حاله على طول الزمان ، وقد يستولي العدو عليه كما استولى على بيت المقدس . والكعبة لها خاصة ليست لغيرها ، وهذا مما حيّرَ الفلاسفة ونحوهم ، فإنهم يظنون أن المؤثر في هذا العالم هو حركات الفلك ، وأن ما بني وبقي فقد بُني بطالع سعيد فحاروا في طالع الكعبة إذ لم يجدوا في الأشكال الفلكية ما يوجب مثل هذه السعادة والفرح والعظمة والدوام والقهر والغلبة ، وكذلك ما فعل الله بأصحاب الفيل لما قصدوا تخريبها قال تعالى : (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الفِيلِ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ). [2]

قصدها جيش عظيم ومعهم الفيل ، فهرب أهلها منهم فبرك الفيل وامتنع من المسير إلى جهتها ، وإذا وجهوه إلى غير جهتها توجه ، ثم جاءهم من البحر طير أبابيل أي جماعات في تفرقة فوجاً بعد فوج رموا عليهم حصى هلكوا به كلهم ، فهذا مما لم يوجد نظيره في العالم ، فآيات الانبياء هي أدلة وبراهين على صدقهم ، والدليل يجب أن يكون مختصاً بالمدلول عليه لا يوجد مع عدمه لا يتحقق الدليل إلا مع تحقق المدلول ، كما أن الحادث لا بد له من محدث فيمتنع وجود حادث بلا محدث ولا يكون المحدث إلا قادراً فيمتنع وجود الاحداث من غير قادر ، والفعل لا يكون إلا من عالم ونحو ذلك ، فكذلك ما دل على صدق النبي يمتنع وجوده إلا

١ ـ بنية على وزن فعيلة كناية عن الكعبة يقول العرب لا ورب هذه البنية .
٢ ـ سورة الفيل آية ١ ـ ٢ ـ ٣ .

مع كون النبي صادقاً،ولم يجعلوا آيات الانبياء تدل دلالة عقلية مستلزمة للمدلول ، ولا تدل بجنسها ونفسها بل قال بعضهم : قد تدل ، وقد لا تدل وقال آخرون : تدل مع الدعوى ولا تدل مع عدم الدعوى ، وهذا يبطل كونها دليلاً .

وآخرون أرادوا تحقيق ذلك فقالوا : تدل دلالة وضعية من جنس دلالة اللفظ على مراد المتكلم، تدل أن قصد الدلالة ،ولا تدل بدون ذلك، فهي تدل مع الوضع دون غيره ، فيقال لهم وما يدل على قصد المتكلم هو أيضاً دليل مطرد يمتنع وجوده بدون المدلول ، ودلالته تعلم بالعقل فجميع الأدلة تعلم بالعقل دلالتها على المدلول ، فإن ذلك اللفظ إنما يدل إذا علم، أن المتكلم أراد به هذا المعنى ، وهذا قد يعلم ضرورة ، وقد يعلم نظراً فقد يعلم قصد المتكلم بالضرورة كما يعلم أحوال الإنسان بالضرورة ، فيفرق بين حمرة الخجل ، وصفرة الوجل وبين حمرة المحموم ، وصفرة المريض بالضرورة ، وقد يعلم نظراً واستدلالاً كما يعلم أن عادته إذا قال كذا أن يريد كذا ، وإنه لا ينقض عادته إلا إذا بين ما يدل على انتقاضها، فيعلم هذا كما يعلم سائر العاديات مثل طلوع الشمس كل يوم ، والهلال كل شهر ، وارتفاع الشمس في الصيف وانخفاضها في الشتاء ، ومن هذا سنة الله في الفرق بين الأنبياء وأتباعهم ، وبين مكذبيهم قال تعالى : (قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ) [1] وقال تعالى : (فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلا سُنَّةَ الأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً ، وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَحْوِيلاً) [2] .

وقال تعالى : (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن

---

١ ــ سورة آل عمران آية ١٣٧ .   ٢ ــ سورة فاطر آية ٤٣ .

تعمى القلوب التي في الصدور)[1] وقال تعالى : (وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أشد منهم بطشاً فنقبوا في البلاد هل من محيص إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد)[2] .

فإن هذه العجائب والآيات التي للأنبياء تارة تعلم بمجرد الأخبار المتواترة ، وإن لم نشاهد شيئاً من آثارها ، وتارة نشاهد بالعيان آثارها الدالة على ما حدث كما قال تعالى : (وعاداً وثمود وقد تبين لكم من مساكنهم)[3] . وقال تعالى : (فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا)[4] وقال تعالى : (وإنكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون)[5] .

وقال تعالى : (إن في ذلك لآيات للمتوسمين ، وإنها لبسبيل مقيم إن في ذلك لآية للمؤمنين وإن كان أصحاب الأيكة لظالمين فانتقمنا منهم وإنهما لبإمام مبين)[6] أي لبطريق موضح متبين لمن مر به آثارهم ، وهذه الأخبار كانت منتشرة متواترة في العالم ، وقد علم الناس أنها آيات للأنبياء ، وعقوبة لمكذبيهم ، ولهذا كانوا يذكرونها عند نظائرها للإعتبار ، كما قال مؤمن آل فرعون : (يا قوم إني أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب مثل دأب نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم وما الله يريد ظلماً للعباد)[7] .

وقال شعيب : (ويا قوم لا يجرمنكم شقاقي أن يصيبكم

---

١ ـ سورة الحج آية ٤٦ .
٢ ـ سورة ق آية ٣٦ ـ ٣٧ .
٣ ـ سورة العنكبوت آية ٣٨ .
٤ ـ سورة النمل آية ٥٢ .
٥ ـ سورة الصافات آية ١٣٧ .
٦ ـ سورة الحجر آية ٧٥ ـ ٧٨ .
٧ ـ سورة آل عمران آية ١٨٨ .

مثلَ مَا أصَابَ قَومَ نُوحٍ أوْ قومَ هُودٍ أو قَوْمَ صَالحٍ وَمَا قَوم لُوطٍ مِنكُم بِبَعيد) [1] . والقرآن آيته باقية على طول الزمان من حين جاء به الرسول تتلى آيات التحدي به .

ويتلي قوله (فَليأتُوا بحَديثٍ مثله إنْ كَانُوا صَادِقِينَ) [2] . و (فَأْتُوا بعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ) [3] . و (بسورة مثلِهِ وادعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونَ الله) [4] . ويُتْلى قوله : (قُلْ لَئِنْ اجتمعتْ الإنسُ وَالجنُّ عَلَى أنْ يَأتُوا بمِثْلِ هَذَا القُرآنِ لاَ يَأْتُونَ بمثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً) [5] فنفس أخبار الرسول بهذا في أول الأمر ، وقطعه بذلك مع علمه بكثرة الخلق ، دليل على أنه كان خارقاً يعجز الثقلين عن معارضته ، وهذا لا يكون لغير الأنبياء ، ثم مع طول الزمان قد سمعه الموافق والمخالف والعرب والعجم ، وليس في الأمم من أظهر كتاباً يقرأه الناس وقال أنه مثله ، وهذا يعرفه كل أحد وما من كلام تكلم به الناس ، وإن كان في أعلى طبقات الكلام لفظاً ومعنى إلا وقد قال الناس نظيره ، وما يشبهه ويقاربه سواء كان شعراً أو خطابة أو كلاماً في العلوم والحكمة والاستدلال والوعظ والرسائل وغير ذلك ، وما وجد من ذلك شيء إلا ووجد ما يشبهه ويقاربه .

والقرآن مما يعلم الناس عربهم وعجمهم أنه لم يوجد له نظير مع حرص العرب وغير العرب على معارضته ، فلفظه آية ونظمه آية ، وأخباره بالغيوب آية ، وأمره ونهيه آية ، ووعده ووعيده آية ، وجلالته وعظمته وسلطانه على القلوب آية ، وإذا ترجم بغير العربي كانت معانيه آية ، كل ذلك لا يوجد له نظير في العالم .

وإذا قيل أن التوراة والانجيل والزبور لم يوجد لها نظير أيضاً لم يضرنا

---

١ — سورة هود آية ٨٩ .
٢ — سورة الطور آية ٣٤ .
٣ — سورة هود آية ١٣ .
٤ — سورة يونس آية ٣٨ .
٥ — سورة الاسراء آية ٨٨ .

ذلك ، فإنا قلنا إن آيات الأنبياء لا تكون لغيرهم وإن كانت لجنس الأنبياء كالأخبار بغيب الله فهذه آية يشتركون فيها ، وكذلك إحياء الموتى قد كان آية لغير واحد من الأنبياء غير المسيح كما كان ذلك لموسى وغيره .

وليس المقصود هنا ذكر تفضيل بعض الأنبياء على بعض، بل المقصود أن جنس الأنبياء متميزون عن غيرهم بالآيات والدلائل الدالة على صدقهم التي يعلم العقلاء إنها لم توجد لغيرهم، فيعلمون أنها ليست لغيرهم لا عادة ولا خرق عادة ، بل إذا عبر عنها بأنها خرق عادة ، وبأنها من العجائب فالأمر العجيب هو الخارج عن نظائره ، وخارق العادة ما خرج عن الأمر المعتاد. فالمراد بذلك أنها خارجة عن الأمر المعتاد لغير الأنبياء ، وأنها من العجائب الخارجة عن النظائر فلا يوجد نظيرها لغير الأنبياء ، وإذا وجد نظيرها سواء كان أعظم منها أو دونها لنبي . فذلك توكيد لها أنها من خصائص الأنبياء . فإن الأنبياء يصدق بعضهم بعضاً ، فآية كل نبي آية لجميع الأنبياء . كما أن آيات أتباعهم آيات لهم أيضاً ، وهذا أيضاً من آيات الأنبياء وهو تصديق بعضهم لبعض . فلا يوجد من أصحاب الخوارق العجيبة التي تكون لغير الأنبياء كالسحرة والكهنة وأهل الطبائع والصناعات إلا من يخالف بعضهم بعضاً فيما يدعو اليه ويأمر به ، ويعادي بعضهم بعضاً . وكذلك اتباعهم إذا كانوا من أهل الاستقامة، فما أتى به الأول من الآيات فهو دليل على نبوته ونبوة من يبشر به ، وما أتى به الثاني فهو دليل على نبوته ونبوة من يصدقه ممن تقدم . فما أتى به موسى والمسيح وغيرهما من الآيات فهي آيات لنبوة محمد لأخبارهم بنبوته ، فكان هذا الخبر مما دلت آياتهم على صدقه .

وما أتى به محمد من الآيات فهو دليل على إثبات جنس الأنبياء مطلقاً ، وعلى نبوة كل من سمى في القرآن ، خصوصاً إذا كان هذا مما أخبر به محمد ﷺ عن الله. ودلت آياته على صدقه فيما يخبر به عن الله ، وحينئذ

فإذا قدر أن التوراة أو الانجيل أو الزبور معجز لما فيه من العلوم والأخبار عن الغيوب ، والأمر والنهي ، ونحـو ذلك لم ينـازع في ذلك بل هذا دليل على نبوتهم صلوات الله عليهم ، وعـلى نبوة من أخبروا بنبوته ، ومن قال إنها ليست بمعجزة، فإن أراد ليست معجزة من جهةاللفظ والنظم كالقرآن فهذا ممكن ، وهذا يرجع إلى أهل اللغة العبرانية .

وأما كون التوراة معجزة من حيث المعاني لما فيها من الأخبار عن الغيوب أو الأمر والنهي ، فهذا لا ريب فيه ، ومما يدل على أن كتب الأنبياء معجزة أن فيها الأخبار بنبوة محمد ﷺ قبل أن يبعث بمدة طويلة، وهذا لا يمكن علمه بدون اعلام الله لهم ، وهذا بخلاف من أخبر بنبوته من الكهان والهواتف ، فإن هذا إنما كان عند قرب مبعثه لما ظهرت دلائل ذلك واسترقته الجن من الملائكة فتحدثت به،وسمعته الجن من أتباع الأنبياء فالنبي الثاني إذا كان قد أخبر بما هو موجود في كتاب النبي الأول ، وقد وصل اليه من جهته لم يكن آية له ، فإن العلماء يشاركونه في هذا .

وأما إذا أخبر بقدر زائد لم يوجد في خبر الأول أو كان ممن لم يصل اليه خبر نبي غيره كان ذلك آية له كما يوجد في نبوة أشعيا وداود وغيرهما من صفات النبي ما لا يوجد مثله في توراة موسى ، فهذه الكتب معجزة لما فيها من أخبار الغيب الذي لايعلمه إلا نبي ،وكذلك فيها من الأمر والنهي والوعد والوعيد ما لا يأتي به إلا نبي ، أو تابع نبي ، وما أتى أتباع الأنبياء من جهة كونهم أتباعاً لهم مثل أمرهم بما أمروا به ونهيهم عما نهوا عنه ، ووعدهم بما وعدوا به ووعيدهم بما يوعدون به ، فإنه من خصائص الأنبياء والكذاب المدعي للنبوة لا يأمر بجميع ما أمرت به الأنبياء ، وينهى عن كل ما نهوا عنه ، فإن ذلك يفسد مقصوده وهو كاذب فاجر شيطان من أعظم شياطين الانس ، والذي يعينه على ذلك من أعظم شياطين الجن .

وهؤلاء لا يتصور أن يأمروا بما أمرت به الأنبياء ، وينهوا عما نهوا عنه لأن ذلك يناقض مقصودهم ، بل وإن أمروا بالبعض في ابتداء الأمر من يخادعونه ويربطونه ،فلا بد أن يناقضوا فيأمروا بما نهت عنه الأنبياء. ولا يوجبوا ما أمرت به الأنبياء، كما جرى مثل ذلك لمن ادعى النبوة من الكذابين ولمن أظهر موافقة الأنبياء ، وهو في الباطن من المنافقين كالملاحدة الباطنية الذين يظهرون الاسلام والتشيع ابتداء ، ثم انهم يستحلون الشرك والفواحش والظلم ويسقطون الصلاة والصيام وغير ذلك مما جاءت به الشريعة ، فمن أظهر خلاف ما أبطن ، وكان مطاعاً في الناس فلا بد أن يظهر من باطنه ما يناقض ما أظهره .

فكيف بمن ادعى النبوة وأظهر أنه صادق على الله وهو في الباطن كاذب على الله ، بل من أظهر خلاف ما أبطن من آحاد الناس يظهر حاله لمن خبره في مدة ، فإن الجسد مطيع للقلب ، والقلب هو الملك المدبر له ، كما قال ﷺ « ألا إنّ في الجسدِ مُضْغَةً إذا صَلَحَتْ صَلَحَ لها سائرُ الجسدِ ، وإذا فَسَدَتْ فَسَدَ لها سائرُ الجسدِ ألا وهي القلبُ » .

فإذا كان القلب كاذباً على الله فاجراً كان ذلك أعظم الفساد فلا بد أن يظهر الفساد على الجوارح ، وذلك الفساد يناقض حال الصادق على الله ، وقد بسط هذا في غير هذا الموضع

آيات الانبياء الدالة على صدقهم :

ذكر أن آيات الأنبياء الدالة على صدقهم كثيرة متنوعة ، وأن النبي الصادق خير الناس ، والكاذب على الله شر الناس ، وبينهما من الفروق ما لا يحصيه إلا الله ، فكيف يشتبه هذا بهذا ، بل لهذا من دلائل صدقه ، ولهذا من دلائل كذبه ما لا يمكن إحصاؤه ، وكل من خص دليل الصدق بشيء معين فقط غلط ، بل آيات الأنبياء هي من آيات الله الدالة على أمره

ونهيه ووعده ووعيده . وآيات الله كثيرة متنوعة كآيات وجوده ووحدانيته وعلمه وقدرته وحكمته ورحمته سبحانه وتعالى . والقرآن مملوء من تفصيل آياته وتصريفها وضرب الأمثال في ذلك ، وهو يسميها آيات وبراهين . وقد ذكرنا الفرق بين الآيات والمقاييس الكلية التي لا تدل إلا على أمر كلي في غير هذا الموضع .

الوجه الثاني عشر : إن ما يأتي به الساحر والكاهن وأهل الطبائع والصناعات والحيل ، وكل من ليس من أتباع الأنبياء لا يكون إلا من مقدور الإنس والجن ، فما يقدر عليه الإنس من ذلك هو وأنواعه والحيل فيه كثير . وما يقدر عليه الجن هو من جنس مقدور الإنس وإنما يختلفون في الطريق ، فإن الساحر قد يقدر على أن يقتل إنساناً بالسحر أو يمرضه أو يفسد عقله أو حسه وحركته وكلامه بحيث لا يجامع أو لا يمشي أو لا يتكلم ونحو ذلك ، وهذا كله مما يقدر الإنس على مثله لكن بطرق أخرى ، والجن يطيرون في الهواء وعلى الماء ، ويحملون الأجسام الثقيلة كما قال العفريت لسليمان : (أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك)[1] وهذا الجنس يكون لمن هو دون الانس والجن من الحيوان كالطيور والحيتان والانس يقدر على جنسه ، ولهذا لم يكن هذا الجنس آية لنبي لوجوده لغير الأنبياء فكثير من الناس تحمله الجن بل شياطين الجن وتطير به في الهواء وتذهب به إلى مكان بعيد ، كما كان العفريت يحمل عرش بلقيس من اليمن إلى مكان بعيد .

ونحن نعرف من هؤلاء عدداً كثيراً وليسوا صالحين بل فيهم كفار ومنافقون وفساق وجهال لا يعرفون الشريعة والشياطين تحملهم وتطير بهم من مكان إلى مكان ، وتحملهم إلى عرفات فيشهدون عرفات من غير احرام ولا تلبية ولا طواف بالبيت وهذا الفعل حرام . والجهال يحسبون

---

١ - سورة النمل آية ٣٩ .

أنه من كرامات الصالحين فتفعله الجن بمن يحب ذلك مكراً به وخديعة أو خدمة لمن يستخدمهم من هؤلاء الجهال بالشريعة وإن كان له زهد وعبادة . وكذلك الجن كثيراً ما يأتون الناس بما يأخذونه من أموال الناس من طعام وشراب ونفقة وماء وغير ذلك وهو من جنس ما يسرقه الانسي ويأتي به إلى الانسي لكن الجن تأتي بالطعام والشراب في مكان العدم ، ولهذا لم يكن مثل هذا آية لنبي وإنما كان النبي ﷺ يضع يده في الماء فينبع الماء من بين أصابعه وهذا لا يقدر عليه لا انس ولا جن ، وكذلك الطعام القليل يصير كثيراً ، وهذا لا يقدر عليه لا الجن ولا الانس ولم يأت النبي ﷺ قط بطعام من الغيب ولا شراب ، وإنما كان هذا قد يحصل لبعض أصحابه كما أتى حبيب بن عدي وهو أسير بمكة بقطف من عنب ، وهذا الجنس ليس من خصائص الأنبياء ومريم عليها السلام لم تكن نبية وكانت تؤتى بطعام ، فإن هذا قد يكون من حلال فيكون كرامة يأتي به إما ملك ، وإما جني مسلم وقد يكون حراماً ، فليس كل ما كان من آيات الأنبياء يكون كرامة للصالحين ، وهؤلاء يسوون بين هذا وهذا ، ويقولون : الفرق هو دعوى النبوة والتحدي بالمثل ، وهذا غلط فإن آيات الأنبيـاء عليهم السلام التي دلت على نبوتهم هي أعلى مما يشتركون فيه هم وأتباعهم مثل الإتيان بالقرآن ، ومثل الإخبار بأحوال الأنبياء المتقدمين وأممهم والأخبار بما يكون يوم القيامة ، واشراط الساعة ومثل إخراج الناقة من الأرض ومثل قلب العصا حية وشق البحر ، ومثل أن يخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله وتسخير الجن لسليمان لم يكن مثلة لغيره .

لكن من الجن المؤمنين من يعاون المؤمنين ،ومن الجن الفساق والكفار من يعاون الفساق كما يعاون الانس بعضهم بعضاً فإما طاعة مثل طاعـة سليمان ، فهذا لم يكن لغير سليمان عليه السلام ومحمد ﷺ أعطى أفضل مما أعطى سليمان عليه السلام فإنه أرسل إلى الجن وأمروا أن يؤمنوا بـه

ويطيعوه فهو يدعوهم إلى عبادة الله وطاعته لا يأمرهم بخدمته وقضاء حوائجه كما كان سليمان يأمرهم ولا يقهرهم باليد كما كان سليمان يقهرهم بل يفعل فيهم كما يفعل في الانس، فيجاهدهم الجن والمؤمنون ويقيمون الحدود على منافقيهم فيتصرف فيهم تصرف العبد الرسول لا تصرف النبي الملك .

كما كان سليمان يتصرف فيهم والصالحون من أمته المتبعون له يتبعونه فيما كان يأمر به الانس والجن وآخرون دون هؤلاء قد يستخدمون بعض الجن في مباحات كما قد يستخدمون بعض الانس وقد يكون ذلك مما ينقص دينهم لاسيما إن كان بسبب غير مباح وآخرون شر من هؤلاء يستخدمون الجن في أمور محرمة من الظلم والفواحش فيقتلون نفوساً بغير حق ويعينونهم على ما يطلبونه من الفاحشة كما يحضرون لهم امرأة أو صبياً . أو يجذبونه اليه وآخرون يستخدمونهم في الكفر ، فهذه الأمور ليست من كرامات الصالحين . فإن كرامات الصالحين هو ما كان سببه الإيمان والتقوى لا ما كان سببه الكفر والفسوق والعصيان . وأيضاً فالصالحون سابقوهم لا يستخدمونهم إلا في طاعة الله ورسوله . ومن هو دون هؤلاء لا يستخدمهم إلا في مباح وأما استخدامهم في المحرمات فهو حرام . وإن كانوا إنما خدموه لطاعته لله كما لو خدم الانس رجلاً صالحاً لطاعته لله، ثم استخدمهم فيما لا يجوز فهذا بمنزلة من أنعم عليه بطاعته نعمة فصرفها إلى معصية الله فهو آثم بذلك .

وكثير من هؤلاء يسلب تلك النعمة ، ثم قد يسلب الطاعة فيصير فاسقاً . ومنهم من يرتد عن دين الاسلام ، فطاعة الجن للانسان ليست أعظم من طاعة الانس،بل الانس أجلّ وأعظم ، وأفضل ، وطاعتهم أنفع . وإذا كان المطاع من الانس قد يطاع في طاعة الله فيكون محموداً مثاباً . وقد يطاع في معصية الله فيكون مذموماً آثماً .

فكذلك المطاع من الجن الذي يطيعه الناس، والمطاع من الانس قد يكون مطاعاً لصلاحه ودينه . وقد يكون مطاعاً لملكه وقوته ، وقد يكون مطاعاً لنفعه لمن يخدمه بالمعاوضة ، فكذلك المطاع من الجن قد يطاع لصلاحه ودينه وقد يطاع لقوة وملك محمود أو مذموم ، ثم الملك إذا سار بالعدل حمد ، وإن سار بالظلم فعاقبته مذمومة ، وقد يهلكه أعوانه فكذلك المطاع من الجن إذا ظلمهم أو ظلم الانس بهم أو بغيرهم ، كانت عاقبته مذمومة وقد تقتله الجن أو تسلط عليه من الانس من يقتله ، وكل هذا واقع نعرف من ذلك من الوقائع ما يطول وصفه كما نعرف من ذلك من وقائع الانس ما يطول وصفه ، وليس آيات الأنبياء في شيء من هذا الجنس .

ونبينا ﷺ لما أسرى به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى إنما أسرى به ليرى من آيات ربه الكبرى ، وهذا هو الذي كان من خصائصه أن مسراه كان هذا كما قال تعالى : (أفَتُمارُونَهُ على ما يَرى ولقَدْ رآهُ نَزْلَةً أخرى عِندَ سِدْرَةِ المُنْتَهى عِنْدَها جَنَّةُ المأوَى)(١) .

وقال تعالى : (وَمَا جَعَلْنا الرُّؤيا التي أرَيْناكَ إلاَّ فِتْنَةً للنَّاسِ)(٢) قال ابن عباس هي رؤيا عين أريها رسول الله ﷺ ليلة أسرى به فهذا الذي كان من خصائصه ، ومن أعلام نبوته وأما مجرد قطع تلك المسافة ، فهذا يكون لمن تحمله الجن ، وقد قال العفريت لسليمان : (أنا آتيكَ بهِ قَبْلَ أنْ تَقومَ مِنْ مَقامِكَ)(٣) وحمل العرش من القصر من اليمن إلى الشام أبلغ من ذلك .

وقال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد اليك طرفك ، فهذا أبلغ من قطع المسافة التي بينَ المسجدين في ليلة ، ومحمد ﷺ أفضل

---

١ ـ سورة النجم آية ١٢ ـ ١٥ .
٢ ـ سورة الاسراء آية ٦٠ .
٣ ـ سورة النمل آية ٣٩ .

من الذي عنده علم مِن الكتابْ ومِن سليمان، فكان الذي خصه الله به أفضل من ذلك ، وهو أنه أسرى به في ليلة ليريه من آياته ، فالخاصة أن الإسراء كان ليريه من آياته الكبرى .كما رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى عندها جنة المأوى إذ يغشى السدرة ما يغشى ما زاغَ البصر وما طغى.

فهذا ما حصل مثله لا لسليمان ولا لغيره ، والجن وإن قدروا على حمل بعض الناس في الهواء فلا يقدرون على إصعاده إلى السماء واراءته آيات ربه الكبرى، فكان ما آتاه الله محمداً خارجاً عن قدرة الجن والانس، وإنما كان الذي صحبه في معراجه جبريل الذي اصطفاه الله لرسالته . والله يصطفي من الملائكة رسلاً ، ومن الناس ، وكان المقصود من الإسراء أن يريه ما رآه من آياته الكبرى ، ثم يخبر به الناس .

فلما أخبر به كذب به من كذب من المشركين ، وصدق به الصديق وأمثاله من المؤمنين ، فكان ذلك ابتلاء ومحنة للناس كما قال : (وما جعَلْنا الرؤيةَ التي أرَيْناكَ إلاَّ فِتْنَةً للنّاسِ)[1]. أي محنة وابتلاء للناس ليتميز المؤمن عن الكافر ، وكان فيما أخبرهم به أنه رأى الجنة والنار وهذا مما يخوفهم به قال تعالى : (ونُخَوِّفُهُم فَما يَزيدُهُم إلاَّ طُغْياناً كبيرا)[2]. والرسول لما أخبرهم بما رآه كذبوه في نفس الاسراء وأنكروا أن يكون أسري به إلى المسجد الأقصى ، فلما سألوه عن صفته فوصفه لهم وقد علموا أنه لم يره قبل ذلك ، وصدقه من رآه منهم كان ذلك دليلاً على صدقه في المسرى ، فلم يمكنهم مع ذلك تكذيبه فيما لم يروه ،وأخبر الله تعالى بالمسرى إلى المسجد الأقصى لأنهم قد علموا صدقه في ذلك بما أخبرهم به من علاماته فلا يمكنهم تكذيبه في ذلك .

وذكر أنه رأى من آيات ربه الكبرى ولم يعين ما رآه وهو جبريل

---

١ ـ سورة الاسراء آية ٦٠ .
٢ ـ سورة الاسراء آية ٦٠ .

الذي رآه في صورته التي خلق عليها مرتين ، لأن رؤية جبريل هي من تمام نبوته ، ومما يبين أن الذي أتاه بالقرآن ملك لا شيطان كما قال في سورة إذا الشمس كُوِرَتْ : (إنّه لَقَوْلُ رسولٍ كريمٍ ذي قُوّةٍ عِنْدَ ذي العَرْشِ مَكينٍ مُطاعٍ ثَمَّ أمين) ثم قال : (وَما صاحِبُكُمْ بِمَجْنُون ، ولقَدْ رَآهُ بالأفُقِ المُبينِ وما هُوَ على الغَيْبِ بِضَنين وما هو بِقَوْلِ شَيطانٍ رَجيمٍ فأينَ تذْهَبونَ إنْ هوَ إلاّ ذِكْرٌ للعالمينَ)[1] .

---

١ ـ سورة التكوير آية ١٩ ـ ٢٧ .

فصل

دلالة المعجزة على النبوة

ومما يبين ضعف طريقة هؤلاء أنهم قالوا المعجزات لا تدل بجنسها على النبوة ، بل يوجد مثل المعجز من كل وجه ، ولا يدل على النبوة كأشراط الساعة ، وكما يوجد للسحرة والكهان والصالحين من الخوارق التي تماثل آيات الأنبياء فيما زعمه هؤلاء ، قالوا : لكن الفرق أن هذا يدعي النبوة ويحتج بها ويتحداهم بالمثل ، فلا يقدر أحد على معارضته ، وأولئك لو ادعوا النبوة لمنعهم الله منها ، وإن كانوا قبل ذلك غير ممنوعين منها ،أو لقيض لهم من يعارضهم ، ولو عارضوا بها نبياً لمنعهم الله إياها ليسلم دليل النبوة ،قالوا والمعجز إنما يدل دلالة وضعية بالجعل والقصد ، كدلالة الألفاظ والعقد والخط والعلامات التي يجعلها الناس بينهم فيقال لهم هذه الأمور كلها إنما تدل إذا تقدم علم المدلول بها أن الدال جعلها علامة كما يوكل الرجل وكيلاً ، ويجعل بينه وبينه علامة ، إما وضع يده على ترقوته وإما وضع خنصره، وإما وضع يده على رأسه فمن جاء بهذه العلامة علم أن موكله أرسله .

فأما إذا لم يتقدم ذلك لم تكن دلالة جعلية وضعية اصطلاحية.وآيات الأنبياء لم تتقدم قبلها من الرب مواضعة بينه وبين العباد،قالوا هي تشبه ما اذا قال الرجل لموكله والرسول لمرسله إنك أرسلتني إلى هؤلاء القوم ،

فإن كنت أرسلتني فقم واقعد ليعلموا أنك أرسلتني . فإذا قام وقعد عقب طلب الرسول علم الحاضرون أنه قام وقعد ليعلمهم أنه رسوله . وإن كان بدون طلبه قد يقوم ويقعد لأمور أخرى . فيقال لهم هنا لما علم الحاضرون انتفاء داع يدعوه إلا قصد التصديق علموا أنه قصد تصديقه . ولهذا لو جوزوا قيامه لحاجة عرضت . أو لحية أو عقرب وقعت في ثيابه . أو لغير ذلك لم يجعلوا ذلك دليلا . والسبر والتقسيم مما يعلم به الدليل وإن لم يقصده الدليل .

حتى أن الرجل المشهور إذا خرج في غير وقت خروجه المعتاد فقد يعرف كثير من الناس لأي شيء خرج لعلمهم بانتفاء غيره وأن خروجه له مناسب . وإن لم يكن هنا أحد طلب الاستدلال فخروج الانسان عن عادته قد يكون لأسباب . فإذا اقترن بسبب صالح وعلم انتفاء غيره علم أنه لذاك السبب . وهذا إنما يكون ممن يفعل لداع يدعوه . والرب تعالى عندهم لا يفعل لداع يدعوه فلزمهم إما إبطال أصلهم . وإما إبطال هذه الدلالة . وأيضاً فيقال لهم : بل الدليل دل لجنسه وهو هذا الفعل الذي لم يفعل إلا لهذا الطلب . ومتى وجد هذا كان جنسه دليلاً . وليست الدعوى جزءاً من الدليل . بل طلب الاعلام بهذا الفعل مع الفعل هو الدليل . ولهذا لو قال فافعل ما يدل على صدقي . وقام وقعد لم يدل على صدقه بخلاف ما إذا قال فقم واقعد .

ولو قال فأظهر ما يدل على صدقي فلا بد أن يظهر ما يدل جنسه أنه دليل كقول أو خط أو غير ذلك أو خلعة تختص بمثل ذلك . ففرق بين أن يطلب فعلاً معيناً . أو دليلاً مطلقاً . وهو إذا طلب فعلاً معيناً كقيام أو وضع يد على الرأس أو صلاة ركعتين أو غير ذلك من الأفعال دل على صدقه . وإن كان ذلك معتاداً له أن يفعله فليس من شرط دلالته أن يخرج عن عادته لكن شرط دلالته أن يعلم أنه فعله لأجل الاعلام بحيث لا يكون

هناك سبب داع غير الاعلام وحينئذ فهو دال بجنسه . وكذلك يقال : الرب إذا خرق العادة لمدعي الرسالة عقب مطالبته بآية، علم أن الله لم يخلق تلك الأدلة على صدقه، فهذا يدل وهذا إنما يتم مع كون الرب يفعل شيئاً لأجل شيء آخر . وحينئذ فقد يكون من شرط الدليل مطالبة الطالب بدليل . لا أن نفس الدعوى هي جزء الدليل ، وفرق بين طلبه من الرب آية . أو طلبهم منه آية ، وبين الدعوى . فإظهار ما يظهره الرب عقب طلبهم أو طلبه قد يقال فيه إن الطلب جزء الدليل . وأنه لو أظهره بدون الطلب لم يدل . وأما نفس دعوى النبوة فليست جزءاً . وعلى هذا فإذا قدر أنه يفعل ذلك عند طلبه أو طلب غيره آية دل على صدقه . لكن هذا يكون إذا علم أنه لم يفعله إلا لاعلام أولئك بصدقه . وهذا لا يكون إلا بأن يتميز جنس ما دل به عن غيره . ولا يجوز أن يدل مع وجود مثله من غير دلالة بل متى قدر وجود مثله من غير دلالة بطل كونه دليلاً . ولو كانت الدعوى جزءاً من الدليل لكانت المعارضة لا تكون إلا مع دعوى النبوة . فلو أتوا بمثل القرآن من غير دعوى النبوة لم يكونوا عارضوه .

وهذا خلاف ما في القرآن وخلاف ما أجمع المسلمون بل العقلاء والله أعلم . وهم يسمون ما يكون بقصد الدال كالكلام دليلاً وضعياً . فالأقوال والأفعال التي يقصد بها الدلالة كالعقد وما يجعله الرجل علامة ونحو ذلك . يسمونه دليلاً وضعياً ويسمون ما يدل مطلقاً دليلاً عقلياً . والأجود أن يقال جميع الأدلة عقلية بمعنى أن العقل إذا تصورها علم أنها تدل .

فإن الدليل هو ما يكون النظر الصحيح فيه مفضياً إلى العلم بالمدلول عليه . وإنما يكون النظر الصحيح لمن يعقل دلالة الدليل ، فمن لم يعقل كون الدليل مستلزماً للمدلول لم يستدل به . ومن عقل ذلك استدل به . فهو يدل بصفة هو في نفسه عليها لا بصفة هي في المستدل . لكن كونه عقلياً يرجع إلى أن المستدل علمه بعقله وهذا صفة في المستدل لا فيه .

أو الأجود أن يقال الدليل قد يدل بمجرده ، وقد يدل بقصد الدال على دلالته ، فالأول لا يحتاج إلى قصد الدلالة كما تقول النحاة إن الأصوات تدل بالطبع ، وتدل بالوضع ،فالذي يدل بالطبع كالنحنحة والسعال والبكاء ونحو ذلك من الأصوات ، وهذا ليس كلاماً، وحينئذ فما يدل بقصد الدال أحق بالدلالة ودلالته أكمل ، ولهذا كانت دلالة الكلام على مقصود المتكلم وهي دلالة سمعية أكمل من جميع أنواع الأدلة على مراده وهو البيان الذي علمه الله الانسان وامتن بذلك على عباده،فمنها ما يدل بمجرده ومنها ما يدل بقصد الدال ، فإذا انضم اليه ما يعرف أنه قصد الدلالة دلّ ، فالدليل هنا في الحقيقة قصد الدال للدلالة ، وهي دلالة تنتقض إذا لم يجوز عليه الكذب ، وإنما الذي دل به على قصده هو دل،بجعله دليلاً لم يدل بمجرده ، فهو دليل بالاختيار لا بمجرده ، فالأقوال والأفعال التي يقصد بها الدلالة تدل باختيار الدال بها لا بمجردها، ودلالتها تعلم بالعقل . وقد يفتقر من العقل إلى أكثر مما يفتقر اليه العقلي المجرد ، لأنها تحتاج إلى أن يعلم قصد الدال ، ولكن ما يحصل بها من الدلالة أوضح وأكثر كالكلام ، وعلى هذا فإذا أريد تقسيمها إلى عقلي ووضعي ، أي إلى عقلي مجرد ، وإلى وضعي يحتاج مع العقل إلى قصد من الدال ، فهو تقسيم صحيح ، فدال يعلم بمجرد العقل ، وهذا لا يحتاج مع العقل إلى السمع أو غيره ، وحينئذ فإذا قيل في السمعيات إنها ليست عقلية أي لا يكفي فيها مجرد العقل ، بل لا بد من انضمام السمع اليه ، وكذلك ذكر الرازي وغيره أن السمع المحض لا يدل بل لا بد من العقل ، وهذا صحيح ، فإن العقل شرط في جميع العلوم التي تختص بالعقلاء والله أعلم .

ومما يلزم أن أولئك ما كان يظهر على يد النبي ﷺ في كل وقت من الأوقات ليست دليلاً على نبوته ، لأنه لم يكن كلما ظهر شيء من ذلك احتج به وتحدى الناس بالاتيان بمثله ، بل لم ينقل عنه التحدي إلا في القرآن

خاصة ، ولا نقل التحدي عن غيره من الأنبياء مثل موسى والمسيح وصالح ، ولكن السحرة لما عارضوا موسى أبطل معارضتهم ، وهذا الذي قالوه يوجب أن لا تكون كرامات الأولياء من جملة المعجزات ، وقد ذكر غير واحد من العلماء أن كرامات الأولياء معجزات لنبيهم ، وهي من آيات نبوته ، وهذا هو الصواب كقصة أبي مسلم الخولاني وغيره ما جرى لهذه الأمة من الآيات . ومثل ما كان يظهر على أيدي الحواريين ، وعلى يد موسى وأتباعه ، لأنه جعل التحدي بالمثل جزءاً من دليله وآيته ، فلا يكون دليلاً حتى يتحداهم بالمثل ، بل قد علم أن النفس استدلال المستدل بالدليل يوجب اختصاصه بالمدلول عليه ، وكل من أتى بآية هي دليل وبرهان وحجة ، فقد علم أنه يقول أنها مستلزمة للمدلول عليه لا يوجد مع عدمه فلا يمكن أحداً أن يعارضها فيأتي بمثلها مع عدم المدلول عليه ، وهؤلاء جعلوا من جملة الدليل دعوى النبوة والاحتجاج به ، والتحدي بالمثل ثلاثة أشياء ، وهذه الثلاثة هي أجزاء الدليل ودعوى النبوة هو الذي تقام عليه البينة . والذي تقام عليه الحجة ليس هو جزءاً من الحجة والدعوى تسمى مدلولاً عليها ، ونفس المدعي يسمى مدلولاً عليه ، وثبوت المدعى يسمى مدلولاً عليه ، والعلم بثبوته يسمى مدلولاً عليه ، فهنا دعوى النبوة ، وهنا النبوة المدعاة قبل أن يعلم ثبوتها ، وهنا ثبوتها في نفس الأمر ، وهنا علم الناس بثبوتها ، وكذلك سائر الدعاوى .

فمن ادعى تحريم النبيذ المتنازع فيه فهنا دعواه التحريم ، ونفس التحريم هل هو ثابت أم منتف ، وثبوت التحريم في نفس الأمر والعلم بالتحريم . وكذلك من ادعى حقاً عند الحاكم فهنا دعواه الحق ، وهنا نفس المدعي وهو استحقاقه ذلك الحق ، وهنا ثبوت هذا الاستحقاق في نفس الأمر . وهنا العلم باستحقاقه ، فالبينة والحجة يجب أن يقارن المدلول عليه الذي هو المدعى ، وثبوته في نفس الأمر سواء ادعاه مدع ، أو لم يدعه . وسواء

علمه عالم ، أو لم يعلمه ، فإن الدليل مستلزم للمدلول عليه مستلزم لحرمة النبيذ واستحقاق الحق وثبوت الحرمة في نفس الأمر مستلزم للحرمة ، وأما مجرد الحرمة المتصورة فليست مستلزمة لوجودها في نفس الأمر ، بل قد يتصور في الأذهان ما لا يوجد في الاعيان والله أعلم .

فصــل

حجة نفاة كرامات الاولياء

وقد ذكر القاضي أبو بكر أن من المثبتة المجيزين للكرامات من أجاب عن حجة النفاة بأن قال : الأدلة على ضربين : عقلية ووضعية ، فالعقلي يدل لنفسه وجنسه ، والوضعي يدل مع المواطأة ، ولا يدل مثله مع عدمها ، كعقد العشرة ، وضعف أبو بكر هذا بأن قال لهم أن يقولوا : إذا كانت المعجزات تجري مجرى القول فحيث قصدت دلت ، وعنده أن الأمر ليس كذلك .

قلت : بل هذا القائل أحسن لأنها تدل إذا قصدت بها الدلالة مثل قيام الأمر وقعوده إذا طلب ذلك منه ، ومثل العلامة التي تكون للشخص إذا جعلها علامة ، فحيث قصد الدلالة به دل ، لكن لازم هذا أن لا يكون إلا إذا طلب الاستدلال بها لأنفس الدعوى ، ثم أنه ذكر أن الخارق للعادة لا بد أن يكون خارقاً لعادة جميع المرسل اليهم ، ثم جَوَّزَ أن يكون مما اعتاده كثير منهم بشرط أن يمنعهم عن المعارضة فيكون ذلك خرق عادة ، ثم قال في الكرامات لا يجوز أن تكثر حتى تصير عادة ، لأن من حق المعجز على قولنا وقولهم أن يكون خارقاً للعادة ، فلا تجوز إدامة ظهوره فيصير عادة ، بل يقع نادراً ، وقد جوزوا في السحر والكهانة أن يكون عادة ، لكن عند دعوى النبوة يمنعهم من المعارضة ، فكانت الكرامات

أولى بذلك هي عادة للصالحين ، وإذا ادعى النبوة صادق منع من المعارضة ، فهذا اضطراب آخر .

وادعى إجماع الأمة على أنها لا تظهر على فاسق ، ولولا الإجماع لجوز ذلك ، لأنه لا ينقض دليل النبوة فصارت تدل على الولاية بالاجماع ، على أنها لا تظهر إلا على يد نبي أو ولي ، فبهذا الاجماع يعلم : أن من ظهرت على يده ولي لله إذا لم يدع النبوة .

وهذا تناقض من وجهين : أحدهما أنهم قد قالوا إنها لا تدل على الولاية لأن الولي من مات على الإيمان وهذا غير معلوم .

الثاني أنه يقال إذا جوزت أن يظهر على يد الساحر والكاهن ونحوهما من الكفار ما هو من جنس المعجزات والكرامات وقلت يجب أن لا يستثنى من السحر شيء لا يفعل عنده إلا ما ورد الاجماع والتوقيف على أنه لا يكون بضرب من السحر ، ولا يفعل عنده كفلق البحر ونحوه ، فيكون الفرق بين السحر وغيره ، إنما يعلم بهذا الاجماع إن ثبت وإلا فعندك يجوز أن يظهر على يد الساحر كل ما يظهر على يد النبي إذا لم يدع النبوة ، ولا يحتج بذلك إذا ادعى النبوة وعارضه معارض بالمثل ، فكيف تقول مع هذا إن الخوارق تدل على الولاية بالإجماع وأنت تجوز ظهورها على أيدي الكفار من السحرة والكهان .

فإن قال : السحر والكهانة كانا قبل الرسول ، فلما جاء بطلا ، قيل أنت قد أثبت أن نفسه سحر بعد النبوة ، وأن السحر كان على عهد الصحابة وقتلوا الساحر وذكرت إجماع الفقهاء على أن السحر يكون من المسلمين ، وأهل الكتاب ، والساحر ليس بولي الله ، والسحر عندك هو من جنس الكرامات ، الجميع خارق للعادة ، لم يستدل به على النبوة ، فكيف تقول مع هذا إن الخوارق لا تكون إلا لنبي أو ولي وأنت أثبتها

للكفار. وهذا كله من جهة أنه أخذ جنس الخوارق مشتركاً ،فجوز أن يكون للنبي وغير النبي مع قوله إن الخارق لا بد أن يكون خارقاً لعادة جميع المرسل اليهم . ولكن عنده هذا يحصل بعدم المعارضة ، وحينئذ فاشتراط كونه خارقاً ومختصاً بمقدور الرب باطل ، وهو قد حكى أن الإجماع على أن المعجز لا بد أن يكون خارقاً للعادة فقال : اعلموا رحمكم الله أن الكل من سائر الأمم قد شرطوا في صفة المعجز أن يكون خارقاً للعادة ، ثم قال في فصول الكرامات .

فصل

المعجزة وما يشترط فيها

ويقال لهم إن من الناس من لا يشترط في الآية المعجزة أن تكون خارقاً للعادة ، وهذا كما ذكر إجماع الناس على أنه لا يدل على صدق النبي إلا المعجزات . فقال في الاستدلال على أنها لو لم تدل لزم عجز القديم ، إذ لا دليل بقول كل احد اثبت النبوة على نبوة الرسل وصدقهم إلا ظهور المعجزة ، فهذا إجماع لا خلاف فيه ، فلو ظهرت على يد المتنبي لبطلت دلالة النبوة ولوجب عجز القديم عن دليل يدل على نبوتهم وهو نفسه قد ذكر في ذلك عدة أقوال في غير هذا الكتاب .

وأيضاً فالاستدلال بالاجماع إنما يكون بعد ثبوت النبوة فلا يحتج على مقدمات دليل النبوة بمجرد الاجماع ، وهؤلاء إنما أوقعهم في هذه المناقضات أن القدرية يجعلون لربهم شريعة بالقياس على خلقه ، ويقولون لا يجوز أن يفعل كذا ولا ان يفعل كذا كقولهم لا يجوز أن يضل هذا ، فإنا لو جوزنا عليه الاضلال لجاز أن يظهر المعجزات على أيدي الكذابين ، فإن غاية ذلك أنه اضلال ، وإذا جاز ذلك لم يبق دليل على صدق الأنبياء ، ولم يفرق بين الصادق والكاذب ، فعارضهم هؤلاء بأن قالوا يجوز ان يفعل كل ممكن مقدور ليس يجب أن ينزه عن فعل من الأفعال ، وليس في الممكنات، ما هو قبيح أو ظلم أو سيء بل كل ذلك حسن وعدل ، فله

أن يفعله ،فقيل لهم فجوزوا إظهار المعجزات على أيدي الكذابين ففتقوا لهم فتقاً، فقالوا هذا يلزم منه عجز الرب عن أن ينصب دليلاً يدل على صدق النبي . وإن كان يمكنه أن يعرف صدقهم بالضرورة فذاك يوجب أن يعرفوا نفسه بالضرورة ، وهو يرفع التكليف والتحقيق ان إظهار المعجزات الدالة على صدق الأنبياء على يد الكاذب لا يجوز ، لكن قيل لامتناع ذلك في نفسه كما قاله الأشعري ، وقيل لأن ذلك يمتنع في حكمة الرب وعدله ، وهذا أصح ، فإنه قادر على ذلك لكن لو فعله بطلت دلالة المعجز على الصدق .

وهذا كما أنه قادر على سلب العقول ولو فعل ذلك لبطلت العلوم وهو سبحانه لو فعل ذلك قادر على تعريف الصدق بالضرورة ، وقادر على أن لا يعرف بذلك ، ولا يميز للناس بين الصادق والكاذب ، لكنه لا يفعل هذا المقدور ، ونحن نعلم بالاضطرار أنه لا يفعل ذلك وأنه لا يبعث أنبياء صادقين يبلغون رسالته ويأمر الناس باتباعهم ويتوعد من كذبهم فيقوم آخرون كذابون يدعون مثل ذلك وهو يسوى بين هؤلاء وهؤلاء في جميع ما يفرق به بين الصادق والكاذب ، بل قد علمنا من سنته أنه لا يسوي في دلائل الصدق والكذب بين المحدث الصادق والكاذب ، والشاهد الصادق والكاذب ، وبين الذي يعامل الناس بالصدق والكذب وبين الذي يظهر الاسلام صادقاً ، والذي يظهره نفاقاً وكذباً بل يميز هذا من هذا بالدلائل الكثيرة كما يميز بين العادل وبين الظالم وبين الأمين وبين الخائن ، فإن هذا مقتضى سنته التي لا تتبدل وحكمته التي هو منزه عن نقيضها ، وعدله سبحانه بتسويته بين المتماثلات وتفريقه بين المختلفات ، فكيف يسوي بين أفضل الناس وأكملهم صدقاً وبين أكذب الناس وشرهم كذباً فيما يعود إلى فساد العالم في العقول والأديان والإبضاع والأموال ، والدنيا والآخرة .

وقول القدر إذا جاز عليه إضلال من أضله جاز عليه إضلال بعض

الناس، يقال له أولاً ليس إظهار المعجزة على أيدي الكذابين من باب الاضلال، بل لو ظهرت على يده لكانت لا تدل على الصدق فلم يكن دليلاً يفرق به بين الصدق والكذب، وعدم الدليل يوجب عدم العلم بذلك الدليل لا يوجب اعتقاد نقيضه، ولو كان لا يظهرها إلا على يد كاذب لكانت إنما تدل على الكذب، فالاشتراك بين الصنفين يرفع دلالتها واختصاص أحدهما بها يوجب دلالتها على المختص.

ويقال ثانياً تجويز إضلال طائفة معينة بمعنى أنه حصل لهم الضلال لعدم نظرهم واستدلالهم وقصدهم الحق وجعل قلوبهم معرضة عن طلب الحق وقصده وأنها تكذب الصادق ليس هو مثل إضلال العالم كله، ورفع ما يعرف به الحق من الباطل بل مثال هذا، مثل من قال: إذا جاز أن يعمى طائفة من الناس جاز أن يعمى جميع الناس فلا يرى أحد شيئاً، وإذا جاز أن يصم بعض الناس جاز أن يصم جميعهم فلا يسمع أحد شيئاً، وإذا جاز أن يزمن بعض الناس أو يشل يديه جاز إزمان جميع الناس وإشلال أيديهم حتى لا يقدر أحد في العالم على شيء ولا بطش بيده، وإذا جاز أن يجنن بعض الناس جاز أن يجنن جميعهم حتى لا يبقى في الأرض إلا مجنون لا عاقل

وإذا جاز أن يميت بعض الناس جاز أن يميتهم كلهم في ساعة واحدة مع بقاء العالم على ما هو عليه وأن يقال إذا جاز أن يضل بعض الناس عن قبول بعض الحق جاز أن يضله عن قبول كل حق حتى لا يصدق أحداً في شيء ولا يقبل شيئاً مما يقال له فلا يأكل ولا يشرب ولا يلبس ولا ينام، وأن كل من أضل جاز أن يفعل به هذا كله، وهذا كله مما يعرف بضرورة العقل الفرق بينهما، ومن سوى بين هذا وهذا كان مصاباً في عقله، وآيات الأنبياء هي من هـذا الباب فلو لم يميز بين الصـادق والكاذب لكان قد بعث أنبياء يبلغون رسالته ويأمرون بما أمر به من أطاعهم

سعد في الدنيا والآخرة ، ومن كذبهم شقي في الدنيا والآخرة، وآخرين كذابين يبلغون عنه مالم يقله ويأمرون بما نهى عنه، وينهون عما أمر به، ومن اتبعهم شقي في الدنيا والآخرة ، ولم يجعل لأحد سبيلاً إلى التمييز بين هؤلاء وهؤلاء ، وهذا أعظم من أن يقال أنه خلق أطعمة نافعة وسموماً قاتلة ، ولم يميز بينهما بل كل ما أكله الناس جاز أن يكون من هذا وهذا، ومعلوم أن من جوز مثل هذا على الله فهو مصاب في عقله، ثم إن الله جعل الأشياء متلازمة ، وكل ملزوم هو دليل على لازمه فالصدق له لوازم كثيرة ، فإن من كان يصدق ويتحرى الصدق كان من لوازمه أنه لا يتعمد الكذب ، ولا يخبر بخبرين متناقضين عمداً ولا يبطن خلاف ما يظهر ، ولا يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه ، ولا يخون أمانته ولا يجحد حقاً هو عليه إلى أمثال هذه الأمور التي يمتنع أن تكون لازمة الا لصادق ، فإذا انتفت انتفى الصدق، وإذا وجدت كانت مستلزمة لصدقه والكاذب بالعكس لوازمه بخلاف ذلك ، وهذا لأن الانسان حي ناطق والنطق من لوازمه الظاهرة لبني جنسه ومن لوازم النطق الخبر فإنه الزم له من الأمر والطلب ، حتى قد قيل إن جميع أنواع الكلام يعود إلى الخبر فلزم أن يكون من لوازم الانسان إخباره وظهوراً إخباره وكثرته ، وأن هذا لا بد من وجوده حيث كان وحينئذ ، فإذا كان كذاباً عرف الناس كذبه لكثرة ما يظهر منه من الخبر عن الشيء بخلاف ما هو عليه من أحوال نفسه وغيره ، ومما رآه وسمعه وقيل له في الشهادة والغيب ، ولهذا كل من كان كاذباً ظهر عليه كذبه بعد مدة سواء كان مدعياً للنبوة أو كان كاذباً في العلم ونقله ، أو في الشهادة ، أو في غير ذلك ، وإن كان مطاعاً كان ظهور كذبه أكثر لما فيه من الفساد .

وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: « ثلاثَةٌ لا يُكَلِّمُهُم اللهُ ولا يَنْظُرُ اليهِم يوم القيامَة ولا يُزَكِّيهِم ولهُم عذابٌ أليمٌ مَلِكٌ

كذّابٌ وشَيْخٌ زانٍ ، وعائِلٌ مُستكبِرٌ – ويروى –وفقيرٌ مُخْتالٌ ».
ولهذا كثير من أهل الدول كانوا يتواصون بالكذب وكتمان أمورهم ، ثم يظهر كالقرامطة ، ولهذا امتنع اتفاق الناس على الكذب والكتمان من غير تواطؤ لما جعل الله في النفوس من الداعي إلى الصدق والبيان وجعل الله في القلوب هداية ومعرفة بين هذا وهذا ، ولم يعرف قط في بني آدم أنه اشتبه صادق بكاذب إلا مدة قليلة ، ثم يظهر الأمر ، وليس هذا كالضلال في أمور خفية ومشتبهة على أكثر الناس ، فإن التمييز بين الصادق والكاذب يظهر لجمهور الناس وعامتهم بعد مدة ولا يطول اشتباه ذلك عليهم ، وإنما يشتبه الأمر عليهم فيما لم يتعمد فيه الكذب ، بل أخطأ أصحابه فأخذ عنهم تقليداً لهم ، وأما مع كون أصحابه يتعمدون الكذب فهذا لا يخفى على عامة الناس .

فصـل

آيات الانبياء والفروق بينها

وقد تقدم ذكر بعض الفروق بين آيات الأنبياء وغيرهم وبينها وبين غيرها من الفروق ما لا يكاد يحصى .

الأول : أن النبي صادق فيما يخبر به عن الكتب لا يكذب قط ومن خالفهم من السحرة والكهان لا بد أن يكذب كما قال : (هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ)[1] .

الثاني من جهة ما يأمر به هذا ويفعله، ومن جهة ما يأمر به هذا ويفعله ، فإن الأنبياء لا يأمرون إلا بالعدل وطلب الآخرة وعبادة الله وحده وأعمالهم البر والتقوى ومخالفوهم ، يأمرون بالشرك والظلم ويعظمون الدنيا وفي أعمالهم الإثم والعدوان .

الثالث : أن السحر والكهانة ونحوهما أمور معتادة معروفة لأصحابها ليست خارقة لعادتهم وآيات الأنبياء لا تكون إلا لهم ولمن اتبعهم .

الرابع : أن الكهانة والسحر يناله الانسان بتعلمه وسعيه واكتسابه ، وهذا مجرب عند الناس بخلاف النبوة ، فإنه لا ينالها أحد باكتسابه .

---

١ – سورة الشعراء آية ٢٢١ – ٢٢٢ .

الخامس : أن النبوة لو قدر أنها تنال بالكسب فإنما تنال بالأعمال الصالحة ، والصدق والعدل ، والتوحيد لا تحصل مع الكذب على من دون الله فضلاً عن أن تحصل مع الكذب على الله فالطريق الذي تحصل به لو حصلت بالكسب مستلزم للصدق على الله فيما يخبر به .

السادس : أن ما يأتي به الكهان والسحرة لا يخرج عن كونه مقدوراً للجن والإنس وهم مأمورون بطاعة الرسل وآيات الرسل لا يقدر عليها لا جن ولا إنس ، بل هي خارقة لعادة كل من أرسل النبي إليه : (قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ والجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذا القُرْآن لا يَأْتُون بِمِثْلِهِ ولَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً) [1] .

السابع : أن هذه يمكن أن تعارض بمثلها ، وآيات الانبياء لا يمكن أحداً أن يعارضها بمثلها .

الثامن : أن تلك ليست خارقة لعادات بني آدم بل كل ضرب منها معتاد لطائفة غير الأنبياء ، وأما آيات الانبياء فليست معتادة لغير الصادقين على الله ولمن صدقهم .

التاسع : أن هذه قد لا يقدر عليها مخلوق لا الملائكة ولا غيرهم كإنزال القرآن ، وتكليم موسى ، وتلك تقدر عليها الجن والشياطين .

العاشر : أنه إذا كان من الآيات ما يقدر عليه الملائكة ، فإن الملائكة لا تكذب على الله ، ولا تقول لبشر أن الله أرسلك ولم يرسله، وإنما يفعل ذلك الشياطين والكرامات معتادة في الصالحين منا ومن قبلنا ليست خارقة لعادة الصالحين وآيات الانبياء خارقة لعادة الصالحين، وهذه تنال بالصلاح بدعائهم وعبادتهم ومعجزات الانبياء لا تنال بذلك ، ولو طلبها الناس حتى يأذن الله فيها قل إنما الآيات عند الله قل إن الله قادر على أن ينزل آية .

---

١ ــ سورة الاسراء آية ٨٨ .

الحادي عشر : أن النبي قد تقدمه أنبياء فهو لا يأمر إلا بجنس ما أمرت به الرسل قبله فله نظراء يعتبر بهم ، وكذلك الساحر والكاهن له نظراء يعتبر بهم .

الثاني عشر : أن النبي لا يأمر إلا بمصالح العباد في المعاش والمعاد فيأمر بالمعروف وينهى عن المنكر فيأمر بالتوحيد والإخلاص والصدق ، وينهي عن الشرك والكذب والظلم ، فالعقول والفطر توافقه كما توافقه الأنبياء قبله فيصدقه صريح المعقول وصحيح المنقول الخارج عما جاء به والله أعلم.

فصـل

بطلان الابتداع وفضيلة الاتباع لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم

ومن تدبر هذا وغيره تبين له أن جميع ما ابتدعه المتكلمون وغيرهم مما يخالف الكتاب والسنة ، فإنه باطل ، ولا ريب أن المؤمن يعلم من حيث الجملة أن ما خالف الكتاب والسنة فهو باطل ، لكن كثير من الناس لا يعلم ذلك في المسائل المفصلة لا يعرف ما الذي يوافق الكتاب والسنة ، وما الذي يخالفه كما قد أصاب كثير من الناس في الكتب المصنفة في الكلام في أصول الدين وفي الرأي والتصوف وغير ذلك ، فكثير منهم قد اتبع طائفة يظن أن ما يقولونه هو الحق وكلهم على خطأ وضلال .

ولقد أحسن الإمام أحمد في قوله في خطبته وإن كانت مأثورة عمن تقدم : الحمد لله الذي جعل في كل زمان فترة من الرسل بقايا من أهل العلم يدعون من ضل إلى الهدى ، ويصبرون منهم على الأذى ، يحيون بكتاب الله الموتى ، ويبصرون بنور الله أهل العمى ، فكم من قتيل لإبليس قد أحيوه ، وكم من ضال تائه قد هدوه فما أحسن أثرهم على الناس وأقبح أثر الناس عليهم ، ينفون عن كتاب الله تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين الذين عقدوا ألوية البدعة وأطلقوا عنان الفتنة ، فهم

مختلفون في الكتاب مخالفون للكتاب مجمعون على مفارقة الكتاب ، يقولون على الله وفي الله ، وفي كتاب الله بغير علم ، يتكلمون بالمتشابه من الكلام ويخدعون جهال الناس بما يشبهون عليهم فنعوذ بالله من فتن المضلين ، فهؤلاء أهل البدع من أهل الكلام وغيرهم ، كما قال مختلفون في الكتاب مخالفون للكتاب متفقون على مفارقة الكتاب وتصديق ما ذكره إنك لا تجد طائفة منهم توافق الكتاب والسنة فيما جعلوه أصول دينهم ، بل بكل طائفة أصول دين لهم فهي أصول دينهم الذي هم عليه ليس هي أصول الدين الذي بعث الله به رسوله وأنزل به كتابه ، وما هم عليه من الدين ليس كله موافقاً للرسول ولا كله مخالفاً له ، بل بعضه موافق ، وبعضه مخالف بمنزلة أهل الكتاب الذين لبسوا الحق بالباطل كما قال تعالى : (يَا بَنِي إِسْرائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقاً لِمَا مَعَكُمْ وَلا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ وَلا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ)[1] ؛ وقال تعالى : (يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ)[2] .

لكن بعض الطوائف أكثر مخالفة للرسول من بعض وبعضها أظهر مخالفة ، ولكن الظهور أمر نسبي فمن عرف السنة ظهرت له مخالفة من خالفها ، فقد تظهر مخالفة بعضهم للسنة لبعض الناس لعلمه بالسنة دون من لا يعلم منها ما يعلمه هو ، وقد تكون السنة في ذلك معلومة عند جمهور

---

١ ـ سورة البقرة آية ٤٢ .
٢ ـ سورة آل عمران آية ٧١ .

الأمة فتظهر مخالفة من خالفها كما تظهر للجمهور مخالفة الرافضة للسنة ، وعند الجمهور هم المخالفون للسنة فيقولون : أنت سني أو رافضي ، وكذلك الخوارج لما كانوا أهل سيف وقتال ظهرت مخالفتهم للجماعة حين كانوا يقاتلون الناس ، وأما اليوم فلا يعرفهم أكثر الناس. وبدع القدرية والمرجئة ونحوهم لا تظهر مخالفتها بظهور هذين ، وهاتان البدعتان ظهرتا لما قتل عثمان رضي الله عنه في الفتنة ، في خلافة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وظهرت الخوارق بمفارقة أهل الجماعة واستحلال دمائهم وأموالهم حتى قاتلهم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه متبعاً في ذلك لأمر النبي ﷺ .

قال الإمام أحمد بن حنبل : صح الحديث في الخوارج من عشرة أوجه وهذه قد رواها صاحبه مسلم بن الحجاج في صحيحه ، وروى البخاري قطعة منها واتفقت الصحابة على قتال الخوارج ، حتى أن ابن عمر مع امتناعه عن الدخول في فرقة كسعد وغيره ، من السابقين ، ولهذا لم يبايعوا لأحد إلا في الجماعة .

قال عند الموت : ما آسي على شيء إلا على أني لم أقاتل الطائفة الباغية مع علي رضي الله عنه ، يريد بذلك قتال الخوارج ، وإلا فهو لم يبايع لا لعلي ولا غيره ، ولم يبايع معاوية إلا بعد أن اجتمع الناس عليه فكيف يقاتل إحدى الطائفتين ، وإنما أراد المارقة التي قال فيها النبي ﷺ : « تَمرقُ مَارِقَةٌ عَلَى حِينِ فِرقَةٍ من النّاسِ يَقْتُلُهم أَدْنَى الطَّائِفَتَيْنِ إلى الحَقِ » ، وهذا حدث به أبو سعيد فلما بلغ ابن عمر قول النبي ﷺ في الخوارج وأمره بقتالهم تحسر على ترك قتالهم ، فكان قتالهم ثابتاً بالسنة الصحيحة الصريحة ، وباتفاق الصحابة بخلاف فتنة الجمل وصفين ، فإن أكثر السابقين الأولين كرهوا القتال في هذا ، وهذا وكثير من الصحابة قاتلوا إما من هذا الجانب ، وإما من هذا الجانب ، فكانت الصحابة في

ذلك على ثلاثة أقوال ، لكن الذي دلت عليه السنة الصحيحة أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه كان أولى بالحق وإن ترك القتال بالكلية كان خيراً وأولى ، ففي الصحيحين عن أبي سعيد أن النبي ﷺ قال « تَمرقُ مَارِقة على حين فرقة من الإسلام يقتلهم أولى الطائفتين بالحق »، وقد ثبت عنه أنه جعل القاعد فيها خيراً من القائم ، والقائم خيراً من الماشي ، والماشي خيراً من الساعي ، وأنه أثنى على من صالح ، ولم يثن على من قاتل ، ففي البخاري وغيره عن أبي بكرة أن النبي ﷺ قال عن الحسن : « أن إبني هذا سَيِّدٌ وسَيُصلِحُ الله به بَيْنَ فِئَتَيْنِ مِنَ المُسلِمين » فأثنى على الحسن في إصلاح الله به بين الفئتين ، وفي صحيح مسلم وبعض نسخ البخاري أن النبي ﷺ قال لعمار : « تَقتُلُكَ الفِئة البَاغيَة » .

وفي الصحيحين أيضاً أنه قال : « لاَ تَزَالُ طَائفةٌ مِن أمَّتِي ظاهِرِين عَلَى الحَقِّ لاَ يَضرُهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ حَتى تَقُومَ السَاعَةُ ». قال معاذ ، وهم بالشام . وفي صحيح مسلم عنه أنه قال: «لاَ يَزَالُ أهلُ المَغْرِبِ ظَاهِرِينَ لاَ يَضُرُهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ » .

قال أحمد بن حنبل وغيره : أهل المغرب أهل الشام أي أنها أول المغربْ فإن التغريب والتشريق أمر نسبي فلكل بلد غرب وشرق وهو ﷺ تكلم بمدينته ، فما تغرب عنها فهو غرب ، وما تشرق عنها فهو شرق ، وهي مسامتة أول الشام من ناحية الفرات كما أن مكة مسامتة لحران وسميساط ونحوهما ، وتصويب قتالهم إن كان بعد الإصلاح فلم يقع الإصلاح وإن كان عند بغيهم في الإقتتال ، وإن لم يكن إصلاح فهؤلاء البغاة لم تكن في أصحاب علي من يقاتلهم ، بل تركوا قتالهم إما عجزاً وإما تفريطاً ، فترك الإصلاح المأمور به .

وعلى هذا قوتلوا ابتداء قتالاً غير مأمور به ، ولما صار قتالهم مأموراً به لم يقاتلوا القتال المأمور به ، بل نكل أصحاب علي رضي الله عنه عن

القتال ، إما عجزاً، وإما تفريطاً ، والبغاة المأمور بقتالهم هم الذين بغوا بعد الإقتتال ، وامتنعوا من الإصلاح المأمور به ، فصاروا بغاة مقاتلين ، والبغاة إذا ابتدأوا القتال جاز قتالهم بالإتفاق ، كما يجوز قتال الغواة قطاع الطريق إذا قاتلوا باتفاق الناس ، فأما الباغي من غير قتال ، فليس في النص أن الله أمر بقتاله بل الكفار إنما يقاتلون بشرط الحراب ، كما ذهب إليه جمهور العلماء وكما دل عليه الكتاب والسنة كما هو مبسوط في موضعه .

والصدّيق قاتل المرتدين الذين ارتدوا عما كانوا فيه على عهد الرسول من دينه وهم أنواع : منهم من آمن بمتنبىء كذاب ، ومنهم من لم يقر ببعض فرائض الإسلام التي أقر بها مع الرسول ، ومنهم من ترك الإسلام بالكلية ، ولهذا تسمى هذه وأمثالها من الحروب بين المسلمين فتناً ، كما سماها النبي ﷺ. والملاحم ما كان بين المسلمين والكفار وبسط هذا له موضع آخر .

والمقصود هنا أن الخوارج ظهروا في الفتنة ، وكفروا عثمان وعلياً رضي الله عنهما ومن والاهما وباينوا المسلمين في الدار ، وسموا دارهم دار الهجرة ، وكانوا كما وصفهم النبي ﷺ يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان وكانوا أعظم الناس صلاة وصياماً وقراءة كما قال النبي ﷺ : « يَحقِرُ أحدُكُم صلاتَهُ مَعْ صلاتِهِم وصِيامَهُ مَعْ صِيامِهِم وقِراءتَهُ مَعْ قِراءتِهِم يَقرأونَ القُرآنَ لا يُجاوزُ حَناجِرهم يَمرقُونَ مِنَ الإسْلامِ كَما يَمْرقُ السَهْمُ مِنَ الرَّمية »

ومروقهم منه خروجهم باستحلالهم دماء المسلمين وأموالهم . فإنه قد ثبت عنه في الصحيح أنه قال : « المُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ المُسْلِمُونَ مِن لِسانِهِ ويَدِهِ ، والمُهاجِرُ مَنْ هَجَرَ ما نَهى اللهُ عَنْهُ » ، وهم بسطوا في المسلمين أيديهم وألسنتهم فخرجوا منه ولم يحكم علي رضي الله عنه وأئمة الصحابة فيهم بحكمهم في المرتدين بل جعلوهم مسلمين .

وسعد بن أبي وقاص وهو أفضل من كان قد بقي بعد علي رضي الله عنه وهو من أهل الشورى واعتزل في الفتنة فلم يقاتل لا مع علي ، ولا مع معاوية ، ولكنه ممن تكلم في الخوارج وتأول فيهم قوله : (ومَا يَضِلُّ به إلا الفَاسقِينَ الذين يَنْقُضُونَ عَهْدَ الله مِنْ بَعْدِ ميثَاقه ويَقْطَعونَ مَا أمَرَ اللهُ بِهِ أن يُوصَلَ وَيُفْسِدونَ في الأرْضِ أولئكَ هُمُ الخَاسِرُونَ) [1].وحدث أيضاً طوائف الشيعة الإلهية الغلاة فرفع إلى علي رضي الله عنه منهم طائفة ادعوا فيه الإلهية فأمرهم بالرجوع فأصروا فأمهلهم ثلاثاً ثم أمر بأخاديد من نار فخدت وألقاهم فيها فرأى قتلهم بالنار .

وأما ابن عباس فقال : لو كنت أنا لم أحرقهم بالنار لنهى رسول الله ﷺ أن يعذب بعذاب الله ، ولضربت أعناقهم لقوله ﷺ : « مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فاقتُلُوهُ » رواه البخاري ، وأكثر الفقهاء على قول ابن عباس .

وروى أنه بلغه أن ابن السوداء يسب أبا بكر وعمر رضي الله عنهما فطلب قتله فهرب منه فأما قتله على السب ، أو لأنه كان متهماً بالزندقة .

وقيل إنه هو الذي ابتدع بدعة الرافضة وأنه كان قصده إفساد دين الإسلام ، وهذا يستحق القتل باتفاق المسلمين.والذين يسبون أبا بكر وعمر رضي الله عنهما فيهم تزندق كالإسماعيلية والنصيرية ، فهؤلاء يستحقون القتل بالإتفاق ، وفيهم من يعتقد بنبوة النبي ﷺ كالإمامية فهؤلاء في قتلهم نزاع وتفصيل مذكور في غير هذا الموضع ، وتواتر عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال : « خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر »،وهذا متفق عليه بين قدماء الشيعة ، وكلهم كانوا يفضلون أبا بكر

---

١ — سورة البقرة آية ٢٧ .

وعمر رضي الله عنهما . وإنما كان النزاع في علي وعثمان رضي الله عنهما حين صار لهذا شيعة ، ولهذا شيعة ، وأما أبو بكر وعمر رضي الله عنهما فلم يكن أحد يتشيع لهما بل جميع الأمة كانت متفقة عليهما حتى الخوارج فإنهم يتولونهما ، وإنما يتبرءون من علي وعثمان رضي الله عنهما .

وروي أن معاوية قال لابن عباس : أنت على ملة علي ، أم عثمان ؟ قال : لا على ملة علي ، ولا عثمان : أنا على ملة رسول الله ﷺ . وكان كل من الشيعتين يذم الآخر بما برأه الله منه ، فكان بعض شيعة عثمان يتكلمون في علي بالباطل ، وبعض شيعة علي يتكلمون في عثمان بالباطل ، والشيعتان مع سائر الأمة متفقة على تقديم أبي بكر وعمر .

قيل لشريك بن عبدالله القاضي أنت من شيعة علي وأنت تفضل أبا بكر وعمر. فقال : كل شيعة علي على هذا ، هو يقول على أعواد هذا المنبر : خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ، ثم عمر ، أفكنا نكذبه والله ما كان كذاباً .

وقد روى البخاري في صحيحه من حديث محمد بن الحنفية أنه قال له : يا أبت من خير الناس بعد رسول الله ؟ فقال : يا بني أوما تعرف ؟ قال لا ! قال : أبو بكر. قال : ثم من؟قال: ثم عمر ، وهو مروي من حديث الهمدانيين شيعة علي عن أبيه . وروي عن علي أنه قال :

وَلَوْ كُنْتُ بَوَّاباً على بَابِ جَنَّةٍ لَقُلْتُ لِهَمْدَانَ ادخُلِي بِسَلَامِ

وقد روي عنه أنه قال : « لا أوتي بأحد يفضلني على أبي بكر وعمر إلا جلدته حد المفتري ».وقد ثبت عن علي رضي الله عنه بالأحاديث الثابتة بل المتواترة أنه قتل الغالية كالذين يعتقدون إلهيته ، بعد أن استتابهم ثلاثاً كسائر المرتدين ، وأنه كان يبالغ في عقوبة من يسب أبا بكر وعمر ، وأنه كان يقول إنهما خير هذه الأمة بعد نبيها ، وهذا مبسوط في مواضع .

والمقصود هنا أن هاتين البدعتين حدثتا في ذلك الوقت ، ثم في آخر عصر الصحابة ، حدثت القدرية ، وتكلم فيها من بقي من الصحابة كابن عمر ، وابن عباس وواثلة بن الأسقع وغيرهم . وحدثت أيضاً بدعة المرجئة في الإيمان والآثار عن الصحابة ثابته بمخالفتهم ، وأنهم قالوا : الإيمان يزيد وينقص كما ثبت ذلك عن الصحابة كما هو مذكور في موضعه .

وأما الجهمية نفاة الأسماء والصفات فإنما حدثوا في أواخر الدولة الأموية وكثير من السلف لم يدخلهم في الثنتين وسبعين فرقة منهم يوسف ابن أسباط وعبدالله بن المبارك، قالوا : أصول البدع أربعة : الخوارج والشيعة ، والقدرية ، والمرجئة . فقيل لهم الجهمية ؟ فقالوا : ليس هؤلاء من أمة محمد .

ولهذا تنازع من بعدهم من أصحاب أحمد وغيرهم هل هم من الثنتين وسبعين على قولين ذكرهما عن أصحاب أحمد أبو عبدالله بن حامد في كتابه في الأصول ، والتحقيق أن التجهم المحض وهو نفي الأسماء والصفات كما يحكى عن جهم والغالية من الملاحدة ونحوهم من نفى اسماء الله الحسنى كفر بين مخالف لما علم بالإضطرار من دين الرسول ، وأما نفي الصفات مع إثبات الأسماء كقول المعتزلة فهودون هذا ، لكنه عظيم أيضاً ، وأما من أثبت الصفات المعلومة بالعقل والسمع وإنما نازع في قيام الأمور الإختيارية به كابن كلاب ومن اتبعه ، فهؤلاء ليسوا جهمية بل وافقوا جهماً في بعض قوله ، وإن كانوا خالفوه في بعضه ، وهؤلاء من أقرب الطوائف إلى السلف وأهل السنة والحديث وكذلك السالمية والكرامية ونحو هؤلاء يوافقون في جملة أقوالهم المشهورة فيثبتون الأسماء والصفات والقضاء والقدر في الجملة ليسوا من الجهمية والمعتزلة النفاة للصفات ، وهم أيضاً يخالفون الخوارج والسيعة فيقولون بإثبات خلافة الأربعة ، وتقديم أبي بكر وعمر ، ولا يقولون بخلود أحد من أهل القبلة في النار ، لكن

الكرامية والكلابية وأكثر الأشعرية مرجئة ، وأقربهم الكلابية يقولون الإيمان هو التصديق بالقلب ، والقول باللسان، والأعمال ليست منه كما يحكى هذا عن كثير من فقهاء الكوفة مثل أبي حنيفة وأصحابه .

وأما الأشعري فالمعروف عنه وعن أصحابه أنهم يوافقون جهماً في قوله في الإيمان وأنه مجرد تصديق القلب أو معرفة القلب ، لكن قد يظهرون مع ذلك قول أهل الحديث ويتأولونه ويقولون بالاستثناء على الموافاة فليسوا موافقين لجهم من كل وجه ، وإن كانوا أقرب الطوائف إليه في الإيمان وفي القدر أيضاً . فإنه رأس الجبرية يقول ليس للعبد فعل البتة . والأشعري يوافقه على أن العبد ليس بفاعل ولا له قدرة مؤثرة في الفعل ، ولكن يقول هو كاسب، وجهم لا يثبت له شيئاً لكن هذا الكسب يقول أكثر الناس أنه لا يعقل، فرق بين الفعل الذي نفاه، والكسب الذي أثبته، وقالوا عجائب الكلام ثلاثة: طفرة النظام ، وأحوال أبي هاشم، وكسب الأشعري وأنشدوا :

مِمَّا يُقالُ ولا حَقيقَةَ عِنْدَهُ ... مَعْقُولَةٌ تَدْنُو إلى الأفْهامِ
الكَسْبُ عِنْدَ الأشعـري والحَا ... لُ عِنْدَ البهشَمي وطفرةُ النظامِ

وأما الكرامية فلهم في الإيمان قول ما سبقهم إليه أحد ، قالوا : هو الإقرار باللسان وإن لم يعتقد بقلبه ، وقالوا المنافق هو مؤمن ، ولكنه مخلد في النار وبعض الناس يحكي عنهم أن المنافق في الجنة ، وهذا غلط عليهم بل هم يجعلونه مؤمناً مع كونه مخلداً في النار ، فينازعون في الإسم لا في الحكم.

وقد بسط القول على منشأ الغلط حيث ظنوا أن الإيمان لا يكون إلا شيئاً متماثلاً عند جميع الناس إذا ذهب بعضه ذهب سائره ، ثم قالت الخوارج والمعتزلة وهو أداء الواجبات واجتناب المحرمات، فاسم المؤمن مثل إسم البر والتقي ، وهو المستحق للثواب ، فإذا ترك بعض ذلك زال عنه إسم الإيمان والإسلام .

ثم قالت الخوارج : ومن لم يستحق هذا ولا هذا فهو كافر ، وقالت المعتزلة بل ينزل منزلة بين المنزلتين فنسميه فاسقاً لا مسلماً ولا كافراً ، ونقول إنه مخلد في النار ، وهذا هو الذي امتازت به المعتزلة ، وإلا فسائر بدعهم قد قالها غيرهم فهم وافقوا الخوارج في حكمه ونازعوهم ونازعوا غيرهم في الإسم ، وقالت الجهمية والمرجئة بل الأعمال ليست من الإيمان لكنه شيئان أو ثلاثة يتفق فيها جميع الناس : التصديق بالقلب، والقول باللسان أو المحبة، والخضوع مع ذلك .

وقالت الجهمية والأشعرية والكرامية : بل ليس إلا شيئاً واحداً يتماثل فيه الناس . وهؤلاء الطوائف أصل غلطهم ظنهم أن الإيمان يتماثل فيه الناس ، وأنه إذا ذهب بعضه ذهب كله وكلا الأمرين غلط ، فإن الناس لا يتماثلون لا فيما وجب منه ولا فيما يقع منهم بل الإيمان الذي وجب على بعض الناس قد لا يكون مثل الذي يجب على غيره كما كان الإيمان بمكة لم يكن الواجب منه كالواجب بالمدينة ، ولا كان في آخر الأمر كما كان في أوله ولا يجب على أهل الضعف والعجز من الإيمان ما يجب على أهل القوة والقدرة في العقول والأبدان، بل أهل العلم بالقرآن والسنة ومعاني ذلك يجب عليهم من تفصيل الإيمان ما لا يجب على من لم يعرف ما عرفوا، وأهل الجهاد يجب عليهم من الإيمان في تفصيل الجهاد ما لا يجب على غيرهم ، وكذلك ولاة الأمر وأهل الأموال يجب على كل من معرفة ما أمر الله به ونهى عنه وأخبر به ما لا يجب على غيره ، والإقرار بذلك من الإيمان ، ومعلوم أنه وإن كان الناس كلهم يشتركون في الإقرار بالخالق وتصديق الرسول جملة ، فالتفصيل لا يحصل بالجملة ومن عرف ذلك مفصلاً لم يكن ما أمر به ووجب عليه مثل من لم يعرف ذلك .

وأيضاً فليس الناس متماثلين في فعل ما أمروا به من اليقين والمعرفة والتوحيد وحب الله وخشية الله والتوكل على الله والصبر لحكم الله وغير

ذلك مما هو من إيمان القلوب ، ولا في لوازم ذلك الشيء تظهر على الأبدان ، وإذا قدر أن بعض ذلك زال لم يزل سائره ، بل يزيد الإيمان تارة وينقص تارة . كما ثبت ذلك عن أصحاب رسول الله ﷺ مثل عمر بن حبيب الخطمي وغيره أنهم قالوا : الإيمان يزيد وينقص كما قد بسط في غير هذا الموضع ، إذ المقصود هنا أن طوائف أهل البدع من أهل الكلام وغيرهم ليس فيهم من يوافق الرسول في أصول دينه لا فيما اشتركوا فيه ولا فيما انفرد به بعضهم ، فإنهم وإن اشتركوا في مقالات فليس إجماعهم حجة ، ولا هم معصومون من الإجتماع على خطأ ، وقد زعم طائفة أن إجماع المتكلمين في المسائل الكلامية كإجماع الفقهاء ، وهذا غلط ، بل السلف قد استفاض عنهم ذم المتكلمين ، وذم أهل الكلام مطلقاً ، ونفس ما اشتركوا فيه من إثبات الصانع بطريقه الأعراض ، وأنها لازمة للجسم أو متعاقبة عليه فلا يخلو منها ، وما لم يخل من الحوادث فهو حادث لامتناع حوادث لا أول لها ، وأن الله يمتنع أن يقال أنه لم يزل متكلماً بمشيئته وقدرته ، أو يمتنع أن يقال أنه لم يزل فعالاً ، وأنه صار فاعلاً أو فاعلاً ومتكلماً بمشيئته بعد أن لم يكن بلا حدوث حادث ، وما يتبع هذا هو أصل مبتدع في الإسلام أول ما عرف أنه قاله الجهم بن صفوان مقدم الجهمية ، وأبو الهذيل العلاف مقدم المعتزلة ، ولهذا طرداه فقالا : بامتناع الحوادث في المستقبل ، وقال الجهم بفناء الجنة والنار .

وقال أبو الهذيل بانقطاع حركاتهما كما قد بسط فروع هذا الأصل الذي اشتركوا فيه ، ثم افترقوا بعد ذلك في فروعه فأئمتهم كانوا يقولون كلام الله القرآن وغيره مخلوق ، وكذلك سائر ما يوصف به الرب ليس له صفة قامت به ، لأن ذلك عرض عندهم لا يقوم إلا بجسم ، والجسم حادث فقالوا القرآن وغيره من كلام الله مخلوق ، وكذلك سائر ما يوصف به الرب فجاء بعدهم مثل ابن كلاب وابن كرام والأشعري ، وغيرهم من

شاركهم في أصل قولهم ، لكن قالوا بثبوت الصفات لله وأنها قديمة لكن منهم من قال : لا تسمى أعراضاً لأن العرض لا يبقى زمانين ، وصفات الرب باقية كما يقوله الأشعري وغيره .

ومنهم من قال تسمى أعراضاً وهي قديمة وليس كل عرض حادثاً كابن كرام وغيره ، ثم افترقوا في القرآن وغيره من كلام الله فقال ابن كلاب ومن اتبعه فهو صفة من الصفات قديمة كسائر الصفات ثم قال : ولا يجوز أن يكون صوتاً لأنه لا يبقى ولا معاني متعددة فإنها إن كان لها عدد مقدر فليس قدر بأولى من قدر ، وإن كانت غير متناهية لزم ثبوت معان في آن واحد لا نهاية لها ، وهذا ممتنع فقال أنه معنى واحد هو معنى آية الكرسي وآية الدين والتوراة والإنجيل .

وقال جمهور العقلاء أن تصور هذا القول تصوراً تاماً يوجب العلم بفساده . وقال طائفة بل كلامه قديم العين وهو حروف أو حروف وأصوات قديمة أزلية مع أنها مترتبة في نفسها وأن تلك الحروف والأصوات باقية أزلاً وأبداً. وجمهور العقلاء يقولون أن فساد هذا معلوم بالضرورة . وهاتان الطائفتان تقولان أنه لا يتكلم بمشيئته وقدرته .

وقال آخرون كالهشامية والكرامية بل هو متكلم بمشيئته وقدرته وكلامه قائم بذاته ولا يمتنع قيام الحوادث لكن يمتنع أن يكون لم يزل متكلماً فإن ذلك يستلزم وجود حوادث لا أول لها وهو ممتنع فهذه الأربعة في القرآن وكلام الله هي أقوال المشركين في امتناع دوام كون الرب فعالا بمشيئته أو متكلماً بمشيئته .

وأما أئمة السنة والحديث كعبدالله بن المبارك، وأحمد بن حنبل وغيرهما فقالوا لم يزل الرب متكلماً إذا شاء وكيف شاء ، فذكروا أنه يتكلم بمشيئته وقدرته وأنه لم يزل كذلك، وهذا يناقض الأصل الذي اشترك فيه المتكلمون من الجهمية والمعتزلة ، ومن تلقى عنهم. فلا هم موافقون للكتاب والسنة وكلام السلف لا فيما اتفقوا عليه ، ولا فيما تنازعوا فيه ، ولهذا يوجد في

عامة أصول الدين لكل منهم قول ، وليس في أقوالهم ما يوافق الكتاب والسنة كأقوالهم في كلام الله وأقوالهم في إرادته ومشيئته وفي علمه وفي قدرته ، وفي غير ذلك من صفاته ، وإن كان بعضهم أقرب إلى السنة والسلف من بعض ، ولكن قد شاع ذلك بين أهل العلم والدين منهم ، فكثير من أهل العلم والدين المنتسبين إلى السنة والجماعة من قد يوافقهم على بعض أقوالهم في مسألة القرآن أو غيرها إذ كان لا يعرف إلا ذلك القول أو ما هو أبعد عن السنة منه إذ كانوا في كتبهم لا يحكون غير ذلك إذ كانوا لا يعرفون السنة وأقوال الصحابة ، وما دل عليه الكتاب والسنة لا يعرفون إلا قولهم وقول من يخالفهم من أهل الكلام ، ويظنون أنه ليس للأمة إلا هذان القولان أو الثلاثة ، وهم يعتمدون في السمعيات على ما يظنونه من الإجماع وليس لهم معرفة بالكتاب والسنة بل يعتمدون على القياس العقلي الذي هو أصل كلامهم ، وعلى الإجماع وأصل كلامهم العقلي باطل ، والإجماع الذي يظنونه إنما هو إجماعهم وإجماع نظرائهم من أهل الكلام ليس هو اجماع أمة محمد ولا علمائها ، والله تعالى انما جعل العصمة للمؤمنين من أمة محمد فهم الذين لا يجتمعون على ضلالة ولا خطأ ، كما ذكر على ذلك الدلائل الكثيرة وكل ما اجتمعوا عليه فهو مأثور عن الرسول ، فإن الرسول بين الدين كله وهم معصومون أن يخطئوا كلهم ويضلوا عما جاء به محمد ، بل هم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر فلا يبقى معروف إلا أمروا به ، ولا منكر إلا نهوا عنه .

وهم أمة وسط عدل خيار شهداء الله في الأرض فلا يشهدون إلا بحق ، فإجماعهم هو على علم موروث عن الرسول جاء من عند الله ، وذلك لا يكون إلا حقاً ، وأما من كان إجماعهم على ما ابتدعه رأس من رؤوسهم فيجوز أن يكون إجماعهم خطأ إذ ليسوا هم المؤمنين ، ولا امة محمد ، وإنما هم فرقة منهم ، وإذا قيل المعتبر من أمة محمد بعلمائها قيل إذا اتفقت علماؤها على شيء فالباقون يسلمون لهم ما اتفقوا عليه لا ينازعونهم فيه ،

فصار هذا إجماعاً من المؤمنين ومن نازعهم بعلم فهذا لا يثبت الإجماع دونه كائناً من كان . وأما من ليس من أهل العلم فيما تكلموا فيه فذلك وجوده كعدمه .

وقول من قال : الإعتبار بالمجتهدين دون غيرهم . وأنه لا يعتبر بخلاف أهل الحديث . أو أهل الأصول ونحوهم كلام لا حقيقة له . فإن المجتهدين إن أريد بهم من له قدرة على معرفة جميع الأحكام بأدلتها . فليس في الأمة من هو كذلك . بل أفضل الأمة كان يتعلم ممن هو دونه شيئاً من السنة ليس عنده . وإن عنى به من يقدر على معرفة الإستدلال على الأحكام في الجملة . فهذا موجود في كثير من أهل الحديث والأصول والكلام . وإن كان بعض الفقهاء أمهر منهم بكثير من الفروع أو بأدلتها الخاصة أو بنقل الأقوال فيها . فقد يكون أمهر منه في معرفة أعيان الأدلة كالأحاديث . والفرق بين صحيحها وضعيفها ودلالات الألفاظ عليها . والتمييز بين ما هو دليل شرعي . وما ليس بدليل . وبالجملة العصمة إنما هي للمؤمنين لأمة محمد لا لبعضهم . لكن إذا اتفق علماؤهم على شيء فسائرهم موافقون للعلماء . وإذا تنازعوا ولو كان المنازع واحداً وجب رد ما تنازعوا فيه إلى الله والرسول .

وما أحد شذ بقول فاسد عن الجمهور إلا وفي الكتاب والسنة ما يبين فساد قوله ، وإن كان القائل كثيراً كقول سعيد في أن المطلقة ثلاثاً تباح بالعقد . فحديث عائشة في الصحيحين يدل على خلافه مع دلالة القرآن أيضاً وكذلك غيره .

وأما القول الذي يدل عليه الكتاب والسنة فلا يكون شاذاً وأن القائل به أقل من القائل بذاك القول . فلا عبرة بكثرة القائل باتفاق الناس. ولهذا كان السلف من الصحابة والتابعين لهم بإحسان يردون على من أخطأ بالكتاب والسنة ، لا يحتجون بالإجماع إلا علامة ، وقد يبعث معه نشابه أو سيفه أو شيئاً من السلاح المختص به أو يركبه دابته المختصة به ، ونحو ذلك مما

يعلم الناس أنه قصد به تخصيصه، وإن كانت تلك الأفعال يفعل مع أمثاله، وقد يفعل لغير الرسول ممن يقصد إكرامه وتشريفه ، لكن هي خارقة لعادته بمعنى أنه لم يعتد أن يفعل ذلك مع عموم الناس ولا يفعله إلا مع من ميزه بولاية أو رسالة أو وكالة ، والولاية والوكالة تتضمن الرسالة ، فكل من هؤلاء هو في معنى رسوله إلى من ولاه إني قد وليته، وإلى من أرسله بأني أرسلته . فهذه عادة معروفة في العلامات والدلائل التي يبين بها المرسل أن هذا رسولي . وجنس خرق العادة لا يستلزم الإكرام ، بل تخرق عادته بالإهانة تارة وبالإكرام أخرى فقد يخرج ويركب في وقت لم تجر عادته به بل لعقوبة قوم وآيات الرب تعالى قد تكون تخويفاً لعباده كما قال : (وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إلاَّ تَخْوِيفاً) (١) .

وقد يهلك بها كما أهلك أمماً مكذبين ، وإذا قص قصصهم قال : إن في ذلك لآيات ، وكان إهلاكهم خرقاً للعادة دل بها على أنه عاقبهم بذنوبهم وتكذيبهم للرسل، وأن ما فعلوه من الذنوب مما ينهي عنه ويعاقب فاعله بمثل تلك العقوبة ، فهذه خرق عادات لإهانة قوم وعقوبتهم لما فعلوه من الذنوب تجري مجرى قوله: عاقبتهم لأنهم كذبوا رسولي وعصوه، ولهذا يقول سبحانه كلما قص قصة من كذب رسله وعقوبته إياهم يقول : (فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرُ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا القُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ) (٢) كما يقول في موضع آخر : (إنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ وإن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ) (٣) و(إنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً ، وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ)(٤) و(تَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ العَذَابَ الأَلِيمَ) (٥) .

وإذا كانت تلك العلامات مما جرت عادته أنه يفعلها مع من أرسله ويهلك بها من كذب رسله ، كانت أبلغ في الدلالة ، وكانت معتادة في هذا النوع ، وهؤلاء تكلموا بلفظ لم يحققوا معناه وهو لفظة خرق العادة ،

---

١ ــ سورة الاسراء آية ٥٩ .
٢ ــ سورة القمر آية ١٦ ــ ١٧ .
٣ ــ سورة المؤمنون آية ٣٠ .
٤ ــ سورة الشعراء آية ٨ .
٥ ــ سورة الذاريات آية ٢٧ .

وقالوا العادات تنقسم إلى عامة وخاصة . فمنها ما يشترك فيه جميع الناس في جميع الأعصار كالأكل والشرب واتقاء الحر والبرد ، والخاص منها ما يكون كعادة للملائكة فقط ،أو للجن فقط ، أو للأنس دون غيرهم ، قالوا : ولهذا صح أن يكون لكل قبيل منهم ضرب من التحدي ، وخرق لما هو عادة لهم دون غيرهم وحجة عليهم دون ما سواهم .

ومنها ما يكون عادة لبعض البشر ، نحو اعتياد بعضهم صناعة أو تجارة ، أو رياضة في ركوب الخيل ، والعمل بالسلاح ، لكن هذه كلها مقدورات للبشر قالوا : وآية الرسل لا تكون مقدورة لمخلوق بل لا تكون إلا مما ينفرد الله بالقدرة عليه ، فإذا قالوا هذا ظن الظان أنهم اشترطوا أمراً عظيماً ، ولم يشترطوا شيئاً ، فإنهم قالوا في جنس الأفعال التي لا تقدر الناس إلا على اليسير منها ، كحمل الجبال ونقلها أن المعجزة هنا إقدارهم على الفعل لا نفس الفعل ، ورجحوا هذا على قول من يقول نفس الفعل آية لأن جنس الفعل مقدور ، وليس هذا بفرق طائل فإنه لا فرق بين تخصيصهم بالفعل أو بالقدرة عليه ، فإذا كان اقدارهم على الكثير الذي لم تجر به العادة معجزة ، كان نفس الكثير الذي لم تجر به العادة معجزة.

وهؤلاء عندهم أن قدرة العباد لا تؤثر في وجود شيء ولا يكون مقدورها إلا في محلها فهم في الحقيقة لم يثبتوا قدرة فكل ما في الوجود هو مقدور لله عندهم ، ولهذا عدل أبو المعالي ، ومن اتبعه كالرازي عن هذا الفرق فلم يشترطوا أن يكون مما ينفرد الرب بالقدرة عليه إذ كانت جميع الحوادث عندهم كذلك ، وقالوا : إن ما يحصل على يد الساحر والكاهن وعامل الطلسمات ، وعند الطبيعة الغريبة هو مما ينفرد الرب بالقدرة عليه ويكون آية للنبي وهذا معتاد لغير الأنبياء فلم يبق لقولهم خرق للعادة معنى معقول ، بل قالوا واللفظ للقاضي أبي بكر : الواجب على هذا الأصل أن يكون خرق العادة الذي يفعله الله مما يخرق جميع القبيل (١)

١ - القبيل معناه الجماعة ومنه قوله تعالى (او تاتي بالله والملائكة قبيلا) .

الذين تحداهم الرسول بمثله ويحتج به على نبوته فإن أرسل ملكاً إلى الملائكة أظهر على يده ما هو خرق لعادتهم ، وإن أرسل بشراً أرسله بما يخرق عادة البشر ، وإن أرسل جنياً أظهر على يديه ما هو خارق لعادة الجن ، فيقال : السحر والكهانة معتاد للبشر ، وأنتم تقولون يجوز أن يكون ما يأتي بــه الساحر والكاهن آية بشرط أن لا يمكن معارضته ، فلم يبق لكونه خارقاً للعادة معنى يعقل عندكم ؟ لهذا قال محققوهم أنه لا يشترط في الآيات أن تكون خارقة للعادة كما قد حكينا لفظهم في غير هذا الموضع كما تقدم. وإنما الشرط أنها لا تعارض وأن تقترن بدعوى النبوة. هذان الشرطان هما المعتبران ، وقد بينا في غير موضع أن كلاً من الشرطين باطل .

والأول [1] يقتضي أن يكون المدلول عليه جزءاً من الدليل ، وآيات النبوة أنواع متعددة ، منها ما يكون قبل وجوده ، ومنها ما يكون بعد موته ، ومنها ما يكون في غيبته . والمقصود هنا كان هو الكلام على المثال الذي ذكروه ، وأن ما ضرب من الأمثلة على الوجه الصحيح فإنه ولله الحمد يدل على صدق الرسول ، وعلى فساد أصولهم ، ولكن هم ضربوا مثالاً إذا اعتبر على الوجه الصحيح كان حجة ، ولله الحمد على صدق النبي وعلى فساد ما ذكروه في المعجزات حيث قالوا : هي الفعل الخارق للعادة المقترن بدعوى النبوة والإستدلال به وتحدي النبي من دعاهم أن يأتوا بمثله وشرط بعضهم أن يكون مما ينفرد الرب بالقدرة عليه ، وهذه الأربعة هي التي شرط القاضي أبو بكر ومن سلك مسلكه كابن اللبان وابن شاذان والقاضي أبي يعلى وغيرهم أن يكون مما ينفرد الرب بالقدرة عليه على أحد القولين ، أو منه ومن الجنس الآخر ، إذا وقع على وجه يخرق العادة ، وطريق متعذر على غيرهم مثله على القول الآخر قالوا : وهذا لفظ القاضي أبي بكر .

---

١ ــ لعله (والثاني) بل هو المتعين .

والثاني : أن يكون ذلك الشيء الذي يظهر على أيديهم مما يخرق العادة وينقضها ومتى لم يكن كذلك لم يكن معجزاً ؟

والثالث : أن يكون غير النبي ممنوعاً من إظهار ذلك على يده على الوجه الذي ظهر عليه ودعا إلى معارضته مع كونه خارقاً للعادة .

والرابع : أن يكون واقعاً مفعولاً عند تحدي الرسول بمثله وادعائه آية لنبوته وتقريعه بالعجز عنه من خالفه وكذبه قالوا : فهذه هي الشرائط والأوصاف التي تختص بها المعجزات .

فيقال لهم : الشرط الأول قد عرف أنه لا حقيقة له ، ولهذا أعرض عنه أكثرهم .

والثاني أيضاً لا حقيقة له فإنهم لم يميزوا ما يخرق العادة مما لا يخرقها ، ولهذا ذهب من ذهب من محققيهم إلى إلغاء هذا الشرط ، فهم لا يعتبرون خرق عادة جميع البشر ، بل ما اعتاده السحرة والكهان وأهل الطلاسم عندهم ، يجوز أن يكون آية إذا لم يعارض . وما اعتاده أهل صناعة أو علم أو شجاعة ليس هو عندهم آية وإن لم يعارض فالأمور العجيبة التي خص الله بالأقدار عليها بعض الناس لم يجعلوها خرق عادة والأمور المحرمة أو هي كفر كالسحر والكهانة والطلسمات جعلوها خرق عادة ، وجعلوها آية بشرط أن لا يعارض وهو الشرط الثالث ، وهو في الحقيقة خاصة المعجزة عندهم ، لكن كون غير الرسول ممنوعاً منه إن اعتبروا أنه ممنوع مطلقاً ، فهذا لا يعلم وإن اعتبروا أنه ممنوع من المرسل اليهم فهذا لا يكفي بل يمكن كل ساحر وكاهن أن يدعي النبوة ويقول أني كذا .

قالوا : لو فعل هذا لكان الله يمنعه فعل ذلك أو يقيض له من يعارضه ، قلنا من أين لكم ذلك ومن أين يعلم الناس ذلك ويعلمون أن كل كاذب فلا بد أن يمنع من فعل الأمر الذي اعتاده هو وغيره قبل ذلك أو أن يعارض ، والواقع خلاف ذلك فما أكثر من ادعى النبوة أو الاستغناء عن

الأنبياء وأن طريقه فوق طريق الأنبياء ، وأن الرب يخاطبه بلا رسالة وأتى بخوارق من جنس ما تأتي السحرة والكهان ، ولم يكن فيمن دعاه من يعارضه ؟

وأما الرابع وهو أن يكون عند تحدي الرسول فيه يحترزون عن الكرامات وهو شرط باطل ، بل آيات الأنبياء آيات ، وإن لم ينطقوا بالتحدي بالمثل ، وهي دلائل على النبوة وصدق المخبر بها ، والدليل مغاير للمداول عليه ليس المدلول عليه جزءاً من الدليل ، لكن إذا قالوا الدليل هو دعاء الرسول لزمه أن يريهم آية ، وخلق تلك الآية عقب سؤاله ، وان كان ذلك قد يخلقه بغير سؤاله لحكمة أخرى ، فهذا متوجه ، فالدليل هو مجموع طلب العلامة مع فعل ما جعله علامة ، كما أن العباد إذا دعوا الله فأجابهم كان ما فعله إجابة لدعائهم ، ودليلاً على أن الله سمع دعاءهم وأجابهم ، كما أنهم إذا استسقوه فسقاهم واستنصروه فنصرهم ، وإن كان قد يفعل ذلك بلا دعاء فلا يكون هناك دليل على إجابة دعاء ، فهو دليل على إجابة الدعاء إذا وقع عقب الدعاء ، ولا يكون دليلاً إذا وقع على غير هذا الوجه ، وكذلك الرسول إذا قال لمرسله أعطني علامة فأعطاه ما شرفه به كان دليلاً على رسالته .

وإن كان قد يفعل ذلك لحكمة أخرى لكن فعل ذلك عقب سؤاله آية لنبوته هو الذي يختص به ، وكذلك إذا علم أنه فعله إكراماً له مع دعواه النبوة علم أنه قد أكرمه بما يكرم به الصادقين عليه فعلم أنه صادق ، لأن ما فعله به مختص بالصادقين الأبرار دون الكاذبين عليه الفجار ، وعلى هذا فكرامات الأولياء هي من آيات الأنبياء ، فإنها مختصة بمن شهد لهم بالرسالة ، وكل ما استلزم صدق الشهادة بنبوتهم ، فهو دليل على صدق هذه الشهادة سواء كان الشاهد بنبوتهم المخبر بها هم أو غيرهم ، بل غيرهم إذا أخبر بنبوتهم ، وأظهر الله على يديه ما يدل على صدق هذا

الخبر كان هذا أبلغ في الدلالة على صدقهم من أن يظهر على أيديهم ، فقد تبين أنه ليس من شرط دلائل النبوة لاقترانه بدعوى النبوة ، ولا الاحتجاج به ولا التحدي بالمثل ولا تقريع من يخالفه ، بل كل هـذه الأمور قد تقع في بعض الآيات ، لكن لا يجب أن ما لا يقع معه لا يكون آية بل هذا إبطال لأكثر آيات الأنبياء لخلوها عن هذا الشرط ، ثم هو شرط بلا حجة ، فإن الدليل على المدلول عليه هو ما استلزم وجوده ، وهذا لا يكون إلا عند عدم المعارض المساوي أو الراجح ، وما كان كذلك فهو دليل سواء قال المستدل به ائتوا بمثله وأنتم لا تقدرون على الإتيان بمثله ، وقرعهم وعجزهم أو لم يقل ذلك .

فهو إذا كان في نفسه مما لا يقدرون على الإتيان بمثله سواء ذكر المستدل هذا أو لم يذكره لا بذكره يصير دليلاً ، ولا بعدم ذكره تنتفي دلالته ، وهؤلاء قالوا ، لا يكون دليلاً إلا إذا ذكره المستدل ، وهذا باطل ، وكذلك الدليل هو دليل سواء استدل به مستدل ، أو لم يستدل ، وهؤلاء قالوا لا يكون دليل النبوة دليلاً إلا إذا استدل به النبي حين ادعى النبوة ، فجعل نفس دعواه واستدلاله والمطالبة بالمعارضة وتقريعهم بالعجز عنها كلها جزءاً من الدليل ، وهذا غلط عظيم ، بل السكوت عن هذه الأمور أبلغ في الدلالة والنطق بها لا يقوى الدليل ، والله تعالى لم يقل فليأتوا بحديث مثله إلا حين قالوا : افتراه لم يجعل هذا القول شرطاً في الدليل ، بل نفس عجزهم عن المعارضة هو من تمام الدليل ، وهم إنما شرطوا ذلك لأن كرامات الأولياء عندهم متى اقترن بها دعوى النبوة ، كانت آية للنبوة ، وجنس السحر والكهانة متى اقترن به دعوى النبوة كان دليلاً على النبوة عندهم لكن قالوا : الساحر والكاهن لو ادعى النبوة لكان يمتنع من ذلك ، أو يعارض بمثله ، وأما الصالح فلا يدعي ، فكان أصلهم أن ما يأتي به النبي والساحر والكاهن والولي من جنس واحد لا

يتميز بعضه عن بعض بوصف، لكن خاصة النبي اقتران الدعوى والاستدلال والتحدي بالمثل بما يأتي به، فلم يجعلوا لآيات الأنبياء خاصة تتميز بها عن السحر والكهانة وعما يكون لآحاد المؤمنين، ولم يجعلوا للنبي مزية على عموم المؤمنين، ولا على السحرة والكهان من جهة الآيات التي يدل الله بها العباد على صدقه.

وهذا افتراء عظيم على الأنبياء وعلى آياتهم، وتسوية بين أفضل الخلق وشرار الخلق، بل تسوية بين ما يدل على النبوة، وما يدل على نقيضها، فإن ما يأتي به السحرة والكهان لا يكون إلا لكذاب فاجر عدو لله، فهو مناقض للنبوة، فلم يفرقوا بين ما يدل على النبوة وعلى نقيضها، وبين ما لا يدل عليها، ولا على نقيضها، فإن آيات الأنبياء تدل على النبوة، وعجائب السحرة والكهان، تدل على نقيض النبوة، وإن صاحبها ليس ببر، ولا عدل، ولا ولي لله فضلاً عن أن يكون نبياً، بل يمتنع أن يكون الساحر والكاهن نبياً بل هو من أعداء الله، والأنبياء أفضل خلق الله، وإيمان المؤمنين وصلاحهم لا يناقض النبوة ولا يستلزمها، فهؤلاء سووا بين الأجناس الثلاثة فكانوا بمنزلة من سوى بين عبادة الرحمن وعبادة الشيطان والأوثان.

فإن الكهان والسحرة يأمرون بالشرك وعبادة الأوثان وما فيه طاعة للشيطان، والأنبياء لا يأمرون إلا بعبادة الله وحده، وينهون عن عبادة ما سوى الله، وطاعة الشياطين، فسوى هؤلاء بين هذا وهذا ولم يبق الفرق إلا مجرد تلفظ المدعي بأني نبي فإن تلفظ به كان نبياً، وإن لم يتلفظ به لم يكن نبياً، فالكذاب المتنبي إذا أتى بما يأتي الساحر والكاهن، وقال أنا نبي كان نبياً، وقولهم أنه إذا فعل ذلك منع منه وعورض دعوى مجردة، فهي لا تقبل لو لم يعلم بطلانها فكيف، وقد علم بطلانها وأن كثيراً ادعوا ذلك ولم يعارضهم ممن دعوه أحد ولا منعوا من ذلك،

فلزم على قول هؤلاء التسوية بين النبي الصادق والمتنبي الكاذب وقد قال تعالى : (فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ عَلَى اللهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ)[1] .

ولم يفرق هؤلاء بين هؤلاء وهؤلاء ، ولا بين آيات هؤلاء وآيات هؤلاء ، وقال تعالى : (وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُوراً وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيراً وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللهُ وَلَوْ تَرَى الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ)[2]

فنسأل الله العظيم أن يهدينا إلى صراط المستقيم ، صراط الذين أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين الذين عبدوه وحده لا شريك له وآمنوا بما أرسل به رسله ، وبما جاءوا به من الآيات وفرق بين الحق

---

١ ــ سورة الانعام آية ١٥٧ .

٢ ــ سورة الانعام آية ٩١ ــ ٩٤ .

والباطل ، والهدى والضلال والغي والرشاد ، وطريق أولياء الله المتقين وأعداء الله الضالين ، والمغضوب عليهم ، فكان ممن صدق الرسل فيما أخبروا به وأطاعهم فيما أمروا به ولا حول ولا قوة إلا بالله .

وهؤلاء يجوزون أن يأمر الله بكل شيء ، وأن ينهى عن كل شيء فلا يبقى عندهم فرق بين النبي الصادق والمتنبي الكاذب ، لا من جهة نفسه فإنهم لا يشترطون فيه إلا مجرد كونه في الباطن مقراً بالصانع ، وهذا موجود في عامة الخلق ، ولا من جهة آياته ولا من جهة ما يأمر به ، والفلاسفة من هذا الوجه أجود قولاً في الأنبياء ، فإنهم يشترطون في النبي اختصاصه بالعلم من غير تعلم وبالقدرة على التأثير الغريب والتخييل ، ويفرق بين الساحر والنبي بأن النبي يقصد العدل ، ويأمر به بخلاف الساحر .

ولهذا عدل الغزالي في النبوة عن طريق أولئك المتكلمين إلى طريق الفلاسفة فاستدل بما يفعله ويأمر به على نبوته وهي طريق صحيحة ، لكن إنما أثبت بها نبوة مثل نبوة الفلاسفة ، وأولئك خير من الفلاسفة من جهة أنهم لما أقروا بنبوة محمد صدقوه فيما أخبر به من أمور الأنبياء وغيرهم ، وكان عندهم معصوماً من الكذب فيما يبلغه عن الله فانتفعوا بالشرع والسمعيات ، وبها صار فيهم من الاسلام ما تميزوا به على أولئك ، فإن أولئك لا ينتفعون بأخبار الأنبياء إذ كانوا عندهم يخاطبون الجمهور بالتخييل ، فهم يكذبون عندهم للمصلحة .

ولكن آخرون سلكوا مسلك التأويل ، وقالوا : أنهم لا يكذبون ، ولكن أسرفوا فيه . ففي الجملة ظهور الفلاسفة والملاحدة والباطنية على هؤلاء تارة ومقاومتهم لهم تارة ، لا بد له من أسباب في حكمة الرب وعدله ، ومن أعظم أسبابه تفريط أولئك وجهلهم بما جاء به الأنبياء ، فالنبوة التي ينتسبون إلى نصرها لم يعرفوها ، ولم يعرفوا دليلها ، ولا قدروها قدرها ، وهذا يظهر من جهات متعددة ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

فصل

القرآن الكريم مصدر الدين

قد ذكرنا في غير موضع أن أصول الدين الذي بعث الله به رسوله محمداً ﷺ قد بينها الله في القرآن أحسن بيان ، وبين دلائل الربوبية والوحدانية ، ودلائل أسماء الرب وصفاته وبين دلائل نبوة أنبيائه ، وبين المعاد بين إمكانه وقدرته عليه في غير موضع ، وبين وقوعه بالأدلة السمعية والعقلية ، فكان في بيان الله أصول الدين الحق وهو دين الله وهي أصول ثابتة صحيحة معلومة فتضمن بيان العلم النافع ، والعمل الصالح الهدى ، ودين الحق . وأهل البدع الذين ابتدعوا أصول دين يخالف ذلك ليس فيما ابتدعوه لا هدى ولا دين حق ، فابتدعوا ما زعموا أنه أدلة وبراهين على إثبات الصانع وصدق الرسول ، وإمكان المعاد أو وقوعه ، وفيما ابتدعوه ما خالفوا به الشرع وكل ما خالفوه من الشرع فقد خالفوا فيه العقل أيضاً ، فإن الذي بعث الله به محمداً وغيره من الانبياء هو حق وصدق ، وتدل عليه الأدلة العقلية ، فهو ثابت بالسمع والعقل . والذين خالفوا الرسل ليس معهم لا سمع ولا عقل ، كما أخبر الله تعالى عنهم بقوله : (كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ، وَقَالُوا لَو كُنَّا نَسْمَعُ

أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقاً لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ) (١) .

وقال تعالى لمكذبي الرسل : (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَو آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ)(٢) . ذكر ذلك بعد قوله : (وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ، ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ)(٣) . ثم قال : (أفلم يسيروا في الأرض) الآية. ثم قال : (وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ، ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ)(٤) . فذكر إهلاك من أهلك وإملاءه لمن أملى لئلا يغتر المغتر فيقول نحن لم يهلكنا وقد بسط هذا في غير هذا الموضع .

والمقصود هنا أن ما جاء به الرسول يدل عليه السمع والعقل ، وهو حق في نفسه كالحكم الذي يحكم به ، فإنه يحكم بالعدل وهو الشرع فالعدل هو الشرع ، والشرع هو العدل ، ولهذا يأمر نبيه أن يحكم بالقسط وأن يحكم بما أنزل الله ، والذي أنزل الله هو القسط ، والقسط هو الذي أنزل الله ، وكذلك الحق والصدق هو ما أخبرت به الرسل ، وما أخبرت به فهو الحق والصدق ، والسلف والأئمة ذموا أهل الكلام المبتدعين الذين خالفوا

---

١ ـ سورة الملك آية ٨ ـ ٩ .
٢ ـ سورة الحج آية ٤٦ .
٣ ـ سورة الحج آية ٤١ ـ ٤٥ .
٤ ـ سورة الحج آية ٤٨ .

الكتاب والسنة ، ومن خالف الكتاب والسنة لم يكن كلامه إلا باطلاً ، فالكلام الذي ذمه السلف يذم لأنه باطل ، ولأنه يخالف الشرع ، ولكن لفظ الكلام لما كان مجملاً لم يعرف كثير من الناس الفرق بين الكلام الذي ذموه وغيره ، فمن الناس من يظن أنهم إنما أنكروا كلام القدرية فقط كما ذكره البيهقي ، وابن عساكر في تفسير كلام الشافعي ونحوه ليخرجوا أصحابهم عن الذم ، وليس كذلك بل الشافعي أنكر كلام الجهمية كلام حفص الفرد وأمثاله .

وهؤلاء كانت منازعتهم في الصفات والقرآن والرؤية لا في القدر ، وكذلك أحمد بن حنبل خصومه من أهل الكلام هم الجهمية الذين ناظروه في القرآن مثل أبي عيسى محمد بن عيسى برغوث صاحب حسين النجار وأمثاله ، ولم يكونوا قدرية ولا كان النزاع في مسائل القدر ، ولهذا يصرح أحمد وأمثاله من السلف بذم الجهمية ، بل يكفرونهم أعظم من سائر الطوائف .

وقال عبدالله بن المبارك ويوسف بن إسباط وغيرهما : أصول أهل الأهواء أربع : الشيعة ، والخوارج ، والمرجئة ، والقدرية ، فقيل لهم الجهمية ، فقالوا : الجهمية ليسوا من أمة محمد ، ولهذا ذكر أبو عبدالله ابن حامد عن أصحاب أحمد في الجهمية ، هل هم من الثنتين وسبعين فرقة؟ وجهين ، أحدهما أنهم ليسوا منهم لخروجهم عن الإسلام ، وطائفة تظن أن الكلام الذي ذمه السلف هو مطلق النظر والاحتجاج والمناظرة ، ويزعم من يزعم من هؤلاء أن قوله : (وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الكِتَابِ إلاَّ بالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)(1) . و (جَادِلْهُم بالَّتِي هي أَحْسَنُ)(2) . منسوخ بآية السيف ، وهؤلاء أيضاً غالطون ، فإن الله تعالى قد أخبر عن

---

١ ــ سورة العنكبوت آية ٤٦ . ٢ ــ سورة النحل آية ١٢٥ .

قوم نوح وإبراهيم بمجادلتهم للكفار حتى : (قَالُوا يَا نُوحُ قد جَادَلْتَنَا فأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا)[1] .

وقال عن قوم إبراهيم: (وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ) إلى قوله : (وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ)[2]. وذكر محاجة إبراهيم للكافر .والقرآن فيه من مناظرة الكفار والإحتجاج عليهم ما فيه من شفاء وكفاية[3] وقوله تعالى : (وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الكِتَابِ إِلاَّ بالتي هي أَحْسَنُ إِلاَّ الذين ظَلَمُوا مِنْهُمْ)[4] وقوله : (وَجَادِلْهم بالتي هي أَحْسَنُ)[5] .

ليس في القرآن ما ينسخهما ولكن بعض الناس يظن أن من المجادلة ترك الجهاد بالسيف، وكل ما كان متضمناً لترك الجهاد المأمور به فهو منسوخ بآيات السيف.والجهاد والمجادلة قد تكون مع أهل الذمة والهدنة والأمان ، ومن لا يجوز قتاله بالسيف.وقد تكون في ابتداء الدعوة كما كان النبي ﷺ يجاهد الكفار بالقرآن ، وقد تكون لبيان الحق وشفاء القلوب من الشبه مع من يطلب الاستهداء والبيان،وبسط هذا له موضع آخر .

والمقصود هنا أن المبتدعين الذين ابتدعوا كلاماً وأصولاً تخالف الكتاب وهي أيضاً مخالفة للميزان وهو العدل فهي مخالفة للسمع والعقل كما ابتدعوا في إثبات الصانع إثباتـه بحدوث الأجسام وأثبتوا حدوث الاجسام بأنها مستلزمة للأعراض لا تنفك عنها قالوا : وما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث لامتناع حوادث لا أول لها ، فهؤلاء إذا حقق عليهم

---

١ ــ سورة هود آية ٣٢ .   ٢ ــ سورة الانعام آية ٨٣ .
٣ ــ وقد نشرنا رسالة للامام ابن الحنبلي سماها استخراج الجدال من القرآن الحكيم ضمن الجزء الثالث في مجموعة الرسائل المنيرية فعليك بها فانها مفيدة جدا .
٤ ــ سورة العنكبوت آية ٤٦ .   ٥ ــ سورة النحل آية ١٢٥ .

ما قالوه لم يوجدوا قد أثبتوا العلم بالصانع ولا أثبتوا النبوة ولا أثبتوا المعاد ، وهذه هي أصول الدين والإيمان بل كلامهم في الخلق والبعث المبدأ والمعاد وفي إثبات الصانع ليس فيه تحقيق العلم لا عقلاً ولا نقلاً ، وهم معترفون بذلك كما قال الرازي : لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيتها تشفي عليلاً ، ولا تروي غليلاً ، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن اقرأ في النفي: (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ)، و(وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً) واقرأ في الإثبات (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى)، (إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ) ، (أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ)[1] .

ثم قال : ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي ، وكذلك الغزالي وابن عقيل وغيرهما يقولون ما يشبه هذا ، وهو كما قالوا فإن الرازي قد جمع ما جمعه من طرق المتكلمين والفلاسفة ، ومع هذا فليس في كتبه إثبات الصانع كما قد بسط هذا في غير هذا الموضع وبين جميع ما ذكره في إثبات الصانع ، وأنه ليس فيه ذلك ، وليس فيه أيضاً إثبات النبوة فإن النبوة مبناها على أن الله قادر ، وأنه يحدث الآيات لتصدق بها الرسل ، وليس في كتبه إثبات أن الله قادر ولا مريد ، بل كلامه فيه تقرير حجج من نفى قدرته وإرادته دون الجانب الآخر ، كما قد بينا ذلك في الكلام على ما ذكره في مسألة القدرة والإرادة مع أنه ولله الحمد الأدلة الدالة على إثبات الصانع وإثبات قدرته ومشيئته تفوق الاحصاء ، لكن من لم يجعل الله له نوراً فما له من نور .

وسبب ذلك إعراضهم عن الفطرة العقلية والشرعة النبوية بما ابتدعه المبتدعون مما أفسدوا به الفطرة والشرعة ، فصاروا يسفسطون في العقليات ويقرمطون في السمعيات كما قد بين هذا في مواضع ، وأيضاً فإذا عرف

---

١ ــ وردت هذه الآيات اكثر من مرة سابقا .

أن الله قادر كما قد عرفه غيره ، فليس عنده في النبوة إلا طريق أصحابه الأشعرية الذين سلكوا مسلك الجهمية في أفعال الله تعالى ، أو طريق الفلاسفة . ولهذا يقول من يقول من علماء الزيدية ، وهم يميلون إلى الإعتزال مع تشيع الزيدية يقولون نحن لا نتكلم في الشافعي فإنه إمام ، لكن هؤلاء صاروا جهمية يعني القدر فلاسفة والشافعي لم يكن جهمياً ولا فيلسوفاً .

وهؤلاء لم يعرفوا آيات الانبياء والفرق بينها وبين غيرها لكن ادعوا أن ما يأتي به الكهان والسحرة وغيرهم قد يكون من آيات الانبياء ، لكن بشرط أن لا يقدر أحد من المرسل إليهم على معارضته ، وهذه خاصة المعجز عندهم ، وهذا فاسد من وجوه كثيرة كما قد بسط في غير هذا الموضع ، وأما كلامه في المعاد فأبعد من هذا ،وهذا كما قد بين أيضاً، وكذلك كلام من تقدمه من الجهمية وأتباعهم من الأشعرية وغيرهم ، ومن المعتزلة ،فإنك لا تجد في كلامهم الذي ابتدعوه لا إثبات الربوبية ولا النبوة ولا المعاد،والأشعري نفسه وأتباعه ، ليس في كتبهم إثبات الربوبية ولا المعاد،وكذلك من سلك سبيلهم في أدلتهم من أتباع الفقهاء كالقاضي أبي يعلى وابن عقيل وابن الزاغوني وغيرهم والمعتزلة كذلك أيضاً ، وكذلك الكرامية ، وقد تأملت كلام أئمة هؤلاء الطوائف كأبي الحسن البصري ونحوه من المعتزلة ، وكابن الهيضم من الكرامية ، وكأبي الحسن نفسه والقاضي أبي بكر وأبي المعالي الجويني وأبي إسحاق الاسفرايني وأبي بكر بن فورك وأبي القاسم القشيري وأبي الحسن التميمي والقاضي أبي يعلى وابن عقيل وابن الزاغوني غفر الله لهم ورحمهم أجمعين .

وتأملت ما وجدته في الصفات من المقالات مثل كتاب الملل والنحل للشهرستاني . وكتاب مقالات الإسلاميين للأشعري ، وهو أجمع كتاب رأيته في هذا الفن ، وقد ذكر فيه ما ذكر أنه مقالة أهل السنة والحديث

وأنه يختارها ،وهي أقرب ما ذكره من المقالات إلى السنة والحديث ، لكن فيه أمور لم يقلها أحد من أهل السنة والحديث ونفس مقالة أهل السنة والحديث لم يكن يعرفها ، ولا هو خبير بها ، فالكتب المصنفة في مقالات الطوائف التي صنفها هؤلاء ليس فيها ما جاء به الرسول وما دل عليه القرآن ، لا في المقالات المجردة ، ولا في المقالات التي يذكر فيها الأدلة فإن جميع هؤلاء دخلوا في الكلام المذموم الذي عابه السلف وذموه .

ولكن بعضهم أقرب إلى السنة من بعض ، وقد يكون هذا أقرب في بعض ، وهذا أقرب في مواضع ، وهذا لكون أصل اعتمادهم لم يكن على القرآن ، والحديث بخلاف الفقهاء فإنهم في كثير مما يقولونه إنما يعتمدون على القرآن والحديث ، فلهذا كانوا أكثر متابعة. لكن ما تكلم فيه أولئك أجل ، ولهذا يعظمون من وجه ويذمون من وجه . فإن لهم حسنات وفضائل وسعياً مشكوراً وخطأهم بعد الإجتهاد مغفور ، والأشعري أعلم بمقالات المختلفين من الشهرستاني ، ولهذا ذكر عشر طوائف وذكر مقالات لم يذكرها الشهرستاني وهو أعلم بمقالات أهل السنة ، وأقرب إليها وأوسع علماً من الشهرستاني ،والشهرستاني أعلم باختلاف المختلفين ، ومقالاتهم من الغزالي ، ولهذا ذكر لهم في القرآن أربع مقالات وعدد طوائف من أهل القبلة والغزالي حصر أهل العلم الإلهي في أربعة أصناف في الفلاسفة والباطنية والمتكلمين والصوفية . فلم يعرف مقالات أهل الحديث والسنة ولا مقالات الفقهاء ولا مقالات أئمةالصوفية ، ولكن ذكر عنهم العمل وذكر عن بعضهم اعتقاداً يخالفهم فيه أئمتهم والقشيري أعلم بأقوال الصوفية ، ومع هذا لم يذكر أقوال أئمتهم ،وأبو طالب أعلم منهما بأقوال الصوفية ، ومع هذا فلم يعرف مقالة الأكابر كالفضيل بن عياض ونحوه وأبو الوليد ابن رشد الحفيد حصر أهل العلم الإلهي في ثلاثة : في الحشوية ، والباطنية ، والأشعرية . والباطنية عنده

يدخل فيهم باطنية الصوفية ، وباطنية الفلاسفة . ومن هنا دخل ابن سبعين وابن عربي فأخذوا مذاهب الفلاسفة ، وأدخلوها في التصوف ، وأبو حامد يدخل في بعض هذا فإن إبن سينا تكلم في مقالات العارفين بتصوف فاسد ، ثم أن هؤلاء مع هذا لما لم يجدوا الصحابة والتابعين تكلموا بمثل كلامهم بل ولا نقل ذلك عن النبي ﷺ صار منهم من يقول : كانوا مشغولين بالجهاد عن هذا الباب ، وأنهم هم حققوا ما لم يحققه الصحابة ويقولون أيضاً ان الرسول لم يعلمهم هذا لئلا يشتغلوا به عن الجهاد ، فإنه كان محتاجاً إليهم في الجهاد ، وهكذا يقول من يقول من مبتدعة أهل الزهد والتصوف إذا دخلوا في عبادات منهي عنها ومذمومة في الشرع ، قالوا كان الصحابة مشغولين عنها بالجهاد وكان النبي ﷺ يخاف أن يشتغلوا بها عن الجهاد وأهل السيف قد يظن من يظن منهم أن لهم من الجهاد وقتال الأعداء ما لم يكن مثله للصحابة ، وأن الصحابة كانوا مشغولين بالعلم والعبادة عن مثل جهادهم .

ومن أهل الكلام من يقول : بل الصحابة كانوا على عقائدهم وأصولهم ، لكن لم يتكلموا بذلك لعدم حاجتهم إليه فهؤلاء جمعوا بين أمرين بين أن ابتدعوا أقوالاً باطلة ظنوا أنها هي أصول الدين ، لا يكون عالماً بالدين إلا مَنْ وافقهم عليها ،وأنهم علموا وبينوا من الحق ما لم يبينه الرسول والصحابة ، وإذا تدبر الخبير حقيقة ما هم عليه تبين له أنه ليس عند القوم فيما ابتدعوه لا علم ولا دين ولا شرع ، ولا عقل . وآخرون لما رأوا ابتداع هؤلاء وأن الصحابة والتابعين لم يكونوا يقولون مثل قولهم ظنوا أنهم كانوا كالعامة الذين لا يعرفون الأدلة والحجج وأنهم كانوا لا يفهمون ما في القرآن مما تشابه على من تشابه عليه ، وتوهموا أنه إذا كان الوقف على قوله : (وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ)[1] .

١ ـ سورة آل عمران آية ٧ .

كان المراد أنه لا يفهم معناه إلا الله لا الرسول ولا الصحابة . فصاروا ينسبون الصحابة ، بل والرسول إلى عدم العلم بالسمع والعقل . وجعلوهم مثل أنفسهم لا يسمعون ولا يعقلون ، وظنوا أن هذه طريقة السلف . وهي الجهل البسيط التي لا يعقل صاحبها ولا يسمع ، وهذا وصف أهل النار لا وصف أفضل الخلق بعد الأنبياء .

قال ابن مسعود رضي الله عنه : من كان منكم مستناً فليستن بمن قد مات ، فإن الحي لا يؤمن عليه الفتنة أولئك أصحاب محمد أبر هذه الأمـــة قلوباً ، وأعمقها علماً ، وأقلها تكلفاً ، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه ، وإقامة دينه ، فاعرفوا لهم حقهم ، وتمسكوا بهديهم فإنهم كانوا على الهدى المستقيم .

وقال أيضاً : إن الله نظر في قلوب العباد فوجد قلب محمد خير قلوب العباد فاصطفاه لنفسه وابتعثه برسالته ، ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد ، فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد بعد قلبه فجعلهم وزراء نبيه يقاتلون على دينه ، فما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن ، وما رآه المسلمون قبيحاً فهو عند الله قبيح .

وقد ثبت في الصحيحين من غير وجه عن النبي ﷺ أنه قال : « خَيْرُ القُرُونِ القَرن الذي بُعِثْتُ فيهم ثُمَّ الذينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الذينَ يَلُونَهُمْ » . وقد قال تعالى : (وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ المُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ)[1] . فرضي عن السابقين مطلقاً ، ورضي عمن اتبعهم بإحسان ، وذلك متناول لكل من اتبعهم إلى يوم القيامة ، كما ذكر ذلك أهل العلم .

قال ابن أبي حاتم : قرىء على يونس بن عبد الأعلى أن ابن وهب

---

١ - سورة التوبة آية ١٠١ .

حدثني عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله : (وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ) قال من بقي من أهل الإسلام إلى أن تقوم الساعة. وبسط هذا له موضع آخر .

والمقصود هنا أن الهدى والبيان والأدلة والبراهين في القرآن ، فإن الله تعالى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق وأرسله بالآيات البينات . وهي الأدلة البينة الدالة على الحق، وكذلك سائر الرسل. ومن الممتنع أن يرسل الله رسولاً يأمر الناس بتصديقه ، ولا يكون هناك ما يعرفون به صدقه ، وكذلك من قال إني رسول الله فمن الممتنع أن يجعل مجرد الخبر المحتمل للصدق والكذب دليلاً له، وحجة على الناس، هذا لا يظن بأجهل الخلق فكيف بأفضل الناس ، وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال : « مَا مِن نَبِيٍّ مِنَ الأنبياء إلاَّ وَقَدْ أُوتي مِنَ الآيَاتِ مَا آمَنَ عَلَى مِثْلِه البَشَر ، وإنَّمَا كَانَ الَّذي أُوتِيتُهُ وَحْياً أَوحَاهُ اللهُ إليَّ فَأَرْجُو أنْ أكُونَ أكثَرَهم تَابِعاً يَومَ القِيَامَةِ » قال تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ البَيِّنَاتِ والهدى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاه للناسِ في الكتابِ أولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُونَ)[1] . فالبينات جمع بينة وهي الأدلة والبراهين التي هي بينة في نفسها وبها يتبين غيرها ، يقال بين الأمر أي تبين في نفسه ، ويقال بين غيره ، فالبين إسم لما ظهر في نفسه ولما أظهر غيره وكذلك المبين كقوله فاحشة مبينة ، أي متبينة فهذا شأن الأدلة ، فإن مقدماتها تكون معلومة بنفسها كالمقدمات الحسية والبديهية ، وبها يتبين غيرها فيستدل على الخفي بالجلي ، والهدى مصدر هداه هدى ، والهدى هو بيان ما ينتفع به الناس ويحتاجون إليه وهو ضد الضلالة ، فالضال يضل عن مقصوده وطريق مقصوده ، وهو سبحانه بين في كتبه ما يهدي الناس

---

١ - سورة البقرة آية ١٥٩ .

فعرفهم ما يقصدون وما يسلكون من الطرق ، عرفهم أن الله هـو المقصود المعبود وحده ، وأنه لا يجوز عبادة غيره ، وعرفهم الطريق وهو ما يعبدونه به ففي الهدى بيان المعبود وما يعبد به ، والبينات فيها بيان الأدلة والبراهين على ذلك . فليس ما يخبر به ويأمر به من الهدى قولاً مجرداً عن دليله ليؤخذ تقليداً واتباعاً للظن ، بل هو مبين بالآيات البينات وهي الأدلة اليقينية والبراهين القطعية ، وكان عند أهل الكتاب من البينات الدالة على نبوة محمد وصحة ما جاء به أمور متعددة لبشارات كتبهم ، وغير ذلك.فكانوا يكتمونه قال تعالى : (ومَنْ أظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شهادَةً عندهُ مِنَ الله فإنّهُ كانَ عندهم شهادةٌ مِنَ اللهِ تشْهَدُ بما جاءَ بهِ محمّدٌ وبمثْلهِ فكتَموها)[1] .

وقال تعالى : (شَهْرُ رمضانَ الّذي أنزلَ فيهِ القرآنُ هُدًى للناسِ وبيّناتٍ مِنَ الهُدى والفُرقان)[2] فأنزله هادياً للناس ، وبينات من الهدى والفرقان ، فهو يهدي الناس إلى صراط مستقيم يهديهم إلى صراط العزيز الحميد الذي له ما في السموات وما في الأرض بما فيه من الخبر والأمر ، وهو بينات دلالات وبراهين من الهدى من الأدلة الهادية المبينة للحق ، ومن الفرقان المفرق بين الحق والباطل والخير والشر والصدق والكذب ، والمأمور والمحظور والحلال والحرام ، وذلك أن الدليل لا يتم إلا بالجواب عن المعارض ، فالأدلة تشتبه كثيراً بما يعارضها ،فلا بد من الفرق بين الدليل الدال على الحق ، وبين ما عارضه ليتبين أن الذي عارضه باطل ، فالدليل يحصل به الهدى وبيان الحق ، لكن لا بد مع ذلك من الفرقان ، وهو الفرق بين ذلك الدليل وبين ما عارضه ، والفرق بين خبر الرب والخبر الذي يخالفه ،فالفرقان يحصل به التمييز بين المشتبهات ، ومن لم

---

١ ـ سورة البقرة آية ١٤٠ .

٢ ـ سورة البقرة آية ١٨٥ .

يحصل له الفرقان كان في اشتباه وحيرة ، والهدى التام لا يكون إلا مع الفرقان ، فلهذا قال أولاً هُدى للناس ، ثم قال : وبينات من الهدى والفرقان ، فالبينات الأدلة على ما تقدم من الهدى ، وهي بينات من الهدى الذي هو دليل على أن الأول هدى ، ومن الفرقان الذي يفرق بين البينات والشبهات ، والحجج الصحيحة والفاسدة ؛ فالهدى مثل أن يؤمر بسلوك الطريق إلى الله ، كما يؤمر قاصد الحج بسلوك طريق مكة مع دليل يوصله ، والبينات ما يدل ويبين أن ذلك هو الطريق ، وأن سالكه سالك للطريق لا ضال ، والفرقان أن يفرق بين ذلك الطريق وغيره ، وبين الدليل الذي يسلكه ويدل الناس عليه ، وبين غيرهم ممن يدعي الدلالة ، وهو جاهل مضل ، وهذا وأمثاله مما يبين أن في القرآن الأدلة الدالة للناس على تحقيق ما فيه من الأخبار والأوامر كثير ، وقد بسط هذا في غير هذا الموضع .

والمقصود هنا الكلام على النبوة فإن المتكلمين المبتدعين تكلموا في النبوات بكلام كثير لبسوا فيه الحق بالباطل كما فعلوا مثل ذلك في غير النبوات كالإلهيات وكالمعاد، وعند التحقيق لم يعرفوا النبوة ولم يثبتوا ما يدل عليها فليس عندهم لا هدى ولا بينات . والله سبحانه أنزل في كتبه البينات والهدى ، فمن تصور الشيء على وجهه فقد اهتدى اليه ، ومن عرف دليل ثبوته فقد عرف البينات.فالتصور الصحيح اهتداء والدليل الذي يبين التصديق بذلك التصور بينات ، والله تعالى أنزل الكتاب هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان .

والقرآن أثبت الصفات على وجه التفصيل ونفى عنها التمثيل ، وهي طريقة الرسل جاءوا بإثبات مفصل ونفي مجمل وأعداؤهم جاءوا بنفي مفصل وإثبات مجمل ، فلو لم يكن الحق فيما بينه الرسول للناس وأظهر لهم بل كان الحق في نقيضه،للزم أن يكون عدم الرسول خيراً من وجوده إذا

كان وجوده لم يفدهم عند هؤلاء علماً ولا هدى ، بل ذكر أقوالاً تدل على الباطل ، وطلب منهم أن يتعلموا الهدى بعقولهم ونظرهم ثم ينظروا فيما جاء به ، فإما أن يتأولوه ويحرفوا الكلم عن مواضعه ، وإما أن يعوضوه، فذكرنا هذا ونحوه مما يبين أن الهدى مأخوذ عن الرسول ، وأنه قد بين للأمة ما يجب اعتقاده من أصول الدين في الصفات وغيرها ، فكان الجواب خطاباً مع من يقر بنبوته ويشهد له بأنه رسول الله فلم يذكر فيه دلائل النبوة .

وذكر أن الشبهات العقلية التي تعارض خبر الرسول باطلة ، وذكر في ذلك ما هو موجود في هذا الجواب ، ثم بعد ذلك حدثت أمور أوجبت أن يبسط الكلام في هذا الباب ويتكلم على حجج النفاة ، ويبين بطلانها ويتكلم على ما أثبتوه من أنه يجب تقديم ما يزعمون أنه معقول على ما علم بخبر الرسول ، وبسط في ذلك من الكلام والقواعد ما ليس هذه موضعه وتكلم مع الفلاسفة والملاحدة الذين يقولون أن الرسل خاطبوا خطاباً قصدوا به التخييل إلى العامة ما ينفعهم ، لا أنهم قصدوا الأخبار بالحقائق ، وهؤلاء لم يكن وقت الجواب قصد مخاطبتهم إذ كان هؤلاء في الحقيقة مكذبين للرسل يقولون أنهم كذبوا لما رأوه مصلحة ، بل كان الخطاب مع من يقر بأن الرسول لا يقول إلا الحق باطناً وظاهراً، ثم بعد هذا طلب الكلام على تقرير أصول الدين بأدلتها العقلية ، وإن كانت مستفادة من تعليم الرسول .

وذكر فيها ما ذكر من دلائل النبوة في مصنف يتضمن شرح عقيدة صنفها شيخ النظار بمصر شمس الدين الأصبهاني فطلب مني شرحها فشرحتها وذكرت فيها من الدلائل العقلية ما يعلم به أصول الدين ، وبعدها جاء كتاب من النصارى يتضمن الاحتجاج لدينهم بالعقل والسمع واحتجوا بما ذكروه من القرآن ، فأوجب ذلك أن يرد عليهم ويبين فساد

ما احتجوا به من الأدلة السمعية من القرآن ومن كلام الأنبياء المتقدمين ، وما احتجوا به من العقل وأنهم مخالفون للأنبياء وللعقل،خالفوا المسيح ومن قبله وحرفوا كلامهم كما خالفوا العقل،وبين ما يحتجون به من نصوص الأنبياء ، وأنها هي وغيرها من نصوص الأنبياء التي عندهم حجة عليهم لا لهم ، وبين الجواب الصحيح لمن حرف دين المسيح ، وهم لم يطالبوا ببيان دلائل نبوة نبينا ، لكن اقتضت المصلحة أن يذكر من هذا ما يناسبه ويبسط الكلام في ذلك بسطاً أكثر من غيره ، وقلوب كثير من الناس يجول فيها أمر النبوات وما جاءت به الرسل،وهم وإن أظهروا تصديقهم والشهادة لهم ففي قلوبهم مرض ونفاق إذ كان ما جعلوه أصولاً لدينهم معارض لما جاءت به الأنبياء وهم لم يتعلموا ما جاءت به الأنبياء ، ولم يأخذوا عنهم الدلائل والأصول والبينات والبراهين ، وإذا وجب أن يؤخذ عن الأنبياء ما أخبروا به من أصول الدين ومن تصديق خبرهم مع وجود ما يعارضه ، فلأن يؤخذ عنهم ما بينوا به تلك العقائد من الآيات والبراهين أولى وأحرى ، فإنه بهذا يتبين ذاك والا فتصديق الخبر متوقف على دليل صحته ، أو على صدق المخبر به وتصديقه بدون أن يعلم أنه في نفسه حق ، أو أن المخبر به صادق قول بلا علم .

والرسول صلوات الله عليه وسلامه قد أرسل بالبينات والهدى؛ بين الأحكام الخبرية والطلبية وأدلتها الدالة عليها، بين المسائل والوسائل، بين الدين ما يقال وما يعمل ، وبين أصوله التي بها يعلم أنه دين حق ، وهذا المعنى قد ذكره الله تعالى في غير موضع . وبين أنه أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، ذكر هذا في سورة التوبة والفتح والصف ، والهدى هو هدى الخلق إلى الحق ، وتعريفهم ذلك وإرشادهم اليه ، وهذا لا يكون إلا بذكر الأدلة والآيات الدالة على أن هذا هدى ، وإلا فمجرد خبر لم يعلم أنه حق ، ولم يقم دليل على أنه حق ليس

بهدى ، وهو سبحانه إذا ذكر الأنبياء نبينا وغيره ، ذكر أنه أرسلهم بالآيات البينات وهي الأدلة والبراهين البينة المعلومة علماً يقينياً ، إذ كان كل دليل لا بد أن ينتهي إلى مقدمات بينة بنفسها قد تسمى بديهيات ، وقد تسمى ضروريات ، وقد تسمى أوليات ، وقد يقال هي معلومة بأنفسها ، فالرسل صلوات الله عليهم بعثوا بالآيات البينات .

وفي الصحيحين عنه ﷺ أنه قال : « ما مِن نبي مِنَ الأنبياء إلاّ وقد أوتي مِن الآيات ما آمَنَ على مثله البشرَ وإنما كانَ الذي أوتيتُه وَحياً أوحاهُ اللهُ إليَّ فأرجو أن أكونَ أكثرَهُم تابعاً يومَ القيامةِ » .

وهو سبحانه إذا خاطب جنس الانس ذكر جنس الأنبياء ، وأثبت جنس ما جاءوا به ، وإذا خاطب أهل الكتاب المقرين بنبوة موسى خاطبهم بإثبات نبي بعده كما قال في سورة البقرة في خطابه لبني إسرائيل لما ذكر ما ذكره من أحوالهم مع موسى وذكرهم بأنعامه عليهم ، وبما فعلوه من السيئات ومغفرته لها قال تعالى : (ولَقَدْ آتَيْنا موسى الكتابَ وقَفَّيْنا مِن بعدِهِ بالرُّسُلِ وآتَيْنا عيسى ابنَ مريمَ البيِّناتِ وأيَّدْناهُ بروحِ القُدُسِ أفَكُلَّما جاءَكُم رسولٌ بما لا تَهْوَى أنفُسُكُمْ استَكبَرْتُم فَفَريقاً كذَّبْتم وفريقاً تَقتُلون)[1] . ثم ذكر محمداً فقال : (ولمّا جاءَهُم كتابٌ مِن عندِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِما معَهُم وكانوا مِن قبل يَستَفتِحونَ على الّذينَ كفَروا ، فلمّا جاءَهُم ما عرفوا كفروا بهِ فلَعنَةُ اللهِ على الكافرينَ بِئْسَما اشتروا بهِ أنفُسَهُم أن يكفُروا بما أنزَلَ اللهُ بَغياً أن يُنزِلَ اللهُ من فضلهِ على مَن يشاءُ مِن عبادِهِ فباؤوا بغضبٍ على غضبٍ وللكافرين عذابٌ مُهين)[2]

---

١ — سورة البقرة آية ٨٧ .
٢ — سورة البقرة آية ٨٩ — ٩٠ .

فذكر سبحانه أنه أرسل المسيح اليهم بالبينات بعدما أرسل قبله الرسل وأنهم تارة يكذبون الرسل ، وتارة يقتلونهم ، وذكر أنه أرسل عيسى بالبينات لأنه جاء بنسخ بعض شرع التوراة بخلاف من قبله .

ولهذا لم يذكر ذلك عنهم . وقال في موسى أنه آتاه الكتاب لأنهم كانوا مقرين بنبوته ، ولكن حرفوا كتابه في المعنى باتفاق الناس ، وحرفوا اللفظ أحياناً ، وفي بعض المواضع وهو تعالى قد ذكر في غير موضع أنه أرسل موسى بالآيات البينات فقال لما ناجاه : « وألقِ عصاكَ فلمّا رآها تهتزّ كأنّها جانٌّ ولّى مُدْبِراً ولم يعقب يا موسى لا تخَفْ إني لا يخافُ لَدى المُرْسَلونَ إلاّ من ظَلَمَ ثمّ بَدّلَ حسناً بعدَ سوءٍ فإني غفورٌ رحيمٌ ، وأدخلْ يدَكَ في جَيبِكَ تخرُجْ بيضاءَ مِن غير سوءٍ في تسعِ آياتٍ إلى فرعونَ وقومِهِ إنّهمْ كانوا قَوْماً فاسقين)[1] . وقال في سورة القصص : (يا موسى أقْبلْ ولا تخَفْ إنّكَ مِنَ الآمنينَ اسْلُكْ يدَكَ في جيبِكَ تخرُجْ بيضاءَ مِن غيرِ سوءٍ واضْمُمْ إليكَ جَناحَكَ مِنَ الرّهْبِ فذَنِكَ بُرهانانِ مِن ربكَ إلى فِرعَونَ ومَلَئِهِ إنهم كانوا قوماً فاسقينَ)[2] وقال تعالى : (فأرْسَلنا عليهم الطّوفانَ والجرادَ والقمّلَ والضفادعَ والدم آياتٍ مُفَصّلاتٍ فاستَكْبَروا وكانوا قوماً مجرمين)[3] .
وقد قال تعالى لما قص قصص الرسل نوح وهود وصالح ولوط وشعيب عليهم السلام ونصره لهم وإهلاك أعدائهم ، ثم ذكر الأنبياء عموماً فقال : «وما أرسَلْنا في قريةٍ مِن نبي إلاّ أخذْنا أهلَها بالبأساءِ والضَرّاءِ لعلّهُمْ يَضّرّعونَ)[4] إلى قوله (أوَ لم يهدِ للذينَ يرِثونَ الأرضَ من بعدِ أهلِها أن لو نشاءُ أصبْناهم بذنوبهِم ونَطْبَعُ على قلوبهِم فهم لا يسمَعون تلكَ القرى نقصُّ عليكَ ولقدْ جاءَتهُم رسلُهُم بالبيّناتْ

١ ــ سورة النمل آية ١٠ ــ ١٢ .
٢ ــ سورة القصص آية ٣١ ــ ٣٢ .
٣ ــ سورة الاعراف آية ١٣٣ .
٤ ــ سورة الاعراف آية ٩٣ .

فما كانوا ليؤمنوا بما كذَّبوا من قبل كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين وما وجدنا لأكثرهم من عهد وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين)[1] .

فقد أخبر أن أهل القرى كلهم الذين أهلكهم جاءتهم رسلهم بالبينات ، ولكن شابه متأخروهم متقدميهم فما كان هؤلاء ليؤمنوا بما كذب به أشباههم كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين . وهذا كقوله تعالى : (كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون)[2] .قال تعالى : (ثمَّ بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا إلى فرعون وملئه فظلموا بها فانظر كيف كان عاقبة المفسدين)[3] .

فبين سبحانه أنه بعث موسى بآياته ، وقال في أثناء القصة إني رسول من رب العالمين حقيق علي أن لا أقول على الله إلا الحق ، قد جئتكم ببينة من ربكم فارسل معي بني إسرائيل فأخبر أنه جاء ببينة من الله أي بآية بينة من الله بدليل من الله وبرهان ، فهي آية منه وعلامة منه على صدقي ، وإني رسول منه فإن قوله: من ربكم ،متعلق بالرسول وبالآية، يقال فلان قد جاء بعلامة من فلان فالعلامة منه والرسول منه والآية منه كما قال : (فذانك برهانان من ربك)[4] فدل على أن كل واحد من الرسول ومن آيات الرسول هو من الله تعالى ، قال له فرعون : (إن كنت جئت بآية فأت بها إن كنت من الصادقين)[5] .وذكر القصة ومعارضة السحرة له إلى أن قال : (وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك فإذا هي تلقف ما يأفكون، فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين ، وألقي السحرة ساجدين ، قالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهارون قال فرعون آمنتم به قبل أن آذن لكم إن هذا لمكر مكرتموه في

---

١ ـ سورة الاعراف آية ٩٩ .
٢ ـ سورة الذاريات آية ٥٢ .
٣ ـ سورة الاعراف آية ١٠٣ .
٤ ـ سورة القصص آية ٣٢ .
٥ ـ سورة الاعراف آية ١٠٦ .

المدينة لتخرجوا منها أهلها فسوفَ تعلمونَ لأقطعنَّ أيديكم وأرجلكم من خلافٍ ثم لأصلبنكم أجمعين قالوا إنا إلى ربنا منقلبون وما تنقمُ منا إلا أن آمنا بآياتِ ربنا لما جاءتنا ربنا أفرغْ علينا صبراً وتوفنا مسلمين)[1].

فذكر السحرة أنهم آمنوا بآيات ربهم لما جاءتهم وهم من أعلم الناس بالسحر لما علموا أن هذه الآيات آيات من الله كما قال موسى قد جئتكم ببينة من ربكم إلى قوله فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين إلى قوله فأغرقناهم في اليم بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين ، وليس المراد بالآيات هنا كتاباً منزلاً ، فإن موسى لما ذهب إلى فرعون لم تكن التوراة قد نزلت ،

وإنما أنزلت التوراة بعد أن غرق فرعون وخلص بني إسرائيل فاحتاجوا إلى شريعة يعملون بها قال تعالى : (ولقدْ آتينا موسى الكتابَ مِن بعدِ ما أهلكنا القرونَ الأولى بصائرَ للنّاسِ وهُدًى)[2]. ولكن تكذيبهم بآياته إنكارهم أن تكون آية من الله وقولهم إنها سحر كما أخبر الله تعالى عنهم بقوله : (وقالوا مهْما تأتِنا به مِن آيةٍ لِتسحرَنا بها فما نحنُ لكَ بمؤمنينَ وكانوا عنْها غافلِينَ)[3]. لم يذكروها ويتأملوا ما دلت عليه من صدق موسى وأنه مرسل من الله ، فالتكذيب ضد التصديق والغفلة عنها ضد النظر فيها ، ولهذا قيل النظر تجريد العقل عن الغفلات ، وقيل هو تحديق العقل نحو المرئي ، والأول هو النظر الطلبي ، وهو طلب ما يدله على الحق ، والثاني هو النظر الاستدلالي ، وهو النظر في الدليل الذي يوصله إلى الحق ، وهذا الثاني هو الذي يوجب العلم ،

فذمهم على الغفلة عن آياته يتضمن النوعين النظر فيها والتأمل لها ، والتذكر لها ضد الغفلة عنها ، وهي آيات معينة فإذا جرد العقل عن الغفلة

---

١ ـ سورة الاعراف آية ١١٧ ـ ١٢٦ .   ٣ ـ سورة الاعراف آية ١٣١ .
٢ ـ سورة القصص آية ٤٣ .

عنها ، وحذقه للنظر فيها حصل له العلم بها ، وقد يحصل العلم بها ، ولكن يمتنع عن اتباعها لهواه ، كما قال الله عن قوم فرعون: (وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوا)[1]. فإن الحق إذا ظهر صار معلوماً بالضرورة والآيات والدلائل الظاهرة تدل على لوازمها بالضرورة ، لكن اتباع الهوى يصد عن التصديق بها واتباع ما أوجبه العلم بها ، وهذه حال عامة المكذبين مثل مكذبي محمد وموسى عليهما السلام وغيرهما ، فإنهم علموا صدقهما علماً يقينياً ، لما ظهر من آيات الصدق ، ودلائله الكثيرة ، لكن اتباع الهوى صد . قال تعالى: (فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ)[2]. وقال تعالى عن قوم فرعون (وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُواً) .[3]

وقال موسى لفرعون لقد علمت ما أنزل هؤلاء الا رب السموات والأرض بصائر ، ولهذا قال وكانوا عنها غافلين فعلموا أنها حق وغفلوا عنها كما يغفل الانسان عما يعلمه ومنه الغفلة عن ذكر الله تعالى ، قال تعالى : (وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا)[4] .

وقال تعالى : (وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ)[5] .

وقال تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)[6] .

---

١ — سورة النمل آية ١٤ .
٢ — سورة الانعام آية ٣٣ .
٣ — سورة النمل آية ١٤ .
٤ — سورة الكهف آية ٢٨ .
٥ — سورة الاعراف آية ٢٠٥ .
٦ — سورة يونس آية ٧ .

فذكر الذين هم عن آياته غافلون هنا كما ذكرهم هناك، وهناك وصفهم بالتكذيب بها مع الغفلة عنها وضد الغفلة التذكر، والتذكر لآياته سبحانه وتعالى يوجب العلم بها وحضورها في القلب وهو موجب لاتباعها إلا أن يمنعه هوى قال تعالى: (إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ)(1). فهو سبحانه لو علم فيهم خيراً، وهو قصد الحق لأفهمهم، لكنهم لا خير فيهم فلو أفهمهم لتولوا وهم معرضون.

وقال تعالى: (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ فَلَمَّا جَاءَهُم بِآيَاتِنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)(2). وقد ذكر أن الآيات التي هي دلائل النبوة منه في غير موضع غير ما تقدم كقوله تعالى: (فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ، قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ

---

١ ـ سورة الانفال آية ٢٢ .   ٢ ـ سورة الزخرف آية ٤٣ ـ ٤٨ .

يا موسى فلنأتينّك بسحرٍ مثلِهِ) إلى قوله عن السحرة (لَن نُؤثِركَ على ما جاءَنا مِن البيّنات)[1] وقال تعالى: (ورَسولاً إلى بني إسرائيل إني قد جئتكم بآية مِن ربّكُم)[2] وقال تعالى: (وقالوا لَولا يأتينا بآيةٍ مِن ربّه أو لَم تأتِهِم بينةُ ما في الصُحُفِ الأولى)[3]. فالآيات التي هي دلائل النبوة وبراهينها هي آيات من الله وعلامات منه أنه أرسل الرسول، وكما أن الآيات التي هي كلامه تتضمن إخباره لعباده وأمره لهم، ففيها الإعلام والإلزام، فكذلك دلائل النبوة هي آيات منه تتضمن اخباره لعباده بأن هذا رسوله وأمره لهم بطاعته، ففيها الاعلام والإلزام، وكما أن آياته القولية زعم المكذبون أنها ليست كلامه ولا منه، بل هي من قول البشر، وزعموا أن الرسول افتراها أو من معه أو تعلمها من غيره.

فكذلك الآيات الفعلية، زعم المكذبون أنها ليست آية منه وعلامة ودلالة منه على أن الرسول رسوله، بل مما يفعله الرسول فيكذب، وهذه من فعل المخلوقين لكنها عجيبة فهي سحر سحر بها الناس فلم[4] يكن من المكذبين من قال أنها من الله، ولكن لم يخلقها لتصدقك بها بل خلقها لا لشيء أو خلقها، وإن كنت كاذباً فإنه قد يخلق مثل هذه على أيدي الكذابين ليضل بها الناس، فإن هذا وإن كان يقال إنه قبيح فإنه لا يقبح منه شيء كما أنه لم يكن في المكذبين من قال إن الكلام كلام الله، لكنه كذب إذ الكذب وإن كان قبيحاً من المخلوق، فالخالق لا يقبح منه شيء، وهذا لأنه من المعلوم بالفطرة الضرورية لجميع بني آدم أن الله لا يكذب ولا يفعل القبائح فلا يؤيد الكذاب بآيته ليضل بها الناس، لكن

---

١ – سورة طه آية ٤٧ – ٧٢ .   ٣ – سورة طه آية ١٣٣ .

٢ – سورة آل عمران آية ٤٩ – ٥٠ .

٤ – قوله (فلم يكن) اي فلم يوجد فكان هنا تامة بمعنى وجد وكذا هي في قوله بعدكما انه لم يكن من المكذبين .

قالوا: ليست آية من الله بل هي سحر من عندك،وهم إن كانوا قد يعلمون أن الله خالق كل شيء ، ففرق بين ما يفعله البشر ويتوصلون اليه بالإكتساب ، وبين ما لا قدرة لهم على التوصل اليه بسبب من الأسباب ، وفرق بين ما قد علموا أنه يخلقه لغير تصديق الرسل كالسحر ، فإنه لم يزل معروفاً في بني آدم،فقد علموا أنه لايخلقه آية وعلامة لنبي إذ كان موجوداً لغير الأنبياء معتاداً منهم ، وإن كان عجيباً خارجاً عن العادة عند من لم يعرفه بل كان المكذبون يطالبون الرسل بالآيات كقول فرعون : فأت بآية إن كنت من الصادقين ، وقول قوم صالح له : إنما أنت من المسحرين ، ما أنت إلا بشر مثلنا فأت بآية إن كنت من الصادقين .

وكانت الأنبياء تأتي بالآيات وهي آيات بينات فيكذبون بها كما يكذب المعاند بالحق الظاهر المعلوم كما قال فرعون : إنه ساحر ،ولماغُلب السحرة وآمنوا واعترفوا بأن هذه آية من الله ، قال لهم فرعون : إنه لكبيركم الذي علمكم السحر ، وإن هذا لمكر مكرتموه في المدينة لتخرجوا منها أهلها ، وهذا كذب ظاهر فإن موسى جاء من الشام ولم يجتمع بالسحرة إنما فرعون جمعهم ولم يكن دين موسى دين السحرة ولا مقصوده مقصودهم ، بل هم وهو في غاية التعادي والتباين ، وكذلك سائر السحرة والكهنة مع الأنبياء من أعظم الناس ذماً لهم ، وأمرا بقتلهم مع تصديق الأنبياء بعضهم ببعض وإيجاب بعضهم الإيمان ببعض ، وهم يأمرون بقتل من يكذب نبياً ويأمرون بقتل السحرة ومن آمن بهم والسحرة يذم بعضهم بعضاً والأنبياء يصدق بعضهم بعضاً ، وهؤلاء يأمرون بعبادة الله وحده والصدق والعدل ويتبرأون من الشرك وأهله وهؤلاء يحبون أهل الشرك ، ويوالونهم ويبغضون أهل التوحيد والعدل ، فهذان جنسان متعاديان كتعادي الملائكة والشياطين ، كما قال تعالى : (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍ عَدُواً شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالجِنِ يُوحِي بَعضُهُم إلى بعضٍ زُخْرُفَ القَوْلِ

غُروراً ولَو شاءَ ربكَ ما فَعلوهُ فَذَرْهُم وما يَفتَرون ولتصغى اليه أفئِدَةُ الذينَ لا يؤمِنونَ بالآخرَةِ ولْيَرضَوهُ ولْيَقترِفوا ما هُم مُقترِفون)[1] .

فمن جعل النبي ساحراً أو مجنوناً هو بمنزلة من جعل الساحر أو المجنون نبياً ، وهذا من أعظم الفرية والتسوية بين الأضداد المختلفة ، وهو شر من قول من يجعل العاقل مجنوناً ، والمجنون عاقلاً ، أو يجعل الجاهل عالماً ، والعالم جاهلاً .

فإن الفرق بين النبي وبين الساحر والمجنون أعظم من الفرق بين العاقل والمجنون ، والعالم والجاهل ، وموسى صلوات الله عليه أمر بتصديق من يأتي بعده من الأنبياء الصادقين ، كما أمر بتكذيب الكذابين .

وأما السحرة فإنه أمر بقتلهم ، وفي التوراة : سأقيم لبني إسرائيل من إخوتهم نبياً مثلك . اجعل كلامي على فمه ، كلكم يسمعون ، وهذا يقتضي طاعة من يقوم بعده من الانبياء ، ثم من الناس من يعين هذا . فاليهود يقولون هو يوشع ، والنصارى يقولون هو المسيح ، وبعض المسلمين يقولون هو محمد ﷺ يحتجون على ذلك بحجج كثيرة . قد ذكرت في غير هذا الموضع ، ومنهم من يقول بل هذا إسم جنس وهو عام في كل نبي يأتي بعده لئلا يكذبوه ، كما فعلت اليهود وأنكروا النسخ ، وهذا القول أقرب فيدخل في هذا المسيح ومحمد عليهما السلام ومن قبلهما من انبياء بني إسرائيل ، فإن المقصود أمرهم بتصديق الأنبياء وطاعتهم ، وأن الله سبحانه ينزل على الأنبياء كلامه ، فالذي يقولونه هو كلام الله ما سمعوا منه ، وبسط هذا له موضع آخر .

وقد بسط القول في أن الناس يعلمون بالضرورة أن الآيات التي يأتي

---

١ ـ سورة الانعام آية ١١٢ .

بها الأنبياء آيات من الله ، وعلامة أعلم بها عباده ، أنه أرسلهم وأمرهم بطاعتهم ، والذين كذبوا بها كانوا يقولون ليست من الله بل هي سحر أو كهانة أو نحو ذلك ، لا يقرون بأنها آية من الله ، ويقولون مع ذلك قد يخلقها الله لغير التصديق ، أو يخلقها ليضل بها الخلق ، أو نحو ذلك ، فإن بسط هذه الأمور له موضع آخر .

والمقصود هنا أن الرسول بين للناس الأدلة والبراهين الدالة على أصول الدين كلها كما قد ذكر سبحانه هذا في مواضع كقوله : (إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللهُ)[1] . وقوله : (شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ)[2] . ومن ذلك قوله تعالى : (لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)[3] .

وقد وصف الرسول بذلك في مواضع فذكر هذا في البقرة ، في دعوة إبراهيم وفي قوله تعالى : (كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ)[4] . وفي قوله (وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ)[5] . وهنا لم يذكر يتلو عليهم آياته ويزكيهم لحكمة تختص بذلك ، وذكر هذا في آل عمران في قوله : (لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ

---

١ ـ سورة البقرة آية ١٥٩ .
٢ ـ سورة البقرة آية ١٨٥ .
٣ ـ سورة آل عمران آية ١٦٣ .
٤ ـ سورة البقرة آية ١٥١ .
٥ ـ سورة البقرة آية ٢٣١ .

يَتْلُو عَلَيْهِم آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ والحكمة)[1] .

وقد قال : (وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيات الله والحكمة)[2] .وهذا شبه الموضع الثالث في البقرة . فأخبر في غير موضع عن الرسول أنه يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، فالتلاوة والتزكية عامة لجميع المؤمنين ، فتلاوة الآيات يحصل بها العلم ، فإن الآيات هي العلامات والدلالات فإذا سمعوها دلتهم على المطلوب من تصديق الرسول فيما أخبر ، والإقرار بوجوب طاعته ، وأما التزكية فهي تحصل بطاعته فيما يأمرهم به من عبادة الله وحده وطاعته ، فالتزكية تكون بطاعة أمره ، كما أن تلاوة آياته يحصل بها العلم ، وسميت آيات القرآن آيات ، وقيل إنها آيات الله كقوله : (تِلْكَ آيَاتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بالحقِّ)[3] . لأنها علامات ودلالات على الله وعلى ما أراد ، فهي تدل على ما أخبر به ، وعلى ما أمر به ونهى عنه ، وتدل أيضاً على أن الرسول صادق إذ كانت مما لا يستطيع الإنس والجن أن يأتوا بمثلها ، وقد تحداهم بذلك كما قد بسط هذا في غير هذا الموضع ، وأيضاً فهي نفسها فيها من بينات الأدلة والبراهين ما يبين الحقّ ، فهي آيات من وجوه متعددة .

ثم قال : (وَيُعلمهُم الكِتَابَ وَالحِكمة)[4] . وهذا لمن يعلم ذلك منهم ، وقد يتعلم الشخص منهم بعض الكتاب والحكمة ، فالكتاب هو الكلام المنزل الذي يكتب ، والحكمة هي السنة وهي معرفة الدين والعمل به ، وقد قال تعالى : (وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ)[5] . وقال تعالى : (وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنْذِرُوا هُزُواً)[6] .

---

١ ــ سورة آل عمران آية ١٦٣ .
٢ ــ سورة الاحزاب آية ٣٤ .
٣ ــ سورة البقرة آية ٢٥٢ .
٤ ــ سورة البقرة آية ١٢٩ .
٥ ــ سورة يونس آية ١٠١ .
٦ ــ سورة الكهف آية ٥٧ .

ففرقٌ بين الآيات الدالة على العلم التي يعلم بالعقل أنها دلائل للرب ، وبين النذر وهو الإخبار عن المخوف كإخبار الأنبياء بما يستحقه العصاة من العذاب ، فهذا يعلم بالخبر والنذر ، .

ولهذا قال : وما كنا معذبين حتى نبعثَ رسولاً ، وأما الآيات فتعلم دلالتها بالعقل والانبياء جاؤا بالآيات والنذر ، وقال تعالى : (وَمَا أَرْسلنا مِنْ قَبلِكَ إلاَّ رِجالاً نُوحي إليهم فَاسْألُوا أهل الذِكرِ إن كُنتُم لاَ تَعلَمُونَ بالبَيِّنات وَالزُبُرِ)[1] . وقال تعالى : (فإن كذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبلِكَ جَاءوا بالبينات والزُبُرِ وَالكِتَابِ المُنيرِ)[2]. ومثل هذا كثير يذكر أن جميع الأنبياء جاءوا بالآيات التي تعلم دلالتها بالعقل ، ولما كان كثير من الناس مقصرين فيما جاء به الرسول قد أخرجوا ما تعلم دلالته بالعقل عن مسمى الشرع تنازع الناس في معرفة الله وتوحيده ، وأصول الدين هل يجب ويحصل بالشرع ، أو يجب بالشرع ويحصل بالعقل ، أو يجب ويحصل بالعقل على ثلاثة أقوال مشهورة لأصحاب الإمام أحمد وغيرهم من أتباع الأئمة الأربعة .

فطائفة يقولون يجب بالشرع ويحصل به ، وهو قول السالمية وغيرهم مثل الشيخ أبي الفرج المقدسي ، وهذا هو الذي حكاه عن أهل السنة من أصحاب أحمد وغيرهم ، وكذلك من شابههم مثل ابن درباس ، وابن شكر وغيرهما من أصحاب الشافعي ، وهو المشهور عن أهل الحديث والفقه الذين يذمون الكلام ، وهذا مما وقع فيه النزاع بين صدقة ابن الحسين الحنبلي المتكلم ، وبين طائفة من أصحاب أحمد ، وكذلك بين أبي الفرج إبن الجوزي ، وطائفة منهم .أولئك يقولون الوجوب والحصول

---

١ ـ سورة النحل آية ٤٣ ـ ٤٤ .   ٢ ـ سورة آل عمران آية ١٨٤ .

بالشرع ، وهؤلاء يقولون الحصول بالعقل والوجوب بالشرع ؛ وقد ذكر الآمدي ثلاثة أقوال في طرق العلم قيل بالعقل فقط ، والسمع لا يحصل به كقول الرازي ؛ وقيل بالسمع فقط ، وهو الكتاب والسنة . وقيل بكل منهما ،ورجح هذا وهو الصحيح ،والقول الثاني أنها لا تجب إلا بالشرع لكن يحصل بالعقل وهو قول الأشعري وأصحابه . ومن وافقهم كالقاضي أبي يعلى وابن الزاغوني وابن عقيل وغيرهم ، والقول الثالث : أنها تحصل بالعقل ، وتجب به وهو قول من يوجب بالعقل كالمعتزلة والكرامية وغيرهم من أتباع الأئمة كأبي الحسن الآمدي وأبي الخطاب وغيرهم وهو قول طائفة من المالكية والشافعية . وعليه أكثر الحنفية ونقلوه عن أبي حنيفة نفسه ، وقد صرح هؤلاء قبل المعتزلة وقبل أبي بكر الرازي وأبي الخطاب وغيرهم أن من لم يأته رسول يستحق العقوبة في الآخرة لمخالفته موجب العقل .

وقد ذكرنا في غير هذا الموضع أن أعدل الأقوال أن الأفعال مشتملة على أوصاف تقتضي حسنها ووجوبها وتقتضي قبحها وتحريمها ، وأن ذلك قد يعلم بالعقل لكن الله لا يعذب أحداً إلا بعد بلوغ الرسالة كما قال : (وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً)[1] . ولم يفرق سبحانه بين نوع ونوع ، وذكرنا أن هذه الآية يحتج بها الأشعري وأصحابه ومن وافقهم كالقاضي أبي يعلى وأتباعه ، وهم يجوزون أن الله يعذب في الآخرة بلا ذنب حتى قالوا يعذب أطفال الآخرة ، فاحتجوا بها على المعتزلة ،والآية حجة على الطائفتين كما قد بسط في غير هذا الموضع .

---

١ - سورة الاسراء آية ١٥ .

فصل

قدرة الله تعالى

وقد ذكر الله تعالى في القرآن الحجة على من أنكر قدرته ، وعلى من أنكر حكمته . فأول ما أنزل الله تعالى : (اقرأ باسم رَبِّكَ الذّي خَلَقَ خَلَقَ الإنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ إقْرَأْ وَرَبكَ الأَكْرَمُ الّذي عَلّمَ بالقَلَمِ عَلّمَ الإنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ)[1] . فذكر أنه الأكرم ، وهو أبلغ من الكريم وهو المحسن غاية الإحسان . ومن كرمه أنه علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم ، فعلمه العلوم بقلبه والتعبير عنها بلسانه . وأن يكتب ذلك بالقلم فذكر التعليم بالقلم يتناول علم العبارة والنطق وعبارة المعاني والعلوم . فإذا كان قد علمه هذه العلوم[2] فكيف يمتنع عليه أن يعلمه ما يأمره به وما يخبره به . وبيان ذلك أنه قال في أول السورة : (إقْرَأْ باسمِ رَبِّكَ الّذي خَلَقَ خَلَقَ الإنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ) . ومعلوم أن من رأى العلقة قطعة من دم فقيل له هذه العلقة يصير منها إنسان يعلم كذا وكذا . لكان يتعجب من هذا غاية التعجب . وينكره أعظم الإنكار . ومعلوم أن نقل الإنسان من كونه علقة إلى أن يصير إنساناً عالماً قادراً كاتباً . أعظم من جعل مثل هذا الإنسان يعلم ما أمر الله به . وما أخبر به . فمن قادر على أن ينقله من الصغر إلى أن يجعله عالماً قارئاً

١ — سورة العلق آية ١ — ٢ — ٣ — ٤ . ٢ — هكذا الاصل ولعله الامور .

كاتباً كان أن يقدر على جعله عالماً بما أمر به وبما أخبر به أولى وأحرى. وهذا كما استدل على قدرته على إعادة الخلق بقدرته على الابتداء ، وقد أخبر الله تعالى عن الكفار أنهم تعجبوا من التوحيد ، ومن النبوة ، ومن المعاد فقال تعالى: (صَ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوْا وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ)[1]. فذكر تعجبهم من التوحيد والنبوة وقال تعالى: (أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ)[2]. وهذا أيضاً تعجب من أن أرسل إليهم رجل منهم وقوله: (أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أن أوحينا إلى رَجُلٍ منهم أن أنذِرِ النَّاسَ) دل على أنه منذر لجنس الناس ، وأنه من جنس الناس لا يختص به العرب دون غيرهم ، وإن كان أول ما أرسل إليهم وبلسانهم.

وقال تعالى: (ق والقُرآنِ المجيدِ بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُم مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ)[3]. وقال تعالى: (وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قولهم أَإِذَا كُنَّا تُرَاباً أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِم وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أعناقِهِم وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)[4] وقال تعالى: (بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ وإذا رأوا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ)[5] فالرسول.

---

١ — سورة ص آية ١ — ٥.
٢ — سورة يونس آية ٢.
٣ — سورة ق آية ١ — ٣.
٤ — سورة الرعد آية ٥.
٥ — سورة الصافات آية ١٢ — ١٤.

كان يعجب من تكذيبهم لما جاءهم به من آيات الانبياء ، وهم يعجبون مما جاء به لكونه خارجاً عما اعتادوه من النظائر ، فإنهم لم يعرفوا قبل مجيئه لا توحيداً ولا نبوة ولا معاداً ، قال تعالى : (قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُم الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ . وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ)[1] .

وأما حكمته في إرسال بشر ، فقد ذكر أنه من جنسهم ، وأنه بلسانهم فهو أتم في الحكمة والرحمة ، وذكر أنهم لا يمكنهم الأخذ عن الملك ، وأنه لو نزل ملكاً لكان يجعله في صورة بشر ليأخذوا عنه ، ولهذا لم يكن البشر يرون الملائكة إلا في صورة الآدميين ، كما كان جبريل يأتي في صورة دحية الكلبي . وكما أتى مرة في صورة أعرابي . ولما جاءوا إبراهيم وامرأته حاضرة كانوا في صورة بشر ، وبشروها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب قال تعالى : (وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللهُ بَشَراً رَسُولاً قُلْ لَوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِنَ السَّمَاءِ مَلَكاً رَسُولاً)[2] . وأما قدرته على تعريف الخلق بأنه نبيه . فكما تقدم فإنه إذا كان قادراً على أن يهدي الإنسان الذي كان علقة ومضغة إلى أنواع العلوم بأنواع من الطرق انعاماً عليه . وفي ذلك من بيان قدرته وحكمته ورحمته ما فيه . فكيف لا يقدر أن يعرفه صدق من أرسله إليه . وهذا أعظم النعم عليه والإحسان إليه . والتعريف بهذا دون تعريف الإنسان ما عرفه به من أنواع العلوم . فإنه إذا كان هداهم إلى أن يعلم بعضهم صدق رسول من أرسله إليه بشر مثله بعلامات يأتي

---

١ ـ سورة الانعام آية ١٥٠ .

٢ ـ سورة الاسراء آية ٩٤ ـ ٩٥ .

بها الرسول ، وإن كان لم تتقدم مواطأة وموافقة بين المرسل والمرسل إليهم .

فمن هدى عباده إلى أن يرسلوا رسولاً بعلامة ويعلم المرسل إليه أنها علامة تدل على صدقه قطعاً ، فكيف لا يقدر هو أن يرسل رسولاً ويجعل معه علامات يعرف بها عباده أنه قد أرسله . وهذا كمن جعل غيره قديراً عليماً حكيماً ، فهو أولى أن يكون قديراً عليماً حكيماً فمن جعل الناس يعلمون صدق رسول يرسله بعض خلقه بعلامات يعلم بها المرسل صدق رسوله ، فمن هدى العباد إلى هذا فهو أقدر على أن يعلمهم صدق رسوله بعلامات يعرفون بها صدقه ، وإن لم يكن قبل ذلك قد تقدم بينهم وبينه مواطأة .

وللناس طرق في دلالة المعجزة على صدق الرسول طريق الحكمة ، وطريق القدرة ، وطريق العلم والضرورة ، وطريق سنته وعادته التي بها يعرف أيضاً ما يفعل ، وهو من جنس المواطأة ، وطريق العدل وطريق الرحمة وكلها طرق صحيحة . وكلما كان الناس إلى الشيء أحوج كان الرب به أجود ، وكذلك كلما كانوا إلى بعض العلم أحوج ، كان به أجود فإنه سبحانه الأكرم الذي علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم ، وهو الذي خلق فسوى ، والذي قدر فهدى ، وهو الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى . فكيف لا يقدر أن يهدي عباده إلى أن يعلموا أن هذا رسوله . وأن ما جاء به من الآيات آية من الله وهي شهادة من الله له بصدقه ، وكيف تقتضي حكمته أن يسوي بين الصادق والكاذب فيؤيد الكاذب من آيات الصدق بمثل ما يؤيد به الصادق حتى لا يعرف هذا من هذا ، وأن يرسل رسولاً يأمر الخلق بالإيمان به وطاعته . ولا يجعل لهم طريقاً إلى معرفة صدقه ، وهذا كتكليفهم بما لا يقدرون عليه ، وما لا يقدرون على أن يعلموه . وهذا ممتنع في صفة الرب ، وهو منزه عنه

سبحانه . فإنه لا يكلف نفساً إلا وسعها . وقد علم من سنته وعادته أنه لا يؤيد الكذاب بمثل ما أيد به الصادق قط . بل لا بد أن يفضحه ولا ينصره . بل لا بد أن يهلكه . وإذا نصر ملكاً ظالماً مسلطاً فهو لم يدع النبوة ولا كذب عليه بل هو ظالم سلطه على ظالم كما قال تعالى : (وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً)[1] . بخلاف من قال أنه أرسله . فهذا لا يؤيده تأييداً مستمراً إلا مع الصدق . لكن قد يمهله مدة . ثم يهلكه كما فعل بمن كذب الرسل أنهم يكيدون كيداً وأكيد كيداً . فمهل الكافرين أمهلهم رويداً . ولفظ النبي كلفظ الرسول هو في الأصل إنما قيل مضافاً إلى الله فيقال رسول الله . ثم عرف باللام فكانت اللام تعاقب الإضافة كقوله : (فَأَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولاً فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ)[2] . وقوله : (لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرسول بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضاً . قَدْ يعلم اللهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذاً)[3] . وكذلك إسم النبي يقال : نبي الله كما قال : (فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنتُم مُّؤْمِنِينَ)[4] . وقيل لهم : (لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً)[5] .

فتقولون يا محمد . بل قولوا يا نبي الله . يا رسول الله . ورسول فعول بمعنى مفعول أي مرسل، فرسول الله الذي أرسله الله . فكذلك نبي الله هو بمعنى مفعول أي منبأ الله الذي نبأه الله . وهذا أجود من أن يقال إنه بمعنى فاعل أي منبيء . فإنه إذا نبأه الله فهو نبي الله سواء أنبأ بذلك غيره أو لم ينبئه . فالذي صار به النبي نبياً أن ينبئه الله . وهذا مما يبين ما امتاز به عن غيره فإنه إذا كان الذي ينبئه الله كما أن الرسول هو الذي يرسله الله . فما نبأ الله حق وصدق ليس فيه كذب . لا خطأ . ولا عمداً .

---

١ ـ سورة الانعام آية ١٢٩ .
٢ ـ سورة المزمل آية ١٦ .
٣ ـ سورة النور آية ٦٣ .
٤ ـ سورة البقرة آية ٩١ .
٥ ـ سورة النور آية ٦٣ .

وما يوحيه الشيطان هو من ايحائه ليس من أنباء الله، فالذي اصطفاه الله لإنبائه وجعله نبياً له كالذي اصطفاه لرسالته وجعله رسولاً له .

فكما أن رسول الله لا يكون رسولاً لغيره فلا يقبل أمر غير الله ، فكذلك نبي الله لا يكون نبياً لغير الله ، فلا يقبل أنباء أحد إلا أنباء الله وإذا أخبر بما أنبأ الله ، وجب الإيمان به فإنه صادق مصدوق ، ليس في شيء مما انبأه الله به شيء من وحي الشيطان ، وهذا بخلاف غير النبي فإنه ، وإن كان قد يلهم ويحدث ويوحى إليه اشياء من الله ، ويكون حقاً، فقد يلقي إليه الشيطان أشياء، ويشتبه هذا بهذا، فإنه ليس نبياً لله، كما أن الذي يأمر بطاعة الله غير الرسول ، وإن كان أكثر ما يأمر به هو طاعة الله فقد يغلط ويأمر بغير طاعة الله ، بخلاف الرسول المبلغ عن الله فإنه لا يأمر إلا بطاعة الله قال تعالى : (مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ)[1] . وقال تعالى : (وَمَا أَرسَلنَا مِن رَسُولٍ إلاَّ لِيُطَاعَ بِإذْنِ اللهِ)[2] . فنبي الله هو الذي ينبئه الله لا غيره ، ولهذا أوجب الله الإيمانَ بما أوتيه النبيون فقال تعالى : (قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنزِلَ إلينَا وَمَا أُنزِلَ إلى إبرَاهِيمَ وَإسْمَاعِيلَ وإسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ والأسْبَاطِ ومَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ من رَبِّهِم لا نُفَرِّقُ بَينَ أحَدٍ مِنهُم وَنَحنُ لَهُ مُسْلِمُونَ)[3] . وقال تعالى : (آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إلَيهِ مِنْ رَبِّهِ وَالمؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ باللهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِه لاَ نُفَرِّقُ بينَ أحد من رسله)[4] وقال تعالى : (وَلَكِنَّ البِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ وَالملاَئِكَةِ وَالكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ)[5] . وليس كل من أوحي إليه الوحي العام يكون نبياً فإنه قد يوحى إلى غير الناس قال تعالى : (وَأَوْحَى رَبُّكَ إلى النَّحْلِ

١ – سورة النساء آية ٧٩ .
٢ – سورة النساء آية ٦٣ .
٣ – سورة البقرة آية ١٣٦ .
٤ – سورة البقرة آية ٢٨٥ .
٥ – سورة البقرة آية ١٧٧ .

أنْ اتّخذي مِنَ الجبالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشّجَرِ وَمِمّا يَعْرِشُونَ)[1] .
وقال تعالى : (وَأَوْحَى في كُلِ سَماءٍ أمرَهَا)[2] .

وقال تعالى عن يوسف وهو صغير : (فَلَمّا ذَهَبُوا به وَأَجْمَعُوا أن يَجْعَلُوهُ في غيابَةِ الجبِّ وَأوْحَيْنَا إليه لتُنبئنّهم بأمْرِهِم هَذا وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ)[3] . وقال تعالى: (أوْحَيْنَا إلى أم مُوسَى أنْ أرْضِعيهِ)[4] . وقال تعالى : (وَإذْ أوحيتُ إلى الحَوارِيينَ أنْ آمنُوا بي وبِرَسُولي)[5]. وقوله : (وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أنْ يُكَلِمهُ اللهُ إلاَ وَحياً)[6] . يتناول وحي الانبياء وغيرهم كالمحدثين الملهمين كما في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال : « قَدْ كَانَ في الأمَمِ قبلكُم مُحَدثُونَ فإن يَكُنْ في أمتي أحَدٌ فَعُمر منهُمْ » .

وقال عبادة بن الصامت رؤيا المؤمن كلام يكلم به الرب عبده في منامه ؛ فهؤلاء المحدثون الملهمون المخاطبون يوحى إليهم هذا الحديث الذي هو لهم خطاب وإلهام وليسوا بأنبياء معصومين مصدقين في كل ما يقع لهم ؛ فإنه قد يوسوس لهم الشيطان بأشياء لا تكون من ايحاء الرب بل من ايحاء الشيطان ، وإنما يحصل الفرقان بما جاءت به الأنبياء فهم الذين يفرقون بين وحي الرحمن ووحي الشيطان ، فإن الشياطين أعداؤهم ؛ وهم يوحون بخلاف وحي الانبياء قال تعالى : (وكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِ نَبي عَدُواً شَيَاطِينَ الإنْسِ وَالجنِ يُوحي بَعضهم إلى بَعضٍ زُخْرُفَ القَولِ غرُوراً وَلَوْ شَاءَ رَبكَ مَا فَعلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ)[7] . وقال تعالى : (وَإنّ الشّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إلى أوليائِهِم لِيُجَادِلُوكُمْ وَإنْ أطَعْتُمُوهُم إنكم لمُشْرِكُون)[8] .

---

١ ــ سورة النحل آية ٦٨ .
٢ ــ سورة السجدة آية ١٢ .
٣ ــ سورة يوسف آية ١٥ .
٤ ــ سورة القصص آية ٧ .
٥ ــ سورة المائدة آية ١١٤ .
٦ ــ سورة الشورى آية ٥١
٧ ــ سورة الانعام آية ١١٢ .
٨ ــ سورة الانعام آية ١٢١ .

وقد غلط في النبوة طوائف غير الذين كذبوا بها ، إما ظاهراً وباطناً، وإما باطناً كالمنافق المحض ، بل الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إلى الرسول وإلى من قبله ، وهم خلق كثير فيهم شعبة نفاق ، وإن لم يكونوا مكذبين للرسول من كل وجه ، بل قد يعظمونه بقلوبهم ويعتقدون وجوب طاعته في أمور دون أمور ، وأبعد هؤلاء عن النبوة المتفلسفة والباطنية والملاحدة ، فإن هؤلاء لم يعرفوا النبوة إلا من جهة القدر المشترك بين بني آدم وهو المنام ، وليس في كلام أرسطو وأتباعه كلام في النبوة ،والفارابي جعلها من جنس المنامات فقط ، ولهذا يفضل هو وأمثاله الفيلسوف على النبي ، وإبن سينا عظمها أكثر من ذلك . فجعل للنبي ثلاث خصائص :

أحدها : أن ينال العلم بلا تعلم ، ويسميها القوة القدسية ، وهي القوة الحدسية عنده .

والثاني :أن يتخيل في نفسه ما يعلمه ، فيرى في نفسه صوراً نورانية ويسمع في نفسه أصواتاً كما يرى النائم في نومه صوراً تكلمه ، ويسمع كلامهم ، وذلك موجود في نفسه لا في الخارج ،فهكذا عند هؤلاء جميع ما يختص به النبي مما يراه ويسمعه دون الحاضرين إنما يراه في نفسه ويسمعه في نفسه ، وكذلك المرور عندهم .

والثالث :أن يكون له قوة يتصرف بها في هيولى العالم باحداث أمور غريبة ، وهي عندهم آيات الانبياء وعندهم ليس في العالم حادث إلا عن قوة نفسانية ، أو ملكية أو طبعية كالنفس الفلكية والإنسانية والاشكال الفلكية والطبائع التي للعناصر الأربعة ، والمولدات لا يقرون بأن فوق الفلك نفسه شيء يفعل ، ولا يحدث شيئاً فلا يتكلم ولا يتحرك بوجه من الوجوه لا ملك ولا غير ملك فضلاً عن رب العالم ،والعقول التي يثبتونها عندهم ليس فيها تحول من حال إلى حال البتة ، لا بإرادة ولا قول ولا عمل ، ولا غير ذلك .

وكذلك المبدأ الأول ، وهؤلاء عندهم جميع ما يحصل في نفوس الأنبياء إنما هو من فيض العقل الفعال ، ثم أنهم لما سمعوا كلام الأنبياء أرادوا الجمع بينه وبين أقوالهم فصاروا يأخذون ألفاظ الانبياء فيضعونها على معانيهم . ويسمون تلك المعاني بتلك الألفاظ المنقولة عن الانبياء ، ثم يتكلمون ويصفون الكتب بتلك الألفاظ المأخوذة عن الانبياء فيظن من لم يعرف مراد الانبياء ومرادهم أنهم عنوا بها ما عنته الأنبياء ، وضل بذلك طوائف . وهذا موجود في كلام إبن سينا . ومن أخذ عنه ، وقد ذكر الغزالي ذلك عنهم تعريفاً بمذهبهم وربما حذر عنه :ووقع في كلامه طائفة من هذا في الكتب المضنون بها على غير أهلها . وفي غير ذلك حتى في كتابه الإحياء يقول الملك والملكوت والجبروت .ومقصوده الجسم والنفس والعقل الذي أثبتته الفلاسفة . ويذكر اللوح المحفوظ ومراده به النفس الفلكية ، إلى غير ذلك مما قد بسط في غير هذا الموضع .وهو في التهافت وغيره يكفرهم .

وفي المضنون به يذكر ما هو حقيقة مذهبهم حتى يذكر في النبوات عين ما قالوه . وكذلك في الإلهيات . وهذه الصفات الثلاث التي جعلوها خاصة الأنبياء توجد لعموم الناس . بل توجد لكثير من الكفار من المشركين وأهل الكتاب .فإنه قد يكون لأحدهم من العلم والعبادةما يتميز به على غيره من الكفار ويحصل له بذلك حدس وفراسة يكون أفضل من غيره . وأما التخييل في نفسه فهذا حاصل لجميع الناس الذين يرون في مناماتهم ما يرون . لكن هو يقول أن خاصة النبي أن يحصل له في اليقظة ما حصل لغيره في المنام ، وهذا موجود لكثير من الناس قد يحصل له في اليقظة ما يحصل لغيره في المنام . ويكفيك أنهم جعلوا مثل هذا يحصل للممرور . وللساحر .

ولكن قالوا الساحر قصده فاسد . والممرور ناقص العقل . فجعلوا

ما يحصل للأنبياء من جنس ما يحصل للمجانين والسحرة ، وهذا قول الكفار في الأنبياء كما قال تعالى : (كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ)(١) . وهؤلاء عندهم ما يحصل للنبي من المكاشفة والخطاب هو من جنس ما يحصل للساحر والمجنون ، لكن الفرق بينه وبين الساحر أنه يأمر بالخير وذاك يأمر بالشر والمجنون ما له عقل، وهذا القدر الذي فرقوا به موجود في عامة الناس فلم يكن عندهم للأنبياء مزية على السحرة والمجانين إلا ما يشاركهم فيه عموم المؤمنين ، وكذلك ما أثبتوه من القوة الفعالة المتصرفة هي عندهم تحصل للساحر وغيره ، وذلك أنهم لا يعرفون الجن والشياطين وقد أخبروا بأمور عجيبة في العالم فأحالوا ذلك على قوة نفس الإنسان ، فما يأتي به الأنبياء من الآيات والسحرة والكهان وما يخبر به المصروع والممرور ، هو عندهم كله من قوة نفس الإنسان ، فالخبر بالغيب هو لاتصالها بالنفس الفلكية ، ويسمونها اللوح المحفوظ ،والتصرف هو بالقوة النفسانية ، وهذا حذق إبن سينا وتصرفه لما أخبر بأمور في العالم غريبة لم يمكنه التكذيب بها فأراد إخراجها على أصولهم وصرح بذلك في إشاراته ، وقال هذه الأمور لم نثبتها ابتداء بل لما تحققنا أن في العالم أموراً من هذا الجنس أردنا أن نبين أسبابها .

وأما أرسطو وأتباعه فلم يعرفوا هذه الأمور الغريبة ، ولم يتكلموا عليها ولا على آيات الانبياء ، ولكن كان السحر موجوداً فيهم ، وهؤلاء من أبعد الأمم عن العلوم الكلية والإلهية فإن حدوث هذه الغرائب من الجن واقترانهم بالسحرة ، والكهان مما قد عرفه عامة الأمم وذكروه في كتبهم غير العرب مثل الهند والترك وغيرهم من المشركين وعباد

١ ـ سورة الذاريات ٥٢ .

الأصنام ، وأصحاب الطلاسم والعزائم ، وعرفوا أن كثيراً من هـذه الخوارق هو من الجن والشياطين ، وهؤلاء الجهال لم يعرفوا ذلك ؛ ولهذا كان من أصلهم أن النبوة مكتسبة ، وكان السهروردي المقتول يطلب أن يكون نبياً ، وكذلك ابن سبعين وغيره. والنبوة الحق هي أنباء الله لعباده ، ونبي الله من كان الله هو الذي ينبئه ، ووحيه من الله ، وهؤلاء وحيهم من الشياطين ، فهم من جنس المتنبئين الكذابين كمسيلمة الكذاب وأمثاله ، بل أولئك أحذق منهم ؛ فإنهم كانت تأتيهم أرواح فتكلمهم وتخبرهم بأمور غائبة ، وهي موجودة في الخارج لا في أنفسهم ، وهؤلاء لا يعرفون مثل هذا ، ووجود الجن والشياطين في الخارج وسماع كلامهم أكثر من أن يمكن سطر عشره هنا ، وكذلك صرعهم للإنس وتكلمهم على ألسنتهم ، والفرق بين النبي الساحر أعظم من الفرق بين الليل والنهار .

والنبي يأتيه ملك كريم من عند الله ينبئه الله ؛ والساحر والكاهن إنما معه شيطان يأمره ويخبره قال تعالى : (هَلْ أُنَبِّئُكُم عَلَى مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ تنزلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُم كَاذِبُونَ)(1) . فلا الخبرُ كالخبر ، ولا الأمر كالأمر ، ولا مخبر هذا كمخبر هذا ، ولا آمر هذا كآمر هذا ، كما أنه ليس هذا مثل هذا ، ولهذا قال تعالى لما ذكر الذي جاء بالقرآن إلى محمد وأنه ملك منفصل ليس خيالاً في نفسه كما يقوله هؤلاء قال تعالى : (إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي العَرْشِ مَكِينٍ مُطَاعٍ ثَمَّ أمِينٍ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ المُبِينِ وَمَا هُوَ عَلَى الغَيْبِ بِضَنِينٍ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلعَالَمِينَ لِمَن شَاءَ مِنكُم أن يَسْتَقِيمَ وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللهُ رَبُّ العَالَمِينَ)(2) . فالقرآن قول رسول أرسله الله لم يرسله

١ ـ سورة الشعراء آية ٢٢٣ .   ٢ ـ سورة التكوير آية ١٩ ـ ٢٩ .

الشيطان . وهو ملك كريم ذي قوة عند ذي العرش مكين . مطاع ثم أمين فهو مطاع عند ذي العرش في الملأ الأعلى . والشياطين لا يطاعون في السموات بل ولا يصعدون إليها . وإبليس من حين أهبط منها لم يصعد إليها .

ولهذا كان أصح القولين أن جنة آدم جنة التكليف لم تكن في السماء، فإن إبليس دخل إلى جنة التكليف جنة آدم بعد إهباطه من السماء . وقول الله له : (فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ وَأَنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلى يَوْمِ الدِّينِ)[1] . وقوله تعالى : (فَاخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُوماً مَدْحُوراً)[2] لكن كانت في مكان عال في الأرض من ناحية المشرق . ثم لما أكل من الشجرة أهبط منها إلى الأرض كما قد بسط هذا في غير هذا الموضع ، ولفظ الجنة في غير موضع من القرآن يُراد به بستان في الأرض كقوله : (إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الجَنَّةِ)[3] . وقوله : (وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ) إلى قوله : (كِلْتَا الجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِنْهُ شَيْئاً) إلى قوله : (وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ)[4] .

وقوله تعالى : (وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَموالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ وَتَثْبِيتاً مِن أَنفُسِهِم كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ) . الآية إلى قوله : (أَيَوَدُّ أَحَدُكُم أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ)[5] . الآية . وقوله تعالى : (لَقَدْ كَانَ لِسَبَأٍ فِي مَسَاكِنِهِم آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ) إلى قوله : (وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِم جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَي أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ)[6] . وقوله :

١ ــ سورة ص آية ٧٨ .
٢ ــ سورة الاعراف آية ١٧ .
٣ ــ سورة القلم آية ١٧ .
٤ ــ سورة الكهف آية ٣٢ ــ ٣٣ .
٥ ــ سورة البقرة آية ٢٦٦ .
٦ ــ سورة سبأ آية ٨ ــ ١٦ .

(وكَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ)[1] الآية. وقوله (أتتركون فيما هٰهُنا آمنينَ في جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ)[2] . وجنة الجزاء والثواب التي في السماء لم يدخلها الشيطان بعد أن أهبط من السماء . وهو أهبط من السماء لما امتنع من السجود لآدم قبل أن يدخل آدم إلى جنة التكليف التي وسوس له . وأخرجه منها .

وجنة الجزاء مخلوقة أيضاً . وقد أنكر بعض أهل البدع أن تكون مخلوقة وقال : إن آدم لم يدخلها لكونها لم تخلق بعد . فأنكر ذلك عليه من أنكره من علماء السنة . وقد ذكر أبو العالية وغيره من السلف أن الشجرة التي نهى عنها آدم كان لها غائط . فلما أكل احتاج إلى الغائط . وجنة الجزاء ليس فيها هذا . لكن الله أعلم بصحة هذا النقل . وإنما المقصود أن بعض السلف كان يقول أنها في السماء . وبعضهم يقول أنها في مكان عال من الأرض . ولفظ الجنة في القرآن قد ذكر فيما شاء الله من المواضع وأريد به جنة في الأرض . وجنة الجزاء مخصوصة بمائهم كقوله : (قِيلَ ادخُلِ الجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لي ربي وَجَعَلَنِي مِنَ المُكْرَمِينَ)[3] . فإن أرواح المؤمنين تدخل الجنة من حين الموت كما في هذه الآية : (قيلَ ادْخُلِ الجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ المُكْرَمِين)[4] . قال تعالى : (وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ إِنْ كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذا هُمْ خَامِدُونَ)[5] . وقال تعالى : (وَلاَ تَحْسَبَنَّ الذينَ قُتِلُوا

---

١ ـ سورة الدخان : آية ٢٥ .
٢ ـ سورة الشعراء آية ١٤٦ .
٣ ـ سورة ياسين آية ٢٦ .
٤ ـ سورة ياسين آية ٢٦ .
٥ ـ سورة ياسين آية ٢٨ ـ ٢٩ .

في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون)[1] . وقال تعالى لما ذكر أحوال الموتى عند الموت : (فأما إن كان من المقربين فروح وريحان وجنة نعيم وأما إن كان من أصحاب اليمين فسلام لك من أصحاب اليمين وأما إن كان من المكذبين الضالين فنزل من حميم وتصلية جحيم)[2] . وهذا غير ما ذكره في أول السورة من انقسامهم يوم القيامة الكبرى إلى سابقين وأصحاب يمين ، ومكذبين ، فإنه سبحانه ذكر في أول السورة انقسامهم في القيامة الكبرى ، وذكر في آخرها انقسامهم عند الموت ، وهو القيامة الصغرى ، كما قال المغيرة بن شعبة من مات فقد قامت قيامته ، وكذلك قال علقمة وسعيد بن جبير عن ميت ، أما هذا فقد قامت قيامته أي صار إلى الجنة أو النار ، وإن كان بعد هذا تعاد الروح إلى البدن ويقعد بقبره .

ومقصودهم أن الشخص لا يستبطىء الثواب والعقاب ، فهو إذا مات يكون في الجنة أو في النار قال تعالى عن قوم نوح : (مما خطاياهم أغرقوا فأدخلوا ناراً)[3] . وقال عن آل فرعون : (النار يعرضون عليها غدواً وعشياً ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب)[4] . وبسط هذا له موضع آخر .

والمقصود هنا الكلام على النبوة ، فهؤلاء المتفلسفة ما قدروا النبوة حق قدرها ، وقد ضل بهم طوائف من المتصوفة المدعين للتحقيق وغيرهم ، وابن عربي وابن سبعين ضلوا بهم ، فإنهم اعتقدوا مذهبهم وتصوفوا عليه ، ولهذا يقول ابن عربي : إن الأولياء أفضل من الأنبياء ، وإن الأنبياء وسائر الأولياء يأخذون عن خاتم الأنبياء علم التوحيد ، وأنه هو يأخذ من المعدن الذي يأخذ منه الملك ، الذي يوحى به إلى الرسول ، فإن

1 ـ سورة آل عمران آية ١٦٩ .
2 ـ سورة الواقعة آية ٩١ .
3 ـ سورة نوح آية ٢٥ .
4 ـ سورة المؤمن آية ٤٦ .

الملك عنده هو الخيال الذي في النفس ، وهو جبريل عندهم . وذلك الخيال تابع للعقل ، فالنبي عندهم يأخذ عن هذا الخيال ما يسمعه من الصوت في نفسه .

ولهذا يقولون إن موسى كلم من سماء عقله . والصوت الذي سمعه كان في نفسه لا في الخارج . ويدعي أحدهم أنه أفضل من موسى . وكما ادعى ابن عربي أنه أفضل من محمد ، فإنه يأخذ عن العقل الذي يأخذ منه الخيال . والخيال عنده هو الملك الذي يأخذ منه النبي فلهذا قال فإنه يأخذ من المعدن الذي يأخذ منه الملك الذي يوحى به إلى النبي . قال : فإن عرفت هذا فقد حصل لك العلم النافع. وبسط الكلام على هؤلاء له مواضع أخر .

والمقصود هنا : الكلام على النبوة فالنبي هو الذي ينبئه الله . وهو ينبيء بما أنبأ الله به . فإن أرسل مع ذلك إلى من خالف أمر الله ليبلغه رسالة من الله إليه . فهو رسول ،وأما إذا كان إنما يعمل بالشريعة قبله ، ولم يرسل هو إلى أحد يبلغه عن الله رسالة ، فهو نبي ، وليس برسول قال تعالى : (وَمَا أَرْسَلْنَا من قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلاَ نَبِيٍ إِلاَّ إِذا تَمَنّى أَلقى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَتِهِ)[1] . وقوله : (مِنْ رَسُولٍ وَلاَ نَبِيٍ) . فذكر ارسالاً يعم النوعين . وقد خص أحدهما بأنه رسول فإن هذا هو الرسول المطلق الذي أمره بتبليغ رسالته إلى من خالف الله كنوح . وقد ثبت في الصحيح أنه أول رسول بعث إلى أهل الأرض . وقد كان قبله أنبياء كشيث وإدريس عليهما السلام وقبلهما آدم كان نبياً مكلماً .

قال ابن عباس : كان بين آدم ونوح . عشرة قرون كلهم على الإسلام فأولئك الأنبياء يأتيهم وحي من الله بما يفعلونه ويأمرون بـه

---

١ .. سورة الحج آية ٥٢ .

المؤمنين الذين عندهم لكونهم مؤمنين بهم ، كما يكون أهل الشريعة الواحدة يقبلون ما يبلغه العلماء عن الرسول . وكذلك أنبياء بني إسرائيل يأمرون بشريعة التوراة . وقد يوحى إلى أحدهم وحي خاص في قصة معينة ، ولكن كانوا في شرع التوراة كالعالم الذي يفهمه الله في قضية معنى يطابق القرآن . كما فهم الله سليمان حكيم القضية التي حكم فيها هو وداود . فالانبياء ينبئهم الله فيخبرهم بأمره ونهيه وخبره . وهم ينبئون المؤمنين بهم ما أنبأهم الله به من الخبر . والأمر والنهي . فإن أرسلوا إلى كفار يدعونهم إلى توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له . ولا بد أن يكذب الرسل قوم قال تعالى : (كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ)[1] . وقال : (مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ)[2] . فإن الرسل ترسل إلى مخالفين . فيكذبهم بعضهم وقال : (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا يُوحَى إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُنْجِي مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسًا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ)[3] .

وقال : (إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ)[4] . فقوله : (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ) . دليل على أن النبي مرسل . ولا يسمى رسولاً عند الإطلاق . لأنه لم يرسل إلى قوم بما لا يعرفونه . بل كان يأمر المؤمنين بما يعرفونه أنه حق كالعالم . ولهذا قال النبي ﷺ « العُلَمَاءُ وَرَثَةُ

١ — سورة الذاريات آية ٥٢ .
٢ — سورة السجدة آية ٤٣ .
٣ — سورة يوسف اية ١٠٩ — ١١٠ .
٤ — سورة المؤمن آية ٥١ .

الأنبياء »، وليس من شرط الرسول أن يأتي بشريعة جديدة ، فإن يوسف كان رسولا وكان على ملة إبراهيم ، وداود وسليمان كانا رسولين وكانا على شريعة التوراة ، قال تعالى عن مؤمن آل فرعون: (ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فما زلتم في شك مما جاءكم به حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا)[1] . وقال تعالى : (إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهرون وسليمان وآتينا داود زبورا، ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليما)[2] .

والإرسال إسم عام يتناول إرسال الملائكة ، وإرسال الرياح ، وإرسال الشياطين ، وإرسال النار قال تعالى : (يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس)[3] . وقال تعالى : (جاعل الملائكة رسلا أولي أجنحة)[4] . فهنا جعل الملائكة كلهم رسلا ، والملك في اللغة هو حامل الالوكة وهي الرسالة وقد قال في موضع آخر : (الله يصطفي من الملائكة رسلا ومن الناس)[5] . فهؤلاء الذين يرسلهم بالوحي كما قال : (وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء)[6] . وقال تعالى : (وهو

---

١ ــ سورة المؤمن آية ٣٤ .
٢ ــ سورة النساء آية ١٦٢ .
٣ ــ سورة الرحمن آية ٣٥ .
٤ ــ سورة فاطر آية ١ .
٥ ــ سورة الحج آية ٧٥ .
٦ ــ سورة الشورى آية ٥١ .

الذي يُرْسِلُ الرِيَاحَ بَشْراً بَيْنَ يَدَي رَحْمَتِهِ)[1] . وقال تعالى : (إنَّا أرْسَلْنَا الشَيَاطِينَ عَلَى الكَافِرِينَ تَؤزهُم أزاً)[2] . لكن الرسول المضاف إلى الله إذا قيل رسول الله . فهم من يأتي برسالة من الله من الملائكة والبشر . كما قال : (اللهُ يَصْطَفِي مِنَ المَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَاسِ) [3] . وقالت الملائكة : (يَا لُوطُ إنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إليكَ)[4] .

وأما عموم الملائكة والرياح والجن . فإن إرسالها لتفعل فعلاً لا لتبلغ رسالة قال تعالى : (اذكُرُوا نعمَةَ الله عَلَيْكُمْ إذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَمْ تَروهَا وَكَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً)[5] . فرسل الله الذين يبلغون عن الله أمره ونهيه هي رسل الله عند الإطلاق . وأما من أرسله الله ليفعل فعلاً بمشيئة الله وقدرته ، فهذا عام يتناول كل الخلق . كما أنهم كلهم يفعلون بمشيئته وإذنه المتضمن لمشيئته لكن أهل الإيمان يفعلون بأمره ما يحبه ويرضاه ويعبدونه وحده ويطيعون رسله والشياطين يفعلون بأهوائهم وهم عاصون لأمره متبعون لما يسخطه ، وإن كانوا يفعلون بمشيئته وقدرته وهذا كلفظ البعث يتناول البعث الخاص البعث الشرعي كما قال : (هُوَ الذي بَعَثَ في الأُمِيِينَ رَسُولاً مِنْهُمْ) . ويتناول البعث العام الكوني كقوله : (فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَنَا أُولي بَأسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلالَ الدِّيَارِ)[6] . وقال تعالى : (وَإذْ تَأذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إلى يَوْمِ القِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ العَذَابِ)[7] . فالعام بحكم مشيئته وقدرته ، والخاص هو أيضاً بحكم

---

١ — سورة الاعراف آية ٥٦ .
٢ — سورة مريم آية ٨٣ .
٣ — سورة الحج آية ٧٥ .
٤ — سورة هود آية ٨١ .
٥ — سورة الاحزاب اية ٩ .
٦ — سورة الاسراء آية ٥ .
٧ — سورة الاعراف آية ١٦٧ .

مشيئته وقدرته ، وهو مع ذلك بحكم أمره ورضاه ومحبته ، وصاحب الخاص من أولياء الله يكرمه ويثبته ، وأما من خالف أمره فإنه يستحق العقوبة ، ولو كان فاعلاً بحكم المشيئة فإن ذلك لا يغني عنه من الله شيئاً ، ولا يحتج بالمشيئة على المعاصي إلا من تكون حجته داحضـــة ، ويكون متناقضاً متبعاً لهواه ، ليس عنده علم بما هو عليه كالمشركين الذين قالوا : (لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ)[1] كما قد بسط في غير هذا الموضع والله أعلم .

---

١ ـ سورة الانعام آية ١٤٨ .

فصـل

وجوده تعالى ليس بحاجة إلى دليل

الدليل الذي هو الآية والبرهان يجب طرده كما تقدم ، فإنه لو كان تارة يتحقق مع وجود المدلول عليه ، وتارة يتحقق مع عدمـه ، فإذا تحقق لم يعلم هل وجد المدلول أم لا ، فإنه كما يوجد مع وجوده يوجد مع عدمه ، ولهذا كان الدليل إما مساوياً للمدلول عليه ، وإما أخص منه لا يكون أعم من المدلول ، ولهذا لم يكن للأمور المعتادة دلالة على ما هو أخص ، كطلوع الشمس ، والقمر والكواكب ، لا يدل على صدق أحد ولا كذبه ، لا مدعي النبوة ولا غيره ، فإنها توجد مع كذب الكاذب كما توجد مع صدق الصادق .

لكن يدل على ما هو أعم منها وهو وجود الرب ، وقدرته ومشيئته وحكمته فإن وجود ذاته وصفاته ثابت ، سواء كانت هذه المخلوقات موجودة أو لم تكن ، فيلزم من وجود المخلوق وجود خالقه ، ولا يلزم من عدمه عدم خالقه ، فلهذا كانت المخلوقات كلها آيات للرب ، فما من مخلوق إلا وهو آية له ، هو دليل وبرهان ، وعلامة على ذاته وصفاته ووحدانيته ، وإذا عدم كان غيره من المخلوقات يدل على ما دل عليه ، ويجتمع على المعلوم الواحد من الأدلة ما لا يحصيه إلا الله ، وقد يكون الشيء مستلزماً لدليل معين ، فإذا عدم عرف انتفاؤه ، وهذا

مما يكون لازماً ملزوماً ، فتكون الملازمة من الطرفين فيكون كل منهما دليلاً ، وإذا قدر انتفاؤه كان دليلاً على انتفاء الآخر كالأدلة على الاحكام الشرعية ، فما من حكم إلا جعل الله عليه دليلاً ، وإذا قدر انتفاء جميع الأدلة الشرعية على حكم علم أنه ليس حكماً شرعياً ، وكذلك ما تتوفر الهمم والدواعي على نقله ، فإنه إذا نقل دل التواتر على وجوده ، وإذا لم ينقل مع توفر الهمم والدواعي على نقله لو كان موجوداً علم أنه لم يوجد كالأمور الظاهرة التي يشترك فيها الناس ، مثل موت ملك ، وتبدل ملك وتبدل ملك بملك ، وبناء مدينة ظاهرة ، وحدوث حادث عظيم في المسجد أو البلد ، فمثل هذه الأمور لا بد أن ينقلها الناس إذا وقعت ، فإذا لم تنقل نقلاً عاماً بل نقلها واحد علم أنه قد كذب ، وهذا مبسوط في غير هذا الموضع .

وقد بسط في غير هذا الموضع الفرق بين الآية التي هي علامة تدل على نفس المعلوم ، وبين القياس الشمولي الذي لا يدل إلا على قدر كلي مشترك لا يدل على شيء معين إذ كان لا بد فيه من قضية كلية وإن ذلك القياس لا يفيد العلم بأعيان الأمور الموجودة ، ولا يفيد معرفة شيء لا الخالق ولا نبي من أنبيائه ، ولا نحو ذلك ، بل إذا قيل كل محدث فلا بد له من محدث دل على محدث مطلق لا يدل على عينه بخلاف آيات الله ، فإنها تدل على عينه ، وبينا أن القرآن ذكر الإستدلال بآيات الله ، وقد يستدل بالقياس الشمولي ، والتمثيلي ، لكن دلالة الآيات أكمل وأتم ، وتبين غلط من عظم دلالة القياس الشمولي المنطقي وأنهم من أبعد الناس عن العلم والبيان ، وذكرنا أيضاً غلط من فضل الشمولي عن التمثيلي ، وأنها من جنس واحد ، والتمثيلي أنفع ، وإنما الآيات تكون أحسن .

وقد ذكر أبو الفرج ابن الجوزي ما ذكره أبو بكر ابن الأنباري وغيره في الآيات آيات القرآن مثل قوله: (قدْ كانتْ آياتي تتلى عليكمْ

فكنتم على أعقابكم تنكصون مستكبرين)[1] ثلاثة أقوال : قال في معنى الآيــة ثلاثة أقوال : أحدها أنها العلامة فمعنى آية علامة لانقطاع الكلام الذي قبلها وبعدها قال الشاعر :

أَلاَ أَبْلِغ لَدَيْكَ بَنِي تَمِيم بِآيَةِ مَا يُحِبُّونَ الطَّعَامَا

وقال النابغة :

تَوَهَّمْتُ آيَاتٍ لَهَا فعرفْتُهَا لِستَّةِ أعوامٍ وذاالعام سابع

قال : وهذا اختيار أبي عبيد ، قلت : أما أن الآية هي العلامة في اللغة ، فهذا صحيح وما استشهد به من الشعر يشهد لذلك ، وأما تسمية الآية من القرآن آية لأنها علامة صحيح ، لكن قول القائل أنها علامة لانقطاع الكلام الذي قبلها وبعدهـــا ليس بطائل ، فإن هـــذا المعنى الحـــد والفصل ، فالآية مفصولة عما قبلها وعما بعدها ، وليس معنى كونها آية هو هذا ، وكيف وآخر الآيات آية مثل آخر سورة الناس ، وكذلك آخر آية من السورة ، وليس بعدها شيء ، وأول الآيات آية ، وليس قبلها شيء مثل أول آية من القرآن ، ومن السورة ، وإذا قرئت الآية وحدها كانت آية ، وليس معها غيرها .

وقد قام النبي ﷺ بآية يرددها حتى أصبح : (إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ)[2] فَهِيَ آيةٌ في نَفْسِهَا لا لِكَوْنِهَا مُنْقَطِعَةً مِمَّا قَبْلَهَا ومابعدها ، وأيضاً فكونه علامة على هذا الإنقطاع قدر مشترك بين جميع الأشياء التي يتميز بعضها عن بعض ، ولا تسمى آيات ، والسورة متميزة عما قبلها وما بعدها ، وهي آيات كثيرة ، وأيضاً فالكلام الذي قبلها منقطع وما قبلها آية ، فليست دلالة الثانية على الإنقطاع بأولى من دلالة الأولى عليه ، وأيضاً فكيف يكون كونها آية علامة للتمييز بينها وبين غيرها ،

١ ــ سورة المؤمنون آية ٦٦ .

٢ ــ سورة المائدة آية ١٢١ .

والله سماها آياته فقال: (تِلْكَ آيَاتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بالحق)[1].
والصواب أنها آية من آيات الله ، أي علامة من علاماته ، ودلالة من أدلة الله ، وبيان من بيانه، فإن كل آية قد بين فيها من أمره وخبره ما هي دليل عليه ، وعلامة عليه، فهي آية من آياته ، وهي أيضاً دالة على كلام الله المباين لكلام المخلوقين ، فهي دلالة على الله سبحانه ، وعلى ما أرسل بها رسوله ، ولما كانت كل آية مفصولة بمقاطع الآي التي يختم بها كل آية صارت كل جملة مفصولة بمقاطع الآي آية .

ولهذا كان النبي ﷺ يقف على رؤوس الآي كما نعتت قراءته الحمد لله رب العالمين وتقف ، الرحمن الرحيم وتقف ، مالك يوم الدين وتقف، ويسمى أصحاب الوقف، وقف السنة ، لأن كل آية لها فصل ومقطع تتميز عن الأخرى .

قال : والوجه الثاني أنها سميت آية لأنها جماعة حروف من القرآن وطائفة منه،قال أبو عمر الشيباني يقال خرج القوم بآيتهم أي بجماعتهم وأنشدوا :

خرجنا من النقبين لا حي مثلنا بآياتنا ترجى اللقاح المطافلا[2]

قلت : هذا فيه نظر فإن قولهم خرج القوم بآيتهم قد يراد به بالعلامة التي تجمعهم مثل الراية ، واللواء ، فإن العادة أن كل قوم لهم أمير تكون له آية يعرفون بها ، فإذا أخرج الأمير آيتهم اجتمعوا إليه ، ولهذا سمي ذلك علماً ، والعلم هي العلامة والآية ويسمى راية لأنه يرى ، فخروجهم بآيتهم أي بالعلم والآية التي تجمعهم فيستدل به على خروجهم جميعهم، فإن الأمير المطاع إذا خرج لم يتخلف أحد بخلاف ما إذا خرج بعض

---

١ — سورة البقرة آية ٢٥٢ .
٢ — والبيت لبرج بن مسهر الطائي .

امرائه ، وإلا فلفظ الآية هي العلامة ، وهذا معلوم بالإضطرار من اللغة والإشتراك في اللفظ لا يثبت بأمر محتمل .

قال : والثالث أنها سميت آية لأنها عجب ، وذلك أن قارئها يستدل إذا قرأها على مباينتها لكلام المخلوقين ، وهذا كما يقول فلان آية من الآيات أي عجب من العجائب ، ذكره ابن الأنباري .

قلت : هذا القول هو داخل في معنى كونها آية من آيات الله فإن آيات الله كلها عجيبة فإنها خارجة عن قدرة البشر ، وعما قد يشبه بها من مقدور البشر ، والقرآن كله عجب ، تعجبت به الجن كما حكى عنهم تعالى أنهم قالوا : (إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَداً)[1] . فإنه كلام خارج عن المعهود من الكلام ، وهو كما في الحديث لا تنقضي عجائبه ، ولا يشبع منه العلماء ولا يخلق [2] عن كثرة الرد ، وكل آية لله خرجت عن المعتاد فهو عجب كما قال تعالى : (أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَباً)[3] . فالآيات العلامات والدلالة ومنها مألوف معتاد ، ومنها خارج عن المألوف المعتاد ، وآيات القرآن من هذا الباب ، فالقرآن عجب لا لأن مسمى الآية هو مسمى العجب ، بل مسمى الآية أعم ، ولهذا قال : كانوا من آياتنا عجباً ، ولكن لفظ الآية قد يخص في العرف بما يحدثه الله ، وأنها غير المعتاد دائماً كما قال النبي ﷺ : « إِنَّ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ اللهِ وَإِنَّهُمَا لا يَخْسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلا لِحَيَاتِهِ وَلَكِنَّهُمَا آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ اللهِ يُخَوِّفُ بِهِمَا عِبَادَهُ » .

وقد قال تعالى : (وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلا أَنْ كَذَّبَ

---

١ ـ سورة الجن آية ١ .
٢ ـ ولا يخلق عن كثرة الرد اي لا يبلى من كثرة الترديد
٣ ـ سورة الكهف آية ٩ .

بهَا الأولونَ وآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بهَا وَمَا نرسلُ بالآيَاتِ إلاَّ تَخْوِيفاً)[1] .

وفي الحديث الصحيح لما دخلت اسماء على عائشة وهي في الصلاة فسألتها فقالت : سبحان الله، فقالت آية، فأشارت أي نعم،وتسمى صلاة الكسوف صلاة الآيات ، وهي مشروعة في أحد القولين في مذهب أحمد في جميع الآيات ، التي يحصل بها التخويف كانتشار الكواكب والظلمة الشديدة ، وتصلى للزلزلة،نص عليه كما جاء الأثر بذلك،فهذه الآيات أخص من مطلق الآيات ، وقد قال تعالى : (وَمَا تَأْتيهم مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إلاَّ كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِين)[2] . وقال ﷺ : « ثَلاَثُ آيَاتٍ يتَعَلَّمهنَّ خَيْرٌ لَهُ مِنْ ثَلاَثِ خَلِفَاتٍ سِمَانٍ » .

---

١ ـ سورة الأسراء آية ٥٩ .
٢ ـ سورة الانعام آية ٤ .

فصـل

الدليـل الآيـة

والدليل الذي هو الآية والعلامة ينقسم إلى ما يدل بنفسه ، وإلى ما يدل بدلالة الدال به ، فيكون الدليل في الحقيقة هو الدال به الذي قصد أن يدل به ، وقد جعل ذلك علامة وآية ودليلاً ، والذي يدل بنفسه يعلم أنه يدل بنفسه ، وإن لم يعلم أن أحداً جعله دليلاً ، وإن كان في نفس الأمر كل مخلوق قد جعله الله آية ودلالة ، وهو سبحانه عليم مريد فلا يمكن أن يقال لم يرد بالمخلوقات أن تكون أدلة له ، ولا أنها ليست دليلاً بجعلها أدلة كما قد يطلقه طائفة من النظار ، ولكن يستدل بها مع عدم النظر في كونها جعلت أدلة كما قد يطلقه إذ كان فيها مقاصد كثيرة غير الدلالة ، والذي جعلها دليلاً وهو الله ، جعل ذاتها يستدل بها مع قطع النظر عن كونها هي دليلاً . فما من مخلوق إلا ويمكن الإستدلال به على الخالق، والمحدث نفسه يعلم بصريح العقل أن له محدثاً .

وهذه الأدلة التي تدل بنفسها قد تسمى الأدلة العقلية ، ويسمى النوع الآخر الأدلة الوضعية لكونها إنما دلت بوضع واضع ، والتحقيق أن كلاهما عقلي إذا نظر فيه العقل علم مدلوله ، لكن هذه تدل بنفسها ، وتلك تدل بقصد الدال بها ، فيعلم بها قصده ، وقصده هو الدال بها كالكلام ، فإنه يدل بقصد المتكلم به وإرادته وهو يدل على مراده ،

وهو يدلنا بالكلام على ما أراد ، ثم يستدل بإرادته على لوازمها ، فإن اللازم أبداً مدلول عليه بملزومه .

والآيات التي تدل بنفسها مجردة نوعان : منها ما هو ملزوم مدلول عليه بذاته لا يمكن وجود ذاته دون وجود لازمه المدلول عليه، مثل دلالة المخلوقات على الخالق ، ومنها ما هو مستلزم له مدة طويلة أو قصيرة فتدل عليه تلك المدة ، مثل نجوم السموات فإنه يستدل بها على الجهات والأمكنة وعلى غيرها من النجوم وعلى الزمان ماضيه وغابره ما دام العالم على هذه الصورة قال تعالى : (وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وأنهاراً وَسُبُلاً لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُون وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُون)[1] . وقال تعالى : (وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ البَرِّ والبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ)[2] .

ثم قال : (وَهُوَ الذي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ ومستودعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الآيات لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ)[3] . ثم قال : (وَهُوَ الذي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ ماء فَأَخْرَجْنَا بِهِ نبات كُلِّ شَيْءٍ فأخرجنا مِنْهُ خَضِراً)[4] . إلى قوله :

(إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)[4] . وقوله : (وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَاراً وَسُبُلاً لعلَّكُمْ تَهْتَدُونَ)[5] . وعلامات هي علامات ألقاها في الأرض ، وهذا قول الأكثرين . قالت طائفة : هي معالم الطرق يستدل بها بالنهار ، ويستدل بالنجم بالليل ، وقالت طائفة هي الجبال وهي أيضاً مما يستدل به ، ولهذا

١ ـ سورة النحل آية ١٦ .
٢ ـ سورة الانعام آية ٩٧ .
٣ ـ سورة الانعام آية ٩٨ .
٤ ـ سورة الانعام آية ٩٩ .
٥ ـ سورة النحل آية ١٥ .

سماها الله اعلاماً في قوله : (وَمِنْ آيَاتِهِ الجَوَارِي فِي البَحْرِ كَالأَعْلامِ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)[1] أي كالجبال والأعلام جمع علم ، والعلم ما يعلم به كالعلامة ، ومنه أعلام الطرق المنصوبة ، ومنه يقال لدلائل النبوة أعلام النبوة .

ويقال للراية المرفوعة أنها علم ، وأنها جعلت علامة لصاحبها وأتباعه والعالم بالفتح مثل الخاتم ما يعلم به ، كما أن الخاتم ما يختم به ، وهو بمعنى العالم[2] ويسمى كل صنف من المخلوقات عالماً لأنه علم وبرهان على الخالق تعالى بخلاف العالم بالكسر ، فإنه الذي يعلم كالخاتم بالكسر فإنه الذي يختم قال تعالى : (وَلَكِن رَسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ)[3] لأنه ختمهم كما يسمى الماحي والحاشر ، والعاقب .

وقد قرىء وخاتم أي ختموا به. فالجبال أعلام ، وهي علامات لمن في البر والبحر يستدل بها على ما يقاربها من الأمكنة ، فإنه يلزم من وجودها وجوده وهي لا تزال دالة ما دامت موجودة ومدلولهاموجوداً ، وهي أثبت من غيرها فقد يكون عندها قرية وسكان ، فيكون علماً عليهم ، ثم قد تخرب القرية ويذهب السكان فتزول الدلالة لزوال الملزوم ، وهذا كله مما يبين أن الدليل قد يكون معيناً بل الآيات كلها معينة ، وأن يكون مطابقاً ملازماً لمدلوله ليس أحدهما أعم من الآخر كالثريا مع الدبران وكالجدي مع بنات نعش ونحو ذلك ، فتبين غلط من ذكر أنه يحصر الأدلة فيقال إما أن يستدل بالعام على الخاص ، أو بالخاص على العام أو بأحد الخاصين على الآخر ، والأول هو القياس الشمولي ، والثاني هو الإستقراء ، والثالث هو التمثيل ، وقد بينا ما في هذا الكلام من الغلط

١ ـ سورة الشورى آية ٣٢ .
٢ ـ وهو بمعنى العالم اي لانه يعلم به نسبة المختوم الى صاحبه .
٣ ـ سورة الاحزاب آية ٤٠ .

في حصره ، وفي حكم أقسامه، فإن هؤلاء المقسمون للأمور العامة كثيراً ما يغلطون في هذا وهذا إذ كان المقسم يجب أن يستوفي جميع الأقسام ولا يدخل فيها ما ليس منها كالحاد، وهم يغلطون فيها كثيراً لعدم إحاطتهم بأقسام المقسوم ، كما يقسمون أقسام الموجودات أو أقسام مدارك العلم أو أقسام العلوم أو غير ذلك ، وليس معهم دليل على الحصر إلا عدم العلم ، وحصر الأقسام في المقسوم هو من الاستقراء ، ثم إذا حكموا على تلك الاقسام بأحكام فقد يغلطون أيضاً ، كما قد ذكر هذا في غير هذا الموضع مثل غلط من حصر الأدلة في هذه الأنواع من أهل المنطق ومن تبعهم .

وقد بسط هذا في مواضع ، وذلك مثل قولهم الدليل إما أن يستدل بالعام على الخاص، أو بالخاص على العام ، أو بأحد الخاصين على الآخر، فإن الدليل أولاً لا يكون قط أعم من المدلول عليه ، إما مساوياً له ، وإما أخص منه ، فإن الدليل ملزوم للمدلول عليه ، والملزوم حيث تحقق تحقق اللازم ، وإذا انتفى اللازم انتفى الملزول ، فحيث تحقق الدليل تحقق المدلول عليه ، فإذا كان مساوياً لـه أو أخص كان حيث تحقق المدلول ، كما أنه حيث تحقق ما هو ناطق النطق الذي يختص الإنسان تحقق الإنسان ، وتحقق أيضاً ما هو أعم من الإنسان وهو ثبوت حيوان وجسم حساس نام متحرك بالإرادة، بمعنى أنه تحقق مطلق هذا الجنس، وإلا فلم يوجد شيء أعم من الإنسان بمجرد وجوده، لكن وجد من صفاته ما يشبه به غيره ويصح إطلاقه عليه وعلى غيره ، وهو مسمى الجسم والحيوان ونحو ذلك ، وكذلك إذا وجد آية أو خبر يدل على الإيجاب أو التحريم لزم ثبوت الإيجاب أو التحريم ، وقد ثبت الإيجاب والتحريم بآية أخرى أو خبر آخر ، فلهذا قيل الدليل يجب طرده ولا يجب عكسه وإذ كان الدليل لا يكون أعم من المدلول عليه فقولهم إما أن يستدل بالعام

على الخاص إنما أرادوا به القياس الشمولي الذي هو مقدمتان صغرى ، وكبرى ، كقولنا النبيذ المتنازع فيه مسكر ، وكل مسكر حرام أو كل مسكر خمر ، كما ثبت في صحيح مسلم عن ابن عمر عن النبي ﷺ أنه قال : « كُلُّ مُسْكِرٍ خَمْرٌ وَكُلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ » بين أن المسكر موصوف بأنه خمر ، وبأنه حرام ولم يقصد القياس الشمولي ، وهو أن يستدل على أن المسكر حرام فالرسول أجل من هذا شرعاً وعقلاً ﷺ فإنه بكلامه يثبت الاحكام، وغيره إذا قال كل مسكر خمر أو حرام احتاج أن يستدل عليه ، وأما هو فيستدل بنفس كلامه ، والنظم الشمولي المنطقي لا يوجد في كلام فصيح ، بل هو طويل لا يحتاج إليه كما قد بسط في مواضع ، وبين أن الدليل قد يكون مقدمة واحدة وقد يكون مقدمتين ، وقد يكون ثلاث مقدمات وأربع وأكثر بحسب ما يحتاج إليه المستدل الطالب لدلالة نفسه أو الطالب ليدل غيره ، فإنه قد لا يحتاج إلا إلى مقدمة واحدة مثل من عرف أن الخمر حرام ، لكن لم يعرف أن كل مسكر هو خمر ، فإذا عرف بالنص أن كل مسكر خمر عرف أن كل مسكر حرام ، وكان علمه موقوفاً على مقدمة واحدة بخلاف من لم يكن عرف بعد أن الخمر حرام فيحتاج إلى مقدمة ثانية ، ثم إن كان عرف أن محمداً رسول الله بنصوصه المتواترة ، كفاه ذلك ، وإن كان لم يقر بنبوته احتاج إلى مقدمة ثالثة وهو الإيمان بأنه رسول الله لا يقول على الله إلا الحق ، ويذكر له من دلائل النبوة واعلامها ما يعرف به ذلك فيهتدي إن كان طالب علم وتقوم عليه الحجة إن لم يكن ، كذلك فقول هؤلاء في مثل هذا أنا استدللنا بالعام على الخاص ليس عظيم ، فإن المداول عليه وهو تحريم النبيذ المتنازع فيه مثلاً وإن كان أخص من تحريم المسكر والخمر ، فالدليل ليس هو القضية العامة ، بل الدليل أن النبيذ المتنازع فيه مسكر ، وهو إحدى المقدمتين ، وهذه قضية خاصة أخص من مسمى المسكر ، فإن المسكر يتناول المتفق على تحريمه والمتنازع فيه وهذا هو الحد

الأوسط ، وهو المتكرر في المقدمتين الذي هو محمول في الصغرى موضوع في الكبرى .

فالإستدلال وقع بإسكاره على أنه خمر ومحرم ، ومسكر النبيذ المتنازع فيه أخص من مسمى المسكر ، والخمر .

والمقدمة الثانية الكبرى وهي قولنا : وكل مسكر خمر : ليست هي الدليل بل لا بد من الصغرى معها وهي خاصة ، فالمدلول عليه إن كان تحريم النبيذ المتنازع فيه ، فهذا إنما يدل على تحريمه أنه مسكر وليس إسكاره أعم منه بل يلزم من ثبوت إسكاره ثبوته ، فإن ثبوت الموصوف بدون الصفة ممتنع ، فإسكاره دل على تحريمه ، وليس تحريمه أعم من إسكاره بل جنس الاسكار والحرام أعم من هذا المسكر ، فهذا المحرم ، لكن هذا العام ليس هو الدليل بدون الخاص ، بل قوله كل مسكر حرام يدل على تحريم كل مسكر مطلقاً من غير تعيين فيكون الاسكار مستلزماً للتحريم والمسكر أخص من الحرام ، وهذا استدلال بالخاص على العام ، فوجود المسكر أخص من وجود الحرام حيث كان مسكر كان الحرام موجوداً ، وليس إذا كان الحرام موجوداً يجب وجود المسكر لأن المحرمات كثيرة كالدم والميتة ولحم الخنزير ، فالحد الأوسط وهو المسكر دل على ثبوت الأعم وهو التحريم من الأخص [1] في الأخص وهو النبيذ المتنازع فيه ، فالمدلول عليه التحريم وهو أعم من المسكر فهو استدلال بالخاص على العام ، لكن المعنى العام الكلي لا يوجد في الخارج عاماً كلياً بل معيناً ، فهو استدلال على نوع من أنواعه وهو التحريم الثابت في النبيذ المتنازع فيه ، وهذا أخص من مطلق التحريم ، كما أن مسكره أخص من مطلق المسكر ، ومن هنا ظنوا أنهم استدلوا بالعام على الخاص حيث استدلوا بتحريم كل

---

١ ـ اي وهو المسكر .

مسكر على تحريم هذا المسكر ، وليس الأمر كذلك بل الذي دل على تحريم هذا المسكر ليس هو مجرد القضية العامة الكلية، بل لا بد معها من قضية أخص منها جزئية مثل قولنا : هذا النبيذ مسكر ، وبهذا الخاص يعلم ثبوت ذلك لا بمجرد العام .

والدليل هنا ليس هو أعم من المدلول عليه ، ولا يمكن ذلك قط ، وأما قولهم إن الإستدلال بالخاص على العام هو الاستقراء، فمجرد الخاص إن لم يستلزم العام لا يدل عليه، والمستقرىء إن لم يحصر الإفراد لا يعلم أن ذلك المعنى شامل لها ، فما استدل بخاص على عام بل بعام مثله مطابق له ، وقولهم في قياس التمثيل أنه استدلال بخاص على خاص ليس كذلك فإن مجرد ثبوت الحكم في صورة لا يستلزم ثبوته في أخرى إن لم يكن بينهما قدر مشترك ، ولا يثبت بذلك حتى يقوم دليل على أن ذلك المشترك مستلزم للحكم ، والمشترك هو الذي يسمى في قياس التمثيـــل الجامع والوصف والعلة والمناط ونحو ذلك ، فإن لم يقم دليل على أن الحكم متعلق به لازم له لم يصح الإستدلال ، وهذا المشترك في قياس التمثيل هو الحد الأوسط في قياس الشمول بعينه .

فالمعنى في القياسين واحد ، ولكن التأليف والنظم متنوع إذا أراد أن يثبت تحريم النبيذ بقياس الشمول [1] قال : هذا هو حرام لأنه شراب مسكر ، فيكون حراماً قياساً على المسكر من العنب ، فالدليل هو المسكر وهو المشترك وهو الحد الأوسط ، ثم لا يكفي ذلك حتى يبين أن العلة في الأصل هي المشترك فيقول وعصير العنب حرم لكونه مسكراً ، وهذا الوصف موجود في الفرع الذي هو صورة النزاع فيجب اشتراكهما في التحريم ، وقوله إنه حرام لكونه مسكراً، هي المقدمة الكبرى في قياس الشمول وهي قولنا: كل مسكر حرام فثبت أن علة التحريم هي السكر

---

١ ـ لعله بقياس التمثيل بدل الشمول.

إما بالنص وهو قوله : كل مسكر حرام ، وإما بدلالة القرآن وهو أنه يوقع العداوة والبغضاء ويصد عن ذكر الله وعن الصلاة ، وإما بالمناسبة وإما بالدوران ، وإما بالسبر والتقسيم كما قد عرف في موضعه وهو نظير ما يستدل به على ثبوت القضية الكبرى .

ثم الدليل قد يكون قطعياً ، وقد يكون ظنياً لخصوص المادة لا تعلق لذلك بصورة القياس، فمن جعل قياس الشمول هو القطعي دون قياس التمثيل فقد غلط ، كما أن من جعل مسمى القياس هو التمثيل دون الشمول فلم يفهم معناه ، والذي عليه جمهور العلماء أن كلاً منهما قياس قد يكون قطعياً ، وقد يكون ظنياً ، وطائفة يقولون إسم القياس لا يستعمل إلا في الشمول كما يقوله ابن حزم ، ومن يقوله من المنطقيين، وطائفة يقولون لا يستعمل حقيقة إلا في التمثيل ، ومن هؤلاء من يقول ليس في العقليات قياس ، وهذا مبسوط في مواضع .

والمقصود هنا : التنبيه على جنس الأدلة، وأيضاً فالدليل قد يكون مطابقاً للمدلول عليه ملازماً له، ليس أعم منه ولا أخص منه، كالكواكب التي في السماء المتلازمة التي يستدل بكل منها على الآخر ، وكالناطقية والإنسانية التي يستدل بثبوت كل منهما على ثبوت الآخر ، وهذا خارج عن تقسيمهم، فإن هذا ليس استدلالاً بعام على خاص ، ولا بخاص على عام ، ولا بخاص على نظيره بطريق التمثيل، بل هو استدلال بأحد المتلازمين على الآخر قد يكونان عامين وخاصين ، فالكواكب خاصة. والعام كالإستدلال بالحيوانية على الحس والحركة إلا أنه استدلال بعام على عام ملازم له ، وكذلك الإستدلال بكونه جسماً على وجود جنس العرض، والإستدلال بوجود جنس العرض على وجود جنس الجسم هو استدلال بأحد العامين المتلازمين على الآخر .

والمقصود هنا : أن هذه المعينات كالنجوم والجبال والطرق وأعلام

الطرق كلها آيات وأعلام وعلامات على ما هو لازم لها في العادة ، وكذلك قد يستدل على منزل الشخص بما هو ملازم مـن دور الجيران والباب وغير ذلك ، وشجرة هناك وغير ذلك من العلامات التي يذكرها الناس يستدلون بها ، ويدلون غيرهم بها ، وسميت الجبال أعلاماً لأنها مرتفعة عالية ، والعالي يظهر ويعلم ويعرف قبل الشيء المنخفض ، ولهذا يوصف العالي بالظهور كقوله : فما اسطاعوا أن يظهروه ، ويقال ظهر الخطيب على المنبر ، ومنه قول النبي ﷺ في الحديث الصحيح « وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ » فأدخل معنى العلو في إسمه الظاهر لأن الظاهر يعلو والعالي يظهر ، وكذلك العالي يعرف قبل غيره ، ومنه قيل عرف الديك أصله فعل بمعنى مفعول أي معروف كما يقال كره بمعنى مكروه ، ومنه الأعراف وهي أمكنة عالية بين الجنة والنار ، وقد قيل في قوله وعلامات ، وبالنجم ، إن العلامات هي النجوم منها ما يكون علامة لا يهتدي به ، ومنها ما يهتدي به ، وقول الأكثرين أصح فـإن العلامات كلها يهتدى بها ، ولأنه قد قال : (وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَاراً وَسُبُلاً لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ وَعَلَامَاتٍ)[1] ؛

وهذا كله مما ألقاه في الأرض ، وهو منصوب بألقى ، أو بفعل من جنسه كما قال بعضهم أي وجعل في الأرض أنهاراً ، لأن الإلقاء من جنس الجعل . وبسط ما في هذا من اعراب ومعان له مقام آخر .

والمقصود هنا : ذكر العلامات ، والعلامات يدخل فيها ما تقدم من الرواسي والسبل ، فإن كونها رواسي وسبلاً يسلكها الناس غير كونها علامات ، والعطف قد يكون لتغاير الصفات مع اتحاد الذات كقوله : (الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى)[2] . وأمثاله ، فكيف إذا

---

١ ـ سورة النحل آية ١٥ .   ٢ ـ سورة الاعلى آية ٢ ـ ٣ .

كانت العلامات تتناول هذا وغيره، فإن الجبال أعلام وهي علامات، وكذلك الطرق يستدل بها السالك فيها ، ولهذا يسمى الطريق إماماً لأن السالك يأتم به ، وكذلك يسمون ما يستدل به المستدل طريقاً ومسلكاً ، ويقال لأصحاب هذا القول عدة طرق ومسالك حتى أطلقوا على ما يصنف من الإحتجاج على مسائل النزاع طريقة لأنه فيه أدلة المصنف على موارد النزاع ، ومن هذا الباب الإستدلال على المرض بعلامات له ، والإستدلال بالأصوات فإن كانت كلاماً كانت الدلالة قصدية إرادية قصد المتكلم أن يدل بها ، وهي دلالة وضعية عقلية ، وإن كانت غير كلام كانت الدلالة عقلية طبعية، كما يستدل بالأصوات التي هي بكاء وانتحاب وضحك وقهقهة ونحنحة وتنخم ، ونحو ذلك على أحوال المصوت :

ومن الدلائل الشعائر مثل شعائر الإسلام الظاهرة التي تدل على أن الدار دار الإسلام كالأذان والجمع والأعياد .

وفي الصحيحين عن أنس رضي الله عنه قال : « كان رسول الله ﷺ إذا غزا قوماً لم يغز حتى يصبح ، فإن سمع أذاناً أمسك ،وإن لم يسمع أذاناً أغار بعدما يصبح » هذا لفظ البخاري . ولفظ مسلم « كان يغير إذا طلع الفجر وكان يستمع الأذان فإن سمع أذاناً أمسك وإلا أغار فسمع رجلاً يقول الله أكبر الله أكبر فقال رسول الله ﷺ على الفطرة ثم قال أشهد أن لا إله إلا الله فقال خرجت من النار »؛وعن عصام المزني قال : كان النبي ﷺ إذا بعث السرية يقول : « إذا رأيتم مسجداً،أو سمعتم منادياً فلا تقتلوا أحداً » رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه .

ومن هذا النوع دلائل الجهات ، ومنه دلائل القبلة يستدل عليها بالنجوم والشمس والقمر والرياح والطرق وغير ذلك من الدلائل ، كما قد ذكر الناس ما ذكروه من دلائل القبلة .

فصل

الدليل والسمة والعلامة

والنوع الثاني ما يدل بقصد الدال به ، كالكلام وكالعقد باليد ، والإشارة بها أو بالعين أو الحاجب أو غير ذلك من الأعضاء ، وقد يسمى ذلك رمزاً ووحياً ، وكذلك الخط خط الكتابة بخلاف الإستدلال بآثار خطى الإنسان ، فإن هذا من النوع الأول ، وكذلك القيافة وهي من النوع الأول ، وهو الإستدلال بالشبه على النسب ، وكذلك القايف قد يعرف بالأثر من هو الواطيء وأين ذهب ، ومن هذا النوع الأميال التي جعلت علامات على حدود الحرم ، والأميال التي تجعل في الطرقات فإنه قصد بها الدلالة على الطريق أي قصد الناس بها ذلك .

وهذا النوع قسمان : منه ما يكون بالإتفاق والمواطأة بين إثنين فصاعداً ، كما يتفق الرجل مع وكيله على علامة لمن يرسله إليه مثل وضع خنصره في خنصره ، ومثل وضع يده على ترقوته كما روى أن النبي ﷺ جعل ذلك علامة مع بعض الناس ، وكما يجعل الملوك وغيرهم لهم علامات عند بعض الناس من جاء بها عرفوا أنه مرسل من جهته ، ومن هذا الباب شعائر الناس في الحرب كل طائفة يعرف أصحابها بشعارها ، ولهذا قال الفقهاء ويجعل لكل طائفة شعاراً يتداعون به كما كان للمهاجرين شعار ، وللأنصار شعار .

ومن هذا الباب الأعلام والرايات للمقدمين ، فان الراية ترى فيعلم صاحبها . وكذلك العلم يعلم فيعلم صاحبه ، وقد تميز راية عن راية لما يختص به صاحبها ، ويسمى ذلك رنكاً ، وقد يكون ذلك إسم الشخص وقد يكون غير ذلك ، لكن قد اتفق مع غيره على أن هذا علامة وآية له ، فمتى رؤى استدل به على أنه هو المضاف إليه ذلك العلم ، ويجعل هذا على الدور والثياب والدواب ، ومنه الوسم الذي يعلم به إبل الصدقة وابل الجزية ، فإن الوسم علامة مقصودة للواسم ، وأما السيما فهي علامة بنفسها لم يقصدها مثل سيما المؤمنين وسيما المنافقين ، قال تعالى في المؤمنين : (سِيمَاهُمْ فِي وَجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السجُودِ) [1] . وقال في المنافقين : (فَلَعَرفتهُم بِسِيماهُمْ) [2] . وقال : (عُتُلٍ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ) [3] . قيل له زنمة من الشر يعرف بها ومنه سيما المؤمنين يوم القيامة التي بها يعرفهم نبيهم ، وهو أنهم غر محجلون من آثار الوضوء ، فهذه علامة وآية لكنها من النوع الأول لم يقصد المسلمون أن يتوضؤوا ليعرفوا بالوضوء ، لكن من اللوازم لهم الوضوء للصلاة ، وقد جعل الله أثر ذلك نوراً في وجوههم وأيديهم ، وليس هذا لغيرهم فإن هـذا الوضوء لم يكن لغيرهم ، والحديث الذي يروى هذا وضوئي ووضوء النبيين من قبلي ، ضعيف بخلاف الصلاة في المواقيت الخمس ، فإن الأنبياء كانوا يصلون في هذه المواقيت كما قال هذا وقتك ووقت الأنبياء قبلك ، والوسم والسيما من الوسم متفقان في الاشتقاق الأوسط فإن أصل سيما سوماً ، فلما سكنت الواو انكسر ما قبلها قلبت ياء مثل ميقات وميعاد ونحو ذلك ، والاسم أيضاً من هذا الباب وهو علم على المسمى ، ودليل عليه وآية عليه وهذا المعنى ظاهر فيه ، فلذلك قال الكوفيون : أنه مشتق من

---

١ ـ سورة المجادلة آية ٢٩ .

٢ ـ سورة محمد آية ٣ .

٣ ـ سورة القلم آية ١٣ .

الوسم ، والسمة وهي العلامة ، وقال البصريون : بل هو مشتق من السمو ، فإنه يقال في تصغيره سمي لا وسيم ، وفي جمعه أسماء لا أوسام، وفي تصريفه سميت لا وسمت ، وكلا القولين حق ، لكن قول البصريين اتم فإنه مشتق منه على قولهم في الاشتقاق الأصغر وهو اتفاق اللفظين في الحروف وتأليفها ، وعلى قول الكوفيين هو مشتق منه من الاشتقاق الأوسط ، وهو اتفاق اللفظين في الحروف لا في ترتيبها كما قلنا في الوسم ، والسيما والسمو هو العلو والسامي هو العالي ، والعلو مستلزم للظهور كما تقدم ، فالعالي ظاهر والظاهر عال ، فكان الاسم بعلوه يظهر فيدل على المسمى لأنه يظهر باللسان والخط ، ويظهر للسمع المسمى فيعرف بالقلب .

وقد تقدم أنهم يسمون الجبال أعلاماً لما فيها من الظهور ،ودلالة الاسم على مسماه دلالة قصدية ، فإن المسمي يسمى بالاسم ليعرف به المسمى ، وليدل عليه،تارة يقصد به الدلالة على مجرد نفسه كالأسماء الأعلام للأشخاص ، وتارة يقصد به الدلالة على ما في اللفظ من المعنى كالأسماء المشتقة مثل العالم والحي والقادر ،ومن هذا الباب تسميةالمعبودين آلهة ، سموها بما لا تستحقه كما يسمى الجاهل عالماً ، والعاجز قادراً والكذاب نبياً ، فلهذا قال تعالى : (إنْ هي إلاَّ أسماءٌ سمَّيْتُموها أنتم وآباؤكُم ما أنزلَ اللهُ بها مِن سُلْطان)[1] .والنوع الثاني من هذه الدلالة القصدية أن يقصد الدال الدلالة من غير مواطأة مع المستدلين على أنه دليل ، لكن هم يعلمون أن قصد الدلالة لعلمهم بأحواله مثل ما يرسل الرجل شيئاً من ملابسه المختص به مع شخص فيعلمون أنه أرسلها علامة علىأنه أرسله.

قال سعيد بن جبير عن ابن عباس أن في ذلك لآية للمؤمنين ، قال العلامة : تكون بين الرجل وأهله،رواه ابن المنذر ، حدثنا موسى بن

---

١ ـ سورة النجم آية ٢٣ .

هرون ، حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة ، ثنا وكيع عن سفيان ، عن سماك ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، ورواه ابن أبي حاتم : ثنا أبو سعيد ابن يحيى بن سعيد القطان ، ثنا أبو أسامة حدثني سفيان عن سماك عن سعيد بن جبير عن ابن عباس : أن في ذلك لآية قال : علامة ، ألم تر إلى الرجل إذا أراد أن يرسل إلى أهله في حاجة أرسل بخاتمه ، أو بثوبه فعرفوا أنه حق ، فتارة يرسل خاتمه معه فيعلمون أنه أرسله ليعلموا أنه أرسله إذ كانوا قد علموا أن الخاتم معه ، وأنه ليس في إرساله مع ذلك الشخص الذي لا يعرفونه مقصود له إلا أن يكون علامة على أنه أرسله اليهم فيصدقونه فيما أخبر عنه ، وتارة يرسل معه عمامته ، أو نعليه ، وقد علموا أنه لا يخلع عمامته ويبعثها مع ذلك الشخص إلا لتكون علامة على صدقه كما فعل النبي ﷺ في غزاة الفتح لما كانت راية الخزرج مع سعيد بن عبادة ، وكان فيه حدة ، وقال لا قريش بعد اليوم ، اليوم يوم الملحمة ، اليوم يستحل الحرمة ، قيل للنبي ﷺ أنه يخاف منه أن يضع السيف في أهل مكة ، فقال : «قولوا له يُعطى الرّاية لابنه قَيْس» — فقال : إنه لا يقبل منه . فقال : «هذه عَمامتي قولوا له قَدْ أمَرَ رسولُ الله ﷺ بذلك» ، فلما رأى عمامته مع من جاء بها علم أنه ليس له في إعطائه عمامته مقصود إلا أن تكون علامة ، ولم يكن قبل ذلك قد واطأه على ذلك ، وكذلك لما أعطى أبا هريرة نعليه ليخرج فيبشر الناس بما ذكره له ، فإنهم إذا رأوا معه نعليه علموا أنه لم يعطه النعلين إلا علامة ، وكذلك قد يكون بين الشخص وبين غيره سر لم يطلع عليه المرسل ، فيقول له اعطني علامة ، فيقول : قل له بعلامة ما تكلمت أنت وهو في كذا وكذا ، أو ما فعلت أنت وهو كذا وكذا ، فيعلم المرسل اليه أن المرسل هو أعلم هذا الرسول بهذا الأمر ، إذ كان غيره لم يعلمه ، ويعلم أنه ليس له في إعلامه به مقصود إلا أن يكون علامة له على تصديقه ، ثم أكثر هـــذه الآيات التي هي علامات للناس يرسلونها مع من يرسلونه ليعرف صدقه ،

هي قطعية عند المستدل بها المرسل اليه ، من الأهل والأصدقاء والوكلاء والنواب وغيرهم ، يأتيهم الرجل بعلامة وهي مستدلة على حبهم فيعلمون قطعاً أن هذا جاء من عنده ، ويعلمون قطعاً أنه لم يرسله بتلك العلامة إلا ليعلموا صدقه. لا يخطر لسعد بن عبادة حين رأى عمامة النبي ﷺ معهم أنهم أخذوها بغير قصده بأن تكون سقطت منه ونحو ذلك ، بل قد علم أنها كانت على رأسه وهو راكب في الجيش ، وقد أرسلها مع هذا ، وكذلك خاتم الشخص الذي يعلمون أنه لا ينزع خاتمه من يده ويعطيها لغيره ليعبث بها عنه ، وهو لا يختم بها شيئاً إلا لذلك ، وقد يقع في مثل ذلك احتمالات فيستعمل المستدلون التقسيم ، فإن الاستدلال مداره على أنه أرساه بالعلامة ، وأنه إنما أرسله بها ليبين صدقه ، فقد يعرض في المقدمة الأولى أنه أخذها بغير اختياره ، أو أن الخاتم سقط منه ، أو إن كان مسافراً أنه قتل ، أو مات ، فقد يقع مثل ذلك ، وقد يؤخذ خاتم الرجل بغير أمره ، ويختم به كتابه .

كما حكي أن مروان فعل مثل ذلك بعثمان ، والمقدمة الثانية أنه قد يرسله بالخاتم ليختم به شيئاً أو ليصلحه ونحو ذلك ، فإذا عرض مثل هذا الاحتمال وقوي توقفوا ، وإن عرفوا انتفاء ذلك مثل أن يكون قد ذهب من عندهم قريباً ، وليس له ما يختم به ونحو ذلك ، قطعوا بأنه أرسله علامة ، ثم بعد هذا قد يعلمون أنه أرسله ، لكن قد يكذب عليه ، ولكن العهدة في هذا على المرسل ، فإن إرسال العلامة هو أعلام منه لهم بأني أرسلته اليكم ، فهذا الفعل هو مثل هذا القول يجري مجرى أعلامهم وإخبارهم بأنه أرسله، وتصديقه في قوله هو أرسلني. والأخبار تارة يكون بالقول وتارة يكون بالعمل ، كما يعلم الرجل غيره بالإشارة بيده ورأسه وعينه وغير ذلك، وإن لم يتقدم بينهما مواضعة لكن يعلم قصده ضرورة ، مثل أن يسأله عن شيء هل كان ؟ فيرفع رأسه أو يخفضه أو يشير بيده ،

أو يكون قائماً فيشير اليه اجلس ، أو قاعداً مطلوباً فيشير اليه أن اهرب ، فقد جاء عدوك، أو نحو ذلك من الإشارات التي هي أعمال بالأعضاء ، وهي تدل دلالة ضرورية تعلم من قصد الدال كما يدل القول ، وقد تكون أقوى من دلالة القول ، لكن دلالة القول أعم وأوسع ، فإنه يدل على الأمور الغائبة ، وعلى الأمور المعضلة ، وهذه الأدلة العيانية هي أقوى من وجه ، ولكن ليس فيها من السعة للمعاني الكثيرة ما في الأقوال .

فصـل

الدليل مستلزماً للمدلول

خاصة الدليل أن يكون مستلزماً للمدلول ، فكل ما استلزم شيئاً كان دليلاً عليه ، ولا يكون دليلاً إلا إذا كان مستلزماً ، ثم دلالة الدليل تعلم كما يعلم لزوم اللازم للملزوم ، وهذا لا بد أن يعلم بالضرورة ، أو بدليل ينتهي إلى الضرورة ، وعلى هذا فآيات الأنبياء هي أدلة صدقهم وبراهين صدقهم ، وهي ما يستلزم صدقهم ، ويمتنع وجوده بدون صدقهم ، فلا يمكن أن يكون ما يدل على النبوة موجوداً بدون النبوة ، ثم كونه مستلزماً للنبوة ، ودليلاً عليها يعلم بالضرورة ، أو بما ينتهي إلى الضرورة ،فآيات الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه لا تحد بحدود يدخل فيها غير آياتهم كحد بعضهم ،كالمعتزلة وغيرهم بأنها خرق العادة ، ولم يعرف مسمى هذه العبارة ، بل ظن أن خوارق السحرة والكهان والصالحين خرق للعادة ، فكذبها وحد بعضهم بأنها الخارق للعادة إذا لم يعارضه أحد ، وجعل هذا فصلاً احترز به عن تلك الأمور ، فقال : المعجزة هي الخارق المقرون بالتحدي بالمثل مع عدم المعارضة ، وجوز أن يأتي غير الأنبياء بمثل ما أتوا به سواء مع المعارضة ، وجعل ما يأتي بـه الساحر والكاهن معجزات مع عدم المعارضة ، وحقيقة المعجز هذا ما لم يعارض ، ولا حاجة إلى كونه خارقاً للعادة ، بل الأمور المعتادة إذا لم تعارض كانت آية ، وهذا باطل قطعاً ، ثم مسيلمة والأسود العنسي وغيرهما ، لم يعارضوا ،

ثم يقال ما يعني بعدم المعارضة في ذلك المكان والزمان ، فالسحرة والكهان لا يعارضون والعنسي ومسيلمة لم يعارضا في مكانهم ووقت اغوائهم ، وإن قال لا يعارض البتة فمن أين يعلم هذا العدم ، فإن قيل فما آيات الأنبياء ؟ قيل : هي آيات الأنبياء التي تعلم أنها مختصة بالأنبياء ، وأنها مستلزمة لصدقهم ، ولا تكون إلا مع صدقهم ، وهي لا بد أن تكون خارقة للعادة ، خارجة عن قدرة الانس والجن ، ولا يمكن أحداً أن يعارضها ، لكن كونها خارقة للعادة ، ولا تمكن معارضتها هو من لوازمها ليس هو حداً مطابقاً لها ، والعلم بأنها مستلزمة لصدقهم قد يكون ضرورياً كانشقاق القمر وجعل العصا حية ، وخروج الناقة .

فمجرد العلم بهذه الآيات يوجب علماً ضرورياً بأن الله جعلها آية لصدق هذا الذي استدل بها ، وذلك يستلزم أنها خارقة للعادة ، وأنه لا يمكن معارضتها ، فهذا من جملة صفاتها لا أن هذا وحده كاف فيها ، وهذا إذا قال ، من قال : إن فلاناً أرسلني اليكم فإنه يأتي بما يعلم أنه علامة ، والعلامة ، والدليل ، والآية ، حدها أنها تدل على المطلوب ، وآيات الأنبياء تدل على صدقهم ، وهذا لا يكون إلا مع كونها مستلزمة لصدقهم ، فيمتنع أن تكون معتادة لغيرهم ، ويمتنع أن يأتي من يعارضهم بمثلها ، ولا يمتنع أن يأتي نبي آخر بمثلها ، ولا أن يأتي من يصدقهم بمثلها ، فإن تصديقه لهم يتضمن صدقهم فلم يأت إلا مع صدقهم ، وقد تكون الآيات تدل على جنس الصدق وهو صدق صاحبها فيلزم صدقه إذا قال : أنا نبي ، ولكن يمتنع أن يكون لكاذب ، فهذا ونحوه مما ينكشف به حقيقة هذا الباب وهو من أهم الأمور ، وإذا فسر خرق العادة بأنها خرق لعادات غير الأنبياء ، أي لا يكون لغير جنسهم وجنس من صدقهم ، وفسر عدم المعارضة بأنه لا يقدر أن يأتي بها من ليس بنبي أو متبع لنبي ، كان المعنى واحداً واتحدت التفاسير الثلاثة »

فصل

آيات الانبياء علامات وبراهين من الله

والله سبحانه دل عباده بالدلالات العيانية المشهودة ، والدلالات المسموعة وهي كلامه ، لكن عامتهم تعذر عليهم أن يسمعوا كلامه منه ، فأرسل اليهم بكلامه رسلاً وأنزل اليهم كتباً ، والمخلوق إذا قصد أعلام من يتعذر أن يسمع منه أرسل اليه رسلاً ، وكتب اليه كتباً كما يفعل الناس ولاة الأمور وغيرهم ، يرسلون إلى من بعد عنهم رسولاً ، ويكتبون اليه كتباً ، ثم أنه سبحانه جعل مع الرسل آيات هي علامات وبراهين ، هي أفعال يفعلها مع الرسل يخصهم بها لا يوجد لغيرهم ، فيعلم العباد لاختصاصهم[1] بها أن ذلك أعلام منه للعباد وأخبار لهم أن هؤلاء رسلي ، كما يعلمهم بكلامه المسموع منه ، ومن رسوله ، ولهذا قد يعلم برسالة رسول بأخبار رسول أخبر عنه ، وقد يخبر عن إرساله بكلامه لمن سمع كلامه منه كما أخبر موسى وغيره بالوحي الذي يوحيه اليهم ، فآيات الأنبياء هي علامات وبراهين من الله تتضمن أعلام الله لعباده وإخباره ، فالدليل وهو الآية والعلامة لا تدل إلا إذا كان مختصاً بالمدلول عليه مستلزماً له ، إما مساو له ، وإما أخص منه ، لا يكون أعم منه غير مستلزم له ، فلا يتصور أن يوجد الدليل بدون المدلول عليه ، فالآيات التي أعلم الله بها رسالة رسله وصدقهم لا بد أن تكون مختصة بهم مستلزمة لصدقهم ،

---

١ ـ الضمير عائد للرسل .

فإن الإعلام والأخبار بأن هذا رسول وتصديقه في قوله: إن الله أرسلني، لا يتصور أن يوجد لغير رسول، والآيات التي جعلها الله علامات هي أعلام بالفعل الذي قد يكون أقوى من القول، فلا يتصور أن تكون آيات الرسل إلا دالة على صدقهم، ومدلولها أنهم صادقون لا يجوز أن توجد بدون صدق الرسل البتة، وكون الرب أراد بها إعلام عباده بصدقهم، وصدقهم بها في أخبارهم أنه أرسلها وكونها آية وعلامة على صدقهم أمر يعلم كما تعلم دلالة سائر الأدلة، كما يعلم من الرجل أصدقاؤه ووكلاؤه أنه أرسل هذا بهذه العلامات، فتارة يعلم ذلك بالضرورة بعد تصور الأمر، وتارة يحتاج إلى نظر، هل هذه العلامة منه أو من غيره، وهل هو أرسله بها أو غيره، وهل قصد بها الأعلام، والتصديق أم لا وهل يعلم من حال الذاكر أنه أرسله أنه صادق، فقد يرسل من يعلمون هم صدقه، وأنه لا يكذب، فيعلمون صدقه بمجرد قوله هو أرسلني من غير آية ولا علامة .

ولهذا إذا قال : من صدقه أنه رأى رؤيا صدقه، وجزم بصدقه من قد خبر صدقه، والرؤيا جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة، وكذلك لو أخبر بغير ذلك كما أخبر عمران بن حصين أن الملائكة تسلم عليه، فلم يشك الذين أخبرهم في صدقه من غير آية، فمن كان يعلم صدق موسى والمسيح ومحمد وغيرهم، وأنهم لا يكذبون في أخف الأمور، فكيف بالكذب على الله إذا أخبرهم أحدهم بما جاءه من الوحي والرسالة، وما غاب من الملائكة، فإنه قد يجزم بصدقه من غير آية لا سيما إن كان ما يقوله لهم مما يؤيد صدقه، ولهذا لم يكن من شرط الإيمان بالأنبياء وجود الآيات، بل قد يعلم صدقهم بدون ذلك، كما قد بين في موضع آخر.

وتارة يحتاجون إلى العلامة، وتارة يعلمون كذبه بأن يذكر عن صاحبهم ما يعلمون هم خلافه ويصفه بما علموا نقيضه، وقد يظهر لهم

من قصده أنه كذاب ملبس طالب أغراض له، إما مال يعطونه، أو ولاية يولونه أو امرأة يزوجونه بها، أو غير ذلك من أغراض النفوس، فيسألونه عن مقصوده ، فإذا عرفوا مقصوده فقد يعلمون كذبه أو صدقه ، ومثل هذا كثير في عادات الناس ، فكثيراً ما يجيء الرجل بما يزعم أنه علامة ، وتكون مشتركة فيقال له : ما تريد؟فيذكر مراده فيعلمون كذبه ، فدلائل الصدق والكذب لا تنحصر كدلائل الحبّ والبغض هي كثيرة جداً ، وهذا يعرفه من جرب عادات الناس .

فصـل

معجزات الانبياء برهان ودليل

فالآيات التي تكون آيات للأنبياء ، هي دليل وبرهان ، والله تعالى سماها برهاناً في قوله لموسى : (فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَبِّكَ)[1] وهي العصا واليد ، وسماها برهاناً وآيات في مواضع كثيرة من القرآن ، فحدها حد الدليل والبرهان ، وهي أن تكون مستلزمة لصدق النبي فلا يتصور أن توجد مع انتفاء صدق من أخبر أن الله أرسله ؛ فليس له إلا حالان إما أن يكون الله أرسله فيكون صادقاً ، أو لا يكون أرسله فلا يكون صادقاً ، فآيات الصدق لا توجد إلا مع أحد النقيضين وهو الصدق ، لا توجد قط مع الآخر ؛ وهو انتفاء الصدق كسائر الأدلة التي هي البراهين والآيات ، والعلامة ، فإنها لا توجد إلا مع تحقق المدلول عليه ، لا توجد مع عدمه قط ، إذ كانت مستلزمة له يلزم من وجود الدليل وجود المدلول عليه ؛ فلا يوجد الدليل مع عدم المدلول عليه ؛ فلا توجد آياتهم مع عدم صدقهم ، فيجب أن يتصور هذا الموضع ؛ فإنه حق معلوم بعد تصوره لكل العقلاء بالضرورة ؛ فلا يمكن أحداً كذب النبي أن يأتي بمثلها ؛ فإنه لو أتى بمثلها مع تكذيب النبي لكانت قد وجدت مع قوله : إني صادق ، ومع قول هذا المكذب أنه كاذب فلم يختص بصدقه ولم تستلزمه ؛ فلا يلزم إذا قال

---

١ ـ سورة القصص آية ٣٢ .

إني صادق أن يكون صادقاً ، وهذا قد أتى بمثل ما أتى به ، وقال إنــه كاذب ، ولا يكون إعلاماً من الله لعباده وإخباراً لهم بأني أرسلته ولا تصديقاً له كما لو قال رجل : إن فلاناً أرسلني ، وجاء بعلامة ذكر أنه خصه بها مثل أن يقول : العلامة أنه أعطاني خاتمه فيقول المكذب : وأنا أيضاً أعطاني خاتمه الأخرى لأصلحها له ، أو لأختم بها كذا وأنت إنما أعطاك خاتمه لتصلحها ، أو تختم بها ، فإذا أتى المكذب له بمثل ما أتى به امتنع كونها آية ، ولكن لو كان قد جاء بالخاتم غيره لأمر آخر أرساله له لم يمتنع ذلك ، بل قد جرت عادته معهم بأنه من أرسله يرسل معه خاتمه ، فقد صار إرسال الخاتم عادة له يدل على صدق من أرسله ، فهو يميز رسله بالخاتم لا يخص بها واحداً منهم ، وهي عادة منه لرسله ليست لغيرهم لا عادة ولا غير عادة ، فهذا شأن الآيات والعلامات التي يقصد الدال بها أن يدل بها .

فصل

الأدلة الدالة على المدلول

والله تعالى سماها آيات وبراهين ، وهو اسم مطابق لمسماه مطرد لا ينتقض ، فلا تكون قط إلا آيات لهم وبراهين ، وأما تسميتها بخرق العادة، فللناس في ذلك ثلاثة أقوال :

أحدها أن ذلك حد لها مطرد منعكس ، فكل خرق هو معجزة للنبي فهو خرق عادة . والثاني أن خرق العادة ، شرط فيها وليس بحد لها فيجب أن تكون خارقة لعادة ، ولكن ليس كل خارق للعادة يكون آية لنـــبي كأشراط الساعة ، بل أن يقع على وجه مخصوص مثل دعوى النبوة ، والاستدلال بها والتحدي بمثلها مع عجز الناس عن معارضته . والقول الثالث أن كونها خارقة للعادة ليس بحد، ولا شرط . قال القاضي أبو بكر في مناظرته في الكرامات ويقال لهم أيضاً : إن من الناس من لا يشترط في الآية المعجزة أن تكون خارقة للعادة ، ويقول إنما تكون آية إذا كانت من فعل الله مع التحدي بمثلها ، ودعوى النبوة فدلالتها على وجه لا يمكن أن يشترك في ادعائه الصادق والكاذب ، فإذا ظهرت على هذا الوجه كانت آية لمن فعلت على يده ، قال المجيبون بهذا ، ولهذا لم تكن أشراط الساعة آية لأحد وإن خرقت العادة إذ لم يكن معها دعوى نبوة ، ولأن موت زيد عند قول الرسول آيتي أن يميت الله زيداً ، عند دعائي موته ، فإذا مات

عند دعوته صار ذلك آية له ، وإن كان فعل الموت في الانسان وغيره من الحيوان معتاداً قال : إن قالوا لو كان كذلك لكان من قال آيتي أن تطلع الشمس وتغرب ، ويأتي الليل والنهار والضياء والظلام ، وفعل ذلك مع دعواه الرسالة كان آية له ، وإن لم يكن المفعول من ذلك خارقاً للعادة ، فلما لم يكن كذلك ، وإن كان واقعاً من فعل الله مع دعوى النبوة ، لكونه غير خارق للعادة ، بطل ما قلتموه ؟ يقال لهم : قد أجبنا عن هذا حين قلنا ، ويكون الواقع من فعل الله مع دعوى النبوة ، مما لا يشترك فيه الصادق والكاذب ، ويستوي مع ظهوره دعوى المحق والمبطل ، وطلوع الشمس وغروبها .

ولو قال النبي آيتي أن يطلنا السحاب الساعة ، وتزلزل الأرض ، وتحدث الأمطار بدعوى ، فحدث ذلك لكان آية له ، وإن كان مثل ذلك قد يحدث في العصر ويشاهد ، فإذا قال المتنبي : إنني معارضه وآيتي في كوني نبياً ظهور مثل ذلك منع منه ولم يحدث .

قلت هذا الذي ذكروه هو أيضاً خرق للعادة فإن ظهور مثل ذلك على هذا الوجه مما لم تجربه العادة ، وهو نفسه القاضي أبو بكر في هذا الكتاب كتاب البيان عن الفرق بين المعجزات والكرامات والحيل والكهانة والسحر والنيرنجيات ، قد قال : قيل هذا باب القول في معنى العادة وانخراقها ، والعادة التي إذا انخرقت دلت على صدق الرسل والاعتياد للأمر وتفصيل ذلك وتنزيله .

اعلموا رحمكم الله : أن الكل من سائر الأمم قد شرطوا في صفة المعجزات يكون خارقاً للعادة وإذا كان ذلك واجباً وجب معرفة هـذه العادة ومعرفة انخراقها ، فقد حكي هنا الإجماع ، وهناك صرح بالاختلاف وقوى ذلك القول ، وسبب ذلك اضطرابهم في معنى العادة وانخراقها ،

فإن كل قوم يفهمون غير ما يفهمه الآخرون ، والله تعالى إنما سماهـا آيات .

وهذا القول الذي ذكره وقواه وهو لا يشترط فيها أن تكون خارقة للعادة هو حقيقة قول القاضي وأمثاله من المتكلمين الأشعرية ومن وافقهم كالقاضي أبي يعلى وأمثاله ، فإن المعجزات عندهم لا تختص بجنس من الأجناس المقدورات ، بل خاصتها أن النبي يحتج بها ويتحدى بمثلها ، فلا يمكن معارضته فاشترطوا لها وصفين : أن تكون مقترنة بدعوى النبوة ، وجعلوا المدلول جزءاً من الدليل ، وأنها لا تعارض .

وبالأول فرقوا بينها وبين الكرامات ، وبه بالثاني فرقوا بينها وبين السحر والكهانة ، وصرحوا بأن جميع خوارق السحرة والكهان يجوز أن تكون معجزة لنبي ، لكن إذا كانت معجزة لم تمكن معارضتها ، فلو ادعى ساحر أو كاهن النبوة لكان الله يعجزه عن تلك الخوارق ، قد علم أن غيره من السحرة والكهان يفعل مثلها ، وليس بنبي ، وما يأتي به الأنبياء من المعجزات جوزوا أن يأتي بمثله الساحر والكاهن إلا ما منع منه السمع للاجماع ، على أن الساحر لا يقلب العصا حية ، وهذا الفرق ليس لما يختص به أحد النوعين ولا ضابط له ، وصرحوا بأنه لا يستثنى مـن الخوارق إلا ما انعقد عليه الاجماع وصرحوا بأن العجائب الطبعية مثل جذب حجر المغناطيس الحديد ، يجوز أن يكون معجزة ، لكن بشرط أن لا يعارض .

وكذلك الطلاسم وكذلك الأمور المعتادة يجوز أن تكون معجزة بشرط أن يمنع غيره منها فتكون المعجزة منع المعتاد ، فالخاصة عندهم فيها أنها لا تعارض وأنها تقترن بدعوى النبوة ، وقد يشترطون أن تكون خارقة للعادة لكن يكتفون بمنع المعارض ، فهو وحده خرق للعادة ، فلا يشترطون

هذا وهذا ، وقد اشترط القاضي أبو بكر أن يكون مما يختص الرب بالقدرة عليه ولا حقيقة له فإن جميع الحوادث كذلك عندهم ، وكل ما خرج عن محل قدرة العبد ، فالرب عندهم مختص بفعلـــه كخوارق السحرة والكهان ، وحقيقة الأمر أنه لا فرق عندهم بين المعجزات والكرامات والسحر والكهانة ، لكن هذه إذا لم تقترن بدعوى النبوة لم تكن آية ، وإذا اقترنت بها كانت آية بشرط أن لا تعارض ، ثم أنه لما أثبت النبوة قال أنه يجوز على النبي فعل كل شيء من الكبائر ، إلا أن يمنع من ذلك سمع ، كما قال كل ما كان معجزة للأنبياء يجوز أن يأتي به الساحر إلا أن يمنع منه سمع إذ كان في نفس الأمر لا فرق بين فعل وفعل . بل يجوز من الرب كل شيء ، فيجوز أن يبعث كل أحد ، ولا يقيم على نبوته دليلاً ، هذا حقيقة قولهم انه يجوز أن يبعث كل أحد وأنه إذا بعثه لا يقيم دليلاً على نبوته ، بل يلزم العباد بتصديقه بلا دليل يدلهم على صدقه ، فإن غاية هذا تكليف ما لا يطاق ، وهم يجوزونه .

وهذا الذي قالوه باطل من وجوه متعددة ، قد بسطت في غير هذا الموضع :

منها أنهم جعلوا المدلول عليه ، وهو إخبار النبي بنبوته وشهودهـــا وثبوتها جزءاً من الدليل ، قالوا : لأنها لو كانت معجزة لجنسها لم تقع إلا معجزة ، والخوارق التي تكون أمام الساعة ليست معجزة لأحد ، فعلم أن الدليل هو مجموع دعوى النبوة ، والخارق والجواب عن هذا مـــن وجهين : أحدهما أن تلك من آيات الله تعالى ، فالخوارق التي لا يقدر عليها العباد كلها آيات الله تعالى ، وهي دالة على ما يظهر دلالتها عليه تارة تكون تخويفاً ، كما قال النبي ﷺ : « أن الشمس والقمر آيتان مِنْ آياتِ اللهِ وأنهُما لا تَنْكَسِفانِ لِمَوْتِ أحَدٍ ولا لِحَياتِهِ ولكنَّهُما آيتانِ مِنْ آياتِ اللهِ يُخَوِّفُ اللهُ بهِما عِبادَهِ » .

والتخويف يتضمن الأمر بطاعته والنهي عن معصيته ، وإشراط الساعة آيات على قربها ، وعلى جزاء الأعمال ، وهو يتضمن الأمر بالطاعة والنهي عن المعصية .

والثاني أن يقال هي آيات على صدق الأنبياء فإنهم أخبروا بها وهي آية على ما أخبروا به ، وعلى صدقهم . وأيضاً فإن عامة معجزات الرسول لم يكن يتحدى بها ، ويقول ائتوا بمثلها ، والقرآن إنما تحداهم لما قالوا إنه افتراه ولم يتحدهم به ابتداء ، وسائر المعجزات لم يتحد بها ، وليس فيما نقل تحد إلا بالقرآن ، لكن قد علم أنهم لا يأتون بمثل آيات الأنبياء ، فهذا لازم لها ، لكن ليس من شرط ذلك أن يقارن خبره ، وأيضاً فمن آيات الأنبياء ما كان قبل ولادتهم ، وقبل أنبائهم وما يكون بعد موتهم ، فإن الآية دليل على صدق الخبر بأنه رسول الله ، وهذا الدليل لا يختص لا بمكان ولا زمان ، ولا يكون هذا الدليل إلا من جنس لا يقدر عليه الإنس كلهم ، ولا الجن ، فلا بد أن يكون جنسه معجزاً أعجز الانس والجن .

وأما قولهم خاصة المعجز عدم المعارضة ؟ فهذا باطل ، وإن كان عدم المعارضة لازماً له ، فإن هذا العدم لا يعلم إذ يمكن أن يعارضه من ليس هناك إذا كان مما يعلم أنه معتاد مثل خوارق السحرة ، والكهان ، فإنه وإن لم يكن أن يعارض في هذا الموضع ففي السحرة والكهان من يفعل مثلها مع أنه ليس بنبي ، ودليل النبوة يمتنع ثبوته بدون النبوة ، وإذا قالوا : الدليل هو مجموع الدعوى ، والدليل : تبين خطأهم ، وأن القوم لم يعرفوا دلائل النبوة ، ولا أقاموا دليلاً على نبوة الأنبياء ، كما لم يقيموا دليلاً على وجود الرب ، فليس في كتبهم ما يدل على الرب تعالى ، ولا على رسوله ، مع أن هذا هو المقصود من أصول الدين ، وأيضاً فمسيلمة والعنسي لم يكن عندهما من يعارضهما ، وأيضاً فالمعارض إن اعتبروه في

المدعوين ، وهذا مقتضى في خرق العادة ، وأن العادات تختلف ، فالكل قوم عادة ؟ قالوا : فالمعتبر خرق عادة من أرسل اليهم .

وعلى هذا فإذا أرسل إلى بني إسرائيل ففعل ما لم يقدروا عليه ،كان آية وإن كان ذلك مما يقدر عليه العرب، ويقدر عليه السحرة والكهان، وصرحوا بأن السحر الذي قال الله فيه : (وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ)[1] . يجوز أن يكون من معجزات الأنبياء إذا لم يعارض ، وقد قال الرازي أن السمعيات لا يحتج بها لأن دلالتها مشروطة بعدم المعارض العقلي ، وذلك غير معلوم ، وكذلك يقال في معجزات هؤلاء أن خاصتها عدم المعارضة ، فإن اعتبروا أن أحداً من الخلق لا يعارض ، فهذا لا يعلم وإن اكتفوا بأن لا يعارض في ذلك المكان والزمان فكثير من الصناعات والعجائب والعلوم من هذا الباب . وهم لا ينكرون هذا بل يقولون المعجز هو هذا مع دعوى النبوة ، وقد تبين أن الشيء في نفسه إذا لم يكن دليلاً لم يصر دليلاً باستدلال المستدل به . بل هو في نفسه دليل وإن لم يستدل به إذا كان الدليل هو المستلزم للمدلول ، فدليل صدق النبي هو يدل على أنه نبي ، وأن الخبر بنبوته صادق ، وإن كان هو لا يستدل بذلك ولا يتحدى بمثلها ، وقد لا يخبره بنبوة نفسه ، ويكون له دلائل تدل على نبوته ، كما كانت قبل أن يولد . وفي الأمكنة البعيدة فتبين أن قول هؤلاء ، هو أنه لا يعلم ما يستدل به على نبوة الأنبياء ، وهذا إذا انضم إلى أصلهم ، وهو أن الرب يجوز عليه فعل كل شيء صارا شاهدين ، بأنه على أصلهم لا دليل على النبوة . إذ كان عندهم لا فرق بين فعل من الرب وفعل ، وعندهم لا فرق بين جنس وجنس في اختصاصه بالأنبياء به ، فليس في أجناس المعقولات ما يكون آية تختص بالأنبياء ، فيستلزم نبوتهم بل ما كان لهم قد يكون عند غيرهم حتى للسحرة والكهان ،

---

١ ــ سورة البقرة آية ١٠٢ .

وهم أعداؤهم ، وفرقوا بعدم المعارضة ، وهذا فرق غير معلوم وهو مجرد دعوى .

قالوا : لو ادعى الساحر والكاهن النبوة، لكان الله ينسيه الكهانة والسحر . ولكان له من يعارضه لأن السحر والكهانة هي معجزة عندهم ، وفي هذه الأقوال من الفساد عقلاً وشرعاً ومن المناقضة لدين الاسلام وللحق ما يطول وصفه . ولا ريب أن قول من أنكر وجود هذه الخوارق أقل فساداً من هذا ، ولهذا يشنع عليهم ابن حزم وغيره بالشناعات العظيمة .

ولهذا يقيم أكابر فضلائهم مدة يطلبون الفرق بين المعجزات والسحر ، فلا يجدون فرقاً إذ لا فرق عندهم في نفس الأمر ، والتحقيق أن آيات الأنبياء مستلزمة للنبوة ولصدق الخبر بالنبوة ، فلا يوجد إلا مع الشهادة للرسول بأنه رسول لا يوجد مع التكذيب بذلك ، ولا مع عدم ذلك البتة ، وليست من جنس ما يقدر عليه لا الإنس ولا الجن ، فإن ما يقدر عليه الانس والجن يفعلونه فلا يكون مختصاً بالأنبياء .

ومعنى كونها خارقة للعادة : أنها لا توجد إلا للنبوة لا مرة ولا أقل ، ولا أكثر ، فالعادة هنا تثبت بمرة . والقاضي أبو بكر يقول : إن ما فعل مرات يسيرة لا يكون معتاداً ، وفي كلامه في هذا الباب من الاضطراب ما يطول وصفه ، وهو رأس هؤلاء الذين اتبعوه كالقاضي أبي يعلى وأبي المعالي والرازي والآمدي ، وغيرهم .

وما يأتي به السحرة والكهان يمتنع أن يكون آية لنبي بل هو آية على الكفر ، فكيف يكون آية للنبوة ، وهو مقدور للشياطين ، وآيات الأنبياء لا يقدر عليها جن ولا إنس ، وآيات الأنبياء آيات لجنسها فحيث كانت آية لله تدل على مثل ما أخبرت به الأنبياء ، وإن شئت قلت : هي آيات لله يدل بها على صدق الأنبياء تارة ، وعلى غير ذلك تارة ، وما يكون

للسحرة والكهان لا يكون من آيات الأنبياء ، بل آيات الأنبياء مختصة بهم .

وأما كرامات الأولياء فهي أيضاً من آيات الأنبياء فإنها إنما تكون لمن تشهد لهم بالرسالة فهي دليل على صدق الشاهد لهم بالنبوة ، وأيضاً فإن كرامات الأولياء معتادة من الصالحين ومعجزات الأنبياء فوق ذلك . فانشقاق القمر والإتيان بالقرآن ، وانقلاب العصا حية ، وخروج الدابة من صخرة لم يكن مثله للأولياء ، وكذلك خلق الطير من الطين . ولكن آياتهم صغار وكبار كما قال الله تعالى : (فأراهُ الآيةَ الكُبرى)[1] فالله تعالى آية كبيرة وصغيرة ، وقال عن نبيه محمد : (لَقَدْ رأى مِن آياتِ ربِّهِ الكُبرى)[2] فالآيات الكبرى مختصة بهم ، وأما الآيات الصغرى فقد تكون للصالحين مثل تكثير الطعام ، فهذا قد وجد لغير واحد من الصالحين ، لكن لم يوجد كما وجد للنبي ﷺ أنه أطعم الجيش من شيء يسير ، فقد يوجد لغيرهم من جنس ما وجد لهم ، لكن لا يماثلون في قدره ، فهم مختصون إما بجنس الآيات فلا يكون لمثلهم كالاتيان بالقرآن وانشقاق القمر ، وقلب العصا حية ، وانفلاق البحر ، وأن يخلق من الطين كهيئة الطير ، وأما بقدرها وكيفيتها كنار الخليل ، فإن أبا مسلم الخولاني وغيره صارت النار عليهم برداً وسلاماً ، لكن لم تكن مثل نار ابراهيم في عظمتها كما وصفوها ، فهو مشارك للخليل في جنس الآية ، كما هو مشارك في جنس الإيمان محبة الله وتوحيده ، ومعلوم أن الذي امتاز به الخليل من هذا لا يماثله فيه أبو مسلم وأمثاله ، وكذلك الطيران في الهواء فإن الجن لا تزال تحمل ناساً وتطير بهم من مكان إلى مكان كالعفريت الذي قال لسليمان :

١ ـ سورة النازعات آية ٢٠ .
٢ ـ سورة النجم آية ١٨ .

(أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك)[1] لكن قول الذي عنده علم من الكتاب : (أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك)[2] لا يقدر عليه العفريت ، ومسرى النبي ﷺ إلى بيت المقدس ليريه الله من آياته الكبرى ، أمر اختص به بخلاف من يحمل من مكان إلى مكان ، لا ليريه الله من آياته الكبرى أمر اختص به ، ولا يعرج إلى السماء ، فهؤلاء كثيرون ، وهذا مبسوط في غير هذا الموضع .

والمقصود هنا أن هؤلاء حقيقة قولهم أنه ليس للنبوة آية تختص بها كما أن حقيقة قولهم : إن الله لا يقدر أن يأتي بآية تختص بها وإنه لو كان قادراً على ذلك لم يلزم أن يفعله ، بل ولم يفعله فهذان أمران متعلقان بالرب إذ هو عندهم لا يقدر أن يفعل شيئاً لشيء .

والآية إنما تكون آية إذا فعلها لتدل ولو قدر أنه قادر ، فهم يجوزون عليه فعل كل شيء ، فيمكن أنه لم يجعل على صدق النبي دليلاً ، وأما الذي ذكرناه عنهم هنا فإنه يقتضي أنه لا دليل عندهم على نبوة النبي ، بل كل ما قدر دليلاً فإنه يمكن وقوعه مع عدم النبوة ، فلا يكون دليلاً ، فهم هناك[3] حقيقة قولهم : إنا لا نعلم على النبوة دليلاً ، وهنا حقيقة قولهم أنه لا دليل على النبوة ، ولهذا كان كلامهم في هذا الباب منتهاه التعطيل ، ولهذا عدل الغزالي وغيره عن طريقهم في الاستدلال بالمعجزات لكون المعجزات على أصلهم لا تدل على نبوة نبي ، وليس عندهم في نفس الأمر معجزات ، وإنما يقولون المعجزات علم الصدق ، لأنها في نفس الأمر كذلك ، وهم صادقون في هذا لكن على أصلهم ليست دليلاً على الصدق، ولا دليل على الصدق ، فآيات الأنبياء تدل على صدقهم دلالة

---

١ ـ سورة النمل آية ٣٩ .

٢ ـ سورة النمل آية ٣٩ ـ ٤٠ .

٣ ـ قوله هناك اي في باب افعال الرب حيث ينفون منها الحكمة والتعليل وقوله هنا اي في باب النبوة .

معلومة بالضرورة تارة ، وبالنظر أخرى ، وهم قد يقولون إنه يحصل العلم الضروري بأن الله صدقه بها ، وهي الطريقة التي سلكها أبو المعالي والرازي وغيرهما . وهي طريقة صحيحة في نفسها ، لكن تناقض بعض أصولهم ، فالقدح ليس في آيات الأنبياء ، لكن في الأقوال الفاسدة التي تناقض ما هو معلوم بالضرورة عقلاً ، وما هو أصل الإيمان شرعاً ، ومن عرف تناقضهم في الاستدلال يعرف أن الآفة في فساد قولهم لا في جهة صحة الدلالة فقد يظهر بلسانه ما ليس في قلبه ، كالمنافقين الذين يقولون : نشهد أنك لرسول الله والله يعلم أنك لرسوله ، والله يشهد أن المنافقين لكاذبون .

ولقد صدق الإمام أحمد في قوله : علماء الكلام زنادقة ، وطريقة القرآن فيها الهدى والنور والشفاء ، سماها آيات وبراهين ، فآيات الأنبياء مستلزمة لصدقهم ، وصدق من صدقهم ، وشهد لهم بالنبوة ، والآيات التي يبعث الله بها أنبياء قد يكون مثلها لأنبياء أخر مثل : إحياء الموتى ، فقد كان لغير واحد من الأنبياء ، وقد يكون إحياء الموتى على يد اتباع الأنبياء ، كما قد وقع لطائفة من هذه الأمة ومن اتباع عيسى ، فإن هؤلاء يقولون نحن إنما أحيى الله الموتى على أيدينا لاتباع محمد أو المسيح ، فبإيماننا بهم وتصديقنا لهم أحيى الله الموتى على أيدينا ، فكان إحياء الموتى مستلزماً لتصديقه عيسى ومحمداً لم يكن قط مع تكذيبهما ، فصار آية لنبوتهم وهو أيضاً آية لنبوة موسى وغيره من أنبياء بني إسرائيل الذين أحيى الله الموتى على أيديهم ، وليس مدلول الآيات هو مجرد دعواه أن الله أرسلني وأخباره عن نفسه بذلك ، لأن ذلك معلوم بالحس لمن سمعه ، وبالتواتر لمن لم يسمعه بل صدقه في هذا الخبر ، وهو ثبوت نبوته ، فالآية مستلزمة لصدقه وثبوت نبوته ، ومن أخبر غيره عن إرسال الله له وأتى هذا المخبر بآية كانت أيضاً آية على صدق هذا المخبر وثبوت نبوة النبي فإن من أخبر عن نبوة نبي من الأنبياء وأتى بآيـــة على صدقه في خبره كانت تلك آية

ودليلاً على نبوة النبي ، وإن إخبار المخبر بنبوته صدق ، بل كون غيره هو المخبر الآتي بالعلامة أبلغ ، ولهذا كانت من أعظم آيات النبي أخبار غيره من الأنبياء بنبوته .

فإن قال آخر : إنه كذب وأتى بمثل تلك الآية بطلت الدلالة المعينة ، ولا يلزم من بطلان دليل معين ، بطلان سائر الأدلة ، فإن الدليل يجب طرده ، ولا يجب عكسه ، ولو جاء من قال : إن فلاناً أرسلني ومعه شخص فصدقه وقال : إنه أمرني أن أخبركم بأن رسوله بعلامة كيت وكيت لكان ذلك أبلغ ، وكل من علم صدق النبي فقد صدقه أنه[1] أن يعلم الناس أن الله يشهد له بالنبوة ، ويحكم بينه وبين منازعيه بتصديقه وتكذيبهم ، وذلك بآياته وعلاماته يبين بها أنه مصدق للرسول ، وقد يصدقه بكلامه الذي قد بين أنه كلامه فكونه في نفسه آية وعلامة ، إذ كان لا يمكن الجن والانس أن يأتوا بمثله ، فهو من أعظم الآيات ، وبغير ذلك فالآيات كلها شهادة بالنبوة وأخبار بها وتصديق للمخبر ، فهي تستلزم ثبوت النبوة في نفسها ، وأن صاحب الآيات قد نبأه الله وأوحى اليه كما أوحى إلى غيره من الأنبياء ، وتستلزم أيضاً صدق الأخبار بأنه نبي ، فهو إذا قال : إني نبي كان صادقاً ، وكذلك كل من أخبر بنبوته فإنه يكون صادقاً وثبوت الشيء وصدق من أخبر به متلازمان ، فكل حق ثابت إذا أخبر به مخبر فهو صادق ، وكل خبر صادق فقد تحقق مخبره كالخبر الصادق هو ومخبره متلازمان ، يلزم من صدق الخبر تحقق مخبره .

ومن تحقق الشيء صدق المخبر به ، بخلاف الكذب فإنه ومخبره ليسا متلازمين ، بل الخبر الكذب يوجد مع انتفاء مخبره ، والمخبر به يتحقق على صفة خلاف ما في الخبر الكاذب ، فلهذا كانت الآيات والعلامات

---

١ ــ هنا بياض بالاصل مقدار سطرين .

والدلائل ونحو هذا كما تدل على المدلول ، وأنه حق ثابت فهي أيضاً تدل على صدق من أخبر به كائناً من كان، فمن قال: إني ابن فلان وقامت بينة بنسبه فهي تثبت صدقه ، وصدق كل من قال هو ابن فلان ، وكذلك البينة التي تشهد برؤية الهلال هي تشهد بصدق كل من أخبر بطلوعه ، وكذلك كل دليل دل على مدلول فهو دليل على صدق كل من أخبر بذلك المدلول عليه.

وكذلك إذا قال الصادق : إن الله أرسلني فهذا خبر منه عن إرسال الله ، فالآية الدالة على صدقه تدل على صدق كل من قال : إن الله أرسله ، فالآيات الدالة على صدق محمد إذا قال ما أمره الله به في قوله : (قُلْ يا أيُّها النّاسُ أني رَسولُ اللهِ إليكُم جميعاً)[1] . هي دالة على صدق كل من قال : أشهد أن محمداً رسول الله ، فجميع آياته وآيات الأنبياء الذين أخبروا بنبوته كموسى والمسيح عليهما السلام وأنبياء بني إسرائيل وغيرهم ، كلها آيات ومعجزات تبين صدق كل واحد من المؤمنين به الذين يقول أحدهم أشهد أن محمداً رسول الله ، سواء قالها مجردة ، أو قالها في صلاته ، أو عقب طهارته ، أو متى ما قالها ، ليست آيات النبوة دالة على أنه وحده هو الصادق في قوله : إني رسول الله إليكم جميعاً ، بل الآيات تصدقه ، وتصدق كل من شهد له بالرسالة ، وهكذا سائر الأدلة الدالة على مدلول ، فإنها تدل على صدق من أخبر بذلك المدلول عليه من جميع الخلق ، وقد عرف أن الدليل لا بد أن يكون مختصاً بالمدلول عليه ، مستلزماً له فآيات الأنبياء وسائر أنواع الآيات ، والأدلة لا تكون مع نقيض المدلول عليه ، أي مع عدمه ، فإنها إذا كانت مع وجوده وعدمه لم تكن دالة على وجوده ولا على عدمه ، ولم يكن الاستدلال به على وجوده ، ولا على عدمه ، ولم يكن الاستدلال به على وجوده أولى به من الاستدلال على عدمه ،

---

١ ـ سورة الاعراف آية ١٥٧ .

كالأمور المعتادة التي توجد مع الصادق والكاذب ، كطلوع الشمس وغروبها ، فإن هذه لا تدل على صدق أحد ولا كذبه ، وكذلك خوارق السحرة والكهان هي معتادة مع صدق أحدهم ومع كذبه فلا تدل على الصدق إذ كان كذبهم أكثر من صدقهم كالذين يخبرون بكلمة صدق وعشرة كذب . قال تعالى : (هَلْ أُنَبِّئُكُم على مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ يُلْقُونَ السَّمْعَ وأكثرهُم كاذبون)[1] . ولا على الكذب والإستدلال بها على صدقه كالإستدلال بها على كذبه ، وهي على الكذب أدل .

فكيف إذا كان مع الصدق مائة كذبة كما قال النبي ﷺ لما سئل عن الكهان كما روى البخاري في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها قالت : سأل ناس رسول الله ﷺ عن الكهان فقال لهم رسول الله ﷺ : لَيْسُوا بشَيْءٍ ، قالوا : يا رسول الله فإنهم يحدثون أحياناً بالشيء يكون حقاً فقال رسول الله ﷺ : « تِلْكَ الكَلِمَةُ مِنَ الحَق يَحْفَظُهَا الجني فيقرهَا في أُذُنِ وَليِّهِ قَرَّ الدَّجَاجَةِ فَيَخْلُطُونَ فيها أكثر مِن مائةِ كذبةٍ »[2] .

فيلزم من هذا أن آيات الأنبياء لا يكون مثلها لمن يكذبهم ، وهو الذي يخبر بكذبهم ، والناس فيهم رجلان : إما مصدق ،وإما مكذب ، فالمكذب لهم يمتنع أن يأتي بمثل آياتهم ، ومتى كذب مكذب لمدعي النبوة ، وأتى بمثل آيته سواء دل على أن تلك ليست من آيات الانبياء ، ولا تدل على صدق النبي ، لكن لا يلزم أن يدل على كذبه ، فإن الدليل المعين إذا بطل لا يستلزم انتفاء المداول عليه ، فقد تكون له آيات أخر

---

١ ـ سورة الشعراء آية ٢٢٢ .

٢ ـ هنا بياض في الأصل مقدار كلمتين .

تدل على نبوته ، وصدق الصادق وكذب الكاذب يعرف بوجوه كثيرة جداً .

وكذلك النبوة لها آثار مستلزمة لها بدون إخبار النبي بأنه نبي ، وكذب المتنبي الذي يزين له الشيطان أن يقول أنه نبي له آثار تستلزم انتفاء النبوة وأنه كاذب إما عمداً ، وإما أن الشيطان قد لبس عليه فإن الخبر عند كثير من الناس ينقسم إلى صدق وكذب ، فالمطابق هو الصدق ، والمخالف هو الكذب ، وأثبت بعضهم واسطة بين الصدق والكذب ، وهو ما لم يتعمده الإنسان .

قال : فهذا ليس بصدق لأنه غير مطابق وليس بكذب لأن صاحبه لم يتعمد الكذب ، بل اخطأ ، وليس كل من أخطأ يقال : إنه كاذب كالناسي في الصلاة إذا قال : صليت أربعاً ، ولم يصل إلا ثلاثاً ، كما قال النبي ﷺ لما قال لـه ذو اليدين أقصرت الصـلاة أم نَسَيْتَ ؟ فَقَالَ : لَمْ أَنْسَ وَلَمْ تَقْصُرْ فقال : بلى قد نَسيتَ. فقال: أكما يَقُولُ ذُو اليدين ؟ قَالُوا نعم .

والذي يدل عليه القرآن أن كل من تكلم بلا علم فأخطأفهو كاذب ، كالذين حرَّموا وحلّلوا وأوجبوا ، وإن كان الشيطان قد زين لهم ذلك وأوهمهم أنه حق ، ولهذا قال : (قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ)(١) . وهي تتنزل على من يظن أنه يصدقها قال تعالى : (وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ له قَرِينٌ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ)(٢) .

---

١ - سورة الشعراء آية ٢٢٢ .
٢ - سورة الزخرف آية ٣٦ .

وقال تعالى : ﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ أَنَّ اللهَ وَعَدَكُم وَعْدَ الحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ﴾[1] . وكذلك الذي يدل عليه الشرع إن كل من أخبر بخبر ليس له أن يخبر به ، وهو غير مطابق فإنه يسمى كاذباً ، وإن كان لم يتعمد الكذب كقول النبي ﷺ لمـا قيل له : إن أبا السنابل قال : ما أنت بناكحة حتى يمر عليك أربعة أشهر وعشر ، فقال : كَذَبَ أبوُ السَّنَابِلِ .

ولما قيل له : إن عامر بن الأكوع حبط عمله لأنه قتل نفسه ، فقال: « كذب من قالها إنَّ لَهُ لأجرين إنَّهُ جَاهَدَ مُجَاهِدٌ » .

ولما قال سعد بن عبادة في يوم الفتح: اليوم يَوم الملحمة اليوم تستحل الحرمه . وحكاه أبو سفيان لرسول الله ﷺ قال : « كَذَبَ سَعْدُ ولكِنْ هَذَا يَوْمٌ يُعَظِّمُ اللهُ فيهِ الكَعْبَةَ وَيَوْمٌ تُكْسَى فيهِ الكَعْبَةُ » . وكذلك قال عبادة بن الصامت لما قيل له إن أبا محمد يقول الوتر واجب ، فقال كذب أبو محمد .

وكذلك إبن عباس لما قيل له إن نوفاً يقول إن موسى عليه السلام نبي إسرائيل ليس هو موسى الخضر ، فقال : كذب نوف ، وأيضاً من أخبر الناس خبراً طلب أن يصدقوه فيه ، وقد نهوا عن تصديقه إلا ببينة فإنه أيضاً كاذب ، كما قال تعالى في القرآن : ﴿ لَوْلاَ جَاؤا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذا لَمْ يَأْتُوا بالشُّهَدَاء فَأُولئكَ عِنْدَ اللهِ هُمُ الكاذِبُونَ ﴾[2] .

وقال في القاذفين : ﴿ فَاجلدُوهم ثمانِينَ جَلْدَةً وَلاَ تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أبداً وَأولئكَ هُمُ الفَاسِقُونَ إلاَّ الذين تَابُوا من

---

١ ـ سورة ابراهيم آية ٢٢ .
٢ ـ سورة النور آية ١٣ .

بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)[1] .

وكذلك أن القاذف وإن كان قد رأى الفاحشة بعينه ، لكنه إذا أخبر بها الناس فهو يطالب منهم أن يصدقوه بمجرد خبره ، وليس لهم ذلك بل ليس لهم أن يصدقوه حتى يأتي بأربعة شهداء ، وهو لا يخبر الناس ليكذبوه ، بل يخبرهم ليعتقدوا ثبوت ما أخبرهم بـه ، ويعتقدوا أن المقذوف قد فعل الفاحشه ، وهم ليس لهم أن يقولوا ذلك إلا بأربعة شهداء ، فإذا لم يأت بأربعة شهداء فهو عند الله كاذب ، لأنه أخبر الناس بأن هذا فعل الفاحشة ، وقال خبراً طلب به تصديقهم ، وإن يظهر أن هذا فعلها ، فحقيقه خبره أن هذا فعل فاحشة ظاهرة يرتب عليهـا هذا ، بل إن كان فعل شيئاً فقد فعله سراً لم يعلم به الناس ، وقد علم أن الذنب إذا كتم لم يضر إلا صاحبه ، ولكن إذا أعلن فلم ينكر ضر الناس ، وهذا لم يعلنه ، وأكثر المسلمين إذا فعل أحدهم فاحشة باطنـة تاب منها ومن إعلانها ، يتشبه الناس بعضهم ببعض في ذلك .

فلهذا نهى الله عن فعلها وعن التكلم بها صدقاً وغير صادق ، فإنها إذا فعلت وكتمت خف أمرها ، وإذا أظهرت كان فيها مفاسد كثيرة قال النبي ﷺ : « مَنْ ابتُلِيَ مِنْ هَـذِهِ القَاذُورَاتِ بِشَيْءٍ فليَسْتَتِرْ بِسِتْرِ اللهِ فَإِنَّ من يبدلنا صَفْحَتَهُ نُقِمْ عَلَيْهِ كِتَابَ اللهِ » . وقال : « كُلُّ أمتي مُعَافى إلا المجَاهرِينَ وإنَّ مِنَ المجَاهَرة أنْ يَبيتَ الرَّجُلُ على الذَّنْبِ قد سَتَرَهُ اللهُ فَيُصْبِحَ يقول : يا فلان فَعَلْتُ البَارِحَةَ كذا ، وكذا » . فقد نهى الله تعالى صاحبها أن يظهرها ويعلنها فكيف القاذف بخلاف ما إذا أقر بها عند ولي أمر ليقيم عليه الحد أو يشهد بها نصاب تام لإقامة الحد ، فذلك فيه منفعة وصلاح ، وقد

---

١ ـ سورة النور آية ٤ .

يخبر بها بعض الناس سراً لمن يعلمه كيف يتوب ويستفتيه ويستشيره فيما يفعل ، فعلى ذلك المفتي والمشير أن يكتم عليه ذلك ولا يشيع الفاحشة ، وبسط هذا له موضع آخر .

والمقصود هنا : أن الناس في من قال : إني رسول ، قسمان :

إما مصدق، وإما غير مصدق ، فمن ليس بمصدق لا يمكنه أن يأتي بمثل آيات الانبياء ، سواء قال : إنه كاذب ، أو توقف في التصديق والتكذيب ، وكذلك المؤمنون أتباع الانبياء إذا أتوا بآية كانت دليلاً على نبوة النبي الذي اتبعوه ، فلا يمكن من لا يصدق النبي أن يعارضهم ، ومتى عارضهم لم يكن من آيات الانبياء ، ولهذا كان أبو مسلم لما قال له الأسود العنسي : أتشهد أني رسول الله ؟ قال : ما أسمع ؟ قال : أتشهد أن محمداً رسول ؟ قال : نعم ، فألقاه في النار ، فصارت عليه برداً وسلاماً .

فكرامات الصالحين هي مستلزمة لصدقهم في قولهم إن محمداً رسول، ولثبوت نبوته ، فهي من جملة آيات الانبياء وآياتهم، وما خصهم الله به لا يكون لغير الانبياء ، وإذا قال القائل : معجزات الأنبياء وآياتهم وما خصهم الله به ، فهذا كلام مجمل ، فإنه لا ريب أن الله خص الانبياء بخصائص لا توجد لغيرهم ، ولا ريب أن من آياتهم ما لا يقدر أن يأتي به غير الانبياء ، بل النبي الواحد له آيات لم يأت بها غيره من الانبياء كالعصا واليد لموسى عليه السلام وفرق البحر ، فإن هذا لم يكن لغير موسى،وكانشقاق القمر والقرآن وتفجير الماء من بين الاصابع ، وغير ذلك من الآيات التي لم تكن لغير محمد عليه السلام من الانبياء ، وكالناقة التي لصالح عليه السلام فإن تلك الآية لم تكن مثلها لغيره ، وهو خروج ناقة من الأرض بخلاف إحياء الموتى ، فإنه اشترك فيه كثيراً من الانبياء

بل ومن الصالحين ، وملك سليمان عليه السلام لم يكن لغيره كما قال : (رَبِّ اغْفِرِ لي وَهَبْ لي مُلْكاً لاَ يَنْبَغِي لأحَدٍ مِن بَعْدِي)[1]. فطاعة الجن والطير وتسخير الريح تحمله من مكان إلى مكان له . ولمن معه ، لم يكن مثل هذه الآية لغير سليمان .

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال : « مَا مِن نَبِيٍ مِنَ الأنْبِيَاء إلاَّ وَقَدْ أوتِيَ مِنَ الآيَاتِ مَا أمنَ عَلَى مِثْلِهِ البَشَرُ وَإنّمَا كَانَ الّذي أوتِيتُهُ وَحْياً أوحَاهُ اللهُ إليَّ فَأرجُو أنْ أكُونَ أكثرهُم تَابِعاً يَوْمَ القِيَامَةِ » . وهو من حين أتى بالقرآن ، وهو بمكة يقرأ على الناس : (قُل لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإنْسُ وَالجِنُّ عَلَى أنْ يَأتُوا بِمِثْلِ هَذَا القُرآنِ لاَ يَأتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً)[2] .

فقد ظهر أن من آيات الانبياء ما يختص به النبي ، ومنها ما يأتي به عدد من الانبياء ، ومنها ما يشترك فيه الانبياء كلهم ويختصون به ، وهو الإخبار عن الله بغيبه الذي لا يعلمه إلا الله قال : (عَالِمُ الغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أحَداً إلاَّ مَنِ ارتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإنّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رصداً لِيَعْلَمَ أنَ قَدْ أبْلَغُوا رسالاتِ رَبِّهِمْ وَأحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً)[3] . لكن ما يظهر على المؤمنين بهم من الآيات بسبب الإيمان بهم فيه قولان : قال طائفة : ليس ذلك من آياتهم ، وهذا قول من يقول من شرط المعجزة أن تقارن دعوى النبوة لا يتقدم عليها ولا يتأخر عنها ، كما قاله هؤلاء الذين يجعلون خاصة المعجزة التحدي بالمثل ، وعدم المعارضة ، ولا يكون إلا مع الدعوى كما تقدم ، وهو قول قد عرف فساده من وجوه .

---

١ — سورة ص آية ٣٥ .
٢ — سورة الاسراء آية ٨٨ .
٣ — سورة الجن آية ٢٨ .

والقول الثاني وهو القول الصحيح : أن آيات الاولياء هي من جملة آيات الانبياء فإنها مستلزمة لنبوتهم ، ولصدق الخبر بنبوتهم ، فإنه لولا ذلك لما كان هؤلاء أولياء ، ولم تكن لهم كرامات ، لكن يحتاج أن يفرق بين كرامات الأولياء ، وبين خوارق السحرة والكهان ، وما يكون للكفار والفساق وأهل الضلال والغي بإعانة الشياطين لهم ، كما يفرق بين ذلك وبين آيات الانبياء ، والفروق بين ذلك كثيرة كما قد بسط في غير هذا الموضع .

فصـل

ارتباط الدليل بالمدلول

فقد تبين أن من آيات الانبياء ما يظهر مثله على أتباعهم ، ويكون ما يظهر على أتباعهم من آياتهم ، فإن ذلك مختص بمن يشهد بنبوتهم فهو مستلزم له لا تكون تلك الآيات إلا لمن أخبر بنبوتهم ، وإذا لـم يخبر بنبوتهم لم تكن له تلك الآيات ، وهذا حد الدليل ، وهو أن يكون مستلزماً للمدلول عليه ، فإذا وجد الدليل وجد المدلول عليه وإذا عدم المدلول عليه عدم الدليل ، ولهذا من السلف من يأتي بالآيات دلالة على صحة الإسلام ، وصدق الرسول كما ذكر أن خالد بن الوليد شرب السم لما طلب منه آية ولم يضره .

فصــل

معنى خرق العادة

في معنى خرق العادة ، وأن الإعتبار أن تكون خارقــة لعادة غير الانبياء مطلقاً، بحيث تختص بالأنبياء، فلا توجد إلا مع الإخبار بنبوتهم ، وأما إخبار الكهان ببعض الأمور الغائبة لأخبار الشياطين لهم بذلك وسحر السحرة بحيث يموت الإنسان من السحر ، أو يمرض ويمنع من النكاح ، ونحو ذلك مما هو بإعانة الشياطين ، فهذا أمر موجود في العالم كثير معتاد يعرفه الناس ، ليس هذا من خرق العادة ، بل هو من العجائب الغريبة التي يختص بها بعض الناس، كما يختص قوم بخفة اليد والشعوذة، وقوم بالسباحة الغريبة ، حتى يضطجع أحدهم على الماء ، وكما يختص قوم بالقيافة [1] حتى يباينوا بها غيرهم ، وكما يختص قوم بالعيافة [2] ونحو ذلك مما هو موجود .

ولهذا كان مكذبو الرسل يجعلون آياتهم من جنس السحر ، وهذا مستقر في نفوسهم أن الساحر ليس برسول ولا نبي ، كما في قصة موسى لما قالوا : (إِنَّ هَـٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ

---

١ ـ القيافة معناها تتبع الاثار والاشباه والاستدلال بها كما في الانساب ينظر القائف في الولد المختلف في نسبه فينظر في شبهه وسحنته فيلحقه بمن يدعيه او ينفيه عنه .

٢ ـ العيافة معناها زجر الطير وازعاجها من اماكنها ليتفاءلوا بمطارها يمينا او شمالا ونحو ذلك .

أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ)[1] . قال تعالى : (كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ)[2] . وهذا لحيرتهم وضلالتهم تارة ينسبون إلى الجنون وعدم العقل ، وتارة إلى الحذق والخبرة التي ينال بها السحر ، فإن السحر لا يقدر عليه ولا يحسنه كل أحد ، لكن العجائب والخوارق المقدورة للناس منها ما سببه من الناس بحذقهم في ذلك الفن ، كما يحذق الرجل في صناعة من الصناعات ، وكما يحذق الشاعر والخطيب في شعره وخطابته وعلمه ، وكما يحذق بعض الناس في رمي النشاب وعمل الرمح وركوب الخيل .

فهذه كلها قد يأتي الشخص منها بما لا يقدر عليه أهل البلد ، بل أهل الإقليم ، لكنها مع ذلك مقدورة مكتسبة معتادة بدون النبوة ، قد فعل مثلها ناس آخرون قبلهم ، أو في مكان آخر ، فليست هي خارقة لعادة غير الانبياء مطلقاً ، بل توجد معتادة لطائفة من الناس وهم لا يقولون أنهم أنبياء ، ولا يخبر أحد عنهم بأنهم أنبياء .

ومن هنا دخل الغلط على كثير من الناس فإنهم لما رأوا آيات الأنبياء خارقة للعادة لم يعتد الناس مثلها ، أخذوا مسمى خرق العادة ، ولم يميزوا بين ما يختص به الأنبياء ، ومن أخبر بنبوتهم ، وبين ما يوجد معتاداً لغيرهم ، واضطربوا في مسمى هذا الإسم ، كما اضطربوا في مسمى المعجزات ، ولهذا لم يسمها الله في كتابه إلا آيات وبراهين ، فإن ذلك إسم يدل على مقصودها ، ويختص بها لا يقع على غيرها لم يسمها معجزة ، ولا خرق عادة ، وإن كان ذلك من بعض صفاتها فهي لا تكون آية وبرهاناً حتى تكون قد خرقت العادة ، وعجز الناس عن الإتيان بمثلها ، لكن هذا بعض صفاتها وشرط فيها ، وهو من لوازمها ،

---

١ ـ سورة الاعراف آية ١١٠ .   ٢ ـ سورة الذاريات آية ٥٢ .

لكن شرط الشيء ولازمه قد يكون أعم منه ، وهؤلاء جعلوا مسمى المعجزة وخرق العادة ، هو الحد المطابق لها طرداً وعكساً .

كما أن بعض الناس يجعل اسمها أنها عجائب.وآيات الانبياء إذا وصفت بذلك . فينبغي أن يقيد بما يختص بها فيقال العجائب التي أتت بها الانبياء ، وخوارق العادات ، والمعجزات التي ظهرت على أيديهم ، أو التي لا يقدر عليها البشر ، أو لا يقدر عليها الإنس والجن ، أو لا يقدر عليها إلا الله بمعنى أنه لا يقدر عليها أحد بحيلة واكتساب ، كما يقدرون على السحر والكهانة. فبذلك تتميز آياتهم عما ليس من آياتهم، وإلا فلفظ العجائب قد يدخل فيه بعض الناس الشعبذة ونحوها ، والتعجب في اللغة يكون مـــن أمر خرج عن نظائره وما خرج عن نظائره فقد خرق تلك العادة المعينة في نظائره . فهو أيضاً خارق للعادة ، وهذا شرط في آيات الانبياء ، أن لا يكون لها نظير لغير الانبياء ، ومن يصدقهم،فإذا وجد نظيرها من كل وجه لغير الانبياء ، ومن شهد لهم بالنبوة لم تكن تلك من آياتهم ، بل كانت مشتركة بين من يخبر بنبوتهم ومـــن لا يخبر بنبوتهم ، كما يشترك هؤلاء وهؤلاء في الطب والصناعات .

وأما السحر والكهانة فهو من إعانة الشياطين لبني آدم ، فإن الكاهن يخبره الجن ، وكذلك الساحر إنما يقتل ويمرض ويصعد في الهواء ونحو ذلك ، بإعانة الشياطين له،فأمورهم خارجة عما اعتاده الإنس بإعانة الشياطين لهم قال تعالى : (وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً يَا مَعْشَرَ الجِنِّ قَدْ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الإنْسِ وقال أولياؤهم مـــن الإنس رَبَّنَا استَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أجَلَنَا الّذي أجّلْتَ لَنَا قَالَ النّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إلاّ مَا شَاءَ اللهُ)[1] .فالجن والإنس قد

١ ـ سورة الانعام آية ١٢٨ .

استمتع بعضهم ببعض ، فاستخدم هؤلاء هؤلاء ، وهــؤلاء هــؤلاء في أمور كثيرة كل منهم فعل للآخر ما هو غرضه ليعينه على غرضه . والسحر والكهانة من هذا الباب .

وكذلك ما يوجد لعباد الكفار من المشركين وأهل الكتاب . ولعباد المنافقين والملحدين من المظهرين للإسلام والمبتدعين منهم كلها بإعانة الجن والشياطين ، لكن الشياطين تظهر عند كل قوم بما لا ينكرونه . فإذا كان القوم كفاراً لا ينكرون السحر والكهانة . كما كانت العرب ، وكالهند والترك والمشركين ظهروا بهذا الوصف . لأن هذا معظم عند تلك الأمـــة ، وإن كان هـــذا مذموماً عند أولئك كما قد ظهر ذم هؤلاء عند أهل الملل من المسلمين واليهود والنصارى أظهرته الشياطين فيمن يظهر العبادة ، ولا يكون مخلصاً لله في عبادته متبعاً للأنبياء بل يكون فيه شرك ونفاق وبدعة ، فتظهر له هذه الأمور التي ظهرت للكهان والسحرة حتى يظن أولئك أن هذه من كرامات الصالحين ، وأن ما هو عليه هذا الشخص من العبادة هو طريق أولياء الله ، وإن كان مخالفاً لطريق الانبياء حتى يعتقد من يعتقد أن لله طريقاً يسلكها إليه أولياؤه غير الايمان بالانبياء وتصديقهم .

وقد يعتقد بعض هؤلاء أن في هؤلاء من هو أفضل من الانبياء ، وحقيقة الأمر أن هؤلاء عارضوا الانبياء ، كما كانت تعارضهم السحرة والكهان ، كما عارضت السحرة لموسى ، وكما كان كثير من المنافقين يتحاكمون إلى بعض الكهان ، دون النبي ﷺ ويجعلونه نظير النبي ، وكان في العرب عدة من هؤلاء ، وكان بالمدينة منهم أبو برزة الأسلمي قبل أن يسلم كان كاهناً .

وقد قيل : إن الذي أنزل الله تعالى فيه : (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ

يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إلى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالاً بَعِيداً) (١) .

وقد ذكر قصته غير واحد من المفسرين ، ولما كان الذين يعارضون آيات الانبياء من السحرة والكهان لا يأتون بمثل آياتهم ، بل يكون بينهما شبه كشبه الشعر بالقرآن ، ولهذا قالوا في النبي : إنه ساحر وكاهن وشاعر مجنون قال تعالى : (أنظرُ كَيفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً)(٢) . فجعلوا له مثلاً لا يماثله ، بل بينهما شبه مع وجود الفارق المبين ، وهذا هو القياس الفاسد ، فلما كان الشعر كلاماً له فواصل ومقاطع ، والقرآن آيات له فواصل ومقاطع ، قالوا : شاعر ، ولكن شتان ، وكذلك الكاهن يخبر ببعض المغيبات ، ولكن يكذب كثيراً ، وهو يخبر بذلك عن الشياطين ، وعليه من آثارهم ما يدل على أنه أفاك أثيم كما قال تعالى : (هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ)(٣) . ثم قال : (وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الغَاوُونَ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يفعلون)(٤) .

فذكر سبحانه الفرقَ بين النبي ، وبين الكاهن ، والشاعر وكذلك الساحر لما كان يتصرف في العقول والنفوس بما يغيرها ، وكان من سمع القرآن وكلام الرسول خضع له عقله ولبه وانقادت له نفسه وقلبه ، صاروا يقولون ساحر ، وشتان . وكذلك مجنون لما كان المجنون يخالف عادات الكفار وغيرهم ، لكن بما فيه فساد لا صلاح. والانبياء جاؤوا بما

---

١ ــ سورة النساء آية ٦٠ .
٢ ــ سورة الفرقان آية ٩ .
٣ ــ سورة الشعراء آية ٢٢٢ .
٤ ــ سورة الشعراء آية ٢٢٤ .

يخالف عادات الكفار . لكن بما فيه صلاح لا فساد قالوا : مجنون قال تعالى : (كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ)[1]. فتارة يصفونه بغاية الحذق والخبرة والمعرفة ، فيقولون ساحر ، وتارة بغاية الجهل والغباوة والحمق فيقولون مجنون ، وقد ضلوا في هذا ، وهذا كما قال تعالى : (أنظرْ كيفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً)[2] .

فهم بمنزلة السائر في الطريق وقد ضل عنها يأخذ يميناً وشمالاً ولا يهتدي إلى السبيل التي تسلك ، والسبيل التي يجب سلوكها قول الصدق والعمل بالعدل . والكهانة والسحر يناقض النبوة ، فإن هؤلاء تعينهم الشياطين تخبرهم وتعاونهم بتصرفات خارقة . ومقصودهم الكفر والفسوق والعصيان . والانبياء تعينهم الملائكة ، هم الذين يأتونهم فيخبرونهم بالغيب ويعاونونهم بتصرفات خارقة . كما كانت الملائكة تعين النبي ﷺ في مغازيه مثل يوم بدر أمده الله بألف من الملائكة ، ويوم حنين قال : (وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ ثُمَّ أَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ثُمَّ يَتُوبُ اللهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)[3] .

وقال تعالى : (إِلاَّ تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ

---

١ ـ سورة الذاريات آية ٥٢ .

٢ ـ سورة الفرقان آية ٩ .

٣ ـ سورة التوبة آية ٢٦ ـ ٢٧ .

لاَ تَحْزَنْ إنَّ اللهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا)[1] . وقال تعالى : (إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى المَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ)[2] .

وقد بين سبحانه أن الذي جاء بالقرآن ملك كريم ، ليس بشيطان فقال : (إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي العَرْشِ مَكِينٍ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ، وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ ، وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ المُبِينِ وَمَا هُوَ عَلَى الغَيْبِ بِظَنِينٍ ، وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ)[3] .

ولما كانت الانبياء مؤيدة بالملائكة ، والسحرة والكهان تقترن بهم الشياطين ، كان من الفروق التي بينهم الفروق التي بين الملائكة والشياطين. والمتفلسفة الذين لم يعرفوا الملائكة والجن كابن سينا وأمثاله ، ظنوا أن هذه الخوارق من قوى النفس قالوا : والفرق بين النبي والساحر أن النبي يأمر بالخير ، والساحر يأمر بالشر ، وجعلوا ما يحصل للمصروع من هذا الجنس إذ لم يعرفوا صرع الجن للإنسان ، وأن الجني يتكلم على لسان الإنسان ، كما قد عرف ذلك الخاصة والعامة ، وعرفه علماء الأمة وأئمتها ، كما قد بسط في غير هذا الموضع .

والجهمية المجبرة الذين قالوا : إن الله قد يفعل كل ممكن مقدور لا ينزهونه عن فعل شيء ، ويقولون إنه يفعل بلا سبب ولا حكمة ، وهو الخالق لجميع الحوادث لم يفرقوا بين ما تأتي به الملائكة ، ولا ما تأتي به الشياطين ، بل الجميع يضيفونه إلى الله على حد واحد ، ليس في ذلك حسن ولا قبيح عندهم ، حتى يأتي الرسول، فقبل ثبوت الرسالة لا

---

١ ـ سورة التوبة آية ٤٠ .
٢ ـ سورة الانفال آية ١٢ .
٣ ـ سورة التكوير آية ١٩ ـ ٢٦ .

يميزون بين شيء من الخير والشر ، والحسن والقبيح ، فلهذا لم يفرقوا بين آيات الانبياء وخوارق السحرة والكهان ، بل قالوا ما يأتي به السحرة والكهان يجوز أن يكون من آيات الانبياء ، وما يأتي به الانبياء يجوز أن يظهر على أيدي السحرة والكهان .

لكن إن دل على انتفاء ذلك نص أو إجماع نفوه مع أنه جائز عندهم أن يفعله الله ، لكن بالخبر علموا أنه لم يفعله ، فهؤلاء لما رأوا ما جاءت به الانبياء ، وعلموا أن آياتهم تدل على صدقهم ، وعلموا ذلك إما بضرورة ، وإما بنظر واحتاجوا إلى بيان دلائل النبوة على أصلهم . كان غاية ما قالوا أنه كل شيء يمكن أن يكون آية للنبي بشرط أن يقترن بدعواه وبشرط أن يتحدى بالإتيان بالمثل فلا يعارض ، ومعنى التحدي بالمثل أن يقول لمن دعاهم : ائتوا بمثله ، وزعموا أنه إذا كان هناك سحرة وكهان ، وكانت معجزته من جنس ما يظهر على أيديهم من السحر والكهانة ، فإن الله لا بد أن يمنعهم عن مثل ما كانوا يفعلونه . وأن من ادعى منهم النبوة ، فإنه يمنعه من تلك الخوارق ، أو يقيض له من يعارضه بمثلها ، فهذا غاية تحقيقهم ، وفيه من الفساد ما يطول وصفه ، وطاعة الجن والشياطين لسليمان صلوات الله عليه لم تكن من جنس معاونتهم للسحرة ، والكهان والكفار وأهل الضلال والغي ، ولم تكن الآية والمعجزة والكرامة التي أكرمه الله بها هي ما كانوا يعتادونه مع الإنس ، فإن ذلك إنما كان يكون في أمور معتادة مثل اخبارهم أحياناً ببعض الغائبات ، ومثل أمراضهم وقتلهم لبعض الإنس ، كما أن الإنس قد يمرض ويقتل غيره ، ثم هم إنما يعاونون الإنس على الإثم والعدوان إذا كانت الأنس من أهل الإثم والعدوان يفعلون ما تهواه الشياطين ، فتفعل الشياطين بعض ما يهوونه

قال تعالى : (وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً يَا مَعْشَرَ الجِنِّ قَدْ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنْ الإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ) .

وأما التسخير الذي سخروه لسليمان فلم يكن لغيره من الانبياء ، فضلاً عن من ليس بنبي ، وقد سأل ربه مُلكاً لا ينبغي لأحد من بعده فقال : (رَبِّ اغْفِر لي وَهَب لي مُلكاً لا يَنبغي لأحَدٍ مِن بَعدي إنكَ أنتَ الوَهّابُ) . قال تعالى : (فَسَخَّرنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْري بِأمْرِهِ رُخَاء حَيْثُ أصَابَ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاء وَغَوَّاصٍ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ في الأصْفَادِ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أو أمسِكْ بغَيْرِ حِسَابٍ)(١) .

وقال تعالى : (وَلِسُلَيْمَانَ الرِيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إلى الأرْضِ التي بَارَكْنَا فيهَا وَكُنَّا بكُلِّ شَيْءٍ عَالِمينَ وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذَلِكَ وكُنَّا لَهُمْ حَافِظِين)(٢) . وقال تعالى : (ولِسُلَيْمَانَ الريح غُدُوهَا شَهْرٌ ورواحُهَا شَهْرٌ وأرْسَلْنَا لَهُ عَيْنَ القِطْرِ ومِنَ الجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بإذْنِ رَبِّهِ ومن يَزِغْ منهم عَنْ أمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذابِ السَّعيرِ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيب وتماثيل وجِفَانٍ كالجوابِ وقُدُورٍ راسيَاتٍ اعملوا آل داود شُكراً وقَليلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيهِ الموت مَا دلَّهُمْ عَلى مَوْتِهِ إلاَّ دابةُ الأرْضِ تَأكُلُ منسأته فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتْ الجِنُّ أنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الغَيْبَ مَا لَبِثُوا في العَذابِ المُهِينِ)(٣) .

---

١ ــ سورة ص آية ٣٥ ــ ٣٩ .
٢ ــ سورة الانبياء آية ٨١ .
٣ ــ سورة سبأ آية ١٢ ــ ١٥ .

وكذلك ما ذكره من قول العفريت له : (أنا آتيك به قَبْلَ أنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ)[1] . فهذه الطاعة من التسخير بغير اختيارهم في مثل هذه الأعمال الظاهرة العظيمة، ليس مما فعلته بأحد من الأنس، وكان ذلك بغير أن يفعل شيئاً ، مما يهوونه من العزائم ، والأقسام والطلاسم الشركية ، كما يزعم الكفار أن سليمان سخرهم بهذا فنزهه الله من ذلك بقوله : (واتَّبَعُوا ما تتلو الشَّياطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنِ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ)[2]. وأما طاعة الجن لنبينا وغيره من الرسل كموسى ،فهذا نوع آخر فإن هذا طاعتهم فيما أمرهم الله به من عبادته وطاعته كطاعة الإنس لنبينا ، حيث أرسل إلى الطائفتين ، فدعاهم إلى عبادة الله وحده وطاعته ونهاهم عن معصيته التي بها يستحقون العذاب في الآخرة ، وكذلك الرسل دعوهم إلى ذلك ، وسليمان منهم ، لكن هذا إنما ينتفع به منهم من آمن طوعاً ، ومن لم يؤمن فإنه يكون بحسب شريعة ذلك الرسول ، هل يترك حتى يكون الله هو الذي ينتقم منه أو يجاهد .

وسليمان كان على شريعة التوراة واستخدامه لمن لم يؤمن منهم هو مثل استخدام الأسير الكافر ، فحال نبينا مع الجن والأنس أكمل من حال سليمان وغيره،فإن طاعتهم لسليمان كانت طاعةملكية فيما يشاء،وأما طاعتهم لمحمد فطاعة نبوة ورسالة فيما يأمرهم به من عبادة الله ، وطاعة الله واجتناب معصية الله،فإن سليمان ﷺ كان نبياً ملكاً ومحمد كان عبداً رسولاً مثل إبراهيم عليهم السلام .

وموسى وسليمان مثل داود ويوسف عليهم السلام وغيرهما مع أن داود وسليمان ويوسف عليهم السلام هم رسل أيضاً دعوا إلى توحيد الله

---

١ ــ سورة النمل آية ٣٩ . ٢ ــ سورة البقرة آية ١٠٢ .

وعبادته ، كما أخبر الله أن يوسف دعا أهل مصر لكن بغير معاداة لمن لم يؤمن ، ولا إظهار مناوأة بالذم والعيب والطعن لما هم عليه كما كان نبينا أول ما أنزل عليه الوحي ، وكانت قريش إذ ذاك تقره ولا ينكر عليه إلى أن أظهر عيب آلهتهم ودينهم وعيب ما كانت عليه آباؤهم وسفه أحلامهم ، فهنالك عادوه وآذوه ، وكان ذلك جهاداً باللسان قبل أن يؤمر بجهاد اليد قال تعالى : (وَلَوْ شِئْنا لبعثْنا في كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيراً فلاَ تطع الكافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَاداً كَبِيراً)[1] .
وكذلك موسى مع فرعون أمره أن يؤمن بالله ، وأن يرسل معه بني إسرائيل وإن كره ذلك وجاهد فرعون بإلزامه بذلك بالآيات التي كان الله يعاقبهم بها إلى أن أهلكه الله وقومه على يديه .

١ ـ سورة الفرقان آية ٥١ .

فصل

شرط خرق العادة بين النبي وغيره

فالذين سموا هذه الآيات خوارق للعادات ،وعجائب ومعجزات، إذا جعلوا ذلك شرطاً فيها وصفة لازمة لها بحيث لا تكون الآيات إلا كذلك ، فهذا صحيح ،وإن كانت هذه الأمور قد تجعل أمراً عاماً، فتكون متناولة لآيات الانبياء وغيرها كالحيوان الذي ينقسم إلى إنسان وغير إنسان ، وأما إذا جعلوا ذلك حداً لها وضابطاً ، فلا بد أن يقيدوا كلامهم مثل أن يقولوا خوارق للعادات التي تختص الأنبياء،أو يقولوا خوارق عادات الناس كلهم غير الانبياء ، فإن آياتهم لا بد أن تخرق عادة كل أمة من الأمم ،وكل طائفة من الطوائف ، لا تختص آياتهم بخرق عادة بلد معين، ولا من أرسلوا إليه، بل تخرق عادة جميع الخلق إلا الانبياء، فإنها إذا كانت معتادة للأنبياء مثل الخبر الصادق بغيب الله تعالى الذي لا يعرف إلا من جهتهم ، فما كان معتاداً للأنبياء دون غيرهم فهو من أعظم آياتهم وبراهينهم ، وإن كان معتاداً لهم فإن الدليل هو ما يستلزم المدلول عليه ، فإذا لم يكن ذلك معتاداً إلا لنبي كان مستلزماً للنبوة ، وكان من أتى به لا يكون إلا نبياً وهو المطلوب .

بل لو كان مستلزماً للصدق ولايأتي به إلا صادق لكان المخبر عن نبوة نبي، إما نبوة نفسه أو نبوة غيرها، إذا كان كاذباً لم يحصل له مثل ذلك الدليل الذي هو مستلزم للصدق ، ولا يحصل أيضاً لمن كذب بنبوة نبي صادق ، إذ هو أيضاً كاذب، وإنما يحصل لمن أخبر بنبوة نبي صادق،

وحينئذ فيكون ذلك الدليل مستلزماً للخبر الصادق بنبوة النبي ، وهذا هو المطلوب ، فإن مدلول الآيات سواء سميت معجزات أو غيرها هو الخبر الصادق بنبوة النبي ، ومدلولها إخبار الله وشهادته بأنه نبي ، وأن الله أرسله فقول الله : محمد رسول الله ، وقوله : إني رسول إليكم ،وقول كل مؤمن إنه رسول الله ، كل ذلك خبر عن رسالته ، وهذا هو مدلول الآيات ، وقد يكون مدلول الآيات نفس النبوة التي هي مخبر هذا الخبر ويكون الدليل مثل خبر من الاخبار ، وهذا من جنس الأول .

فما دل على نفس النبوة دل على صدق المخبر بها ، وما دل على صدق المخبر بها دل عليها ، وأما نفس أخبار الرب بالنبوة وإعلامه بها وشهادته بها قولاً وعملاً فهو اخبار منه بها وهو الصادق في خبره ، فإخباره هو دليل عليها، فإنه لا يقول إلا الحق ولا يخبر إلا بالصدق، وأيضاً فهو الذي أنشأ الرسالة وإرساله بكلامه قد يكون إنشاء للرسالة ، وقد يكون إخباراً عن إرساله كالذي يرسل رسولاً من البشر قد يرسله والناس يسمعون فيقول له : إذهب إلى فلان فقل له : كذا وكذا ، وقد يرسله بينه وبينه ، ثم يقول للناس إني قد أرسلته ، ويرسله بعلامات وآيات يعرف بها المرسل إليه صدقه ، وكذلك إذا وصفت بأنها معجزات فلا بد أن يعجز كل من ليس بنبي ولم يشهد للنبي بالنبوة ، فيعجز جميع المكذبين للرسول والشاكين في نبوته من الجن والأنس .

وكذلك إذا قيل هي عجائب والعجب ما خرج عن نظيره فلم يكن له نظير ، فلا بد أن يكون من العجائب التي لا نظير لها أصلاً عند غير الانبياء لا من الجن ولا من الإنس ، فإذا كان ليس لها نظير في شيء آخر ، فهذا يؤيد أنها من خصائص الانبياء ومن آياتهم ، فهذا الموضع من فهمه فهماً جيداً تبين له الفرقان في هذا النوع ، فإن كثيراً من الناس يصفها بأنها خوارق ومعجزات وعجائب ، ونحو ذلك ولا يحقق الفرق

بين من يجب أن يخرق عادته ومعجزه ، ومن لا يجب أن يكون في حقه كذلك .

فالواجب أن يخرق عادة كل من لم يقر بنبوة الانبياء ، فلا يكون لمكذب بنبوتهم ولا لشاك ، وقولنا يخرق عادتهم هو من باب العادة التي تثبت بمرة ، ليس من شرط فسادها أن تقع غير مرة مع انتفاء الشهادة بالنبوة ، بل متى وقعت مرة واحدة مع انتفاء الشهادة بالنبوة لم تكن مختصة بشهادة النبوة ولا بالنبوة ، فلا يجب أن تكون آية وقولنا : ولا يجب أن تخرق عادات الانبياء ولم نقل : ولا يجوز أن تخرق عادات الانبياء ، بل قد تكون خارقة أيضاً لعادات الانبياء ، وقد خص بها نبي واحد مثل أكثر آيات الانبياء ، فإن كل نبي خص بآيات لكن لا يجب في آيات الانبياء أن تكون مختصة بنبي بل ولا يجب أن يختص ظهورها على يد النبي ، بل متى اختصت به وهي من خصائصه كانت آية له سواء وجدت قبل ولادته ، أو بعد موته ، أو على يد أحد من الشاهدين له بالنبوة ، فكل هذه من آيات الانبياء .

والذين قالوا من شرط الآيات أن تقارن دعوى النبوة ، غلطوا غلطاً عظيماً ، وسبب غلطهم أنهم لم يعرفوا ما يخص بالآيات ، ولم يضبطوا خارق العادة بضابط يميز بينها وبين غيرها ، بل جعلوا ما للسحرة والكهان هو أيضاً من آيات الانبياء إذا اقترن بدعوى النبوة ، ولم يعارضه معارض وجعلوا عدم المعارض هو الفارق بين النبي وغيره ، وجعلوا دعواه النبوة جزءاً من الآية فقالوا : هذا الخارق إن وجد مع دعوى النبوة كان معجزة وإن وجد بدون دعوى النبوة لم يكن معجزة ، فاحتاجوا لذلك أن يجعلوه مقارناً للدعوى .

قالوا : والدليل على ذلك أن مثل آيات الانبياء يأتي في آخر الزمان

إذا جاءت أشراط الساعة . ومع ذلك ليس هو من آياتهم . وكذلك قالوا : في كرامات الاولياء . وليس الأمر كذلك بل أشراط الساعة هي من آيات الانبياء من وجوه منها : أنهم أخبروا بها قبل وقوعها ، فإذا جاءت كما أخبروا كان ذلك من آياتهم . ومنها أنهم أخبروا بالساعة فهذه الأشراط مصدقة لخبرهم بالساعة ، وكل من آمن بالساعة آمن بالأنبياء . وكل من كذب الانبياء كذب الساعة قال تعالى : (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شياطينَ الإنسِ وَالجنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ زُخْرُفَ القَوْلِ غُرُوراً وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهم وَمَا يفترونَ ولِتَصغي إليه أفئِدَةُ الذينَ لاَ يُؤمِنُونَ بالآخرَةِ وَلِيرضوهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ)[1] .

وقال تعالى : (وَهَذَا كِتَابٌ أنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الذي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ القرى وَمَنْ حَوْلَهَا والذينَ يُؤْمِنُون بالآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ)[2] فكل من آمن بالآخرة فقد آمن بالقرآن ، فإذا جاءت أشراط الساعة كانت دليلاً على صدق خبرهم أن الساعة حق . وأن القرآن حق ، وكان هذا من الآيات الدالة على صدق ما جاء به الرسول من القرآن وهو المطلوب . فلا يوجد خرق عادة لجميع الناس إلا وهو من آيات الانبياء .

وكذلك الذي يقتله الدجال . ثم يحييه فيقوم فيقول : أنت الأعور الكذاب الذي أخبرنا به رسول الله ﷺ والله ما ازددت فيك إلا بصيرة . فيريد الدجال أن يقتله . فلا يقدر على ذلك . فهذا الرجل بعد أن قتل وقام يقول للدجال أنت الأعور الكذاب الذي أخبرنا به رسول الله ﷺ . والله ما ازددت فيك بهذا القتل إلا بصيرة . ثم يريد الدجال أن يقتله فلا

---

١ ــ سورة الانعام آية ١١٢ .   ٢ ــ سورة الانعام آية ٩٢ .

يقدر عليه ، فعجزه عن قتله ثانياً مع تكذيب الرجل له بعد أن قتله وشهادته للرسول محمد بالرسالة هو من خوارق العادات التي لا توجد إلا لمن شهد للأنبياء بالرسالة . وهذا الرجل هو من خيار أهل الأرض المسلمين .

فهذا الخارق الذي جرى فيه هو من خصائص من شهد لمحمد بالنبوة فهو من اعلام النبوة ودلائلها وكونه قتل أولاً أبلغ في الدلالة . فإن ذلك لم يزغه ولم يؤثر فيه . وعلم أنه لا يسلط عليه مرة ثانية ، فكان هذا اليقين والإيمان مع عجزه عنه هو من خوارق الآيات، ومعلوم أن قتله ممكن في العادة ، فعجزه عن قتله ثانياً هو الخارق للعادة . ودل ذلك على أن إحياء الله له لم يكن معجزة للدجال . ولا ليبين بها صدقه . لكن أحياه ليكذب الدجال ، وليبين أن محمداً رسول الله ، وأن الدجال كذاب وأنه هو الأعور الكذاب الذي أنذر به النبي ﷺ حيث قال : « مَا مِنْ نبي إلاَّ وَقَدْ أَنْذَرَ أُمَّتَهُ الأَعْوَرَ الدَّجالَ وسأقُولُ لَكُمْ فيه قولاً لَمْ يَقُلْهُ نَبِيٌّ لأمتهِ إنَّهُ أعْوَرُ وإنَّ اللهَ لَيْسَ بأعْوَرَ مَكْتوبٌ بَيْنَ عينيهِ كَافِرٌ يَقرأهُ كُلُ مُؤْمِنٍ قَارِىءٍ وَغَيرِ قارِىءٍ ».

وفي بعض الأحاديث الصحيحة : « وَاعْلَمُوا أنَّ أحَداً منكُمْ لَنْ يَرَى رَبَّهُ حَتَّى يَمُوتَ». فذكر لهم آيات ظاهرة يشترك فيها الناس تبين لهم كذبه فيما يدعيه من الربوبية إذ كان كثير من الناس يجوزون ظهور الإله في البشر النصارى وغير النصارى . وما يأتي به الدجال إنما يحار فيه ويراه معارضاً لآيات الانبياء من لم يحكم الفرقان ، فقوم يكذبون أن يأتي بعجيب ويقولون ما معه إلا التمويه كما قالوا في السحر والكهانة ، مثل كثير من المعتزلة والظاهرية كابن حزم ، وقوم يقولون لما ادعى الإلهية كانت الدعوى معلومة البطلان ، فلم يظهر الخارق كما يقول ذلك القاضي أبو بكر وطائفة .

ويدعون أن النصارى اعتقدت في المسيح الإلهية لكونه أتى بالخوارق مع إقراره بالعبودية ، فكيف بمن يدعي الإلهية ؟ ولكن هذا الخارق الذي يظهره الله في هذا الرجل الصالح الذي طلب منه الدجال أن يؤمن به فلم يفعل بل كذبه وقال : أنت الأعور الدجال الذي أخبرنا به النبي ﷺ فقتله ، ثم أحياه الله فقال له : أنت الأعور الدجال ، فكذبه قبل أن قتل وبعدما أحياه الله ، وأراد الدجال قتله ثانية فلم يمكن ، فعجزه عن قتله ثانياً من أعظم الخوارق مع تكذيبه ، وأما إحياؤه مع تكذيبه له أولاً وعجزه ثانياً عن قتله فليس بخارق ، فهذا إحياء معين معه دلائل معدودة تبين أنه من الآيات الدالة على صدق الرسول لا على صدق الدجال ، وتبين بذلك أن الآيات جميعها تدل على صدق الانبياء ، فإن آيات الله مرة أو مرتين أو ثلاثاً لا يشترط في ذلك تكرار ، بل شرطها أن لا يكون لها نظير في العالم لغير الانبياء،ومن يشهد بالنبوة ولم يوجد لغيرهم كان هذا دليلاً على أنها مختصة بالانبياء ، ومن أطلق خرق العادة ولم يفسره ويبينه فلم يعرف خاصتها بل ظن أن ما وجد من السحر والكهانة خرق عادة أو ظن أن خرق العادة أن لا يعارضها معارض من المرسل إليهم ، وكثير من المتنبئين الكذابين أتوا بخوارق من جنس خوارق السحرة والكهان ، ولم يكن من اولئك القوم من أتى بمثلها ، لكن قد علم أن في العالم مثلها في غير ذلك المكان ، أو في غير ذلك الزمان وإنما الخارق كما قال في القرآن : (قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالجِنُ عَلَى أنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا القُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بعضهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً)[1] .

ولهذا قال في آيات التحدي: (أم يَقُولونَ افتراهُ قُلْ فأْتُوا بعَشْرِ سُوَرٍ مثله مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إنْ

---

١ ــ سورة الاسراء آية ٨٨ .

كُنْتُمْ صَادِقِينَ)[1] . وقال في تلك الآية : (فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ مَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللهِ وَأَنَّ لاَ إِلهَ إِلا هُوَ)[1] . فلم يكتف بعجز المدعوين ، بل أمرهم أن يدعوا إلى معاونتهم كل من استطاعوا أن يدعوه من دون الله ، وهذا تعجيز لجميع الخلق الإنس والجن والملائكة ، وقال في البقرة : (وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وادعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)[2] . أي ادعوا كل من يشهد لكم فيوافقكم على أن هذا ليس من عند الله ، ادعوا كل من لم يقر بأن هذا منزل من الله ، فهذا تعجيز لكل من لم يؤمن به ، ومن آمن به وبقي في ريب فل قد علم أنه من عند الله ، وهذا التحدي في البقرة وهي مدنية بعد يونس وهود ، ولهذا قال : (وإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ) ، وهناك قال : (أَمْ يَقُولُونَ افتَرَاهُ) . فهذا تحدي لكل مرتاب ، وذاك تحدي لكل مثل مكذب ، ولهذا قيل في ذاك : (مَنْ استطعتم) فإنه أبلغ وقيل في هذا (شهداءكم) وقد قال بعض المفسرين شهداءكم : آلهتكم . وقال بعضهم : من يشهد أن الذي جئتم به مثل القرآن ، والصواب أن شهداءهم الذين يشهدون لهم كما ذكره ابن اسحق بإسناده المعروف عن ابن عباس قال شهداءكم من استطعتم من أعوانكم على ما أنتم عليه ، وقال السدي عن أبي مالك شهداءكم من دون الله ، أي شركاءكم ، فإن هؤلاء هم الذين يتصور منهم المعارضة إذا كانوا في ريب منه ، أما من أيقن أنه من عند الله فإنه يمتنع أن يقصد معارضته لعلمه بأن الخلق عاجزون عن ذلك ، والله تعالى شهد لمحمد بما أظهره من الآيات فادعوا من يشهد لكم ، وهؤلاء يشهدون من دون الله لا يشهدون

---

١ ــ سورة هود آية ١٣ ــ ١٤ .
٢ ــ سورة البقرة آية ٢٣ .

بما شهد الله به ؛ فتكون شهادتهم مضادة لشهادة الله كما قال : (لَكِنْ اللهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِه وَالمَلَائِكَةُ يشهدون)(١) . وقال : (قُلْ كَفَى بِاللهِ شَهِيداً بيني وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ علم الكِتَابِ)(٢) .

كما قال : (شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلا هُوَ وَالمَلَائِكَةُ وَأُولُو العِلْمِ)(٣) . وقد قلنا يجوز أن تكون آياتهم خارقة لعادة جميع الخلق إلا للنبي ، لكن لا يجب هذا فيها .

فان قيل : قد ذكرتم أن آيات الأنبياء هي الخوارق التي تخرق عادة جميع الثقلين ، فلاتكون لغير الأنبياء ، ولغير من شهد لهم بالنبوة . وهذا كلام صحيح فصلتم به بين آيات الأنبياء وغيرهم بفصل مطرد منعكس ، بخلاف من قال : هي خرق العادة ، ولم يميز بينها وبين غيرها ، وتكلم في خرق العادة بكلام متناقض تارة يمنع وجود السحر والكهانة ، وتارة يجعل هذا الجنس من الآيات ؛ ولكن الفرق عدم المعارضة ؛ لكن لم يذكروا الفرق في نفس الأمر ونفس كونها معجزة وخارقاً وآية ، لماذا كان وما هو الوصف الذي امتازت به حتى صارت آية ودليلاً دون غيرها فذكرتم الدليل ، لكن لم تذكروا الحقيقة التي بها صار الدليل دليلاً ، قيل لا بد أن تكون مما يعجز عنها الأنس والجن ؛ فإن هذين الثقلين بعث إليهم الرسل ، كما قال تعالى : (يَا مَعْشَرُ الجِنّ والإنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُم يَقُصُّونَ عَلَيْكُم آيَاتِي وَيُنْذِرُونكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُم هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا

١ ـ سورة النساء آية ١٦٥ .
٢ ـ سورة الرعد آية ٤٣ .
٣ ـ سورة آل عمران آية ١٨ .

وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ إِنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ)[1] .

وقال تعالى : (وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ)[2] . والإنس والجن منهم من آمن بالرسل ، ومنهم من كذبهم فلا بد أن يكون مما لا يقدر عليها جنس الإنس والجن ، ثم الكرامات يخص بها المؤمنين من الطائفتين ، وأما آيات الانبياء التي بها تثبت نبوتهم ، وبها وجب على الناس الإيمان بهم ، فهي أمر يخص الانبياء لا يكون للأولياء ولا لغيرهم ، بل يكون من المعجزات الخارقة للعادات الناقضة لعادات جميع الأنس والجن غير الانبياء ، فما كان الإنس أو الجن يقدرون عليه فلا يكون وحده آية للنبي أما ما تقدر عليه الملائكة فذلك قد يكون من آياتهم لأنهم لم يرسلوا إلى الملائكة والملائكة لا تفعل شيئاً إلا بإذن الله ، فما تفعله الملائكة معهم فهو بإذن الله وهو ما خص به الانبياء بخلاف الإنس والجن ، وخاصتها التي تمتاز بها عن غيرها أن يكون آية ودليلاً على نبوتهم ، فكل ما استلزم نبوتهم فهو آية لهم ، وما لا يستلزم نبوتهم فليس بآية ، وليست مختصة بجنس من الموجودات ، بل تكون في جنس العلم والاخبار بغيب الرب الذي اختص به ، وتكون في جنس القدرة والتصرف والتأثير في العالم ، وهي مقدورة للرب . فله سبحانه أن يجعلها في أي جنس كان من المقدورات ، ولهذا تنوعت آيات الانبياء بل النبي الواحد تتنوع آياته ، فليس القرآن الذي هو قول الله وكلامه من جنس انشقاق القمر ، ولا هذا وهذا من جنس تكثير الطعام والشراب كنبع الماء من بين الأصابع .

---

١ ـ سورة الانعام آية ١٣٠ . ٢ ـ الزمر آية ٧٠ ـ ٧٣ .

وهذا كما أن آيات الرب الدالة على قدرته ومشيئته وحكمته وأمره ونهيه لا تختص بنوع فكذلك آيات أنبيائه فهذا مما ينبغي أن يعرف ، ولكن خاصتها أنها لا تكون إلا مستلزمة لصدق النبي وصدق الخبر بأنه نبي فلا تكون لمن يكذبه قط ولا يقدر أحد من مكذبي الرسل أن يأتي بمثل آيات الانبياء ، وأما مصدقوهم فهم معترفون بأن ما يأتون به هو من آيات الانبياء ، مع أنه لا تصل آيات الاتباع إلى مثل آيات المتبوع مطلقاً ، وإن كانوا قد يشاركونه في بعضها كإحياء الموتى وتكثير الطعام والشراب ، فلا يشركونه في القرآن وفلق البحر وانشقاق القمر ، لأن الله فضل الانبياء على غيرهم ، وفضل بعض النبيين على بعض ، فلا بد أن يمتاز الفاضل بما لا يقدر المفضول على مثله إذ لو أتى بمثل ما أتى لكان مثله لا دونه .

فصل

وكثير من هؤلاء مضطربون في مسمى العادة التي تخرق ، والتحقيق أن العادة أمر إضافي فقد يعتاد قوم ما لم يعتده غيرهم ، فهذه إذا خرقت فليست لصدق النبي لا توجد بدون صدقه ، والرب تعالى في الحقيقة لا ينقض عادته التي هي سنته التي قال فيها : (سُنَّةَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً)[1] . وقال : (فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ سُنَّةَ الأَوَّلِينَ . فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَحْوِيلاً)[2] . وهي التسوية بين المتماثلين ، والتفريق بين المختلفين ، فهو سبحانه إذا ميز بعض المخلوقات بصفات يمتاز بها عن غيره ويختصه بها قرن بذلك من الأمور ما يمتاز به عن غيره ويختص به ، ولا ريب أن النبوة يمتاز بها الانبياء ويختصون بها ، والله تعالى يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس ، وهو أعلم حيث يجعل رسالته ، فمن خصه بذلك كان له من الخصائص التي لا تكون لغيره ما يناسب ذلك ، فيستدل بتلك الخصائص على أنه من أهل الإختصاص بالنبوة ، وتلك سنته وعادته في أمثاله يميزهم بخصائص يمتازون بها عن غيرهم . ويعلم أن أصحابها من ذلك الصنف المخصوص الذين هم الانبياء مثلاً ، ولم تكن له سبحانه عادة بأن يجعل مثل آيات الانبياء لغيرهم حتى يقال : إنه خرق عادته ونقضها ، بل عادته وسنته المطردة إن تلك الآيات لا

---

١ — سورة الفتح آية ٢٣ . ٢ — سورة فاطر آية ٤٣ .

تكون إلا مع النبوة والأخبار بها ، لا مع التكذيب بها أو الشك فيها ، كما أن سنته وعادته أن محبته ورضاه وثوابه لا يكون إلا لمن عبده وأطاعه، وأن سنته وعادته أن يجعل العاقبة للمتقين ، وسنته وعادته أن ينصر رسله ، والذين آمنوا كما قال تعالى : ﴿ وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الأَدْبَارَ ثُمَّ لاَ يَجِدُونَ وَلِياً وَلاَ نَصِيراً ، سُنَّةَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً ﴾[1] . وكل ما يظن أنه خرقه من العادات فله أسباب انخرقت فيها تلك العادات ، فعادته وسنته لا تتبدل إذ أفعاله جارية على وجه الحكمة والعدل . هذا قول الجمهور .

وأما من لا يثبت سبباً ولا حكمة ولا عدلاً ، فإنهم يقولون إنه يخرق عادات لا لسبب ولا لحكمة ، ويجوزون أن يقلب الجبل ياقوتاً والبحر لبناً والحجارة آدميين ، ونحو ذلك مع بقاء العالم على حاله ، ثم يقولون مع هذا ، ولكن نعلم بالضرورة أنه لم يفعل ذلك ، ويقولون العقل هو علوم ضرورية كالعلوم بجاري العادات ،وهذا تناقض بَيِّنْ ، فإنهم إذا جوزوا هذا ، ولم يعلموا فرقاً بين ما يقع منه ، وما لا يقع ، كان الجزم بوقوع هذا دون هذا جهلاً ، وغاية ما عندهم أن قالوا يخلق في قلوبنا علم ضروري بأن هذا لم يقع ويخلق في قلوبنا علم ضروري بأن الله خرق العادة لتصديق هذا النبي فيقال : إذا كان قد جعل الله في قلوبكم علماً ضرورياً كما جعله في قلوب أمثالكم ، فأنتم صادقون فيما تخبرون به عن أنفسكم من العلم الضروري ، لكن خطأكم اعتقادكم أن العادات قد ينقضه الله بلا سبب ولا لحكمة ، فهذا ليس معلوماً لكم بالضرورة وخطأكم من حيث جوزتم أن يكون شيئان متساويان من كل وجه ، ثم يعلم بضرورة أو نظر ثبوت أحدهما وانتفاء الآخر ، فإن هذا

---

١ ـ سورة الاحزاب آية ٦٢ .

تفريق بين المتماثلين ، وهذا قدح في البديهيات ، فإن أصل العلوم العقلية النظرية اعتبار الشيء بمثله ، وإن حكمه حكم مثله ، فإذا جوزتم أن يكون الشيئان متماثلين من كل وجه وأن العقل يجزم بثبوت أحدهما وانتفاء الآخر ، كان هذا قدحاً في أصل كل علم وعقل ، وإذا قلتم أن العادات جميعها سواء ، وأن الله يفعل ما يفعل بلا سبب ولا حكمة ، بل محض المشيئة مع القدرة رجحت هذا على هذا ، وقلتم لا فرق بين قلب الجبال يواقيت والبحار لبناً وبين غير ذلك من العادات ، وجوزتم أن يجعل الله الحجارة آدميين علماء من غير سبب تغير به المخلوقات ، كان هذا قدحاً في العقل ، فلا أنتم عرفتم سنة الله المعتادة في خلقه ولا عرفتم خاصة العقل وهو التسوية بين المتماثلين ، فإنه سبحانه قط لم يخرق عادة إلا لسبب يناسب ذلك مثل فلق البحر لموسى وغير ذلك من الآيات التي بعث بها ، فإن ذلك خلقه ليكون آية وعلامة ، وكان ذلك بسبب نبوة موسى وانجائه قومه وبسبب تكذيب فرعون ، ومن جوز أن ذلك البحر أو غيره ينفلق كما انفلق لموسى من غير أن يكون هنالك سبب إلهي يناسب ذلك ، فهو مصاب في عقله ، ولهذا اضطرب أصحاب هذا القول ، ولم يكن عندهم ما يفرقون بين دلائل النبوة وغيرها ، وكانت آيات الانبياء والعلم بأنها آيات ان حققوها على وجهها فسدت أصولهم ، وإن طردوا أصولهم كذبوا العقل والسمع ولم يمكنهم لا تصديق الانبياء ولا العلم بغير ذلك من أفعال الله تعالى التي يفعلها بأسباب وحكم ، كما قد بسط هذا في موضع آخر .

فصل

ودليل الشيء مشروط بتصور المدلول عليه ، فلا يعرف آيات الانبياء إلا من عرف ما اختص به الانبياء ، وامتازوا به عما سواهم ، والنبوة مشتقة من الإنباء ، والنبي فعيل وفعيل قد يكون بمعنى فاعل ، أي منبي ،وبمعنى مفعول أي منبأ ، وهما هنا متلازمان فالنبي الذي ينبىء بما أنبأه الله به ، والنبي الذي نبأه الله وهو منبأ بما أنبـأه الله به ، وما أنبـأه الله به لا يكون كذباً ، وما أنبأ به النبي عن الله لا يكون يطابق كذباً لا خطأ ولا عمداً ، فلا بد أن يكون صادقاً فيما يخبر به عن الله يطابق خبره مخبره ، لا تكون فيه مخالفة لا عمداً ولا خطأ ، وهذا معنى قول من قال هم معصومون فيما يبلغونه عن الله ، لكن لفظ الصادق وأن النبي صادق مصدوق نطق به القرآن وهو مدلول الآيات والبراهين . ولفظ العصمة في القرآن جاء في قوله : (وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ)(١) أي من أذاهم ،فمعنى هذا اللفظ في القرآن هو الذي يحفظه الله عن الكذب خطأ وعمداً ، والتعبير عن حقائق الإيمان بعبارات القرآن أولى من التعبير عنها بغيرها ، فإن ألفاظ القرآن يجب الإيمان بها ، وهي تنزيل من حكيم حميد ، والأمة متفقة عليها ويجب الإقرار بمضمونها قبل أن تفهم ، وفيها من الحكم والمعاني ما لا تنقضي عجائبه ، والألفاظ المحدثة فيها إجمال

١ ــ سورة المائدة آية ٧٠ .

واشتباه ونزاع ، ثم قد يجعل اللفظ حجة بمجرده ، وليس هو قول الرسول الصادق المصدوق ، وقد يضطرب في معناه ، وهذا أمر يعرفه من جربه من كلام الناس ، فالإعتصام بحبل الله يكون بالإعتصام بالقرآن والإسلام كما قال تعالى : (وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً)[١] .

ومتى ذكرت ألفاظ القرآن والحديث ، وبين معناها بياناً شافياً ، فإنها لا تنظم جميع ما يقوله الناس من المعاني الصحيحة ، وفيها زيادات عظيمة لا يوجد في كلام الناس وهي محفوظة مما دخل في كلام الناس من الباطل كما قال : (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)[٢] .

وقال تعالى : (وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لا يَأْتِيهِ البَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حميد)[٣] . وقال تعالى : (الر كتاب أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خبير)[٤] .

وقال : (تِلْكَ آيَاتُ الكِتَابِ الحَكِيمِ)[٥] . وفيه من دلائل الربوبية والنبوة والمعاد ما لا يوجد في كلام أحد من العباد ، ففيه أصول الدين المفيدة لليقين ، وهو أصول دين الله ورسوله لا أصول دين محدث ، ورأي مبتدع ، وقد يكون معصوماً على لغة القرآن بمعنى أن الله عصمه من الشياطين ، شياطين الإنس والجن ، وأن يغيروا ما بعث به ، أو يمنعوه عن تبليغه ، فلا يكتم ولا يكذب كما قال تعالى : (عَالِمُ الغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً إلا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ

---

١ ــ سورة آل عمران آية ١٠٣ .
٢ ــ سورة الحجر آية ٩ .
٣ ــ سورة السجدة آية ٤٢ .
٤ ــ سورة هود آية ١ .
٥ ــ سورة لقمان آية ٢ .

عَدَداً)(١) . فهو يسلك الوحي من بين يدي الرسول ومن خلفه ، وهذا في معنى عصمته من الناس ، فهو المؤيد المعصوم بما يحفظه الله من الإنس والجن حتى يبلغ رسالات ربه كما أمر ، فلا يكون فيها كذب ولا كتمان، ولفظ الإنباء يتضمن معنى الإعلام والإخبار ، لكنه في عامة موارد استعماله أخص من مطلق الإخبار ، فهو يستعمل في الإخبار بالأمور الغائبة المختصة دون المشاهدة المشتركة كما قال : (وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ)(٢) .

وقال : (فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِي الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ)(٣) . وقال : (قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ)(٤) . وقال : (عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ)(٥) . وقال : (وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا)(٦) . وقال : (وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ)(٧) . وقال : (لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ)(٨). وقال : (أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)(٩) . إلى قوله : (قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فلما أنبأهم بأسمائهم قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ)(١٠) .

وقوله : (يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ نَبَّأَنَا اللهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ

---

١ ـ سورة الجن آية ٢٨ .
٢ ـ سورة آل عمران آية ٧٩ .
٣ ـ سورة التحريم آية ٣ .
٤ ـ سورة ص آية ٦٧
٥ ـ سورة النبأ آية ١ .
٦ ـ سورة الاحزاب آية ٢٠ .
٧ ـ سورة ص آية ٨٨ .
٨ ـ سورة الانعام آية ٦٧ .
٩ ـ سورة البقرة آية ٣١ .
١٠ ـ سورة البقرة آية ٣٣ .

وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إلىعَالَمِ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)[1] . فهذا في خطاب المنافقين ، ولم يقل : والمؤمنون ، لأنهم لم يكونوا يطلعون المؤمنين على ما في بطونهم ، وهذا بخلاف قوله : (يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىلها)[2] . فإنها أمور مشهودة يعرفها الناس لكن العجب كون الأرض تخبر بذلك، فالعجب في المخبر لا في الخبر كشهادة الأعضاء وقال : (قُلْ الذَّكَرَيْن حَرَّمَ أَمْ الأُنْثَيَيْنِ أَمْ مَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأنثيين نَبِّئوني بعلمٍ إنْ كُنْتُمْ صَادِقِين)[3] . وجمع النبي أنبياء مثل ولي وأولياء ووصي وأوصياء ، وقوي وأقوياء ، ويشبهه حبيب وأحباء كما قال تعالى : (وَقَالَتْ اليَهُودُ والنَّصَارَى نَحْنُ أبنَاءُ اللهِ وَأحِبَّاؤُهُ)[4] ففعيل إذا كان معتلاً أو مضاعفاً جمع على أفعلاء بخلاف حكيم وحكماء وعليم وعلماء ، وهو من النبأ وأصله الهمزة ، وقد قرىء به وهي قراءة نافع يقرأ النبيء ، لكن لما كثر استعماله لينت همزته كما فعل مثل ذلك في الذرية ، وفي البرية ، وقد قيل هو من النبوة ، وهو العلو فمعنى النبي المعلى الرفيع المنزلة .

والتحقيق أن هذا المعنى داخل في الأول ، فمن أنبأه الله وجعله منبئاً عنه ، فلا يكون إلا رفيع القدر علياً ، وأما لفظ العلو والرفعة فلا يدل على خصوص النبوة إذ كان هذا يوصف به من ليس بنبي ، بل يوصف بأنه الأعلى كما قال : (وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الأَعْلَون)[5] . وقراءة الهمز قاطعة بأنه مهموز ، وما روي عن النبي ﷺ أنه قال : « أنَا نبي اللهِ وَلَسْتُ بِنبيء اللهِ » فما رأيت له إسناداً لا مسنداً ولا

---

١ ـ سورة التوبة آية ٩٥ . ٤ ـ سورة المائدة آية ١٨ .
٢ ـ سورة الزلزلة آية ٤ ـ ٥ ٥ ـ سورة آل عمران آية ١٣٩ .
٣ ـ سورة الانعام آية ١٤٣ .

مرسلاً ، ولا رأيته في شيء من كتب الحديث ولا السير المعروفة . ومثل هذا لا يعتمد عليه واللفظان مشتركان في الإشتقاق الأكبر فكلاهما فيه النون والباء وفي هذا الهمزة ، وفي هذا الحرف المعتل لكن الهمزة أشرف فإنها أقوى .

قال سيبويه هي نبوة من الحلق ، تشبه التهوع ، فالمعنى الذي يدل عليه ، ويمكن أن تلين فتصير حرفاً معتلاً فيعبر عنه باللفظين بخلاف المعتل ، فإنه لا يجعل همزة ، فلو كان أصله نبي مثل علي ووصي وولي لم يجز أن يقال بالهمز كما لا يقال عليء ووصيء ووليء بالهمز ، وإذا كان أصله الهمز جاز تليين الهمزة ، وإن لم يكثر استعماله كما في لفظ خبيء وخبيئة ، وأيضاً فإن تصريفه أنبأ ونبأ ينبيء وينبيء بالهمزة ، ولم يستعمل فيه نبا ينبو ، وإنما يقال هذا ينبو عنه ، والماء ينبو عن القدم إذا كان يجفو عنها ، ويقال النبوة ، وفي فلان نبوة عنا أي مجانبة فيجب القطع بأن النبي مأخوذ من الإنباء لا من النبوة ، والله أعلم .

فصل

قد تقدم أن للناس في وجه دلالة المعجزات وهي آيات الانبياء على نبوتهم طرقاً متعددة منهم من قال: دلالتها على التصديق تعلم بالضرورة، ومنهم من قال: تعلم بالنظر والإستدلال، وكلا القولين صحيح فإن كثيراً من العلوم في هذا الباب كدلالة الأخبار المتواترة، فإنه قد يحصل بالخبر علم ضروري، وقد يحصل العلم بالإستدلال، وطائفة منهم الكعبي وأبو الحسين البصري، وأبو الخطاب أنه نظري، والتحقيق أن كلا القولين حق، فإنه يحصل بها علم ضروري، والأدلة النظرية توافق ذلك، وكذلك كثير من الأدلة والعلامات والآيات من الناس من يعرف استلزامها للوازمها بالضرورة، ويكون اللزوم عنده بيناً لا يحتاج فيه إلى وسط ودليل، ومنهم من يفتقر إلى دليل ووسط يبين له أن هذا الدليل مستلزم لهذا الحكم، وهذا الحكم لازم له، ومن تأمل معارف الناس وجد أكثرها من هذا الضرب، فقد يجيء المخبر إليهم بخبر فيعرف كثير منهم صدقه أو كذبه بالضرورة لأمور تقترن بخبره، وآخرون يشكون في هذا ثم قد يتبين لبعضهم بأدلة، وقد لا يتبين، وكثير من الناس يعلم صدق المخبر بلا آية البتة، بل إذا أخبره وهو خبير بحاله، أو بحال ذلك المخبر به أو بهما، علم بالضرورة إما صدقه، وإما كذبه، وموسى بن عمران لما جاء إلى مصر فقال لهرون وغيره: أن الله أرسلني، علموا صدقه قبل أن يظهر لهم الآيات، ولما قال لهرون: إن الله قد أمرك أن تؤازرني، صدقه

هرون في هذا لما يعلم من حاله قديماً ، ولما رأى من تغير حاله الدليل على صدقه .

وكذلك النبي ﷺ لما ذكر حاله لخديجة وغيرها ، وذهبت به إلى ورقة بن نوفل ، وكان عالماً بالكتاب الأول فذكر له النبي ﷺ ما يأتيه علم أنه صادق وقال : هذا هو الناموس الذي كان يأتي موسى ، يا ليتني فيها جذعاً ، يا ليتني أكون حياً حين يخرجك قومك ، قال رسول الله ﷺ : « أوَ مُخْرِجِي هُم ؟ » قال : نعم لم يأت أحد بمثل ما جئت به إلا عودي وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً .

وكذلك النجاشي لما سمع القرآن قال : إن هذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة . وكذلك أبو بكر وزيد بن حارثة وغيرهما علموا صدقه علماً ضرورياً لما أخبرهم بما جاء به ، وقرأ عليهم ما أنزل عليه ، وبقي القرآن الذي قرأه آية وما يعرفون من صدقه وأمانته مع غير ذلك من القرائن يوجب علماً ضرورياً بأنه صادق ، وخبر الواحد المجهول من آحاد الناس قد تقترن به قرائن يعرف بها صدقه بالضرورة ، فكيف بمن عرف صدقه وأمانته وأخبر بمثل هذا الأمر الذي لا يقوله إلا من هو من أصدق الناس أو من أكذبهم وهم يعلمون أنه من الصنف الأول دون الثاني ؟ ، فإذا كان العلم بصدقه بلا آية قد يكون علماً ضرورياً ، فكيف بالعلم بكون الآية علامة على صدقه ، وجميع الأدلة لا بد أن تعرف دلالتها بالضرورة ؟ فإن الأدلة النظرية لا بد أن تنتهي إلى مقدمات ضرورية وأكثر الخلق إذا علموا ما جاء به موسى والمسيح ومحمد علموا صدقهم بالضرورة ، ولهذا لا يوجد أحد قدح في نبوتهم إلا أحد رجلين ، إما رجل جاهل لم يعرف أحوالهم ، وإما رجل معاند متبع لهواه . وعامة من كذبهم في حياتهم كان معانداً ، فالرؤساء كذبوهم لئلا تزول رئاستهم ، أو مأكلتهم والاتباع طاعة لكبرائهم ، كما أخبر الله بمثل

ذلك في غير موضع من القرآن لم يكن التكذيب لقيام حجة تدل على الكذب ، فإنه يمتنع قيام دليل يدل على الكذب ، فالمكذب مفتر متكلم بلا علم ولا دليل قطعاً ، وكذلك كل من كذب بشيء من الحق ، أو صدق بشيء من الباطل، يمتنع أن يكون عليه دليل صحيح ،فإن الدليل الصحيح يستلزم مدلوله ، فإذا كان المدلول منتفياً إمتنع أن يكون عليه دليل صحيح ، وكثير من الناس قد يكون شاكاً لعدم طلبه العلم وإعراضه عنه ، فالمكذب متكلم بلا علم قطعاً ، والشاك معرض عن طلب العلم مقصر مفرط ولو طلب العلم تبين له الحق إذا كان متمكناً من معرفة أدلة الحق ، وأما من لم يصل إليه الدليل ولا يتمكن من الوصول إليه فهذا عاجز .

وأما الذين سلكوا طريق الحكمة فلهم أيضاً مسالك مثل أن يقال : إن الله سبحانه وتعالى إذا بعث رسولاً أمر الناس بتصديقه وطاعته ، فلا بد أن ينصب لهم دليلاً يدلهم على صدقه فإن إرسال رسول بدون علامة وآية تعرف المرسل إليهم أنه رسول قبيح وسفه في صرائح العقول، وهو نقص في جميع الفطر وهو سبحانه منزه عن النقائص والعيوب ، ولهذا ينكر على المشركين أنهم يصفونه بما هو عندهم عيب ونقص لا يرضونه لأنفسهم مثل كون مملوك أحدهم شريكه يساويه ، فإن هذا من النقائص والعيوب التي ينزهون أنفسهم عنها ويعيبون ذلك على من فعله من الناس ، فإذا كان هذا عيباً ونقصاً لا يرضاه الخلق لأنفسهم لمنافاته الحكمة والعدل فإن الحكمة والعدل تقتضي وضع كل شيء موضعه الذي يليق به ، ويصلح به فلا تكون العين كالرجل ، ولا الإمام الذي يؤتم به في الدين والدنيا في آخر المراتب ، والسفلة من أتباعه في أعلى المراتب .

فكذلك المالك لا يكون مملوكاً مساوياً له ، فإن ذلك يناقض كون أحدهما مالكاً والآخر مملوكاً ، ولهذا جاءت الشريعة بأن المرأة لا تتزوج

عبدها لتناقض الأحكام ، فإن الزوج سيد المرة ، وحاكم عليها ، والمالك سيد المملوك وحاكم عليه ، فإذا جعل مملوكها زوجها الذي هو سيدها تناقضت الأحكام ، فهذا وأمثاله مما يبين أن هذه القضية مستقرة في نظر العقلاء ، ولهذا قال تعالى : (ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلاً مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِيمَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ)[1] . أي كما يخاف بعضكم بعضاً ، وقوله : (وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ)[2] . وكذلك كل أحد يعلم بفطرته أن الذكر أفضل من الأنثى .

وكانت العرب أشد كراهية للبنات من غيرهم ، حتى كان منهم من يئد البنات ويدفن البنت وهي حية ، حتى قال تعالى : (وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ)[3] . وقال تعالى : (وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ)[4] ، وكانوا لا يورثون الإناث وقد قالت أم مريم : وليس الذكر كالأنثى ، وكان من الكفار من جعل له الأناث أولاداً وشركاء ، قال تعالى : (أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ)[5] . وقال تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنْثَى مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ

---

١ ـ سورة الروم آية ٢٨ .
٢ ـ سورة الروم آية ٢٨ ـ ٢٩ .
٣ ـ سورة التكوير آية ٨ .
٤ ـ سورة النحل آية ٥٨ .
٥ ـ سورة النجم آية ١٩ .

يتبعُون إلاّ الظنّ وإنّ الظـنّ لا يُغْني من الحق شيئاً)[1] . وقال تعالى : (ويجْعلونَ لله البنـات سُبْحانهُ ولهمْ مـا يشْتهونَ وإذا بُشرَ أحدهُمْ بالأُنثى ظـلّ وجْههُ مُسْوَدّاً وهُوَ كظيمٌ يتوارَى منَ القوم من سُوء ما بُشّرَ به أيُمْسكُهُ على هون أمْ يدسُهُ في التّراب الاَ ساءَ ما يحْكُمُونَ)[2] . يعني ساء الحكم حكمهم ، أي بئس الحكم حكمهم ، كما يقال : بئسما فعل ، وبئسما حكم ، حيث حكموا بأن لله البنات ، ولهم ما يشتهون .

فهذا حكم جائر كما أن تلك القسمة قسمة جائرة عوجـاء ، فهذا حكمهم بينهم وبين ربهم ، وهذا قسمهم يجعلون لأنفسهم أفضل النوعين ولربهم أدنى النوعين ، وهو مثل السوء ، ولله المثل الأعلى . فالواجب أن يكون أفضل الأنواع وأكملها لله ، وما فيها نقص وعيب ، فالمخلوق أحق بها من الخالق ، إذ كان كل كمال في المخلوق فهو من خالقه ، فيمتنع أن يكون الأنقص خلق الأكمل ، والفلاسفة يقولون بعبارتهم كل كمال في المعلول ، فهو من العلة ، وأيضاً فالموجود الواجب أكمل من الممكن ، والقديم أكمل من الحديث ، والغني أكمل من الفقير ، فيمتنع اتصاف الأكمل بالنقائص وإتصاف الأنقص بالكمالات ، ولهذا يوصف سبحانه بأنه الأكرم والأكبر والأعلى ، وأنه أرحم الراحمين ، وخير الحاكمين ، وخير الغافرين ، وأحسن الخالقين ، فلا يوصف قط إلا بما يوجب اختصاصه بالكمالات والممادح والمحاسن التي لا يساويه فيها غيره فضلاً عن أن يكون لغيره النوع الفاضل ، وله النوع المفضول .

ولهذا عاب الله المشركين بأن جعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً فقالوا : هذا لله بزعمهم ، وهذا لشركائنا ، فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله ، وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ، ساء ما يحكمون ،

---

١ ـ سورة النساء آية ١٥٦ .　　٢ ـ سورة النحل آية ٥٧ ـ ٥٨ .

فبئس الحكم حكمهم في هذا ، كما أنه بئس الحكم حكمهم في جعل الذكور لهم ، والإناث له ، وساء بمعنى : بئس، كقوله : ساء مثلاً القوم الذين كذبوا بآياتنا ، أي بئس مثلاً مثلهم، ولهذا قالوا في قوله : ساء ما يحكمون ، بئسما يقضون . وقال تعالى : (أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثاً إنكم لتقولون قولاً عظيماً)[1] وقال تعالى: (وجعلوا له من عباده جزءاً إن الإنسان لكفور مبين ، أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين ، وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلاً ظل وجهه مسوداً وهو كظيم أو من ينشأ في الحلية وهو في الخصام غير مبين ، وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً أشهدوا خلقهم ستكتب شهادتهم ويسألون)[2] .

فهذه الطريقة وهو أن ما يستحقه المخلوق من الكمال الذي لا نقص فيه ، فالخالق أولى به ، وما ينزه عنه المخلوق من العيوب المذمومة، فالخالق تعالى أولى بتنزيهه عن كل عيب وذم ،وهو سبحانه القدوس السلام الحميد المجيد من أبلغ[3] الطرق البرهانية وهي مستعملة في القرآن في غير موضع ، فلذلك يقال : الواحد من الناس قادر على إرسال رسول ، وعلى أن يرسل نشابة وعلامة يعرفه المرسل اليهم بها صدقه ، فكيف لا يقدر الرب على ذلك ، ثم إذا أرسله إليهم وأمرهم بتصديقه وطاعته ولم يعرفهم أنه رسوله ، كان هذا من أقبح الأمور ، فكيف يجوز مثل هذا على الله ولو بعثه بعلامة لا تدلهم على صدقه كان ذلك عيباً مذموماً ، فكل ما ترك من لوازم الرسالة ، إما أن يكون لعدم القدرة ، وإما أن يكون للجهل والسفه وعدم الحكمة، والرب أحق بالتنزيه عن هذا وهذا من المخلوق، فإذا أرسل

١ ـ سورة الاسراء آية ٤٠ .
٢ ـ سورة الزخرف آية ١٥ .
٣ ـ قوله من ابلغ خبر قوله سابقا فهذه الطريقة .

رسولاً فلا بد أن يعرفهم أنه رسوله ويبين ذلك ، وما جعله آية وعلامة ودليلاً على صدقه امتنع أن يوجد بدون الصدق فامتنع أن يكون للكاذب المتنبي ، فإن ذلك يقدح في الدلالة ، فهذا ونحوه مما يعرف به دلالة الآيات من جهة حكمة الرب ، فكيف إذا انضم إلى ذلك أن هذه سنته وعادته ، وأن هذا مقتضى عدله ، وكل ذلك عند التصور التام يوجب علماً ضرورياً بصدق الرسول الصادق ، وأنه لا يجوز أن يسوى بين الصادق والكاذب ، فيكون ما يظهره النبي من الآيات يظهر مثله على يد الكاذب ، إذ لو فعل هذا لتعذر على الخلق التمييز بين الصادق والكاذب ، وحينئذ فلا يجوز أن يؤمروا بتصديق الصادق ، ولا يذموا على ترك تصديقه وطاعته ، إذ الأمر بذلك بدون دليله تكليف ما لا يطاق ، وهذا لا يجوز في عدله وحكمته ، ولو قدر أنه جائز عقلاً فإنه غير واقع .

فصـل

انتقام الله ممن يكذب عليه

وقد دل القرآن على أنه سبحانه لا يؤيد الكذاب عليه ، بل لا بد أن يظهر كذبه ، وأن ينتقم منه فقال تعالى : (وَلَوْ تَقَوَّلَ علينا بعضَ الأقاويل لأخذْنا منهُ باليمينِ ثمَّ لقطعْنا منهُ الوتينَ فما منكُم مِن أحدٍ عنهُ حاجزينَ)[1] ذكر هذا بعد قوله : (فلا أقسمُ بما تُبصِرونَ وما لا تُبصِرونَ إنّه لقولُ رسولٍ كريمٍ وما هُو بقولِ شاعرٍ قليلاً ما تؤمنون ولا بقولِ كاهنٍ قليلاً ما تذكَّرونَ تنزيلٌ مِن ربِّ العالمينَ)[2] . ثم قال : (وَلَو تَقَوَّلَ علينا بعضَ الأقاويل لأخذْنا منهُ باليمينِ ثمَّ لقطعْنا منهُ الوتينَ فما منكُم مِن أحدٍ عنهُ حاجزين) هذا بتقدير أن يتقول بعضُ الأقاويل ، فكيف بمن يتقول الرسالة كلها .

وقوله (لأخذْنا منهُ باليمين ، ثمَّ لقطعْنا منهُ الوتينَ) الوتين عرق في الباطن يقال : هو نياط القلب ، وإذا قطع مات الانسان عاجلاً ، وذلك يتضمن هلاكه لو تقول على الله. وقوله : (لأخذْنا منهُ باليمينِ) قيل : لأخذنا بيمينه كما يفعل بمن يهان عند القتل ، فيقال : خذ بيده فيجر بيده ، ثم يقتل ، فهذا هلاك بعزة وقدرة من الفاعل وإهانة وتعجيل هلاك

---

١ ــ سورة الحاقة آية ٤٤ .
٢ ــ سورة الحاقة آية ٣٨ ــ ٣٩ .

للمتقول، وقيل: لأخذنا منه باليمين، أي بالقوة والقدرة فإن الميامن أقوى ممن يأخذ بشماله كما قال: (فأخذناهُم أخذَ عزيزٍ مُقتدرٍ)[1] وكما قال: (إنَّ بطشَ ربِّكَ لشديد)[2] لكنه قال: (أخذْنا منهُ) ولم يقل لأخذناه، فهذا يقوي القول الأول، وقال تعالى: (أم يقولونَ افترى على الله كذباً فإن يشأ اللهُ يختمْ على قلبك)[3] ثم قال: (ويمحُ اللهُ الباطلَ ويحقُّ الحقَّ بكلماتِهِ)[4] فقوله: (ويمحُ اللهُ الباطلَ) عطف جملة على جملة. قالوا: وليس من جواب الشرط. لأنه قال ويحق الحق بالضم، وهو معطوف على قوله (ويمحُ الله الباطل) فمحوه للباطل وإحقاقه الحق خبر منه لا بد أن يفعله، فقد بين أنه لا بد أن يمحو الباطل. ويحق الحق بكلماته فإنه إذا أنزل كلماته دل بها على أنه نبي صادق إذ كانت آية له، وبين بها الحق من الباطل، وهو أيضاً يحق الحق ويبطل الباطل بكلماته، فإنه إذا أنزل كلماته دل بها على أنه نبي صادق إذ كانت آية له، وبين بها الحق من الباطل، وهو أيضاً يحق الحق ويُبطل الباطل بكلماته التي تكون بها الأشياء، فيحق الحق بما يظهره من الآيات. وما ينصر به أهل الحق كما تقدمت كلمته بذلك، كما قال: (ولقدْ سبقتْ كلمتُنا لعبادِنا المرسلينَ إنهُم لهُم المنصورونَ وإنَّ جندَنا لهُم الغالبونَ)[5]. وقال: (وتمَّتْ كلماتُ ربِّكَ صدقاً وعدلاً)[6] وقال: (وصدَّقتْ بكلماتِ ربِّها وكتُبِهِ وكانتْ مِنَ القانتينَ)[7] وقال تعالى: (أتى أمرُ اللهِ فلا تستعجلوهُ)[8] وأمره يتضمن ما يأمر به وهو الكائن بكلماته، وقال تعالى: (إنّما أمرُهُ إذا أرادَ شيئاً أن يقولَ لهُ كُنْ فيكونُ)[9]. وكلماته صدق وعدل، والعدل وضع الأشياء مواضعها. فمن عدله أن

---

١ ــ سورة القمر آية ٤٢ .
٢ ــ سورة البروج آية ١٢ .
٣ ــ سورة الشورى آية ٢٤ .
٤ ــ سورة الشورى آية ٢٤ .
٥ ــ سورة الصافات آية ١٧١ ــ ١٧٣ .
٦ ــ سورة الانعام آية ١١٥ .
٧ ــ سورة التحريم آية ١٢ .
٨ ــ سورة النحل آية ١ .
٩ ــ سورة يس آية ٨٢ .

يجعل الصادق عليه المبلغ لرسالته حيث يصلح من كرامته ونصره ، وان يجعل الكاذب عليه حيث يليق به من إهانته وذله ، قال تعالى: (إنَّ الَّذينَ اتخذُوا العِجْلَ سَيَنالهُم غَضَبٌ مِن ربِّهِم وذِلَّةٌ في الحياةِ الدُّنيا وكذلكَ نَجزي المُفْتَرِينَ)[1] قال أبو قلابة : هي لكل مفتر إلى يوم القيامة ومن أعظم الافتراء عليه دعوى النبوة والرسالة كذباً كما قال تعالى : (ومَنْ أظلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلى اللهِ كَذِباً ، أو قالَ أوحي إليَّ ولَمْ يُوحَ اليه شيءٌ ومن قال سأنزلُ مِثْلَ ما أنزَلَ اللهُ)[2] . وذكر في هذا الكلام جميع أصناف الكاذبين الذين يعارضون رسله الصادقين ، كما ذكر فيما قبله حال الكاذبين في قوله : (وما قَدَروا اللهَ حقَّ قَدْرِهِ إذ قالوا ما أنزَلَ اللهُ على بَشَرٍ مِن شيءٍ قُلْ مَنْ أنزَلَ الكتابَ الَّذي جاءَ به موسى نُوراً وهُدىً للنَّاسِ يَجْعَلُونَهُ قَراطيسَ تُبْدُونَها ويُخْفُونَ كثيراً وعُلِّمْتُم ما لَم تعلموا أنتم ولا أباؤكُم قُلْ اللهُ ثم ذَرْهُم في خَوْضِهِم يَلعَبونَ ، وهذا كِتابٌ أنزلناهُ مُبارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذي بينَ يديهِ ولِتُنْذِرَ أمَّ القُرى ومَن حَوْلها والَّذينَ يُؤمِنونَ بالآخرةِ يُؤمِنونَ بهِ وهُم على صَلاتِهِم يُحافِظُون)[3] .

ثم قال : (ومَنْ أظلَمُ مِمَّن افترَى على اللهِ كَذِباً ، أو قالَ أوحي إليَّ ولم يوحَ اليه شيءٌ)[4] الآية. فإن الكاذب إما أن يقول إن غيري أنزل علي ، وإما أن يقول أنا أصنف مثل هذا القرآن ، وإذا قال : غيري أنزل علي ، فأما أن يعينه فيقول : إن الله أنزله علي ، وأما أن يقول أوحي ، ولا يعين من أوحاه ، فذكر الأصناف الثلاثة فقال : (ومَنْ أظلَمُ مِمَّنْ افترَى على اللهِ كَذِباً أو قال أوحي إليَّ ولَم يُوحَ إليه

---

١ ــ سورة الاعراف آية ١٥٢ .
٢ ــ سورة الانعام آية ٩٣ .
٣ ــ سورة الانعام آية ٩١ ــ ٩٢ .
٤ ــ سورة الانعام آية ٩٣ .

شيء ") فهذان نوعان من جنس ، ثم قال: ومن، ولم يقل أو قال.
إذ كان هذا معارضاً لا يدعي أنه رسول ، فقال: ومن قال: سأنزل مثل ما أنزل الله ، وهؤلاء المعارضون قد تحداهم في غير موضع وقال: (قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالجِنُّ على أن يأتوا بمثلِ هذا القرآن لا يأتونَ بمثله ولَو كانَ بعضُهم لبعضٍ ظهيرا)[1]. والرسول أخبر بهذا خبراً تاماً في أول الأمر ، وهذا لا يمكن إلا مع قطعه أنه على الحق ، وإلى الآن لم يوجد أحد أنزل مثل ما أنزل الله. وقوله ومن قال: سأنزل ، ولم يقل أقدر أن أنزل ، فإن قوله سأنزل هو وعد بالفعل ، وبه يحصل المقصود ، بخلاف قوله أقدر ، فإنه لا يحصل به غرض المعارض ، وإنما يحصل إذا فعل ، فمن وعد بإنزال مثل ما أنزل كان من أظلم الناس وأكذبهم ، إذ كان قد تبين عجز جميع الثقلين الإنس والجن عن أن يأتوا بمثل هذا القرآن ، وقوله مثل ما أنزل الله يقتضي أن كل ما أنزله الله على أوليائه فهو معجز لا يقدر عليه إلا الله ، كالتوراة والإنجيل والزبور ، وهذا حق ، فإن في ذلك من أنباء الغيب ما لا يعلمه إلا الله ، وفيه أيضاً من تأييد الرسل بذلك ما لا يقدر على أن يرسل بتلك الرسالة إلا الله ، فلا يقدر أحد أن ينزل مثل ما أنزل الله على نبيه ، فيكون به مثل الرسول ولا أن يرسل به غيره.

---

١ ــ سورة الاسراء آية ٨٨ .

فصل

في الاستدلال بالحكمة

والاستدلال بالحكمة أن يعرف أولاً حكمته ، ثم يعرف أن من حكمته أنه لا يسوي بين الصادق بما يظهر به صدقه ، وبأن ينصره ويعزه ويجعل له العاقبة ، ويجعل له لسان صدق في العالمين ، والكاذب عليه يبين كذبه ، ويخذله ويذله ، ويجعل عاقبته عاقبة سوء ، ويجعل له لسان الذم واللعنة في العالمين ، كما قد وقع ، فهذا هو الواقع ،لكن المقصود أن نبين أن ما وقع منه فهو واجب الوقوع في حكمته لا يجوز أن يقع منه ضد ذلك ، فهذا استدلال ببيان أنه يجب أن يقع منه ما يقع ، ويمتنع أن يقع منه ضده ، وذلك ببيان أنه حكيم ، وأن حكمته توجب أن يبين صدق الأنبياء وينصرهم ، ويبين كذب الكاذبين ويذلهم ، وكذلك يفعل باتباع النبيين وبأعدائهم كما أخبر بذلك في كتابه ، وبين أن هذا حق عليه يجب أن يفعله ، ويمتنع أن يفعل ضده كما قال تعالى : (ولَقَدْ أرسلنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلاً إلى قَوْمِهِم فجاؤوهُم بالبيّنات فانْتَقَمْنا من الّذينَ أجرَموا وكان حقاً علَينا نَصْرُ المؤمنين)[1] وكَما قال : (كَتَبَ اللّهُ لأغْلِبنَّ أنا ورُسُلي إنَّ اللهَ لَقَوِيّ عزيز)[2] وقوله : « لأغلبن » قسم أقسم الله عليه ، فهو جواب قسم تقديره ، والله لأغلبن أنا ورسلي ، وهذا

---

١ ــ سورة الرعد آية ٤٠ .

٢ ــ سورة المجادلة آية ٢١ .

يتضمن إخباره بوقوع ذلك ، وأنه كتب على نفسه ذلك وأمر به نفسه وأوجبه على نفسه ، فإن صيغة القسم يتضمن التزام ما حلف عليه ، إما حضاً عليه وأمراً به ، وإما منعاً منه ونهياً عنه ، ولهذا كان في شرع من قبلنا يجب الوفاء بذلك ولا كفارة فيه ، وكذلك كان في أول الإسلام ، ولهذا كان أبو بكر لا يحنث في يمين حتى أنزل الله كفارة اليمين ، كما ذكرت ذلك عائشة ، ولهذا أمر أيوب أن يأخذ بيده ضغثاً فيضرب به ولا يحنث ، فإن ذلك صار واجباً باليمين كوجوب المنذور الواجب بالنذر يحتذي به حذو الواجب بالشرع ، والضرب بالضغث يجوز في الحدود إذا كان المضروب لا يحتمل التفريق كما جاء في الحديث ، ولو كان في شرعهم كفارة لأغنت عن الضرب مطلقاً ، لكن الانسان قد يلتزم ما لا يعلم عاقبته ، ثم يندم عليه ، والرب تعالى عالم بعواقب الأمور ، فلا يحلف على أمر ليفعلنه إلا وهو يعلم عاقبته ، واليمين موجبة .

ولهذا قال تعالى: (كتب الله لأغلبن) وكتب : مثل كتب في قوله : (كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ)[1] فهي كتابة تتضمن خبراً وإيجاباً ، ومنه قوله تعالى : (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللهِ رِزْقُهَا)[2] ، وفي الحديث الصحيح الإلهي : « يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ على نَفْسِي وجَعَلْتُهُ بينَكُمْ مُحرّماً فَلاَ تَظَالَمُوا». وقد بسط هذا الأصل في مواضع مثل الكلام في مسألة القادر المختار ، ومسألة العدل والظلم وغير ذلك ، فإن كثيراً من المتكلمين يقول : إن القادر المختار لا يفعل إلا بوصف الجواز فيفعل الفعل في حال تردده بين أن يفعل وأن لا يفعل .

ومنهم من يقول يفعله مع رجحان أن يفعل، رجحاناً لا ينتهي إلى حد الوجوب ، وهو قول محمد بن الهيصم الكرامي ، ومحمود الخوارزمي المعتزلي ، وبهذا استطال عليهم الفلاسفة فقالوا : الرب موجب لأن الممكن

---

١ ــ سورة الانعام ، آية ٥٤ . ٢ ــ سورة هود ، آية ٦ .

لا يقع حتى يحصل المؤثر التام الموجب له ، والتحقيق أن الرب يخلق بمشيئته وقدرته وهو موجب لكل ما يخلقه بمشيئته وقدرته ليس موجباً بمجرد الذات ولا موجباً بمعنى أن موجبه يقارنه ، فإن هذا ممتنع ، فهذان معنيان باطلان ، وهو قادر يفعل بمشيئته ، فما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، فما شاءه وجب كونه ، وما لم يشأ امتنع كونه .

ولهذا قال كثير من النظار إن الإرادة موجبة للمراد ، وعلى هذا فقولنا : يجوز أن يكون ويجوز أن لا يكون ، إنما هو جواز الشيء بمعنى الشك في أيهما هو الواقع ، والا ففي نفس الأمر أحدهما هو الواقع ليس في نفس الأمر ظنياً متردداً بين الوقوع وعدم الوقوع ، والإمكان الذهني قد يراد به عدم العلم بالامتناع ، وقد يراد به الشك في الواقع ، وكلا النوعين عدم علم ، والإمكان الخارجي يراد به أن وجوده في الخارج ممكن لاممتنع كولادة النساء ونبات الأرض ، وأما الجزم بالوقوع وعدمه فيحتاج إلى دليل ، وفي نفس الأمر ماثم إلا ما يقع أو لا يقع ، والواقع لا بد من وقوعه ، ووقوعه واجب لازم ، وما لا يقع فوقوعه ممتنع ، لكن واجب بغيره ، وممتنع لغيره ، وهو واجب من جهات : من جهة علم الرب من وجهين ، ومن جهة إرادته من وجهين ، ومن جهة كلامه من وجهين ، ومن جهة كتابته من وجهين ، ومن جهة رحمته ، ومن جهة عدله ، أما علمه فما علم أنه سيكون فلا بد أن يكون ، وما علم أنه لا يكون فلا يكون ، وهذا مما يعترف به جميع الطوائف إلا من ينكر العلم السابق كغلاة القدرية الذين تبرأ منهم الصحابة ، ومن جهة أنه يعلم ما في ذلك الفعل من الحكمة فيدعوه علمه إلى فعله ، أو ما فيه من الفساد فيدعوه إلى تركه ، وهذا يعرفه من يقر بأن العلم داع ، ومن يقر بالحكمة ، ومن جهة إرادته فإنه ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، ومن جهة حكمته وهي الغاية المرادة لنفسها التي يفعل لأجلها ، فاذا كان مريداً

للغاية المطلوبة لزم أن يريد ما يوجب حصولها ، ومن جهة كلامه من وجهين : من جهة أنه أخبر به ، وخبره مطابق لعلمه ، ومن جهة أنه أوجبه على نفسه وأقسم ليفعلنه ، وهذا من جهة إيجابه على نفسه والتزامه أن يفعله .

ومن جهة كتابته إياه في اللوح ، وهو يكتب ما علم أن سيكون ، وقد يكتب إيجابه والتزامه كما قال : (كَتَبَ اللهُ لأغلبنَّ أنا ورسُلي) وقال : (كَتَبَ ربكُم على نفسهِ الرَّحْمةَ) فهذه عشرة أوجه[1] تقتضي الجزم بوقوع ما سيكون ، وأن ذلك واجب حتى لا بد منه ، فما في نفس الأمر جواز يستوي فيه الطرفان : الوجود ، والعدم ، وإنما هذا في ذهن الانسان لعدم علمه بما هو الواقع ، ثم من علم بعض تلك الأسباب علم الواقع ، فتارة يعلم لأنه أخبر بعلمه ، وهو ما أخبرت به الأنبياء بوقوعه ، كالقيامة والجزاء ، وتارة يعلم من جهة المشيئة ، لأنه جرت به سنته الشاملة التي لا تتبدل ، وتارة يعلم من جهة حكمته ، كما قد بسط في غير هذا الموضع ، والحكمة والعدل والرحمة والعادة تعلم بالعقل ، كما قد عرف من حكمة الرب وعدله وسنته ، ويستدل بذلك على العلم والخبر والكتاب ، كما أن العلم والخبر والكتاب تعلم بأخبار الأنبياء ، ويستدل بذلك على العدل والحكمة والرحمة .

والجهمية المجبرة لا تجزم بثبوت ولا انتفاء إلا من جهة الخبر ، أو العادة ، إذ كانوا لا يثبتون الحكمة والعدل والرحمة في الحقيقة ، كما قد بسط في غير موضع .

---

١ — قوله فهذه عشرة أوجه اجملهسا اولا ، فذكر ان في العلم وجهين ، وفي الارادة وجهين ، وفي الكلام وجهين ، وفي الكتابة وجهين ، ووجها في الرحمة ، وآخر في العدل ، ثم اخذ يبين الاربعة الاولى ، ويشرح الوجهين في كل منهما ، وترك الاخيرين لظهورهما ، فالجملة عشرة .

وحكي عن الجهم أنه كان يخرج فينظر الجذمى[1] ثم يقول : أرحم الراحمين يفعل هذا ، يقول إنه يفعل لمحض المشيئة ، ولو كان يفعل بالرحمة لما فعل هذا ، وهذا من جهله لم يعرف ما في الابتلاء من الحكمة ، والرحمة والمصلحة ، والمجبرة المثبتة للقدر متبعون لجهم ، والقدرية النفاة مناقضون لهم كما قد بسط الكلام على ذلك في غير موضع ، وما زال العقلاء يستدلون بما علموه من صفات الرب على ما يفعله كقول خديجة للنبي ﷺ لما قال لها : « لَقَدْ خشيت على نفْسي »فقالت: « كلا والله لا يخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم وتحمل الكل وتقري الضيف وتصدق الحديث وتكسب المعدوم ، وتعين على نوائب الحق » .

فاستدلت بما فيه من مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال على أن الله لا يخزيه ، ومنه قوله تعالى : (قُلْ هَلْ أُنبِئُكُم على مَن تَنَزَّل الشَّياطين تَنَزَّل على كلِّ أفَّاكٍ أثيمٍ)[2] فإن الشيطان إنما ينزل على ما يناسبه ويطلبه وهو يريد الكذب والاثم ، فينزل على من يكون كذلك ، وبسط هذا له موضع آخر .

والكلام في النبوة فرع على إثبات الحكمة التي يوجب فعل ما تقتضيه الحكمة ، ويمتنع فعل ما تنفيه فتقول : هو سبحانه وتعالى حكيم يضع كل شيء في موضعه المناسب له ، فلا يجوز عليه أن يسوى بين جنس الصادق والكاذب ، والعادل والظالم ، والعالم والجاهل ، والمصلح والمفسد ، بل يفرق بين هذه الأنواع بما يناسب الصادق العادل العالم المصلح من الكرامة ، وما يناسب الكاذب الظالم الجاهل المفسد من الهوان ، كما قال تعالى : (أمْ نجْعَلِ الّذينَ آمَنوا وعَمِلوا الصالحاتِ كالمفسِدينَ في الأرْضِ

---

١ ــ الجذمى جمع اجذم مثل زمنى وقتلى وجرحى .

٢ ــ سورة الشعراء ، آية ٢٢٢

أمْ نجعَلُ المُتَّقِينَ كالفُجَّارِ)[1] وقال : (فنَجعَلُ المُسْلِمينَ كالمُجرِمِينَ)[2] وهذا استفهام إنكار على من ظن ذلك ، وهو يتضمن تقرير المخاطبين واعترافهم بأن هذا لا يجوز عليه ، وأن ذلك بين معروف يجب اعترافهم به واقرارهم به كما يقال لمن ادعى أمراً ممتنعاً مثل نعم كثيرة في موضع صغير ، فيقال له أههنا كانت هذه النعم أي هذا ممتنع فاعترف بالحق ، وإذا ادعى على من هو معروف بالصدق والأمانة أنه نقب داره ، وأخذ ماله قيل له : أهذا فعل هذا ومنه قوله : (يا عيسى بنَ مريمَ أأنتَ قلتَ للنّاسِ اتّخِذوني وأمّيَ إلهَيْنِ مِن دونِ اللهِ)[3] وقوله تعالى : (ويومَ يحشُرهم جميعاً ثمَّ يقولُ للملائكةِ أهؤلاءِ إيّاكُم كانوا يَعْبُدونَ)[4] ونظائره كثيرة .

وكذلك قوله : (أمْ حَسِبَ الّذينَ اجترَحُوا السيّئاتِ أن نجعلَهُم كالّذينَ آمنوا وعَمِلوا الصّالحاتِ سواءً مَحياهُم ومَماتُهُم ساءَ ما يحكُمون)[5] . فإن هذا استفهام إنكار على من حسب أنه يسوي بين هؤلاء وهؤلاء ، فبين أن هذا الحساب باطل ، وأن التسوية ممتنعة في حقه لا يجوز أن يظن به بل من ظن ذلك فقد ظن بربه ظن السوء ، وذلك ظن أهل الجاهلية الذين يظنون بالله ظن السوء ، فمن جوز ذلك على الله ، فقد ظن بربه ظن السوء ، وقوله تعالى فيما جرى يوم أحد : (وطائفةٌ قدْ أهمّتْهُم أنفُسُهُم يَظُنّونَ باللهِ غيرَ الحقِّ ظنَّ الجاهليةِ)[6] فسره ابن عباس وغيره بأنهم ظنوا أن الله لم يقدر ما جرى ، وأنه لا ينصر رسوله ، فكما أن القدر يجب الإيمان به ، ويعلم أن كل ما كان قد سبق به علم الرب ، فكذلك يعلم أنه لا بد أن ينصر رسله والذين آمنوا ، وكما أنه لا يجوز أن

---

١ — سورة ص ، آية ٢٨ — ٢٩ .
٢ — سورة القلم ، آية ٣٥ .
٣ — سورة المائدة ، آية ١١٦ .
٤ — سورة سبا ، آية ٤٠ .
٥ — سورة الجاثية ، آية ٢٠ .
٦ — سورة آل عمران ، آية ١٥٤ .

يقع بخلاف المقدر ، فلا يجوز أن لا ينصر رسله والذين آمنوا ، ومثله قوله تعالى فيما أنزله عام الحديبية لما ظن ظانون أن الرسول وأتباعه لا ينصرون فقال تعالى : (ويُعذّب المُنافقينَ والمُنافقاتِ والمُشركينَ والمُشركاتِ الظانّينَ باللهِ ظنَّ السوءِ عليهِم دائرةُ السوءِ وغَضِبَ اللهُ عليهِم ولعَنَهُم وأعَدَّ لهُم جهَنّم وساءَتْ مصيرا)[1]. وهذا يدل على أن هذا ظن سوء بالله لا يجوز أن يظن به أنه يفعل ذلك ومن ينفي الحكمة يقول يجوز عليه فعل كل شيء ، وليس عنده ظن سوء بالله ، وإن قيل لما أخبر أنه ينصره كان ضد ذلك ظن سوء ، لأن خبره لا يقع بخلاف مخبره ؟ قيل عن هذا جوابان : أحدهما : أن هؤلاء يلزمهم تجويز إخلاف الوعد عليه ، لأن هذا من باب الأفعال المقدورة ، وهم يجوزون كل مقدور ، وإذا قيل إخلاف الوعد قبيح فهم ليس عندهم شيء قبيح ، ينزهون الرب عنه .

الثاني أنه إذا علم أنه يفعله ولو بالعلم الضروري ، فإنما ذلك لأنه واقع ، ولو قدر أن رجلاً ظن أن الله لا يفعل ما سيفعله مما ليس فيه ذم مثل أن يظن أنه يموت بعد شهر لم يقل أن هذا ظن سوء ، وإنما يكون ظن سوء إذا كان المظنون عيباً قبيحاً لا يجوز أن يضاف إلى المظنون به ، ومنه قوله تعالى : (إذ جاءوكُم مِن فَوْقِكم ومِن أسفَلَ مِنكم وإذ زاغَتِ الأبصار وبَلَغَتِ القُلوب الحناجِر ويَظُنّونَ باللهِ الظُنُون)[2]. فهذا ذم لمن ظن بالله الظنون ، ومن ذلك قوله تعالى : (أفَنَجْعَلُ المسلمِينَ كالمُجرمِينَ مالَكُم كيفَ تحكُمون)[3]. وهذا يقتضي أن هذا ممتنع عليه ، ومن حكم بجوازه فقد حكم حكماً باطلاً جائراً ممتنعاً كالذين جوزوا أن تكون له بنات ، وهم يكرهون أن تكون لهم بنات ، فيجوز على الله ما

---

١ ـ سورة الفتح ، آية ٦ .

٢ ـ سورة الاحزاب ، آية ١٠ .

٣ ـ سورة القلم ، آية ٣٥ .

هو قبيح عندهم قال تعالى : (وَيَجْعَلُونَ لله البنات سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ ما يَشْتَهُونَ ، وإذا بُشِّرَ أحَدُهُم بالأنثى ظَلَّ وجْهُهُ مُسْوَدّاً وهُوَ كَظِيم يَتَوارَى مِنَ القومِ مِن سوءِ ما بُشِّرَ بِهِ أيُمسِكُهُ على هُونٍ أم يَدُسُّه في التراب ألا ساءَ ما يَحْكُمُونَ)[1] . ومما يبين حكمته أن تقول أفعاله المحكمة المتقنة دلت على علمه ، وهذا مما وقع الاتفاق عليه من هؤلاء ، فإنهم يسلمون أن الإحكام والإتقان يدل على علم الفاعل ، وهذا أمر ضروري عندهم ، وعند غيرهم ، وهو من أعظم الأدلة العقلية التي يجب ثبوت مدلولها ، والاحكام والاتقان إنما هو أن يضع كل شيء في محله المناسب لتحصل به الحكمة المقصودة منه مثل الذي يخيط قميصاً فيجعل الطوق على قدر العنق والكمين على قدر اليدين ، وكذلك الذي يبني الدار يجعل الحيطان متماثلة ليعتدل السقف ، والذي يصنع الابريق يوسع ما يدخل منه الماء ويضيق ما يخرج منه ، وحكمة الرب في جميع المخلوقات باهرة قد بهرت العقلاء ، واعترف بها جميع الطوائف والفلاسفة من أعظم الناس إثباتاً لها ، وهم يثبتون العناية والحكمة الغائية وإن كان فيهم من قصر في أمر الإرادة والعلم .

وكذلك المتكلمون كلهم متفقون على إثبات الحكمة في مخلوقاته وإن كانوا في الإرادة وفعله لغاية متنازعين ، وذلك مثلما في خلق الإنسان. وأدنى ذلك أن العين والفم والأذن فيها مياه ورطوبة ، فماء العين ملح وماء الفم عذب ، وماء الأذن مر. فإن العين شحمة ، والملوحة تحفظها أن تذوب ، وهذه أيضاً حكمة تمايح ماء البحر ، فإن له سبباً وحكمة فسببه سبوخة أرضه وملوحتها ، فهي توجب ملوحة مائه. وحكمتها أنها تمنع نتن الماء بما يموت فيه من الحيتان العظيمة ، فإنه لولا ملوحة مائه لأنتن ، ولو أنتن لفسد الهواء لملاقاته له ، فهلك الناس بفساده ، وإذا وقع أحياناً

---

١ ــ سورة الانعام ، آية ٥٧ .

قتل خلق كثير فإنه يفسد الهواء حتى يموت بسبب ذلك خلق كثير ، وماء الأذن مر ليمنع دخول الهوام إلى الأذن ، وماء الفم عذب ليطيب به ما يأكله ، فلو جعل الله ماء الفم مراً لفسد الطعام على أكلته ، ولو جعل ماء الأذن عذباً لدخل الذباب في الدماغ ، ونظائر هذا كثيرة ، فلا يجوز أن يفعل بخلاف ذلك مثل أن يجعل العينين في القدمين ، ويجعل الوجه خشناً غليظاً كالقدمين ، فإنه كان يفسد مصلحة النظر والمشي ، بل من الحكمة أنه جعل العينين في أعلى البدن في مقدمه ليرى بها ما أمامه ، فيدري أين يمشي ، وجعل الرجل خشنة تصبر على ما تلاقيه من التراب وغيره ، والعين لطيفة يفسدها أدنى شيء فجعل لها أجفاناً تغطيها وأهداباً. فتقول هذا ومثله من مخلوقات الرب ، دل على أنه قد أحكم ما خلقه وأتقنه ووضع كل شيء بالموضع المناسب له ، وهذا يوجب العلم الضروري أنه عالم فيميز بين هذا وبين هذا ، حتى خص هذا بهذا ، وهذا بهذا ، وهو أيضاً يوجب العلم الضروري بأنه أراد تخصيص هذا بهذا وهذا بهذا ، فدل على علمه وإرادته ، وهذا مما يسلمونه فتقول : ودل أيضاً على أنه جعل هذا لهذا فجعل ماء العين والبحر ملحاً للحكمة المذكورة ، وجعل العين في أعلى البدن ، وجعل لها أجفاناً للحكمة المذكورة ، وكذلك إذا أنزل المطر وقت الحاجة إليه علم أنه أنزله ليحيي به الأرض .

وكذلك إذا دعاه الناس مضطرين فأنزل المطر علم أنه أنزله ليحيي الأرض لاجابة دعائهم فلا يتصور أن يعلم أنه أراد هذا لهذا ، ولا يتصور الاحكام والإتقان إلا إذا فعل هذا للحكمة المطلوبة ، فكان ما علم من احكامه وإتقانه دليلاً على علمه ، وعلى حكمته أيضاً وأنه يفعل لحكمة ، والذين استدلوا بالاحكام على علمه ولم يثبتوا الحكمة وأنه يفعل هذا لهذا متناقضون عند عامة العقلاء وحذاقهم معترفون بتناقضهم ، فإنه لا معنى للاحكام إلا الفعل لحكمة مقصودة فإذا انتفت الحكمة ولم يكن فعله

لحكمة انتفى الاحكام ، وإذا انتفى الاحكام انتفى دليل العلم ، وإذا كان الإحكام معلوماً بالضرورة ، ودلالته على العلم معلومه بالضرورة علم أن حكمته ثابتة بالضرورة وهو المطلوب ، وأيضاً فإذا ثبت أنه عالم فنفس العلم يوجب أنه لا يفعل قبيحاً ، ولا يجوز أن يفعل القبيح إلا من هو جاهل ، كما قد بسط في غير هذا الموضع .

بين أن العالم يعلم ما الذي يصلح أن يفعل ، وأن فعل هذا أولى من فعل هذا ، وإذا كان مريداً للفعل وقد علم أن الفعل على هذا الوجه هو الأصلح إمتنع أن يريد الوجه الآخر ، والإنسان لا يريد القبيح إلا لنقص علمه ، أما أن يفعل بلا علم بل لمجرد الشهوة أو يظن خطأ فيظن أن هذا الفعل يصلح وهو لا يصلح ، فإنما يقع القبيح في فعله لفعله مع الجهل البسيط أو المركب ، والرب منزه عن هذا وهـذا ، فيمتنع أن يفعل القبيح ،وأيضاً فإنه قد ثبت أنه مريد وأن الإرادة تخصص المراد عن غيره ، وهذا إنما يكون إذا كان التخصيص لرجحان المراد ، إما لكونه أحب إلى المريد وأفضل عنده ، فأما إذا ساوى غيره من كل وجه امتنع ترجيح الإرادة له ، فكان إثبات الإرادة مستلزماً إثبات الحكمة ، وإلا لم تكن الإرادة ، فقد تبين ثبوت حكمته من جهة علمه ، ومن جهة نفس أفعاله المتقنة المحكمة التي تدل على علمه بالإتفاق ، وهذه أصول عظيمة من تصورها تصوراً جيداً انكشف له حقائق هذا الموضع الشريف ، وإذا ثبت أنه حكيم ، وأن حكمته لازمة لعلمه ولازمة لإرادته وهما لازمان لذاته كانت حكمته من لوازم ذاته ، فيمتنع أن يفعل إلا لحكمة وبحكمة ، ويمتنع أن يفعل على خلاف الحكمة ، ومعلوم بصريح العقل أن العلم خير من الجهل ، والصدق خير من الكذب ، والعدل خير من الظلم ، والإصلاح خير من الافساد ، ولهذا وجب اتصافه تعالى بالرحمة والعلم والصدق والعدل والإصلاح دون نقيض ذلك ، وهذا ثابت في

خلقه وأمره ، فكما أنه في خلقه عادل حكيم رحيم ، فكذلك هو في أمره وما شرعه من الدين فإنه لا يكون إلا عدلاً وحكمة ورحمة ، ليس هو كما تقول الجهمية المجبرة ، ومن اتبعهم من أهل الكلام ، والرأي أنه يأمر العباد بما لا مصلحة لهم فيه إذا فعلوه ، وإن ما أمر به لا يجب أن يفعل على حكمة ، وينكرون تعليل الاحكام ، أو يقولون إن علل الشرع إمارات محضة ، فهذا كله باطل كما قد بسط في مواضع .

بل ما يامر به مصلحة لا مفسدة ، وَحَسَنٌ لا قبيح ، وخير لا فساد ، وحكمة وعدل ورحمة ، والحمد لله رب العالمين فإذا قدر رجلان ادعيا على الرب الرسالة ، أو توليا على الناس ، أو كانا من عرض النـــاس أحدهما عالم صادق عادل مصلح ، والآخر جاهل ظالم كاذب مفسد ثم قدر أن ذلك العالم العادل عوقب في الدنيا والآخرة ، فأذل في الدنيا وقهر وأهلك وجعل في الآخرة في جهنم وذلك الظالم الكاذب الجاهل ، أكرم في الدنيا والآخرة ، وجعل في الدرجات العلى كان معلوماً بالإضطرار أن هذا نقيض الحكمة والعدل ، وهو أعظم سفهاً وظلماً من تعذيب ماء البحر وماء العين فإن هذا غايته موت شخص أو النوع ، وهذا أقل فساداً من إهلاك خيار الخلق وتعذيبهم وإكرام شرار الخلق وإهانتهم ، وإذا كان هذا أعظم مناقضة للحكمة والعدل من غيره ، وتبين بالبراهين اليقينية أن الرب لا يجوز عليه خلاف الحكمة والعدل ، علم بالإضطرار أن الرب سبحانه لا يسوي بين هؤلاء وهؤلاء ، فضلاً عن أن يفضل الأشرار على الأخيار وهو سبحانه أنكر التسوية فقال : ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[1] ،

---

١ ـ سورة الجاثية ، آية ٢٠ .

وقال تعالى : (أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ)(١) . وقد جعل من جوز أن الله لا ينصر رسوله والمؤمنين في الدنيا والآخرة ويعذبهم في الآخرة في جهنم ، وإن الفراعنة يكرمهم في الدنيا والآخرة ، والمنازع عنده لا فرق بين هذا وهذا بالنسبة إلى الرب وإلى إرادته وحكمته وعلمه ، بل إنما علم وقوع أحدهما بمجرد الخبر لا لامتناع أحدهما ووجوب الآخر ، والخبر إنما هو خبر الانبياء ، وذلك موقوف على العلم بصدقهم ، وهو يستلزم صدقهم ، وعلى أصله يمتنع العلم بصدقهم ،فإنه يجوز أن يسوي الله بين الصادق والكاذب على أصله ، إذ كان يجوز عليه عنده كل مقدور وعنده لا يجوز أن يفعل فعلاً لحكمة، فلا يجوز على أصله أن يخلق الله آية ليدل بها على صدقهم .

وإذا قال تجويز ذلك يقتضي أنه لا يقدر على خلق ما به يبين صدق الصادق ، فلذلك منعت من ذلك لأنه يفضي إلى تعجيزه قيل له : إنما يفضي إلى عجزه إذا كان خلق دليل الصدق ممكناً ، وعلى أصلك لا يمكن إقامة الدليل على إمكانه ، فإن الدليل يستلزم المدلول ، ويمتنع ثبوته مع عدمه ، وأي شيء قدرته جاز أن يخلقه على أصلك على يد الكاذب وأنت لا تنزهه عن فعل ممكن .

وإذا قلت أنزهه عن فعل ممكن يستلزم عجزه كان هذا تناقضاً ، فإن فعل الممكن لا يستلزم العجز ، بل امتناع الممكن يستلزم العجز ، وبيان ذلك أن يقال ما خلقه على يد الصادق هو قادر على أن يخلقه على يد الكاذب أم لا .

فإن قلت : ليس بقادر فقد أثبت عجزه ، وإن قلت هو قادر على

---

١ - سورة القلم ، آية ٣٥ .

ذلك ، فالمقدور عندك لا ينزه عن شيء منه ، وإن قلت : هذا المقدور أنزهه عنه لئلا يلزم عجزه ، كان حقيقة قولك أثبت عجزه لأنفي عجزه فجعلته عاجـزاً لئلا تجعله عاجزاً ، فجمعت بـين النقيضين بين إثبات العجز ونفيه ، وإنما لزمه هذا لأنه لا ينزه الرب عن فعل مقدور فاستوت المقدورات كلها في الجواز عليه عنده ، ولم يحكم بثبوت مقدور إلا بالعادة ، أو الخبر ، والعادة يجوز انتقاضها عنده ، والخبر موقوف على العلم بصدق المخبر ولا طريق له إلى ذلك ، فتبين أن كل من لم ينزه الرب عن السوء والسفه ويصفه بالحكمة والعدل لم يمكنه أن يعلم نبوة نبي ، ولا المعاد ولا صدق الرب في شيء من الاخبار .

فهذه طريقة من يجعل وجه دلالة المعجز على صدق الانبياء لئلا يلزم العجز ، وأما الطريق الثانية وهي أجود وهي التي اختارها أبو المعالي وأمثاله ، فهو أن دلالة المعجز على التصديق معلوم بالإضطرار ، وهذه طريقة صحيحة لمن اعتقد أن يفعل لحكمة ، وأما إذا قيل أنه لا يفعل لحكمة انتفى العلم الإضطراري والأمثلة التي يذكرونها كالملك الذي جعل آية لرسوله أمراً خارجاً عن عادته إنما دلت للعلم بأن الملك يفعل شيئاً لشيء فإذا نفوا هذا بطلت الدلالة ، وكذلك دليل القدرة هو دليل صحيح لكن مع إثبات الحكمة ، فإنه سبحانه وتعالى قادر على أن يميز بين الصادق والكاذب إذ كان قادراً على أن يهدي عباده إلى ما هو أدق من هذا ، فهداهم إلى أسهل ، لكن هذا يستلزم إثبات حكمته ورحمته ، فمن لم يثبت له حكمة ورحمة إمتنع عليه العلم بشيء من أفعاله الغائبة ، وأيضاً فآيات الانبياء تصديق بالفعل فهي تدل إذا علم أن من صدقه الرب فهو صادق ، وذلك يتضمن تنزيهه عن الكذب ، وعلى أصلهم لا يعلم ذلك ، فإن ما يخلقه من الحروف والأصوات عندهم هو مخلوق من المخلوقات ، فيجوز أن يتكلم كلاماً يدل على شيء ، وقد أراد به شيئاً آخر فإن

هذا من باب المعقولات عندهم ، والكلام النفسي لا سبيل لأحد إلى العلم به ، فعلى أصلهم يجوز الكذب في الكلام المخلوق العربي وهو الذي يستدل به الناس ، فلا يبقى طريق إلى العلم بأنه صادق فيما يخلقه من الكلام ، ولهذا تجد حذاقهم في السمعيات إنما يفرون إلى ما علم بالإضطرار من قصد الرسول لا إلى الإستدلال بالقرآن ، فالقاضي أبو بكر عمدته أن يقول هذا مما وقفنا عليه الرسول وعلمنا قصده بالإضطرار كما يقول مثل ذلك في تخليد أهل النار ، وفيما علمه من الاحكام إذ كانوا لا يعتمدون على القول المسموع لا خبراً ، ولا أمراً ، فهم لا طريق عندهم إلى التمييز بين ما يقع وما لا يقع مثل التمييز بين كونه يثيب المحسن ويعاقب المسيء أو لا يفعله ، ففي الجملة جميع أفعاله من إرسال الانبياء ومجازاة العباد وقيام القيامة لا طريق لهم إلى العلم بذلك إلا من جهة الخبر ، وطريق الخبر على أصلهم مسدود وهم يعلمون صدق الرسول وصدق خبره معلوم في أنفسهم ، لكن يناقض أصولهم ، لكن مع هذا هم واقفة فيما أخبرت به الرسل من الوعيد فضعف علمهم بما أخبرت به الرسل فصاروا في نقص عظيم في علمهم وإيمانهم بما أخبرت به الرسل ، وما أمرت به ، وفي أصل ثبوت الرسالة هذه السمعيات وأما العقليات فمدارها على حدوث الجسم ، وقد عرف فساد أصلهم فيها فهذه أصولهم العقلية والسمعية وهم لا يعلمون أيضاً ما يفعله الرب من غير الخبر إلا من جهة العادة ، والعادة يجوز عندهم نقضها بلا سبب ولا لحكمة .

ويجوزون أن تصبح الجبال يواقيت والبحار زيبقاً فإذا احتجوا بالعادات فقيل لهم عندكم يجوز نقضها بلا سبب ولا حكمة أجابوا بأن الشيء قد يعلم جوازه ، ويعلم بالضرورة انه لا يقع ، وهذا أيضاً جمع بين النقيضين ، وهم يقولون العقل هو العلم بجواز الجائزات وامتناع الممتنعات ووجوب الواجبات كالعلم بأن الجبل لم ينقلب ياقوتاً ، ثم يجعلون هذا من الجائز

على أصلهم ليس في الافعال لا واجب ولا ممتنع ، بل كل مقدور ، فإنه جائز الوجود ، وجائز العدم لا يعلم أحد الطرفين إلا بخبر ، أو عادة،لا بسبب يقتضيه ولا حكمة تستلزمه ، كما أن المرجح له عندهم مجرد الإرادة لا بسبب ولا حكمة ، وإذا علم جواز الشيء وعدمه ، ولم يعلم ما يوجب أحدهما إمتنع أن يعلم بالضرورة ثبوت أحدهما، والناس إنما يعلمون أن الجبال لم تنقلب يواقيت لعلمهم بأن هذا ممتنع وأن الله إذا أراد قلبها يواقيت أحدث أسباباً تقتضي ذلك .

فأما انقلاب العادة بلا سبب ، فهذا ممتنع عند العقلاء ، وجميع ما خرق الله به العادة كان لأسباب تقتضيه ولحكم فعل لأجلها لـم يكن ترجيحاً بلا مرجح كما يقوله هؤلاء ، فهذا هذا ولا حول ولا قوة إلا بالله ، ولو لم يتعلق هذا بالإيمان بالرسول ، وبما أخبر بـه الرسول واحتجنا إلى أن نميز بين الصحيح والفاسد في الأدلة والأصول ، لما ورد على ما قاله هؤلاء من هذه السؤالات لم تكن بنا حاجة إلى كشف الأسرار ، لكن لما تكلموا في إثبات النبوة صاروا يوردون عليها اسئلة في غاية القوة والظهور ، ولا يجيبون عنها إلا بأجوبة ضعيفة كما ذكرنا كلامهم فصار طالب العلم والإيمان والهدى من عندهم لا سيما إذا اعتقد أنهم أنصار الإسلام ونظاره ، والقائمون ببراهينه وأدلته إذا عرف حقيقة ما عندهم لم يجد ما ذكروه يدل على ثبوت نبوة الانبياء ، بـل وجده يقدح في الانبياء ويورث الشك فيها أو الطعن ، وأنها حجة تقدح في الانبياء وتورث الشك فيها أو الطعن فيها وأنها حجة لمكذب الانبياء أعظم مما هي حجة لمصدق الانبياء ، فانسد طريق الإيمان والعلـم ، وانفتح طريق النفاق والجهل لا سيما على من لم يعرف إلا ما قالوه ، والذي يفهم ما قالوه ، لا يكون إلا فاضلاً قد قطع درجة الفقهاء ، ودرجة من قلد المتكلمين ، فيصير هؤلاء إما منافقين ، وإما في قلوبهم مرض ويظن الظان أنه ليس

في الأمر على نبوة الانبياء براهين قطعية ، ولا يعلم أن هذا إنما هو لجهل هؤلاء وأصولهم الفاسدة التي بنوا عليها الإستدلال وقدحهم في الإلهية ، وأنهم لم ينزهوا الرب عن فعل شيء من الشر ولا أثبتوا له حكمة ولا عدلاً فكان [1] ما جهلوه من آيات الانبياء إذ كان العلم بآيات الله ، وما قصه لخلقه من الدلائل والبراهين مستلزماً لثبوت علمه وحكمته ورحمته وعدله ، فإذا انتفى اللازم انتفى الملزوم ، وهم في الأصل إنما قصدوا الرد على القدرية الذين قالوا : إن الله لم يشأ كل شيء ، ولم يخلق أفعال العباد ، وهو مقصود صحيح ، لكن ظنوا أن هذا لا يتم إلا بجحد حكمته وعدله ورحمته ، فغلطوا في ذلك، كما أن المعتزلة أيضاً غلطوا من جهات كثيرة وظنوا أنه لا تثبت حكمته وعدله ورحمته إن لم يجحد خلقه لكل شيء ، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، ويجحد اتصافه بالكلام والإرادة وغير ذلك من أقوال المعتزلة التي هي من أقوال هؤلاء، فإن هؤلاء في الصفات خير من المعتزلة وفي الأفعال من بعض الوجوه .

ولهذا لما ظهر للغزالي ونحوه ضعف طريق الإستدلال بالمعجزات الذي سلكه شيوخه وهو لا يعرف غيره ، أعرض عنها وذكر أنه إنما علم ثبوت النبوة بقرائن تعجز عنها العبارة ، وهي علوم ضرورية حصلت له على الطول ، وجعل الدليل على النبوة هو العلم بأن ما جاء به حق من غير جهته ، وهذه طريق صحيحة قد سلك الجاحظ نحواً منها ، ولكن النبوة التي علمها أبو حامد هي النبوة التي تثبتها الفلاسفة وهي من جنس المنامات ، ولهذا استدل على جوازها بمبدأ الطب والهندسة ونحو ذلك .

وأمر النبوة أعظم من هذا بكثير وتلك النبوة موجودة لخلق من الناس، فلهذا لا يوجد للنبوة عندهم ما تستحقه من التصديق والإحترام، ولا يعتمدون عليها في استفادة شيء من العلم الخبري ، وهي الانباء

---

١ ــ قوله فكان الخ . كان هنا تامة ولا يصح ان تكون ناقصة .

بالغيب وهي خاصة النبوة ، والرازي كلامه في النبوة متردد بين نبوة الفلاسفة ، ونبوة أصحابه هؤلاء كما ترى ، وليس في واحد من الطريقين إثبات النبوة التي خص الله بها أنبياءه ، فلهذا ضعفت معرفة هؤلاء بالانبياء ، وضعف أخذ العلم من طريقهم لا سيما وقد عارضوا كثيراً مما جاء عنهم بالعقليات ، ودخلوا فيما هو أبعد عن الهدى والعلم من العقليات والذوقيات التي من سلكها ضل ضلالاً بعيداً .

وإنما ينجو من سالك منها شيئاً إذا لطف الله فعرفه السلوك خلف طريق الأنبياء فمن لم يهتد بما جاءت به الانبياء فهو أبعد الناس عن الهدى : (تِلْكَ آيَاتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ يَسْمَعُ آيَاتِ اللهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا) . كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً (فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئاً اتَّخَذَهَا هُزُواً أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ)[1] (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لا يَرْكَعُونَ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ)[2] وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم .

ولهذا اعترف الرازي بهذا في آخر مصنفاته حيث قال : ولقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيتها تشفي عليلاً ، ولا تروي غليلاً ، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن إقرأ في الإثبات : (إِلَيْهِ يَصْعَدُ الكَلِمُ الطَّيِّبُ ــ الرَّحْمَنُ عَلَى العَرْشِ اسْتَوَى) . واقرأ في النفي : (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ولا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً) . ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي .

---

١ ــ سورة المرسلات آية ٤٨ ــ ٤٩ ــ ٥٠ ٢ ــ سورة الجاثية ، آية ٧، ٨، ٩٢٨ .

أكثر الإنتفاع بكلام هؤلاء هو فيما يثبتونه من فساد أقوال سائر الطوائف وتناقضها ، وكذلك كلام عامة طوائف المتكلمين ينتفع بكلام كل طائفة في بيان فساد قول الطائفة الأخرى ، لا في معرفة ما جاء به الرسول ، فليس في طوائف أهل الأهواء والبدع من يعرف حقيقة ما جاء به الرسول ، ولكن يعرف كل طائفة منه ما يعرفه ، فليسوا كفاراً جاحدين له وليسوا عارفين به .

فَلَقَدْ عَرَفْتُ وَمَا عَرَفْتُ حَقِيقَةً   وَلَقَدْ جَهِلْتُ وَمَا جَهِلْتُ حمولا[1]

وبسط هذه الأمور له موضع آخر ، ولكن نبهنا هنا على طريق الحكمة .

---

١ ـ لعلها فضولا .

فصـل

حكمة الرب في اختياره من اصطفاه لرسالته

وإذا عرفت حكمة الرب وعدله تبين أنه إنما يرسل من اصطفاه لرسالته واختاره لها كما قال : (اللهُ يَصْطَفِي مِنَ المَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ)[1] وكما قال لموسى : (وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى)[2] . وأنه إذا أبلغ الرسالة وقام بالواجب وصبر على تكذيب المكذبين وأذاهم ، كما مضت به سنته في الرسل قال : (كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ)[3] .

وقال تعالى : (مَا يُقَالُ لَكَ إِلاَّ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ)[4] . وقال تعالى: (أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لاَ يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ قالت

---

١ ــ سورة الحج ، آية ٧٥ .
٢ ــ طه ، آية ١٣ .
٣ ــ سورة الذاريات ، آية ٥٢ .
٤ ــ سورة السجدة ، آية ٤٣ .

رُسُلُهُمْ أَفِي اللهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ، قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ، وَمَا لَنَا أَنْ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا ولَنَصبِرن عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فأوحى إليهم رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ، واستَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ)[1] . إلى سائر ما أخبر به من أحوال الرسل، والرسل صادقون مصدقون على الله يخبرون بالحق ويأمرون بالعدل ويدعون إلى عبادة الله وحده لا شريك له.

وأهل الكذب المدعون للنبوة ضد هؤلاء كاذبون تأتيهم الشياطين الكاذبون يأمرون بما نهى الله عنه ، وينهون عما أمر الله به ، فإنهم لا بد أن يأمروا بتصديقهم واعتقاد نبوتهم وطاعتهم ، وذلك مما نهى الله عنه ولا بد أن ينهوا عن متابعة من يكذبهم ويعاديهم وذلك مما أمر الله به فإنه يمتنع في حكمة الرب وعدله أن يسوي بين هؤلاء خيار الخلق ، وبين هؤلاء شرار الخلق لا في سلطان العلم وبراهينه وأدلته ، ولا في سلطان النصر والتأييد ، بل يجب في حكمته أن يظهر الآيات والبراهين الدالة

---

١ ـ سورة ابراهيم ، آية ٩ ـ ١٧ .

على صدق هؤلاء وينصرهم ويؤيدهم ويعزهم، ويبقي لهم سلطان الصدق . ويفعل ذلك بمن اتبعهم وأن يظهر الآيات المبينة لكذب أولئك ويذلهم ويخزيهم ، ويفعل ذلك بمن اتبعهم كما قد وقع في هؤلاء وهؤلاء .

وقد دل القرآن على الإستدلال بهذا في غير موضع ، والأدلة والبراهين كما تقدم نوعان : نوع يدل بمجرده بحيث يمتنع وجوده غير دال كدلالة حدوث الحادث على محدث ، فهذا يدل بمجرده ، وإن قدر أن أحداً لم يقصد الدلالة به لكن الرب بكل شيء عليم ، وهو مريد لخلق ما خلقه ولصفاته، لكن لا يشترط في الإستدلال بهذا أن يعلم أن دالاً قصد أن يدل به .

والنوع الثاني ما هو دليل بقصد الدال وجعله، فهذا لولا القصد وجعله دليلاً لم يكن دليلاً فهو إنما قصد به الدلالة ، فهذا مقصوده مجرد الدلالة وذلك بمجرده هو الدليل ، وهذا كالكلام الذي يدل بقصد المتكلم وغير ذلك مثل الإشارة بالرأس والعين والحاجب واليد ومثل الكتابة ومثل العقد ومثل الأعلام التي نصبت على الطرق وجعلت علامة على حدود الأرض وغير ذلك ، ومن ذلك العلامات التي يبعثها الشخص مع رسوله ووكيله إلى أهله سواء كان قد تواطأ معهم عليها مثل أن يقول علامته أن يضع يده على ترقوته ، أو يضع خنصره في خنصره ، ونحو ذلك ، أو كانت علامة قصد بها الإعلام من غير تقدم مواطأة مثل إعطائه عمامته ونعليه كما أعطى النبي ﷺ عمامته علامة على ولاية قيس بن سعد ، وعزل أبيه سعد عن الإمارة يوم الفتح .

وكما أعطى أبا هريرة نعليه علامة على ما أرسله به، وكما يعطي الرجل لرسوله خاتمه ونحو ذلك ، فهذه الدلائل دلت بالقصد والجعل ، وقد كان يمكن أن لا يجعل دليلاً ، فإذا كانت آيات الانبياء من هذا الجنس فهي إنما تدل مع قصد الرب إلى جعلها دليلاً ، وجعله لها دليلاً بأن يجعل

المدلول لازماً لها ، فكل من ظهرت على يده كان نبياً صادقاً ، فإن الدليل لا يكون دليلاً إلا مع كونه مستلزماً للمدلول فيمتنع أن يكون دليلاً إذا وجد معه عدم المدلول ، أو وجد ضد المدلول ، فآيات الانبياء الدالة على صدقهم يمتنع وجودها بدون صدق النبي.ووجودها مع مدعي النبوة كاذباً أعظم استحالة ، فإنها إذا كانت ممتنعة مع عدم نبوة صادقة ، وإن لم تكن هناك نبوة كاذبة فمع الكاذبة أشد امتناعاً ، فهي مستلزمة للنبوة لا تكون مع عدم النبوة البتة ، والكاذب قد عدمت في حقه النبوة ووجد في حقه ضدها ، وهو الكذب في دعواها يمتنع كونه نبياً صادقاً ، فيمتنع أن يخلق الرب ما يدل على صدق الانبياء بدون صدقهم لامتناع وجود الملزوم دون لازمه ، ومع كذبهم لامتناع وجود الشيء مع ضده .

والكذب ضد الصدق فيمتنع أن يكون قوله أنا نبي صدقاً وكذباً ، فإذا استلزمت الصدق إمتنع وجود الكذب وخلق دليل الصدق مع عدم الصدق ممتنع غير مقدور ، لكن الممكن المقدور أن ما جعله دليلاً على الصدق يخلقه بدون الصدق فيكون قد خلقه ، وليس بدليل حينئذ ، ويمكن أن يخلق على يد الكاذب ما يدل أنه دليل على صدقه ، وليس بدليل مثل خوارق السحرة والكهان ، كما كان يجري لمسيلمة والعنسي وغيرهما ، لكن هذه ليست دليلاً على النبوة لوجودها معتادة لغير الأنبياء ، وليست خارقة لعادة غير الانبياء ، بل هي معتادة للسحرة والكهان ، فالتفريط ممن ظنها دليلاً لا سيما ولا بد أن يكون دليلاً على كذب صاحبها ، فإن الشياطين لا تقترن إلا بكاذب كما قال تعالى : (هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ)[1] .

ولا يجوز أن يظهر الرب ما جعله دليلاً للنبوة مع عدم النبوة ، كما أنه لا يجوز أن يتكلم بالكلام الذي جعله لبيان معان بدون إرادة تلك

---

١ ــ سورة الشعراء ، آية ٢٢٢ .

المعاني ، بل ذلك ممتنع من وجوه : من وجه حكمته ، ومن جهة عادته، ومن جهة عدله ورحمته ، ومن جهة علمه وإعلامه ، وغير ذلك كما قد بسط في مواضع .

ومن جهة قدرته أيضاً فإنه قادر على هدي عباده وتعريفهم ، وذلك إنما يكون بتخصيص الصادق بما يستلزم صدقه ، فإذا ما سوى بين الصادق والكاذب ، فإنه يمتنع التعريف والممتنع ليس بمقدور ، فقدرته تقتضي خلق الفرق ، وقد يقال هو قادر لكن لا يفعل مقدوره فيقال : فعله له ممكن ، ولا يمكن إلا على هذا الوجه ، فيكون قادراً على هذا الوجه ، فإن قيل هو قادر ولكن لا يفعله ، قيل إن أريد أنه يمتنع فهذا باطل ، وإن أريد أنه يمكن فعله ولكن لا يفعله لم يكن على هذا النفي دليل بل وجوده يدل على أنه فعله .

وأيضاً فافعال الرب إما واجبة وإما ممتنعة ، وإذا لم يكن ممتنعاً تعين أنه واجب وأنه قد فعله وهذا قد فعلهوهذا مبسوط في غير هذا الموضع .

والمقصود هنا : أن هذا كله يستلزم أن الرب منزه عن أن يفعل بعض الأمور الممكنة المقدورة لكون ذلك يستلزم أمراً يناقض حكمته ، ولكون فعل الشيء لا يكون إلا مع لوازمه ، وانتفاء أضداده فيمتنع فعله بدون لوازمه أو مع ضده ، كما يمتنع جعل الدليل دليلاً مع وجوده بلا مدلول ، أو مع وجود ضد المدلول معه ، والذين قالوا يجوز منه فعل كل شيء ، ولا ينزه عن شيء يتعذر على أصلهم وجود دليل جعلي قصدي ، لا الكلام ولا الفعال ،فيمتنع على أصلهم كون كلام الرب يدل على مراده أو كون آياته التي قصد بها الدلالة على صدق الأنبياء أو غيرهم تدل ، لأنه يقدر أن يفعل ذلك وغير ذلك كما يقدر أن يظهر على يد الكاذب ما أظهره على يد الصادق ،وهم يقولون المعجزة هي الخارق المقرون بالتحدي بالمثل وعدم المعارضة ، وهذا يقدر على إظهاره على يد الصادق.فمن سوى

بين جميع الأمور وجعل إرادته لها سواء لم يفرق بين هذا وهذا ، فقالوا نحن نستدل على أنه لم يظهرها على يد الكاذب بأنه لو فعل ذلك لبطلت قدرته على تصديق الصادقين بالآيات ، فإنه إنما يستدل على صدقهم بالآيات فلو أظهرها على يد الكاذب لم يبق قادراً ، هذه عمدة أكثرهم ، وعليها اعتمد القاضي أبو بكر في كتاب المعجزات .

فيقال لهم : هذا لا يبطل قدرته على ذلك ، ولكن هذا يوجب أنه لم يفعل المقدور فيلزم من ذلك أنه سوى بين الصادق والكاذب ، ولم يبين صدقه ، وهذا مقدور ممكن ، وكل مقدور ممكن فهو عندكم جائز عليه ، فلم يكن اللازم رفع قدرته ، بل اللازم أنه لم يفعل مقدوره ، وهذا جائز عندكم ، ومما يوضح هذا أن يقال هو قادر على إظهار ذلك على يد الكاذب أم لا ، فإن قلتم ليس بقادر ، أبطلتم قدرته ، وإن قلتم هو قادر ، فثبت أنه قادر على إظهار ذلك على يد الصادق والكاذب ، فبقي مشتركاً لا يخص أحدهما ، فلا يكون حينئذ دليلاً ، فمجرد القدرة لم يوجب اختصاص الصادق به ، وإن قلتم لا يقدر على إظهاره على يد الكاذب ، فقد رفعتم القدرة ، فأنتم بين أمرين إن أثبتم القدرة العامة ، فلا اختصاص لها ، وإن نفيتم القدرة على أحدهما بطل استدلالكم بشمول القدرة ، وأيضاً فالقدرة إنما تكون على ممكن ، وعلى أصلكم لا يمكن تصديق الصادق ، فهم استدلوا بمقدمتين وكلاهما باطلة .

قالوا لو لم يكن دليلاً رفع القدرة وهذا باطل بل يلزم أنه لم يفعل المقدور ، وهذا جائز عندهم ، فلا يجب عندهم شيء من الأفعال . ثم قالوا : وهو قادر على ذلك ، وعلى أصلهم ليس هو بقادر على ذلك. فإنهم قالوا : يمكنه تصديق الانبياء بالفعل ، كما يمكنه التصديق بالقول فيقال لهم : كلاهما يدل بالقصد والجعل ، وهذا إنما يكون ممن يقصد أن يفعل الشيء ليدل ، وعندكم هو لا يفعل شيئاً لشيء ، فيلزم على

أصلكم أن لا يفعل شيئاً لأجل أنه يدل به عباده لا فعلاً ولا كلاماً .
إذ كان هذا عندكم ممتنعاً وهو فعل شيء لمقصود آخر غير فعله .

وإذا كان هذا ممتنعاً عندكم لم يكن مقدوراً. فلا يقدر على أصلكم أن ينصب لعباده دليلاً ليدلهم به على شيء ، بل هذا عندهم فعل لغرض وهو ممتنع عليه ، وإن قلتم هو وإن لم يقصد أن يفعل شيئاً لحكمة ، لكن قد يفعل الشيئين المتلازمين فيستدل بأحدهما على الآخر ، قيل : هذا إنما يكون بعد أن يثبت التلازم ، وإن أحدهما مستلزم للآخر ، وهذا معلوم فيما يدل بمجرده فإنه يمتنع وجوده بدون لازمه ، أما ما يدل بالجعل والقصد ، فيمكن وجوده بدون ما جعل مدلولاً له ، واللزوم إنما يكون بالقصد وهو عندكم يمتنع أن يفعل شيئاً لأجل شيء ، فبطلت الأدلة القصدية على أصلكم وهي أخص بالدلالة من غيرها .

ولهذا لا يكادون يستدلون بكلام الله بل يعتمدون في السمعيات أما على ما علم بالضرورة أو الإجماع ، وحقيقة الأمر أن الأدلة الجعلية القصدية لا بد فيها من إرادة الرب ومشيئته أن تكون أدلة فلا بد أن يريد أن يجعل هذا الفعل ليدل، وهم لا يجوزون أن يريد شيئاً لشيء . بل كل مخلوق هو عندهم مراد من نفسه لم يرد لغيره . فامتنع أن يكون يريد الرب جعل شيء دليلاً على أصلهم ، فتبين أنه على أصلهم غير قادر على نصب ما يقصد به دلالة العباد وهدايتهم وإعلامهم لا قول ولا فعل . فبطلت المقدمة الكبرى وبتقدير أن يكون قادراً على ذلك فهو إذا أظهر على يد الكاذب ما يظهر على يد الصادق كان لم يفعل هذا المقدور . ولم يجعل ذلك دليلاً على الصدق لا يلزم أن لا يكون قادراً. فهم اعتمدوا على هذه الحجة وقالوا : هذا هذا . وهذا هذا . فقد تبين أن من لم يثبت حكمة الرب يلزمه نفي إرادته ومشيئته كما تقدم ، ويلزمه أيضاً نفي قدرته على أن يفعل شيئاً لشيء فلا يمكنه أن ينصب دليلاً ليدل به

عباده على صدق صادق ولا كذب كاذب . وهم يقولون من فعل شيئاً لحكمة، دليل على حاجته ونقصه لأنه فعل لغرض ، والغرض هو الشهوة وذلك يتضمن الحاجة . وهذا بعينه يقال في الإرادة .

إن من أراد فإنما يريد لغرض وشهوة، فقولهم بنفي الحكمة يتضمن نفي الإرادة ، ونفي القدرة ، وقد بسط هذا في غير هذا الموضع . وبين أن من نفى الحكمة يلزمه نفي الإرادة ، ومن نفى الإرادة يلزمه نفي فعل الرب ، ونفي الأحداث ، ومن نفى ذلك يلزمه امتناع حدوث حادث في الوجود ، وإن إثبات الحكمة لازم لكل طائفة على أي قول قالوه. كما قد بسط في غير هذا الموضع ،إذ المقصود التنبيه على أن إثبات آيات الانبياء والإستدلال بكلام الله وآياته التي أراد أن يدل بها عباده بدون إثبات حكمته ممتنع ، ولهذا اضطرب كلام من نفى حكمته في آيات الانبياء ، وفي كلام الرب سبحانه وهي الآيات التي بعثت بها الأنبياء القولية والفعلية ، واضطربوا في الإستدلال على ما جاءت به الانبياء ، كما قد نبه عليه ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

فصل

الاستدلال بسنة الله تعالى وعادته

وأما الإستدلال بسنته وعادته ، فهو أيضاً طريق برهاني ظاهر لجميع الخلق ، وهم متفقون عليه من يقول بالحكمة ، ومن يقول بمجرد المشيئة ، فإنه قد علم عادته سبحانه في طلوع الشمس والقمر والكواكب والشهور والأعوام ، وعادته في خلق الإنسان وغيره من المخلوقات ، وعادته فيما عرفه الناس من المطاعم والمشارب والأغذية والأدوية ولغات الأمم كالعلم بنحو كلام العرب وتصريفه ، والعلم بالطب وغير ذلك ، كذلك سنته تعالى في الانبياء الصادقين وأتباعهم ، وفيمن كذبهم أو كذب عليهم ، فأولئك ينصرهم ويعزهم ، ويجعل لهم العاقبة المحمودة ، والآخرون يهلكهم ويذلهم ، ويجعل لهم العاقبة المذمومة ، كما فعل بقوم نوح وبعاد وثمود وقوم لوط وأصحاب مدين وفرعون وقومه ، وكما فعل بمن كذب محمداً من قومه قريش ومن سائر العرب وسائر الأمم غير العرب ، وكما فعل بمن نصر أنبياءه وأتباعهم قال تعالى : (وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ الْمَنْصُورُونَ وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمْ الْغَالِبُونَ)[1]. وقال : (إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ)[2] . وقال تعالى : (تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى

---

١ ــ سورة الصافات ، آية ١٧٢ .
٢ ــ سورة المؤمن ، آية ٥١ .

نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ)[1] .

وقال تعالى : (وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ)[2] . وقال تعالى : (أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ، ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَى أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ)[3] .

وقال تعالى : (أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَاراً فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ)[4] .

وقال تعالى : (كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِن بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ)[5] .

---

١ ـ سورة هود ، آية ١٠٢ .
٢ ـ سورة الحج ، آية ٤٢ .
٣ ـ سورة الروم ، آية ٩ .
٤ ـ سورة المؤمن ، آية ٢٢ .
٥ ـ سورة المؤمن ، آية ٥ .

وقال تعالى : (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثاراً فِي الأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندهُمْ مِنَ العِلمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ، سُنَّةَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الكَافِرُونَ)[1] .

وقال تعالى : (وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوا الأَدْبَارَ ثُمَّ لاَ يَجِدُونَ وَلِياً وَلاَ نَصِيراً سُنَّةَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً)[2] . وقال تعالى : (وأقسموا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ ليكونن أهدى من إحدى الأمم ، فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلاَّ نُفُوراً استكباراً فِي الأَرْضِ وَمَكْرَ السَيِّءِ وَلاَ يَحِيقُ المَكْرُ السَيِّءُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إلا سُنَّةَ الأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسنة اللهِ تَحويلاً)[3] .

وقال تعالى : (وَإِنْ كَانُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذاً لاَ يَلْبَثُونَ خِلاَفَكَ إِلاَّ قَلِيلاً)[4] . وقال تعالى : (وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الذي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيرَهُ وَإِذاً لاتخذُوكَ خَلِيلاً وَلَوْلاَ أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً إِذاً لأَذقْنَاكَ ضِعْفَ الحياة

---

١ ــ سورة غافر ، آية ٨٢ .
٢ ــ سورة الفتح آية ٢٢ .
٣ ــ سورة فاطر آية ٤٣ .
٤ ــ سورة الاسراء آية ٧٦ .

وضِعْفَ المَمَاتِ ثُمَّ لا تجد لكَ عَلَيْنا نصيراً)[1] . وقد قيل آية الحاقة وآية الشورى تبين أنه لو افترى عليه لعاقبة، فهذه سنته في الكاذبين، وحقيقة الإستدلال بسنته وعادته هو اعتبار الشيء بنظيره، وهو التسوية بين المتماثلين والتفريق بين المختلفين وهو الإعتبار المأمور به في القرآن كقوله تعالى : (قَدْ كَانَ لَكُمْ آية في فِئَتَيْنِ التَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ في سَبِيلِ اللهِ وَأُخْرَى كَافِرة يَرونَهُمْ مِثْلَيْهِم رَأْيَ العَيْنِ وَاللهُ يُؤَيِدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشاءُ إن في ذَلِكَ لعِبرة لأولي الأبصار)[2] .

وقال تعالى : (هُوَ الذي أخْرَجَ الذِينَ كَفَرُوا مِنْ أهلِ الكتابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لأول الحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أنْ يَخْرُجُوا وَظَنّوا أنّهم مَانِعتُهُم حُصُونُهُمْ مِنَ اللهِ فَأتاهُمْ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ في قُلُوبِهِم الرعْبَ يخربُونَ بُيُوتَهُم بأيْدِيهم وأيدي المُؤْمنينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أولي الأبْصار)[3] . وقال تعالى : (لَقَدْ كَانَ في قِصَصِهِمْ عِبرةٌ لأولي الألبَاب)[4] . وإنما تكون العبرة به بالقياس والتمثيل كما قال ابن عباس في دية الأصابع هن سواء، واعتبروها بدية الأسنان، فإذا عرفت قصص الانبياء ومن اتبعهم ومن كذبهم وأن متبعيهم كان لهم النجاة والعافية والنصر والسعادة . ولمكذبيهم الهلاك والبوار جعل الأمر في المستقبل مثلما كان في الماضي، فعلم أن من صدقهم كان سعيداً، ومن كذبهم كان شقياً، وهذه سنة الله وعادته، ولهذا يقول سبحانه في تحقيق عادته وسنته وأنه لا ينقضها ولا يبدلها : (أكفارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أولَئِكُمْ أم لَكُمْ بَرَاءَةٌ في الزُبُر)[5] . يقول فإذا لم يكونوا خيراً منهم فكيف ينجون من العذاب مع مماثلتهم لهم، هذا بطريق

---

١ ـ سورة الاسراء آية ٧٣ .
٢ ـ سورة آل عمران آية ١٣ .
٣ ـ سورة الحشر آية ٢ .
٤ ـ سورة يوسف آية ١١١ .
٥ ـ سورة القمر آية ٤٣ .

الإعتبار والقياس ثم قال : (أَمْ لَكُمْ بَراءَةٌ فِي الزُّبُرِ) . أي معكم خبر من الله بأنه لا يعذبكم؟. فنفى الدليلين العقلي والسمعي ، ثم ذكر قولهم نحن جميع منتصر ، وإنا نغلب من يغالبنا فقال تعالى: (سَيُهْزَمُ الجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ)[1] . وهذا مما أنبأه من الغيب في حال ضعف الإسلام واستبعاد عامة الناس ذلك ، ثم كان كما أخبر ، وقد قال للمؤمنين في تحقيق سنته وعادته : (أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ البَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيب)[2] . وقال لمحمد : (مَا يُقَالُ لَكَ إِلاَّ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ)[3] . وقال : (كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ أَتَوَاصَوا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ)[4] وقال تعالى : (وَقَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ لَوْلاَ يُكَلِّمُنَا اللهُ أو تأتينا آية كَذَلِكَ قَالَ الذينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مثلَ قَوْلِهِمْ)[5] .

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « لَتَرْكَبنَّ سُنَنَ من كَانَ قَبْلكم حذو القذة حتى لو دخلوا جُحْرَ ضَبٍ لدخلتمُوه .قَالُوا يَا رسُولَ اللهِ اليَهودُ والنصارى ؟ قال : نعم ».وفي الصحيحين عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « ليأخذنّ أمتي مَا أخذَ الأممَ قبلهَا شبراً بشبرٍ وَذراعاً بذراعٍ ، قالوا يا رسول الله فارس والروم قال : ومن الناس إلا هؤلاء » .

---

١ ــ سورة القمر آية ٤٥ .
٢ ــ سورة البقرة آية ٢١٤ .
٣ ــ سورة السجدة آية ٤٣ .
٤ ــ سورة الذاريات آية ٥٢ .
٥ ــ سورة البقرة آية ١١٩ .

وفي السنن لما قال له بعض أصحابه : « إجعل لَنَا ذَاتَ أنْواط كمَا لهم ذاتَ أنواط قال : اللهُ أكبرُ قُلْتُمْ كما قالَ قَوْمُ مُوسَى اجعَلْ لَنَا إلهاً كمَا لهُمْ آلهةٌ ثُمَّ قال : إنه السُّنَن لتَركَبُنَّ سُنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ » وقال تعالى : (قَدْ خَلَتْ مِــنْ قَبْلِكُمْ سنن فَسيروا في الأرْض فَانْظُروا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المُكَذِبينَ)[1]. ولهذا احتج من احتج بسنة الله وعادته في مكذبي الرسل كقول شعيب : (يَا قَوْمُ لاَ يَجْرِمَنَّكُم شِقاقي أنْ يُصيبَكُمْ مِثْلَ مَا أصَابَ قَوْمَ نوحٍ أو قوم هُود او قوم صالح وَمَاقَوْمُ لُوطٍ منكم ببعيد)[2].

وقال مؤمن آل فرعون:(يَا قَوْمُ إني أخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوم الأحْزَاب مثلَ دَأب قوم نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ والّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللهُ يُرِيدُ ظُلْما للعبَادِ)[3]. وقال تعالى : (كَدَأْب آل فِرْعَوْنَ وَالّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ)[4] . والدأب العادة في ثلاثة مواضع قال تعالى : (إنّ الّذين كَفَروا لَنْ تُغْنِي عَنْهُمْ أموالهُمْ وَلاَ أوْلادُهُمْ مِنَ الله شيئاً وأولئكَ هُمْ وقودُ النار كَدَأْب آل فِرْعَوْنَ وَالّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذّبُوا بآياتِنَا فَأخَذَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللهُ شَدِيدُ العِقَابِ)[5] . قال ابن قتيبة وغيره : الدأب : العادة ، ومعناه : كعادة آل فرعون يريد كفر اليهود [6] كل فريق بنبيهم ، وقال الزجاج هو الإجتهاد معناه أي دأب هؤلاء ، وهــو

---

١ ـ سورة آل عمران آية ١٣٧

٢ ـ سورة هود آية ٨٩ .

٣ ـ سورة آل عمران آية ١٠٨ .

٤ ـ سورة آل عمران آية ١١ .

٥ ـ سورة آل عمران آية ١١ .

٦ ـ قوله كفر اليهود خطأ من الناسخ ومعناه غير صحيح لان كفر اليهود انما كان بعد هلاك آل فرعون بمصر وقيام دولتهم بفلسطين بعد وفاة موسى عليه السلام ولعل اصل الصواب في العبارة كان هكذا كعادة آل فرعون والذين من قبلهم يريد كفر الامم السابقة كل فريق النبي .

اجتهادهم في كفرهم وتظاهرهم على النبي كتظاهر آل فرعون على موسى .

وقال عطاء والكسائي وأبو عبيدة كسنة آل فرعون ، وقال النضر ابن شميل كعادة آل فرعون،يريد عادة هؤلاء الكفار في تكذيب الرسل وجحود الحق . كعادة آل فرعون ، وقال طائفة: نظم الآية إن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم عند حلول النقمة والعقوبة . مثل آل فرعون وكفار الأمم الخالية أخذناهم فلن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم .

وفي تفسير أبي روق عن الضحاك عن ابن عباس كدأب آل فرعون قال : كصنيع آل فرعون.قال ابن أبي حاتم : وروي عن مجاهد والضحاك وأبي مالك وعكرمة ، نحو ذلك ، قال : وروي عن الربيع بن أنس كشبه آل فرعون ، وعن السدي قال : ذكر الذين كفروا كمثل الذين من قبلهم في التكذيب والجحود .

قلت : فهؤلاء جعلوا الشبيه في العمل، فإن لفظ الدأب يدل عليه.قال الجوهري: دأب فلان في عمله أي جد وتعب دأباً ودؤوباً ، فهو دئب وأدأبته أنا والدائبان الليل والنهار.قال : والدأب يعني بالتسكين العادة والشأن وقد يحرك . قال الفراء : أصله من دأبت إلا أن العرب حولت معناه إلى الشأن،قلت الزجاج جعل ما في القرآن من الدأب الذي هو الاجتهاد ، والصواب ما قاله الجمهور أن الدأب بالتسكين هو العادة وهو غير الدأب بالتحريك إذا زاد اللفظ زاد المعنى . والذي في القرآن مسكن ما علمنا أحداً قرأه بالتحريك ، وهذا معروف في اللغة يقال : فلان دأبه كذا وكذا أي هذا عادته وعمله اللازم له . وإن لم يكن في ذلك تعب واجتهاد، ومنه قوله تعالى :(وسَخَّرَ لكُم الشَّمسَ والقمَرَ دائِبَين)[1] .

---

١ ــ سورة ابراهيم آية ٣٣ .

والدائب نظير الدائم والباء والميم متقاربتان، ومنه اللازب واللازم. قال ابن عطية دائبين أي متماديين ، ومنه قول النبي ﷺ لصاحب الجمل الذي بكى وأجهش اليه: «إنَّ هذا الجَمَلَ شَكَى إليَّ أنَّكَ تُجيعُهُ وتدئبُه» ، أي تديمه في العمل له والخدمة . قال وظاهر الآية أن معناه دائبين في الطلوع والغروب ، وما بينهما من المنافع للناس التي لا تحصى كثيرة .

قال : وحكى الطبري عن مقاتل بن حيان يرفعه إلى ابن عباس أنه قال : معناه دائبين في طاعة الله قال : وهذا قول إن كان يراد به أن الطاعة انقيادهما للتسخير ، فذلك موجود في طاعة قوله وسخر ، وإن كان يراد أنها طاعة مقدورة ، كطاعة العبادة من البشر ، فهذا بعيد قلت : ليس هذا ببعيد بل عليه دلت الأدلة الكثيرة كما هو مذكور في مواضع ، وقالت طائفة منهم البغوي ، وهذا لفظه دائبين يجريان فيما يعود إلى مصالح عباد الله لا يفتران .

قال ابن عباس دؤوبهما في طاعة الله. ولفظ أبي الفرج دائبين في إصلاح ما يصلحانه من النبات وغيره لا يفتران. قال : ومعنى الدؤوب مرور الشيء على عادة جارية فيه قلت : وإذا كان دأبهم هو عادتهم وعملهم الذي كانوا مصرين عليه ، فالمقصود أن هؤلاء أشبهوهم في العمل فيشبهونهم في الجزاء فيحيق بهم ما حاق بأولئك، هذا هو المقصود ليس المقصود التشبيه في الجزاء كقوله : (إنَّ الذينَ كَفَروا لَن تُغْنِيَ عنهُم أمْوالهُم ولا أولادُهُم مِنَ اللهِ شيئاً وأولئكَ هُم وَقودُ النَّارِ كَدأبِ آلِ فرعونَ والَّذينَ مِن قَبلِهِم كَذَّبوا بآياتِنا فأخذَهُم اللهُ بذُنوبِهِم واللهُ شديدُ العِقابِ)[1] أي فهؤلاء لا تدفع عنهم أموالهم وأولادهم عذاب الله إذ جاءهم كدأب آل فرعون .

---

١ ــ سورة آل عمران آية ١٠ ــ ١١

وكذلك قوله : (وَلَوْ تَرى إِذْ يتوَفّى الّذينَ كَفَروا الملائكَةَ يَضرِبونَ وُجوهَهُم وأَدبارَهُم وذُوقوا عذابَ الحريقِ ذلكَ بما قَدّمَتْ أيديكُم وإنّ اللهَ ليسَ بظَلاّمٍ للعبيد)[1]. إلى قوله : (كدَأبِ آلِ فرعَوْنَ والّذينَ مِن قبلهِم كذّبوا بآياتِ ربهِم فأهلَكناهُم بذُنوبهِم وأغرَقْنا آلَ فرعونَ وكلٌّ كانوا ظالمينَ)[2]. فهذا كله يقتضي التشبيه في العذاب ، وأما الطائفة الأخرى فجعلوا الدأب نفس فعل الرب بهم وعقوبته لهم .

قال مكي بن أبي طالب: الكاف في كدأب في مواضع نصب نعت لمحذوف تقديره غيرناهم كما غيروا تغييراً مثل عادتنا في آل فرعون ، ومثلها الآية الأولى إلا أن الأولى للعادة في العذاب تقديره فعلنا بهم ذلك فعلاً مثل عادتنا في آل فرعون ، وقد جمع بعضهم بين المعنيين فقال أبو الفرج كدأب آل فرعون . أي كعادتهم والمعنى كذب أولئك فنزل بهم العذاب كما نزل بأولئك ، قلت الدأب العادة ، وهو مصدر يضاف إلى الفاعل تارة وإلى المفعول أخرى ،فإذا أضيف إلى الفاعل كان المعنى كفعل آل فرعون ، وإذا أضيف إلى المفعول كان المعنى كعادتهم في العذاب والمصائب التي نزلت بهم ، يقال هذه عادة هؤلاء لما فعلوه ، ولما يصيبهم وهي عادة الرب وسنته فيهم ، والتحقيق أن اللفظ يتناول الأمرين جميعاً ، وقد تقدم عن الفراء والجوهري أن الدأب العادة والشأن ، وهذا كقوله : (قَد خَلَتْ مِن قبلِكُم سُنَنٌ فسيروا في الأرضِ فانظُروا كيفَ كانَ عاقبةُ المكذّبين)[3]. روى ابن أبي حاتم بالاسناد المعروف عن مجاهد: قد خلت من قبلكم سنن من الكفار ، والمؤمنين في الخير والشر وعن أبي اسحاق أي قد مضت مني وقائع نقمة في أهل التكذيب

---

١ ـ سورة الانفال آية ٥٠ ـ ٥١ .
٢ ـ سورة الانفال آية ٥٤ .
٣ ـ سورة آل عمران آية ١٣٧ .

لرسلي والشرك بي ، عاد وثمود ، وقوم لوط ، وأصحاب مدين فروا مثلات قد مضت مني فيهم ، فقد فسرت السنن بأعمالهم وبجزائهم ، قال البغوي : معنى الآية قد مضت ، وسلفت مني فيمن كان قبلكم من الأمم الماضية الكافرة بإمهالي واستدراجي إياهم : حتى يبلغ الكتاب فيهم أجلي الذي أجلته لإهلاكهم وادالة أنبيائي ، فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ، أي آخر المكذبين منهم قال : وهذا في حزب واحد يقول : فأنا أمهلهم واستدرجهم حتى يبلغ أجلي الذي أجلت من نصرة النبي وأوليائه ، وهلاك أعدائه قلت: ونظير هذا قوله تعالى : (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى القُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ)[1]. وقوله : (أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)[2]. وقوله في الآية الأخرى (كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَاراً فِي الأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ العِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّةَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الكَافِرُونَ)[3]. فهذا كله يبين أن سنة الله وعادته مطردة لا تنتقض في إكرام مصدقي الرسل وإهانة مكذبيهم .

---

١ ــ سورة الحج آية ٤٦ .

٢ ــ سورة الروم آية ٩ .

٣ ــ سورة غافر آية ٨٢ ــ ٨٥ .

فصــل

آيات الأنبياء مستلزمة لثبوت النبوة

آيات الأنبياء كما قد عرف هي مستلزمة لثبوت النبوة،وصدق المخبر بها والشاهد بها فيلزم من وجودها وجود النبوة وصدق المخبر بها ، ويمتنع أن تكون مع التكذيب بها وكذب المخبر بها ، فلا يجوز وجودها لمن كذب الأنبياء ، ولا لمن أقر بنبوة كذاب سواء كان هو نفسه المدعي للنبوة ، أو ادعى نبوة غيره ، وهذان الصنفان هما المذكوران في قوله : (ومَن أظلَمُ مِمَنْ افترَى على الله كذباً أو قالَ أوحى إليّ ولم يُوحَ إليه شيءٌ ومن قال سأنزِلُ مِثلَ ما أنزَلَ اللهُ)[1] .وهؤلاءِ كلُّهُم من أظلم الكاذبين كما قال : (فمَنْ أظلَمُ مِمَّن كذَّبَ على اللهِ وكذَّبَ بالصِّدْقِ إذ جاءَهُ أليسَ في جهَنَّمَ مَثوىً للكافرين)[2] .

ثم قال: (والّذي جاءَ بالصِدقِ وصَدَّقَ بهِ أولئِكَ هُمُ المُتّقون)[3] .
فالمخبر بالنبوة مع ثبوتها هو الذي جاء بالصدق وصدق به ، والمخبر بها مع انتفائها هو الذي كذب على الله ، والمكذب بها مع ثبوتها هو الذي كذب بالحق لما جاءه ، فدلائل النبوة هي مستلزمة لصدق من أثبت نبوة هي نبوة حق يمتنع أن تكون لمن نفى هذه ، أو أثبت نبوة ليست بنبوة ،

---

١ ــ سورة الانعام آية ٩٣ .
٢ ــ سورة الزمر آية ٣٣ .
٣ ــ سورة الزمر آية ٣٣ .

وكذلك كل دليل دل على إثبات الصانع دل على صدق المؤمنين به المخبرين بما دل عليه الدليل ، وعلى كذب من نفى ذلك، ويمتنع أن تكون تلك الأدلة دالة على نفي ذلك ، أو على صدق الخبر بنفي ذلك ، أو على صدق من جعل صفات الرب ثابتة لغيره ، وما دل على أن هذه الدار ملك لزيد يدل على صدق المخبر بذلك، وكذب النافي له، ويمتنع أن يدل مع انتفاء الملك ، وما دل على علم شخص وعدله ، فإنه مستلزم لذلك ولصدق المخبر به ، وكذلك النافي له يمتنع أن يدل على صدق النافي أو يدل مع انتفاء العلم والعدل ، فإن ما استلزم ثبوت شيء وصدقه استلزم كذب نقيضه ، وكان عدم اللازم مستلزماً لعدم الملزوم فما كان مستلزماً لثبوت النبوة ، وصدق المخبر بها كان مستلزماً لكذب من نفاها فامتنع أن يكون موجوداً مع من نفاها، وامتنع أن يكون موجوداً مع انتفائها، فإن ذلك يستلزم الجمع بين النقيضين ، فدليل كل مدلول عليه يمتنع ثبوته مع عدم المدلول عليه، فإنه مستلزم لثبوته، فلو وجد مع عدمه للزم الجمع بين النقيضين ، فما كان دليلاً على نبوة شخص فهو دليل على جنس النبوة ، فإن نبوة الشخص لا تثبت إلا مع ثبوت جنس النبوة ، فيمتنع وجود ذلك الدليل مع عدم النبوة ، وثبوت أحد النقيضين مستلزم لنفي الآخر ، فثبوت صدق المخبر بثبوتها مستلزم لكذب المخبر بانتفائها ، فهذا أمر عقلي مقطوع به معلوم بالبديهة بعد تصوره في جميع الأدلة أدلة النبوة وغيرها ، فلا يجوز أن يكون ما دل على النبوة ، وعلى صدق المخبر بها ، وكذب المكذب بها دليلاً للمكذب بها ، ولا دليلاً مع انتفائها كالمتنبي الذي يدعي النبوة ولا نبوة معه ، فلا يتصور أن يكون معه ولا مع المصدق بنبوته شيء من دلائل النبوة ، وأما كون دليل من دلائل النبوة مع المصدق بها كائناً من كان ، فهذا حق ، بل هذا هو الواجب، فمن صدق بها بلا دليل كان متكلماً بلا علم ، فكل من صدق بالنبوة بعلم فمعه دليل من أدلتها، وأخبار أهل التواتر بما جاءت به الأنبياء من الآيات، هو من أدلة

ثبوتها . فكل من آمن بالرسول عن بصيرة . فلا بد أن يكون في قلبه علم بأنه نبي حق، إما علم ضروري، أو علم نظري بدليل من الأدلة ، والعلوم النظرية مع أدلتها تبقى ضرورية ، وقد تكون في نفس الأمر علوم ضرورية ولا يمكنه التعبير عما يدل عليها ، كالذي يجده الانسان في نفسه ويعلمه من العلوم البديهية والضرورية وغير ذلك ، فإن كثيراً من الناس لا يمكنهم بيان الأدلة لغيرهم على وجود ذلك عندهم ، وإذا عرف هذا فقولنا دلائل النبوة مختصة بالأنبياء لا تكون لغيرهم له معنيان : أحدهما أنه لا يشاركهم فيها من يكذب بنبوتهم ولا من يدعي نبوة كاذبة، وهذا ظاهر بيّن، فإن الدليل على الشيء لا يكون دليلاً على وجوده وعلى عدمه ، فلا يكون ما يدل على النبوة أو غيرها ، وعلى صدق المخبر بذلك دليلاً على كذب المخبر بذلك ، ولا دليلاً على النبوة مع انتفاء النبوة .

والمعنى الثاني أنها لا توجد إلا مع النبي ، فهذا إن أريد به أنها لا توجد إلا والنبوة ثابتة، فهو صحيح،وإن كانت مع ذلك دليلاً على نبي فلا يمتنع أن يكون الشيء الواحد دليلاً على أمور كثيرة ، لكن يمتنع أن يوجد مع انتفاء مدلوله ، فما دل على النبوة قد يدل على أمور أخرى من أمور الرب تبارك وتعالى : لكن لا يمكن أن يدل مع انتفاء النبوة أي مع كون النبوة المدلول عليها باطلة لا حقيقة لها ، ولكن قد يدل مع موت النبي ومع غيبته ، فإن موته وغيبته لا ينفي نبوته ، وليس من شرط دليل النبي أن يكون موجوداً في محل المدلول عليه ، ولا في مكانه ولا زمانه ، وقول من اشترط في آيات الأنبياء أن تكون مقترنة بالدعوى في غاية الفساد والتناقض كما قد بسط لاسيما والآيات قد تكون مخلوقة نائية عن النبي وعن مكانه . وكذلك سائر الأدلة لاسيما ما يجري مجرى الخبر ،فالأخبار الدالة على وجود المخبر به لا يجب أن تكون مقارنة للمخبر به لا في محله ولا زمانه ولا مكانه،وآيات الأنبياء هي شهادة من الله وإخبار منه بنبوتهم ،

فلا تجب أن تكون في محل النبوة ولا زمانها ولا مكانها، لكن يجوز ذلك. فلا يمتنع أن يكون الدليل في محل المدلول عليه أو في زمانه أو في مكانه، لكن يجوز ذلك فيه، فالانسان قد تقوم به أمور تدل على بعض الأمور التي فيه، وقد تعلم أموره بخبر غيره وببعض آثاره المنفصلة عنه، فإذا أريد بأن آيات الأنبياء مختصة بهم وأنها لا تكون لغيرهم أنها لا تكون مع انتفاء النبوة المدلول عليها، فهذا صحيح لأنه يستلزم الجمع بين النقيضين، وأما إذا أريد أنها لا توجد إلا في ذات النبي أو مقترنة بخبره عن نبوته أو في المكان الذي كان فيه أو في الزمان، فهذا كله غلط وخطأ ممن ظنه، وجهل بين بحقائق الأدلة، وإن كان من الأدلة وآيات النبوة ما يكون في ذات النبي، ويكون مقترناً بقوله: إني رسول الله. ويكون في المكان الذي هو فيه وفي زمانه، فهذا يمكن وهو الواقع[1]. فإن النبي ﷺ بل وغيره من الأنبياء كان في نفس أقوالهم وأفعالهم وصفاتهم وأخلاقهم وسيرهم أمور كثيرة تدل على نبوتهم.

وكذلك لما قال إني رسول الله أتى مع ذلك بآيات دلت على صدقه، وكذلك في مكانه وزمانه ظهر من انشقاق القمر وغيره ما دل على نبوته، لكن آيات الأنبياء أعم من ذلك، كما أن دليل كل شيء أعم من أن يختص بمعنى المدلول[2] وزمانه ومكانه، وبهذا يظهر خطأ كثير من الناس في عدم معرفتهم بجنس آيات الأنبياء لعدم تحقيقهم جنس الأدلة والبراهين، وإن خاصة الدليل أنه يلزم من تحققه تحقق المدلول عليه فقط، سواء كان

---

١ ـ قوله: الواقع يتعين ذلك ليكون الخبر نكرة، أما اذا كان معرفة والمبتدا كذلك معرفة، كانت الجملة معرفة الطرفين لتفيد الحصر، وهو باطل هنا ينقض ما قرره كما ترى

٢ ـ قوله بمعنى المدلول: المراد بالعموم العموم المعي المقارن، لا العموم البدلي، والا فسدت دلالته، وبطل كونه دليلا، ومعنى ذلك ان دليل الشيء يجوز ان يدل على شيء آخر معه، ولا يجب أن يكون بحيث لا يدل على شيء اصلا الا عليه، بل دليل الشيء قد يدل على شيئين او اكثر دلالة مصاحبة ومقارنة لا دلالة بدل، والا لما كان دليلا فتدبر.

مقارناً للمدلول عليه . أو كان حالاً في محله أو مجاوزاً لمحله أو لم يكن كذلك ، والنبوة قد قال طائفة من الناس أنها صفة في النبي . وقال طائفة ليست صفة ثبوتية في النبي . بل هو مجرد تعاق الخطاب الإلهي به . يقول الرب إني أرسلتك ، فهي عندهم صفة إضافية كما يقولونه في الأحكام الشرعية أنها صفات إضافية للأفعال لا صفات حقيقية . والصحيح أن النبوة تجمع هذا وهذا ، فهي تتضمن صفة ثبوتية في النبي ، وصفة إضافية هي مجرد تعلق الخطاب الإلهي به يقول الرب إني أرسلتك فهي عندهم صفة إضافية كما يقولونه في الأحكام الشرعية إنها صفات إضافية للأفعال لا صفات حقيقية ، لكن على الأقوال الثلاثة[1] . ليس من شرط أدلتها أن تكون حالة في ذات النبي ، ولكن يجوز أن تكون لها أدلة قائمة بذات النبي . كما كان في محمد ﷺ عدة أدلة من دلائل النبوة ، كما هو مبسوط في دلائل نبوته . إذ المقصود هنا الكلام على جنس آيات الأنبياء لا على شيء معين ولا دليل معين . ولا نبي معين ، فإذا عرف أن دلائل النبوة يمتنع ثبوتها لشخص لا نبوة فيه إذا ادعاها ، أو ادعيت له كذباً ، ويمتنع ثبوتها مع المكذب بالنبوة الصادقة ، وأنها لا توجد إلا والنبوة ثابتة ، وأنها دليل على صدق المخبر بالنبوة من جميع الخلق ، فكل من آمن أن محمداً رسول الله ، فقد أخبر عن نبوته كما أخبر هو عن نبوة نفسه بما أمره الله به حيث قال : (قُلْ يا أيُّها النَّاسُ إني رسولُ اللهِ إليكُم جميعاً)[2] . فهذا الخبر وهو الشهادة بأنه رسول الله إلى الناس جميعاً سواء وجد منه أو من غيره هو مدلول عليه بجميع دلائل النبوة ، فإذا وجد هذا الخبر في غير النبي ، ووجد ما يدل على صدق هذا الخبر كان ذلك من دلائل النبوة كما وجد

١ — قوله : (لكن على الاقوال الثلاثة الخ) لم يذكر الا قولين فقط فلعل الثالث سقط من الناسخ .

٢ — سورة الاعراف ١٥٨ .

هذا في خلق كثير من المؤمنين ، ومن دلائل النبوة وجود العلم الضروري بخبر أهل التواتر الذين أخبروا بالآيات ، فهذا العلم الضروري هو بمنزلة المشاهدة للآيات ، وكذلك ما يوجد لأهل الإيمان مما يستلزم صدق خبرهم بأن محمداً رسول كما يوجد لأمته من الآيات الكثيرة عند تحقيق أمره ونصره وطاعته ، والجهاد عن دينه ، والذب عنه ، وبيان ما أرسل به كما وجد أمثال ذلك للصحابة والتابعين وسائر المؤمنين إلى يوم القيامة .

فصــل

تأييد الله تعالى رسله بالآيات المعجزات

فجميع ما يختص بالسحرة والكهان هو مناقض للنبوة ، فوجود ذلك يدل على أن صاحبه ليس بنبي ، ويمتنع أن يكون شيء من ذلك دليلاً على النبوة ، فإن ما استلزم عدم الشيء لا يستلزم وجوده ، وكذلك ما يأتي به أهل الطلاسم وعبادة الكواكب ومخاطبتها ، كل ذلك مناقض للنبوة ، فإن النبي لا يكون إلا مؤمناً ، وهؤلاء كفار ،فوجود ما يناقض الإيمان هو مناقض للنبوة بطريق الأولى ، وهو آية ودليل وبرهان على عدم النبوة ، فيمتنع أن يكون دليلاً على وجودها ، وجميع ما يختص بالسحرة والكهان وغيرهم ممن ليس بنبي ، لا يخرج عن مقدور الإنس والجن ، وأعني بالمقدور ما يمكنهم التوصل اليه بطريق من الطرق ، فإن من الناس من يقول : إن المقدور لا بد أن يكون في محل القدرة ؛ وليس هذا هو لغة العرب ، ولا غيرهم من الأمم ، لا لغة القرآن والحديث ، ولا غيرهما ، وإنما يدعون ذلك من جهة العقل ، وقولهم في ذلك باطل من جهة العقل ؛ لكن المقصود هنا التكلم باللغة المعروفة لغة العرب وغيرهم التي كان نبينا ﷺ وغيره يخاطب بها الناس كقوله في الحديث الصحيح لأبي مسعود لما ضرب غلامه : « اعلَمْ أبا مسعودٍ اعلم أبا مسعودٍ الله أقدَرُ عليكَ منكَ على هذا».فجعل نفس المملوك مقدوراً عليه لسيده كما يقول الناس : القوة على الضعيف ضعف في القوة ، ويقولون : فلان

قادر على فلان ، وفلان عاجز عن فلان ، ويقولون : فلان ناسج هذا الثوب وبنى هذه الدار ومنه قوله تعالى : (ويَصْنَعُ الفُلْكَ)[1]. فجعل الفلك مصنوعة لنوح ، ومنه قوله تعالى : (واللهُ خلقكم وما تعملون)[2]. أي والأصنام التي تعملونها وتنحتونها فجعل ما في الأصنام من التأليف معمولاً لهم ، كما جعل تأليف السفينة مصنوعاً لهم ، وهذا كثير .

والمقصود هنا أن ما يأتي به السحرة والكهان ونحوهم ، هو مما يصنعه الانس والجن ، لا يخرج ذلك عنهم ، والإنس والجن قد أرسلت اليهم الرسل ، فآيات الأنبياء خارجة عن قدرة الإنس والجن ، لا يقدر عليها لا الإنس ولا الجن ولله الحمد والمنة .

ومقدورات الجن هي من جنس مقدورات الإنس ، لكن يختلف في المواضع فإن الإنسي يقدر على أن يضرب غيره ، حتى يمرض أو يموت ، بل يقدر أن يكلمه بكلام يمرض به أو يموت ، فما يقدر عليه الساحر من سحر بعض الناس حتى يمرض أو يموت ، هو من مقدور الجن ، وهو من جنس مقدور الإنس ،ومنعه من الجماع هو من جنس المرض المانع له من ذلك ، والحب والبغض لبعض الناس كما يفعله الساحر هو من استعانته بالشياطين ، وهو من جنس مقدور الإنس ، بل شياطين الإنس قد يؤثرون من البغض والحب أعظم مما تؤثره شياطين الجن ، والجن تقدر على الطيران في الهواء ، وهو من الأعمال ، والطيور تطير فهو من جنس مقدور الإنس ، لكن يختلف المحل بأن هؤلاء سيرهم في الهواء والإنس سيرهم على الأرض ، وكذلك المشي على الماء وطي الأرض ، وهو قطع المسافة البعيدة في زمان قريب هو من هذا الجنس هو مما تفعله الجن ، وهو مما تفعله الجن ببعض الناس ، وقد أخبر الله عن العفريت

١ ـ سورة هود آية ٣٨ . ٢ ـ سورة الصافات آية ٩٦ .

أنه قال لسليمان عن عرش بلقيس وهو باليمن وسليمان بالشام : (أنا آتيكَ به ِ قبلَ أن تَقومَ مِن مَقاميكَ)[1]. ولهذا يوجد كثير من الكفار والفساق والجهال تطير بهم الجن في الهواء ، وتمشي بهم على الماء ، وتقطع بهم المسافة البعيدة في المدة القريبة ، وليس شيء من ذلك من آيات الأنبياء ، ولله الحمد والمنة إذ كان مقدور الإنس والجن ، والأخبار ببعض الأمور الغائبة التي يأتي بها الكهان هو أيضاً من مقدور الجن ، فإنهم تارة يرون الغائب فيخبرون به ، وتارة يسترقون السمع من السماء فيخبرون به ، وتارة يسترقون وهم يكذبون في ذلك ، كما أخبر النبي ﷺ عنهم ،وما تخبر به الأنبياء من الغيب لا يقدر عليه إنس ، ولا جن ، ولا كذب فيه ، وأخبار الكهان وغيرهم كذبها أكثر من صدقها ، وكذلك كل من تعود الإخبار عن الغائب ، فإخبار الجن لا بد أن تكذب ، فإنه من طلب منهم الإخبار بالمغيب كان من جنس الكهان ، وكذبوه في بعض ما يخبرون به ، وإن كانوا صادقين في البعض .

وقد ثبت في الصحيح « أن النبي ﷺ سئل عن الكهان ؟ فقيل له إن منا قوماً يأتون الكهان قال : فلا يأتوهم ». وثبت عنه في الصحيح أنه قال : « من أتى عرّافاً فسألهُ عن شيء لم تُقبَلْ لهُ صلاةٌ أربعينَ يوماً » . وفي السنن عنه أنه قال : « مَن اقتبس شُعبةً مِن النجومِ فقد اقتبَسَ شُعبةً مِن السِّحْرِ زادَ ما زادَ » . والنبي ﷺ لما أسرى به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى لم يكن المقصود مجرد وصوله إلى الأقصى ، بل المقصود ما ذكره الله بقول : (لنُريَهُ مِن آياتِنا)[2] . كما قال في سورة النجم : (ولقد رآهُ نَزْلَةً أخرى عِندَ سِدْرَةِ المُنْتَهى عندها جَنّةُ المأوى إذ يَغْشَى السِدْرَةَ ما يَغْشَى ما زَاغَ البَصَرُ وَما طَغَى لَقَد رأى مِن آياتِ ربهِ الكُبرى)[3] .

---

١ ـ سورة النمل آية ٣٩ .
٢ ـ سورة الاسراء آية ١ .
٣ ـ سورة النجم آية ١٣ .

وما رآه مختص بالأنبياء لا يكون ذلك لمن خالفهم ، ولا يريه الله تعالى ما أراه محمداً حين أسرى به ، وكذلك صلاته بالأنبياء في المسجد الأقصى ، وركوبه على البراق ، هذا كله من خصائص الأنبياء ، والذين تحملهم الجن وتطير بهم من مكان إلى مكان أكثرهم لا يدري كيف حمل ، بل يحمل الرجل إلى عرفات ، ويرجع وما يدري كيف حملته الشياطين ، ولا يدعونه يفعل ما أمر الله به كما أمر الله به ، بل قد يقف بعرفات من غير إحرام ولا إتمام مناسك الحج ، وقد يذهبون به إلى مكة ، ويطوف بالبيت من غير إحرام إذا حاذى الميقات ، وذلك واجب في أحد قولي العلماء ، ومستحب في الآخر فيفوته المشروع أو يوقعونه في الذنب ، ويغرونه بأن هذا من كرامات الصالحين ، وليس هو مما يكرم الله بـه وليه ، بل هو مما أضلته به الشياطين ، وأوهمته أن ما فعله قربة وطاعة ، أو يكون صاحبه له عند الله منزلة عظيمة وليس هو قربة وطاعة ، وصاحبه لا يزداد بذلك منزلة عند الله ، فإن التقرّب إلى الله إنما يكون بواجب أو مستحب ، وهذا ليس بواجب ولا مستحب ، بل يضلون صاحبـه ويصدونه عن تكميل ما يحبه الله منه من عبادته وطاعته وطاعة رسوله ويوهمونه أن هذا من أفضل الكرامات حتى يبقى طالباً له عاملاً عليه ، وهم بسبب إعانتهم له على ذلك قد استعملوه في بعض ما يريدون ممـا ينقص قدره عند الله أو وقوعه في ذنوب ، وإن لم يعرف أنها ذنوب فيكون ضالاً ناقصاً ، وإن غفر له ذلك لعدم علمه ، فإنه نقص درجته وخفض منزلته بذلك الذي أوهموه أنه رفع درجته وأعلا منزلته ، وهذا من جنس ما تفعله السحرة فإن الساحر قد يصعد في الهواء ، والناس ينظرونه .

وقد يركب شيئاً من الجمادات إما قصبة وإما خابية وإما مكنسة ، وإما غير ذلك ، فيصعد به في الهواء ، وذلك أن الشياطين تحمله ، وتفعل الشياطين

هذا ونحوه بكثير من العباد والضلال من عباد المشركين ، وأهل الكتاب والضلال من المسلمين، فيحملهم من مكان إلى مكان ، وقد يرى أحدهم بما يركبه إما فرس وإما غيره ، وهو شيطان تصور له في صورة مركوب ، وقد يرى أنه يمشي في الهواء من غير مركوب ، والشيطان قد حمله ، والحكايات في هذا كثيرة معروفة عند من يعرف هذا الباب ، ونحن نعرف من هذا أموراً يطول وصفها ، وكذلك المشي على الماء قد يجعل له الجن ما يمشي عليه ، وهو يظن أنه يمشي على الماء وقد يخيلون اليه أنه التقى طرفا النهر ليعبر ، والنهر لم يتغير في نفسه، ولكن خيلوا اليه ذلك، وليس في هذا ولله الحمد شيء من جنس معجزات الأنبياء ، وقد يمشي على الماء قوم بتأييد الله لهم وإعانته إياهم بالملائكة ، كما يحكى عن المسيح، وكما جرى للعلاء بن الحضرمي ولأبي مسلم الخولاني في عبور الجيش وذلك إعانة على الجهاد في سبيل الله، كما يؤيد الله المؤمنين بالملائكة ليس هو من فعل الشياطين ، والفرق بينهما من جهة السبب ، ومن جهة الغاية ، أما السبب فإن الصالحين يسمون الله ويذكرونه ويفعلون ما يحبه الله من توحيده وطاعته ، فييسر لهم بذلك ما ييسره ، ومقصودهم به نصر الدين والإحسان إلى المحتاجين ، وما تفعله الشياطين يحصل بسبب الشرك والكذب والفجور . والمقصود به الإعانة على مثل ذلك ، والجن فيهم مسلم وكافر ، فالمسلمون منهم يعاونون الإنس المسلمين كما يعاون المسلمون بعضهم بعضاً ، والكفار مع الكفار ، والجن الذين يطيعون الإنس وتستخدمهم الإنس ثلاثة أصناف أعلاها: أن يأمروهم بما أمر الله به ورسله، فيأمرونهم بعبادة الله وحده وطاعة رسله ، فإن الله أوجب على الجن طاعة الرسل، كما أوجب ذلك على الإنس وقال تعالى : (ويومَ يَحشُرُهم جميعاً يا معشَرَ الجِنِّ قد استكثَرتُم مِنَ الإنسِ وقالَ أولياؤهُم مِنَ الإنسِ ربَّنا استمتع بعضنا ببعضٍ وبلغنا أجلَنا الذي أجلت لَنا قالَ النّارُ مَثْواكُم خالِدينَ فيها إلا ما شاءَ اللهُ إنَّ ربَّكَ حكيمٌ عليمٌ وكذلكَ نُولي بعضَ الظالمينَ بعضاً

بما كانوا يكسبون يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا شهدنا على أنفسنا وغرتهم الحياة الدنيا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون ولكل درجات مما عملوا وما ربك بغافل عما يعملون)[1]. فالرسل تكون من الأنس إلى الثقلين والنذر من الجن باتفاق العلماء .

واختلفوا هل يكون في الجن رسل والأكثرون على أنه لا رسل فيهم كما قال تعالى : (وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم من أهل القرى)[2]. وعن الحسن البصري قال : لم يبعث الله نبياً من أهل البادية ، ولا من الجن ، ولا من النساء. ذكره عنه طائفة منهم البغوي ، وابن الجوزي ، وقال قتادة : ما نعلم أن الله أرسل رسولاً قط إلا من أهل القرى لأنهم كانوا أعلم وأحلم من أهل العمور . رواه ابن أبي حاتم وذكره طائفة .

ونبينا محمد ﷺ قد أرسل إلى الثقلين ، وقد آمن به من آمن من جن نصيبين فسمعوا القرآن ، وولوا إلى قومهم منذرين ، ثم أتوا فبايعوه على الاسلام بشعب معروف بمكة بين الأبطح ، وبين جبل حراء ، وسألوه الطعام لهم ولدوابهم فقال : لكم كل عظم ذكر اسم الله عليه أوفر ما يكون لحماً ، وكل بعرة علف لدوابكم قال النبي ﷺ فلا تستنجوا بهما فإنهما زاد أخوانكم من الجن ، والأحاديث بذلك كثيرة مشهورة في الصحيح والسنن والمسند وكتب التفسير والفقه وغيرها ، وقد روى الترمذي وغيره أنه قرأ عليهم سورة الرحمن ، وهي خطاب للثقلين ، وقد اتفق العلماء على أن كفارهم يدخلون النار كما أخبر الله بذلك في قوله : (قال

---

١ ـ سورة الانعام آية ١٢٨ ـ ١٣٢ .
٢ ـ سورة يوسف آية ١٠٩ .

ادْخُلوا في أمَمٍ قدْ خَلَتْ مِن قبْلِكُم مِن الجنّ والإنسِ في النّارِ كُلّما دَخَلَتْ أمّةٌ لعَنَتْ أختَها)[1]. وقال الله تعالى: (لأمْلأنّ جَهنّمَ مِنكَ وممّنْ تَبِعَكَ منهم أجمعينَ)[2]. وقال: (لأمْلأنّ جَهنّمَ مِنَ الجِنّةِ والنّاسِ أجمعين)[3]. وأمامؤمنوهم فأكثر العلماء على أنهم يدخلون الجنة، وقال طائفة بل يصيرون تراباً كالدواب، والأول أصح، وهو قول الأوزاعي وابن أبي ليلى وأبي يوسف، ومحمد، ونقل ذلك عن مالك والشافعي، وأحمد بن حنبل، وهو قول أصحابهم.

واحتج عليه الأوزاعي وغيره بقوله: (ولكلٍ درجات مما عملوا)، بعد ذكره أهل الجنة وأهل النار، من الجن والإنس، كما قال في سورة الأنعام، وفي الأحقاف، ولكل درجات مما عملوا، بعد ذكر أهل الجنة والنار. قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: درجات أهل النار تذهب سفولاً، ودرجات أهل الجنة تذهب صعوداً، فنبينا ﷺ هو مع الجن كما هو مع الإنس، والإنس معه إما مؤمن به، وإما مسلم له، وإما مسالم له، وإما خائف منه، كذلك الجن منهم المؤمن به. ومنهم المسلم له مع نفاق، ومنهم المعاهد المسالم لمؤمني الجن، ومنهم الحربي الخائف من المؤمنين، وكان هذا أفضل مما أوتيه سليمان فإن الله سخر الجن لسليمان تطيعه طاعة الملوك، فإن سليمان كان نبياً ملكاً، مثل داود ويوسف. وأما محمد فهو عبد رسول، مثل ابراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام.

وهؤلاء أفضل من أولئك فأولياء الله المتبعون لمحمد، إنما يستخدمون الجن كما يستخدمون الإنس في عبادة الله، وطاعته كما كان محمد ﷺ يستعمل الإنس والجن لا في غرض له غير ذلك، ومن الناس من يستخدم من يستخدمه من الإنس في أمور مباحة، كذلك فيهم من يستخدم الجن

---

١ ــ سورة الاعراف آية ٣٧.
٢ ــ سورة ص آية ٨٥.
٣ ــ سورة هود آية ١١٩.

في أمور مباحة ، لكن هؤلاء لا يخدمهم الإنس والجن إلا بعوض ، مثل أن يخدموهم كما يخدمونهم ، أو يعينونهم على بعض مقاصدهم ، وإلا فليس أحد من الإنس والجن يفعل شيئاً إلا لغرض ، والإنس والجن إذا خدموا الرجل الصالح في بعض أغراضه المباحة ، فإما أن يكونوا مخلصين يطلبون الأجر من الله ، وإلا طلبوه منه إما دعاؤه لهم ، وإما نفعه لهم بجاهه أو غير ذلك .

والقسم الثالث : أن يستخدم الجن في أمور محظورة أو بأسباب محظورة ، مثل قتل نفس وامراضها بغير حق ، ومثل منع شخص من الوطء ومثل تبغيض شخص إلى شخص ، ومثل جلب من يهواه الشخص اليه ، فهذا من السحر ، وقد يقع مثله لكثير من الناس ولا يعرف السحر ، بل يكون موافقاً للشياطين على بعض أغراضهم مثل شرك أو بدعة وضلالة ، أو ظلم أو فاحشة فيخدمونه ليفعل ما يهوونه ، وهذا كثير في عباد المشركين وأهل الكتاب ، وأهل الضلال من المسلمين ، وكثير من هؤلاء لا يعرف أن ذلك من الشياطين ، بل يظنه من كرامات الصالحين ، ومنهم من يعرف أنه من الشياطين ، ويرى أنه بذلك حصل له ملك وطاعة ونيل ما يشتهيه من الرياسة والشهوات ، وقتل عدوه فيدخل في ذلك كما تدخل الملوك الظلمة في أغراضهم ، وليس أحد من الناس تطيعه الجن طاعة مطلقة ، كما كانت تطيع سليمان بتسخير من الله وأمر منه من غير معاوضة كما أن الطير كانت تطيعه والريح .قال تعالى : (وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ القِطْرِ ومن الجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُم عن أمرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ

شُكْراً وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُور)[1] . والجن والأنس فيهم المؤمن المطيع والمسلم الجاهل أو المنافق أو العاصي ، وفيهم الكافر ، وكل ضرب يميل إلى بني جنسه ، والذي أعطاه الله تعالى لسليمان خارج عن قدرة الجن والأنس ، فإنه لا يستطيع أحداً أن يسخر الجن مطلقاً لطاعته ، ولا يستخدم أحد منهم إلا بمعاوضة ، إما عمل مذموم تحبه الجن ، وإما قول تخضع له الشياطين كالأقسام والعزائم ؛ فإن كل جني فوقه من هو أعلى منه . فقد يخدمون بعض الناس طاعة لمن فوقهم . كما يخدم بعض الأنس لمن أمرهم سلطانهم بخدمته لكتاب معه منه . وهم كارهون طاعته ؛ وقد يأخذون منه ذلك الكتاب ولا يطيعونه . وقد يقتلونه أو يمرضونه؛ فكثير من الناس قتلته الجن . كما يصرعونهم والصرع لأجل الزنا ؛ وتارة يقولون أنه أذاهم إما بصب نجاسة عليهم؛ وإما بغير ذلك فيصرعونه صرع عقوبة وانتقام ، وتارة يفعلون ذلك عبثاً كما يعبث شياطين الأنس بالناس والجن أعظم شيطنة ، وأقل عقلاً ، وأكثر جهلاً . والجنى قد يحب الإنسي كما يحب الإنسي الإنسي ، وكما يحب الرجل المرأة ، والمرأة الرجل . ويغار عليه ويخدمه بأشياء ، وإذا صار مع غيره فقد يعاقبه بالقتل وغيره . كل هذا واقع ، ثم الذي يخدمونه تارة يسرقون له شيئاً من أموال الناس مما لم يذكر إسم الله عليه ، ويأتونه إما بطعام ، وإما شراب وإما لباس ، وإما نقد ، وإما غير ذلك ،وتارة يأتونه في المفاوز بماء عذب وطعام وغير ذلك ، وليس شيء من ذلك من معجزات الانبياء ، ولا كرامات الصالحين ، فإن ذلك إنما يفعلونه بسبب شرك وظلم وفاحشة . وهو لو كان مباحاً لم يجز أن يفعل بهذا السبب . فكيف إذا كان في نفسه ظلماً محرماً لكونه من الظلم والفواحش ونحو ذلك . وقد يخبرون بأمور غائبة مما رأوه وسمعوه ويدخلون في جوف الإنسان قال النبي

---

١ ـ سورة سبأ آية ١٢ ـ ١٣ .

ﷺ : « إنَّ الشَّيْطَانَ يَجري مِنَ الإنْسَانِ مَجْرى الدَّم » .

لكن إنما سلطانهم كما قال الله : (إنه لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلى الّذينَ آمَنُوا وعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكّلون إنّمَا سُلْطَانُهُ عَلى الذينَ يَتَوَلّونَهُ والّذينَ هُمْ به مُشْرِكون) [1] . ولما قال الشيطان : (رَبِّ بمَا أغْوَيْتَني لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ في الأرْضِ ولأغْوِيَنّهُمْ أجمعين إلاّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ المُخْلِصِين) [2] .

قال الله تعالى : (إنَّ عِبَادي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ) ثم قال : (إلا مَنْ اتّبَعَكَ مِنَ الغَاوينَ وإنَّ جَهَنّم لمَوْعِدهُمْ أجمعينَ لهَا سَبْعَةُ أبوابٍ لِكُلِّ بَابٍ منْهُمْ جزْءٌ مَقْسُومٌ) [3] .

فأهل الإخلاص والإيمان لا سلطان له عليهم ، ولهذا يهربون من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة ، ويهربون من قراءة آية الكرسي ، وآخر سورة البقرة ، وغير ذلك من قوارع القرآن ، ومن الجن من يخبر بأمور مستقبلة للكهان ، وغير الكهان مما يسرقونه من السمع ، والكهانة كانت ظاهرة كثيراً بأرض العرب ، فلما ظهر التوحيد هربت الشياطين وبطلت أو قلت ، ثم إنها تظهر في المواضع التي يخفى فيها أثر التوحيد ، وقد كان حول المدينة بعد أن هاجر النبي ﷺ كهان يتحاكمون إليهم ، وكان أبو بردة بن نيار كاهناً ، ثم أسلم بعد ذلك ، وهو من أسلم ، والأصنام لها شياطين كانت تتراءى للسنة أحياناً ، وتكلمهم أحياناً .

قال أبي بن كعب : مع كل صنم جنية ، وقال ابن عباس : في كل

---

١ ـ سورة النحل آية ٩٩ .

٢ ـ سورة الحجر آية ٣٩ .

٣ ـ سورة الحجر آية ٤٤ .

صنم شيطان ، تتراءى للسدنة فتكلمهم ، والشياطين كما قال الله تقترن بما يجانسها بأهل الكذب والفجور قال تعالى : (هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ)(١) . فكيف يجوز أن يقال إن مثل هذا يكون معجزة لنبي ، أو كرامة لولي ، وهذا يناقض الإيمان ويضاده ، والانبياء والأولياء أعداء هؤلاء قال تعالى: (إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ)(٢) .

وقال تعالى : (أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لاَ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلاً كَثِيراً أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ)(٣) . وهذا يظهر الفرق بين أخبار الانبياء عن الغيب ما لا سبيل لمخلوق إلى علمه إلا منه كما قال تعالى : (عَالِمُ الْغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً إِلاَّ مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أبلغوا رِسَالاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً)(٤) . فقوله على غيبه هو غيبه الذي اختص به ، وأما ما يعلمه بعض المخلوقين فهو غيب عمن لم يعلمه وهو شهادة لمن علمه ، فهذا أيضاً تخبر منه الانبياء بما لا يمكن الشياطين أن تخبر به ، كما في أخبار المسيح بقوله : (وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ)(٥) . فإن الجن قد يخبرون بما يأكله بعض الناس ، وبما يدخرونه ، لكن الشياطين إنما تتسلط على من لا يذكر إسم الله كالذى لا يذكر إسم الله إذا دخل فيدخلون معه ،

---

١ ــ سورة الشعراء آية ٢٢٢ .
٢ ــ سورة فاطر آية ٦ .
٣ ــ سوره الزخرف آية ٦٢ .
٤ ــ سورة الجن آية ٢٦ .
٥ ــ سورة آل عمران آية ٤٩ .

وإن لم يذكر إسم الله إذا أكل ، فإنهم يأكلون معه . وكذلك إذا ادخر شيئاً ، ولم يذكر إسم الله عليه ، عرفوا به ، وقد يسرقون بعضه كما جرى هذا لكثير من الناس . وأما من يذكر إسم الله على طعامه . وعلى ما يختاره فلا سلطان لهم عليه لا يعرفون ذلك ، ولا يستطيعون أخذه .

والمسيح عليه السلام كان يخبر المؤمنين بما يأكلون وما يدخرون مما ذكر إسم الله عليه ، والشياطين لا تعلم به . ولهذا من يكون إخباره عن شياطين تخبره لا يكاشف أهل الإيمان والتوحيد . وأهل القلوب المنورة بنور الله ، بل يهرب منهم ،ويعترف أنه لا يكاشف هؤلاء وأمثالهم وتعترف الجن والأنس الذين خوارقهم بمعاونة الجن لهم أنهم لا يمكنهم أن يظهروا هذه الخوارق بحضرة أهل الإيمان والقرآن . ويقولون أحوالنا لا تظهر قدام الشرع والكتاب والسنة . وإنما تظهر عند الكفار والفجار ، وهذا لأن أولئك أولياء الشياطين . ولهم شياطين يعاونون شياطين المخدومين ، ويتفقون على ما يفعلونه من الخوارق الشيطانية ، كدخول النار مع كونها لم تصر عليهم برداً وسلاماً . فإن الخليل لما ألقي في النار صارت عليه برداً وسلاماً . وكذلك أبو مسلم الخولاني لما قال له الأسود العنسي المتنبي : أتشهد أني رسول الله ؟ قال : ما أسمع ؟ قال أتشهد أن محمداً رسول الله قال : نعم. فأمر بنار فأوقدت له، وألقي فيها فجاءوا إليه فوجدوه يصلي فيها ،وقد صارت عليه برداً وسلاماً. فقدم المدينة بعد موت النبي ﷺ وأخذه عمر فأجلسه بينه وبين أبي بكر ، وقال : الحمد لله الذي لم يمتني حتى أراني في أمة محمد من فعل به كما فعل بإبراهيم .

وأما أخوان الشياطين فإذا دخلت فيهم الشياطين ، فقد يدخلون النار ولا تحرقهم ، كما يضرب أحدهم ألف سوط ولا يحس بذلك ، فإن الشياطين تلتقي ذلك ، وهذا أمر كثير معروف قد رأينا من ذلك ما يطول وصفه،

وقد ضربنا نحن من الشياطين في الأنس ما شاء الله حتى خرجوا من الانس ولم يعاودوه، وفيهم من يخرج بالذكر والقرآن، وفيهم من يخرج بالوعظ والتخويف، وفيهم من لا يخرج إلا بالعقوبة كالإنس، فهؤلاء الشياطين إذا كانوا مع جنسهم الذين لا يهابونهم فعلوا هذه الأمور، وأما إذا كانوا عند أهل إيمان وتوحيد، وفي بيوت الله التي يذكر فيها اسمه، لم يجترئوا على ذلك، بل يخافون الرجل الصالح أعظم مما تخافه فجار الأنس، ولهذا لا يمكنهم عمل سماع المكاء والتصدية في المساجد المعمورة بذكر الله، ولا بين أهل الإيمان والشريعة المتبعين للرسول، إنما يمكنهم ذلك في الأماكن التي تأتيها الشياطين كالمساجد المهجورة، والمشاهد والمقابر والحمامات والمواخير، فالمواضع التي نهى النبي ﷺ عن الصلاة فيها كالمقبرة وأعطان الإبل والحمام وغيرها، فتكون حال هؤلاء فيها أقوى لأنها مواضع الشياطين كالماخورة، والمزبلة والحمام ونحو ذلك، بخلاف الأمكنة التي ظهر فيها الإيمان والقرآن والتوحيد التي أثنى الله على أهلها وقال فيهم: (اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ المِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَ شَرْقِيَّةٍ وَلاَ غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالغُدُوِّ وَالآصَالِ رِجَالٌ لاَ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامَ الصَّلاَةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ القُلُوبُ وَالأَبْصَارُ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ)[1].

---

١ ـ سورة النور آية ٣٥ ـ ٣٨ .

فهذه أمكنة النور والصالحين والملائكة لا تتسلط عليها الشياطين بكل ما تريد . بل كيدهم فيها ضعيف ، كما أن كيدهم في شهر رمضان ضعيف . إذ كانوا فيه يسلسلون ، لكن لم يبطل فعلهم بالكلية ، بل ضعف . فشرهم فيه على أهل الصوم قليل ، بخلاف أهل الشراب ، وأهل الظلمات . فإن الشياطين هنالك محالهم ، وهم يحبون الظلمة ويكرهون النور ، ولهذا ينتشرون بالليل ، كما جاء في الحديث الصحيح ، ولهذا أمر الله بالتعوذ من شر غاسق إذا وقب .

وخوارق الجن كالاخبار ببعض الأمور الغائبة ، وكالتصرفات الموافقة لأغراض بعض الإنس كثيرة معروفة في جميع الأمم ، فقد كانت في العرب كثيرة ، وكذلك في الهند وفي الترك والفرس والبربر وسائر الأمم . فهي أمور معتادة للجن والأنس وآيات الانبياء كما تقدم ، خارجة عن مقدور الإنس والجن ، فإنهم مبعوثون إلى الأنس والجن ، فيمتنع أن تكون آياتهم أموراً معروفة فيمن بعثوا إليه ، إذ يقال هذه موجودة كثيراً للأنس ، فلا يختص بها الانبياء ، بل هذه الخوارق هي آية وعلامة على فجور صاحبها وكذبه ، فهي ضد آيات الانبياء التي تستلزم صدق صاحبها وعدله ، ولهذا يكون كثير من الذين تخدمهم الشياطين من أهل الشياطين ، وهذا معروف لكثير ممن تخدمه الشياطين ، بل من طوائف المخدومين من يكونون كلهم من هذا الباب ، كالبوبي الذي للترك ، وأكثر المؤلهين من هذا الباب ، وهم يصعدون بهم في الهواء ويدخلون المدن والحصون بالليل والأبواب مغلقة ، ويدخلون على كثير من رؤساء الناس ، ويظنون أن هؤلاء صالحون قد طاروا في الهواء ولا يعرف أن الجن طارت بهم ، وهذه الاحوال الشيطانية تبطل أو تضعف إذا ذكر الله وتوحيده ، وقرئت قوارع القرآن لا سيما آية الكرسي ، فإنها تبطل عامة هذه الخوارق الشيطانية ، وأما آيات الانبياء والأولياء فتقوى بذكر

الله وتوحيده ، والجن المؤمنون قد يعينون المؤمنين بشيء من الخوارق، كما يعين الإنس المؤمنون للمؤمنين بما يمكنهم من الإعانة ، وما لا يكون إلا مع الإقرار بنبوة الانبياء ، فهو من آياتهم، فوجوده يؤيد آياتهم لا يناقضها مع أن آيات الانبياء التي يدعون أعلى من هذا ، وأعلى من كرامات الاولياء ، فإن تلك هي الآيات الكبرى .

والذين ذكر عنهم إنكار كرامات الأولياء من المعتزلة وغيرهم كأبي إسحق الاسفرايني ، وأبي محمد بن أبي زيد ، وكما ذكر ذلك أبو محمد ابن حزم لا ينكرون الدعوات المجابة ولا ينكرون الرؤيا الصادقة ، فإن هذا متفق عليه بين المسلمين ، وهو أن الله تعالى قد يخص بعض عباده بإجابة دعائه أكثر من بعض ، ويخص بعضهم بما يريه من المبشرات ، وقد كان سعد بن أبي وقاص معروفاً بإجابة الدعاء فإن النبي ﷺ قال : « اللَّهُمَّ سَدِّدْ رَمْيَتَهُ وَأَجِبْ دَعْوَتَهُ ». وحكاياته في ذلك مشهورة. وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : « لَمْ يَبْقَ بَعْدِي مِنَ النُّبُوةِ إلاَّ الرُّؤيا الصَّالِحَةَ يَرَاهَا الرَّجُلُ الصَّالِحُ أوْ ترى له » .

وثبت عنه في الصحيح أنه قال : « إنَّ مِنْ عِبَادِ اللهِ مَنْ لَوْ أقْسَمَ عَلَى اللهِ لأبَرَّهُ ». ذكر ذلك لما أقسم أنس بن النضر أنه لا تكسر ثنية الربيع ، فاستجاب الله ذلك ، وأيضاً فإن منهم البراء بن مالك أخو أنس بن مالك ، وكانوا إذا اشتد الحرب يقولون يا براء أقسم على ربك فيقسم على ربه فينصرون .

والقَسَمُ قيل : هو من جنس الدعاء ، لكن هو طلب مؤكد بالقسم. فالسائل يخضع ويقول أعطني ، والمقسم يقول : عليك لتعطيني وهو خاضع سائل ، لكن من الناس من يدعى له من الكرامات ما لا يجوز أن يكون للأنبياء ، كقول بعضهم إن لله عباداً لو شاءوا من الله أن لا يقيم القيامة لما أقامها .

وقول بعضهم أنه يعطي كن أي شيء أراده قال له: كن. فيكون. وقول بعضهم لا يعزب عن قدرته ممكن ، كما لا يعزب عن قدرة ربه محال ، فإنه لما كثر في الغلاة من يقول بالحلول والإتحاد وإلهية بعض البشر ، كما قاله النصارى في المسيح ، صاروا يجعلون ما هو من خصائص الربوبية لبعض البشر ، وهذا كفر. وأيضاً فإن كثيراً من الناس لا يكون من أهل الصلاح ، وتكون له خوارق شيطانية ، كما لعباد المشركين وأهل الكتاب فتتجلى لهم على أنها كرامات ، فمن الناس من يكذب بها ، ومنهم من يجعل أهلها من أولياء الله ، وذلك لأن الطائفتين ظنت أن مثل هذه الخوارق لا يكون إلا لأولياء الله ، ولم يميزوا بين الخوارق الشيطانية التي هي جنس ما للسحرة والكهان ولعباد المشركين ، وأهل الكتاب ، وللمتنبئين الكذابين ، وبين الكرامات الرحمانية التي يكرم الله بها عباده الصالحين .

فلما لم يميزوا بين هذا ، وهذا وكان كثير من الكفار والفجار وأهل الضلال والبدع لهم خوارق شيطانية ، صار هؤلاء منهم حزبين حزباً قد شاهدوا ذلك وأخبرهم به من يعرفون صدقه فقالوا : هؤلاء أولياء الله ، وحزباً رأوا أن أولئك خارجون عن الشريعة وعن طاعة الله ورسوله ، فقالوا : ليس هؤلاء من الأولياء الذين لهم كرامات ، فكذبوا بوجود ما رآه اولئك ، وأولئك قد عاينوا ذلك أو تواتر عندهم ، فصار تكذيب هؤلاء مثل تكذيب من ينكر السحر والكهانة ، والجن ، وصرعهم للإنس ، إذا كذب ذلك عند من رأى ذلك ، أو ثبت عنده ، ومن كذب بما تيقن غيره وجوده نقصت حرمته عند هذا المتيقن ، وكان عنده إما جاهلاً وإما معانداً ، فربما رد عليه كثيراً من الحق بسبب ذلك ، ولهذا صار كثير من المنتسبين إلى زهد أو فقر أو تصوف أو وله أو غير ذلك لا يقبلون قولهم ولا يعبأون بخلافهم ، لأنهم كذبوا بحق قد تيقنه هؤلاء ، وأنكروا

وجوده ، وكذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ، وقد يدخلون إنكار ذلك في الشرع كما أدخلت المعتزلة ونحوهم إنكار كرامات الاولياء .

وإنكار السحر والكهانة في الشرع بناء على أن ذلك يقدح في آيات الانبياء، فجمعوا بين التكذيب بهذه الأمور الموجودة، وبين عدم العلم بآيات الانبياء ، والفرق بينها وبين غيرها حيث ظنوا أن هذه الخوارق الشيطانية من جنس آيات الانبياء، وأنها نظير لها، فلو وقعت لم يكن للأنبياء ما يتميزون به ، والذين ردوا على هؤلاء من الأشعرية ونحوهم يشاركونهم في هذا في التسوية بين الجنسين ، وأنه لا فرق ، لكن هؤلاء لما تيقنوا وجودها جعلوا الفرق ما ليس بفرق وهو اقترانها بالدعوى والتحدي بمثلها وعدم المعارضة ، وهم يقولون أنا نعلم بالضرورة أن الرب إنما خلقها لتصديق النبي ، وهذا كلام صحيح لكنه يستلزم بطلان ما أصلوه من أنه لا يخلق شيئاً لشيء ، وأيضاً فاختصاصها بوجود العلم الضروري عندها دون غيرها لا بد أن يكون لأمر أوجب التخصيص وهم يقولون : بل قد تستوي الأمور ، ويوجد العلم الضروري ببعضها دون بعض، كما قالوا مثل ذلك في العادات أنه يجوز انخراقها كلها بلا سبب على أعظم الوجوه ، كجعل الجبال يواقيت ، لكن يعلم بالضرورة أن هذا لا يقع ، فكذلك قالوا في المعجزات يجوز أن يخلقها على يـــد كاذب [1] إنما خلقها على يد الصادق بما ادعى من العلم الضروري صحيح. وأما قولهم أن المعلوم به يماثل غيره ، فغلط عظيم ، بل هم لم يعرفوا الفرق بمنزلةالعامي الذي أوردت عليه شبهات السوفسطائية ، فهو يعلم بالضرورة أنها باطلة ، ولكن لا يعرف الفرق بينها وبين الحق ، ولكن العامي يقول فيها فساد لا أعرفه لا يقول دلائل الحق كدلائل الباطل ، وهؤلاء ادعوا الاستواء في نفس الأمر فغلطوا غلطاً عظيماً ، ولو قالوا

---

١ ــ بياض في الاصل مقدار نصف سطر

بينهما فرق لكنه لم يتلخص لنا، لكان قولهم حقاً ، وكانوا قد ذكروا عدم العلم لا العلم بالعدم ، كما يقول ذلك كثير من الناس يقول : ما أعرف الفرق بينهما ، وذلك أن العلم الضروري يحصل ببعض الأخبار دون بعض ، وقد قيل : إنا نعلم أنه متواتر بحصول علمنا الضروري به ، والتحقيق أنه إذا حصل له علم ضروري كان قد حصل الخبر الذي يوجبه لهم ، وقد لا يحصل لغيرهم .

والعلم يحصل بعدد المخبرين وبصفاتهم وبأمور أخرى تنضم إلى الخبر ، ومن جعل الإعتبار بمجرد العدد فقد غلط ،والأكثرون يقولون : العلم الحاصل به ضروري ، وقيل : إنه نظري وهو اختيار الكعبي وأبي الحسين وأبي الخطاب .

والتحقيق أنه قد يكون ضرورياً ، وقد يكون نظرياً ، وقد يجتمع فيه الأمران ، يكون ضرورياً ، ثم إذا نظر فيه وجد أنه يوجب العلم ، وكذلك العلم الحاصل عقب الآيات قد يكون ضرورياً ، وقد يكون نظرياً ، وكل نظري فإن منتهاه أنه ضروري ، ولهذا قال أبو المعالي المرتضى : عندنا أن جميع العلوم ضرورية أي بعد حصول أسبابها ، ولا بد من فرق في نفس الأمر بين ما يوجب العلم ، وما لا يوجبه ، وأصل خطأ الطائفتين أنهم لم يعرفوا آيات الانبياء ، وما خصهم الله به ، ولم يقدروا قدر النبوة ولم يقدروا آيات الانبياء قدرها ، بل جعلوا هذه الخوارق الشيطانية من جنسها ، فإما أن يكذبوا بوجودها وإما أن يسووا بينهما ويدعوا فرقاً لا حقيقة له ، ولهذا يوجد كثير ممن يكذب بهذه الخوارق الشيطانية أن تكون لبعض الأشخاص لما يراه من نقص دينه وعلمه ، فإذا عاينها بعد ذلك أو ثبت عنده خضع لذلك الشخص الذي كان عنده ، إما كافراً وإما ضالاً ، وإما مبتدعاً جاهلاً ، وذلك لأنه أنكر وجودها معتقداً أنها لا توجد إلا للصالحين ، فلما تيقن وجودها جعلها دليلاً على الصلاح

وهو غالط في الأصل ، بل هذه من الشياطين من جنس ما للسحرة والكهان ومن جنس ما للكفار من المشركين وأهل الكتاب ، فإن لمشركي الهند والترك وغيرهم ، ولعباد النصارى من هذه الخوارق الشيطانية أموراً كثيرة يطول وصفها أكثر وأعظم مما يوجد منها لأهل الضلال والبدع من المسلمين ، وما يوجد منها للمنافقين فإن الشياطين لا تتمكن من إغواء المسلمين ، وإن كان فيهم جهل وظلم ، كما تتمكن من اغواء المشركين وأهل الكتاب .

ولهذا ثنى في القرآن قصة موسى مع السحرة وذكر ما يقوله الكفار لأنبيائهم : فإنه ما جاء نبي صادق قط إلا قيل فيه إنه ساحر أو مجنون كما قال تعالى : (كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ)[1] . وذلك أن الرسول يأتي بما يخالف عاداتهم ، ويفعل ما يرونه غير نافع ويترك ما يرونه نافعاً ، وهذا فعل المجنون ، فإن المجنون فاسد العلم ، والقصد ، ومن كان مبلغه من العلم إرادة الحياة الدنيا كان عنده من ترك ذلك ، وطلب ما لا يعلمه مجنوناً ثم النبي مع هذا يأتي بأمور خارجة عن قدرة الناس من إعلام بالغيوب ، وأمور خارقة لعاداتهم ، فيقولون هو ساحر ، وهذا موجود في المنافقين الملحدين المتظاهرين بالإسلام من الفلاسفة ونحوهم يقولون أن ما أخبرت به الأنبياء من الغيوب ، والجنة والنار هو من جنس قول المجانين ، وعندهم خوارقهم من جنس خوارق السحرة ، والممرورين المجانين كما ذكر إبن سينا وغيره ، لكن الفرق بينهما أن النبي حسن القصد ، بخلاف الساحر ، وأنه يعلم ما يقول بخلاف المجنون ، لكن معجزات الانبياء عندهم قوى نفسانية ، ليس مع هذا ولا هذا شيء خارج عن قوة النفس ، والقاضيان أبو بكر وأبو يعلى ومن

---

١ ــ سورة الذاريات آية ٥٢ .

وافقهما متوقفون في وجود المخدوم الذي تخدمه الجن ، قالوا : لا يقطع بوجوده .

وكذلك الكاهن ذكروا فيه القولين :قول من يقول : أنه المتخرص ، وقول من يقول إنه مخدوم ، وهم متوقفون فيه لا يقطعون وجود مخدوم كاهن ، كما يقطعون وجود الساحر ، لأنه في زمانهم وجد الساحر ، والقرآن أخبرنا بالسحر في سورة البقرة بخلاف الكاهن ، فإن القرآن ذكر إسمه، ولو تدبروا لعلموا أن الكاهن هو المذكور في قوله :(هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ)[1] . وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قيل له : « إنَّ مِنَّا قَوماً يَأتُونَ الكُهَّانَ قَالَ فَلا يَأتُوهُمْ ». وسئل عن الكهان وما يخبرون به فأخبر أنَّ الجن تسترق السمع ، وتخبرهم به ، فالكتاب والسنة أثبتا وجود الكاهن ، وأحمد قد نص على أنه يقتل كالساحر ، لكن الكاهن إنما عنده أخبار ، والساحر عنده تصرف بقتل وامراض وغير ذلك ، وهذا تطلبه النفوس أكثر ، وابن صياد كان كاهناً ، ولهذا قال له النبي ﷺ: « قَدْ خَبَأْتُ لَكَ خَبِيأً فَقَالَ الدُّخُ فقال: إخْسَأْ فَلَنْ تَعْدُو قَدْرَكَ إنَّمَا أنْتَ مِنْ إخْوَانِ الكُهَّانِ » .

ولما قضى في الجنين بغرة قال : حمل بن مالك أيودي من لا شرب ولا أكل ولا نطق ، ولا استهل فتل ذلك يطل فقال : إنما أنت من أخوان الكهان »، من أجل سجعه الذي سجع فكانوا يسجعون أساجيع وقد رأيت من هؤلاء شيوخاً يسجعون أساجيع كأساجيع الكهان ، ويكون كثير منها صدقاً ، ولهذا جمع الله بين الكاهن والشاعر في قوله : (وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُونَ وَلاَ بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً ما

١ ـ سورة الشعراء آية ٢٢١ ـ ٢٢٣ .

تَذَكَّرُونَ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ العَالَمِينَ)[1] . وكذلك في الشعراء ذكر الكاهن والشاعر بعد قوله : (وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ العَالَمِين نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ المُنْذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مبين)[2] . إلى قوله : (هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُون) .

والرسول في آية الحاقة محمد، وقال أيضاً: (إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ذِي قوة عِنْدَ ذِي العَرْشِ مَكِينٍ مُطَاعٍ ثَمَّ أمين ، وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُون ، وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ المُبِينِ وَمَا هُوَ عَلَى الغَيْبِ بظنين وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلعَالَمِينَ)[3] . فلما أخبر به أنه قول رسول ، هو ملك من الملائكة نفى أن يكون قول شيطان ، ولما أخبر هناك أنه قول رسول من البشر ، نفى أن يكون قول شاعر ، أو كاهن ، فهذا تنزيه للقرآن نفسه ونزه الرسول أن يكون على الغيب بظنين أي متهم ، وأن يكون بمجنون ، فالجنون فساد في العلم ، والتهمة فساد في القصد ، كما قالوا ساحر أو مجنون وقال في الطور : (فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلاَ مَجْنُون أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ المَنُونِ قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ المُتَرَبِّصِينَ)[4] .

وقد أخبر عن الانبياء قبله أنه ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون ، ولم يقولوا كاهن لأن الكاهن عند العرب هو الذي يتكلم بكلام مسجوع ، وله قرين من الجن ، وهذا الإسم ليس بذم عند أهل الكتاب ، بل يسمون أكثر العلماء بهذا الإسم ، ويسمون هرون عليه السلام وأولاده الذين عندهم التوراة بهذا الإسم ، والقدر

---

١ ــ سورة الحاقة آية ٤١ .
٢ ــ سورة الشعراء آية ١٩٣ .
٣ ــ سورة التكوير آية ٢٠ .
٤ ــ سورة الطور آية ٣١ .

المشترك العلم بالأمور الغائبة والحكم بها ، فعلماء أهل الكتاب يخبرون بالغيب ويحكمون به عن الوحي الذي أوحاه الله ، وكهان العرب كانت تفعل ذلك عن وحي الشياطين ، وتمتاز بأنها تسجع الكلام بخلاف إسم الساحر ، فإنه إسم معروف في جميع الأمم .

وقد يدخل في ذلك عندهم المخدوم الذي تخبره الشياطين ببعض الأمور الغائبة ، ولكون الساحر يأتي بالخوارق شبهوا النبي وقالوا : ساحر ، فدل ذلك على قدر مشترك ، لكن الفرقان بينهما أعظم كالفرق بين الملائكة والشياطين ، وأهل الجنة وأهل النار ، وخيار الناس وشرارهم ، وهذا أعظم الفروق بين الحق والباطل . والكفار قالوا عن الانبياء أنهم مجانين وسحرة ، فكما يعلم بضرورة العقل من وجود أعظم الفرق بينهم وبين المجانين ، وأنهم أعقل الناس وأبعدهم عن الجنون ، فكذلك يعلم بضرورة العقل أعظم الفرق بينهم وبين السحرة ، وأنهم أفضل الناس وأبعدهم عن السحر ، فالساحر يفسد الإدراك حتى يُسمع الإنسان الشيء ويراه ويتصور خلاف ما هو عليه ، والانبياء يصححون سمع الإنسان وبصره وعقله والذين خالفوهم صم بكم عمي فهم لا يعقلون ، فالسحرة يزيدون الناس عمى وصمماً وبكماً ، والأنبياء يرفعون عماهم وصممهم وبكمهم كما في الصحيح عن عطاء بن يسار أنه سأل عبدالله بن عمر ، وروى عبدالله بن سلام أنه قيل له أخبرنا ببعض صفة رسول الله ﷺ في التوراة فقال : إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن : (يا أيُّها النبيُّ إنَّا أرسَلْناكَ شاهِداً ومُبَشِّراً ونَذيراً)[1] وحرزاً للأميين أنت عبدي سميتك المتوكل ، لست بفظ ولا غليظ ولا سخاب بالأسواق ولا تجزى بالسيئة السيئة ، ولكن تجزى بالسيئة الحسنة ، وتعفو وتغفر ولن

---

١ ـ سورة المؤمنون آية ٤٥ .

٢ ـ سورة الفتح آية ٨ .

أقبضه حتى أقيم به الملة العوجاء فافتح به أعيناً عمياً وآذاناً صماً وقلوباً غلفاً ، بأن يقولوا لا إله إلا الله ، وهذا مذكور عند أهل الكتاب في نبوة أشعيا ، ولفظ التوراة : قد يراد به جميع الكتب التي نزلت قبل الإنجيل فيقال : التوراة ، والإنجيل ، ويراد بالتوراة الكتاب الذي جاء به موسى وما بعده من نبوة الانبياء المتبعين لكتاب موسى ، قد يسمى هذ كله توراة ، فإن التوراة تفسر الشريعة ، فكل من دان بشريعة التوراة قيل انبوته إنها من التوراة، وكثير مما يعزوه كعب الاحبار ونحوه إلى التوراة هو من هذا الباب لا يختص ذلك بالكتاب المنزل على موسى ، كلفظ الشريعة عند المسلمين يتناول القرآن والأحاديث النبوية ، وما استخرج من ذلك كما قد بسط هذا في موضع آخر .

والمقصود هنا : أن الانبياء يفتحون الأعين العمى والآذان الصم ، والقلوب الغلف ، والسحرة يفسدون السمع والبصر والعقل حتى يخيل للإنسان الاشياء بخلاف ما هي عليه ، فيتغير حسه وعقله قال في قصة موسى : ﴿ سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴾(1) . وهذا يقتضي أن أعين الناس قد حصل فيها تغير ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَاباً مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فيهِ يَعْرُجُونَ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مسحورون ﴾(2) فقد علموا أن السحر يغير الإحساس ، كما يوجب المرض والقتل ، وهذا كله من جنس مقدور الإنس ، فإن الإنسان يقدر أن يفعل في غيره ما يفسد إدراكه ، وما يمرضه ويقتله ؛ فهذا مع كونه ظلماً وشراً هو من من جنس مقدور البشر ، والجني إذا أراد أن يري قرينه أموراً غائبة سئل عنها مثلها له ، فإذا سئل عن المسروق أراه شكل ذلك المال ، وإذا سئل عن شخص أراه صورته ، ونحو ذلك .

---

١ ــ سورة الاعراف آية ١١٥ .

٢ ــ سورة الحجر آية ١٥ .

وقد يظن الرائي أنه رأى عينه ، وإنما رأى نظيره ، وقد يتمثل الجني في صورة الإنسي حتى يظن الظان أنه الأنسي ، وهذا كثير كما تصور لقريش في صورة سراقة بن مالك بن جعشم ، وكان من أشراف بني كنانة قال تعالى : (وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ)[1] . الآية ، فلما عاين الملائكة ولى هارباً ، ولما رجعوا ذكروا ذلك لسراقة فقال : والله ما علمت بخربكم حتى بلغتني هزيمتكم ، وهذا واقع كثيراً حتى أنه يتصور لمن يعظم شخصاً في صورته فإذا استغاث به أتاه فيظن ذلك الشخص أنه شيخه الميت ، وقد يقول له أنه بعض الانبياء ، أو بعض الصحابة الأموات ويكون هو الشيطان .

وكثيراً من الناس أهل العبادة والزهد من يأتيه في اليقظة من يقول : انه رسول الله ، ويظن ذلك حقاً ، ومن يرى إذا زار بعض قبور الانبياء أو الصالحين أن صاحب القبر قد خرج إليه فيظن أنه صاحب القبر ذلك النبي أو الرجل الصالح ، وانما هو شيطان أتى في صورته ان كان يعرفها وإلا أتى في صورة إنسان وقال : إنه ذلك الميت ، وكذلك يأتي كثيراً من الناس في مواضع ويقول إنه الخضر فاعتقد أنه الخضر ، وإنما كان جنياً من الجن ، ولهذا لم يجترىء الشيطان على أن يقول لأحد من الصحابة أنه الخضر ، ولا قال أحد من الصحابة إني رأيت الخضر ، وإنما وقع هذا بعد الصحابة ، وكلما تأخر الأمر كثر حتى أنه يأتي اليهود والنصارى ويقول : إنه الخضر ، ولليهود كنيسة معروفة بكنيسة الخضر ، وكثير من كنائس النصارى يقصدها هذا الخضر ، والخضر الذي يأتي هذا الشخص غير الخضر الذي يأتي هذا .

---

١ ـ سورة الانفال آية ٤٩ .

ولهذا يقول من يقول منهم لكل ولي خضر ، وإنما هو جني معه ، والذين يدعون الكواكب تتنزل عليهم أشخاص يسمونها روحانية الكواكب وهو شيطان نزل عليه لما أشرك ليغويه ، كما تدخل الشياطين في الأصنام ، وتكلم أحياناً لبعض الناس وتتراءى للسدنة أحياناً ، ولغيرهم أيضاً ، وقد يستغيث المشرك لشيخ له غائب ، فيحكي الجني صوته لذلك الشيخ ، حتى يظن أنه سمع صوت ذلك المريد مع بعد المسافة بينهما ، ثم أن الشيخ يجيبه فيحكي الجني صوت الشيخ للمريد ، حتى يظن أن شيخه سمع صوته وأجابه ، وإلا فصوت الإنسان يمتنع أن يبلغ مسيرة يوم ويومين وأكثر ، وقد يحصل للمريد من يؤذيه فيدفعه الجني ويخيل للمريد أن الشيخ هو دفعه ، وقد يضرب الرجل بحجر فيدفعه عنه الجني ، ثم يصيب الشيخ بمثل ذلك ، حتى يقول إني أتقيت عنك الضرب ، وهذا أثره في ، وقد يكونون يأكلون طعاماً ، فيصور نظيره للشيخ ، ويجعل يده فيه ويجعل الشيطان يده في طعام أولئك حتى يتوهم الشيخ وهم أن يد الشيخ امتدت من الشام إلى مصر ، وصارت في ذلك الإناء .

وعمر بن الخطاب لما نادى : يا سارية الجبل ، قال : إن لله جنداً يبلغونهم صوتي ، فعلم أن صوته إنما يبلغ بما ييسره الله من تبليغ بعض الملائكة ، أو صالحي الجن ، فيهتفون بمثل صوته ، كالذي ينادي إبنه ، أو غير إبنه ، وهو بعيد لا يسمع يا فلان ، فيسمعه من يريد إبلاغه فينادي يا فلان ، فيسمع ذلك الصوت ، وهو المقصود بصوت أبيه . وإلا فصوت البشر ليس في قوته أن يبلغ مسافة أيام ، وقد قلنا أن آيات الانبياء التي اختصوا بها خارجة عن قدرة الجن والإنس قال تعالى : (قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هذا القرآن لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً)[1] . وأما إذا

١ ـ سورة الاسراء آية ٨٨ .

كانت مما تقدر عليه الملائكة، فهذا مما يؤيدها ،فإن الملائكة لا يطيعون من يكذب على الله ولا يؤيدونه بالخوارق ، فإذا أيد به ، كما أيد الله به نبيه والمؤمنين يوم بدر ، ويوم حنين كان هذا من اعلام صدقه ، وأنه صادق على الله في دعوى النبوة فإنها لا تؤيد الكذب ، لكن الشياطين تؤيد الكذاب ، والملائكة تؤيد الصدق والتأييد بحسب الإيمان ، فمن كان إيمانه أقوى من غيره ، كان جنده من الملائكة أقوى ، وإن كان إيمانه ضعيفاً كانت ملائكته بحسب ذلك كملك الإنسان وشيطانه ، فإنه قد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : « مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إلاَّ وُكِّلَ بِهِ قَرِينُهُ مِنَ المَلائِكَةِ وَقَرِينُهُ مِنَ الجِنِّ قَالُوا وَبِكَ يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ : وَبِي لكِنَّ اللهَ أَعَانَنِي عَلَيْهِ فَأَسْلَمَ ». وفي حديث آخر « فَلا يَأْمُرُني إلاَّ بِخَيْرٍ » .

وهو في صحيح مسلم من وجهين : من حديث إبن مسعود . ومن حديث عائشة ، وقال ابن مسعود : « إن للقلب لمة من الملك ، ولمة من الشيطان ، فلمة الملك إيعاد بالخير ، وتصديق بالحق ، ولمة الشيطان إيعاد بالشر ، وتكذيب بالحق ، فإذا كانت حسنات الإنسان أقوى أيّدَ بالملائكةِ تأييداً يقهر به الشيطان ، وإن كانت سيئاته أقوى كان جند الشيطان معه أقوى ، وقد يلتقي الشيطان المؤمن بشيطان الكافر ، فشيطان المؤمن مهزول ضعيف ، وشيطان الكافر سمين قوي » .

فكما أن الإنسان بفجوره يؤيد شيطانه على ملكه وبصلاحه يؤيد ملكه على شيطانه ، فكذلك الشخصان يغلب أحدهما الآخر لأن الآخر لم يؤيد ملكه ، فلم يؤيده أو ضعف عنه لأنه ليس معه إيمان يعينه كالرجل الصالح إذا كان إبنه فاجراً لم يمكنه الدفع عنه لفجوره ، وبسط هذه الأمور له موضع آخر .

والمقصود هنا : الكلام على الفرق بين آيات الانبياء وغيرهم ،

وإن من قال : إن آيات الانبياء والسحر والكهانة والكرامات ، وغير ذلك من جنس واحد فقد غلط أيضاً ، والطائفتان لم يعرفوا قدر آيات الانبياء ، بل جعلوها من هذا الجنس فهؤلاء نفــوه ، وهؤلاء أثبتوه وذكروا فرقاً لا حقيقة له ، وإذا قال القائل : آيات الانبياء لا يقدر عليها إلا الله ، أو أن الله يخترعها ويبتدئها بقدرته ، أو أنها من فعل الفاعل المختار ونحو ذلك ، قيل له : هذا كلام مجمل فقد يقال عن كل مــا يكون آية لا يقدر عليه إلا الله أو أن الله يخترعها ويبتدئها بقدرته ، أو أنها من فعل الفاعل المختار ، ونحو ذلك، قيل له : هذا كلام مجمل فقد يقال عن كل ما يكون أنه لا يقدر عليه إلا الله ، فإن الله خالق كل شيء وغيره لا يستقل باحداث شيء ، وعلى هذا فلا فرق بين المعجزات وغيرها ، وقد يقال لا يقدر عليها إلا الله أي هي خارجة عن مقدورات العباد ، فإن مقدوراته على قسمين : منها ما يفعله بواسطة قدرة العبد كافعال العباد ، وما يصنعونه ، ومنها ما يفعله بدون ذلك ، كإنزال المطر ،فإن أراد هذا القائل أنها خارجة عن مقدور الانس بمعنى أنه لا يقع منهم لا بإعانة الجن ولا بغير ذلك ، فهذا كلام صحيح ، وأن إرادته خارج عن مقدورهم فقط وإن كان مقدوراً للجن فهذا ليس بصحيح ، فإن الرسل أرسلوا إلى الأنس والجن ، والسحر والكهانة وغير ذلك تقدر الجن على إيصالها إلى الأنس وهي مناقضة لآيات الانبياء كما قال تعالى : (هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ) . وإن أراد أنها خارجة عن مقدور الملائكة والإنس والجن أو أنّ الله يفعلها بلا سبب فهذا أيضاً باطل ، فمن أين له أن الله يخلقها بلا سبب ، ومن أين له أنه لا يخلقها بواسطة الملائكة الذين هم رسله في عامة ما يخلقه ، فمن أين له أن جبريل لم ينفخ في مريم حتى حملت بالمسيح ، وقد أخبر الله بذلك وهو وأمه مما جعلهما آية للعالمين قال تعالى :

(وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ)[1] .

وخلق المسيح بلا أب من أعظم الآيات وكان بواسطة نفخ جبريل قال تعالى : (فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِيَهَبَ[2] لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا)[3] .

وقال تعالى : (وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا)[4] . وكذلك طمس أبصار قوم لوط كان بواسطة الملائكة ، والذي عنده علم من الكتاب لما قال عفريت من الجن لسليمان : (أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ)[5] . أتته به الملائكة كذلك ذكره المفسرون عن ابن عباس وغيره أن الملائكة أتته به أسرع مما كان يأتي به العفريت . وقد أخبر الله تعالى أنه أيد محمداً ﷺ بالملائكة وبالريح وقال تعالى : (فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا)[6] . وقال تعالى يوم حنين : (فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا).[7]

وقال تعالى يوم الغار : (فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ

---

١ ـ سورة المؤمنون آية ٥١ .

٢ ـ قوله ليهب بالياء وهي قراءة أبي عمرو وورش وقالون والباقون يقرؤونها لأهب بالهمزة بدل الياء .

٣ ـ سورة مريم آية ١٧ ـ ٢٠ .

٤ ـ سورة التحريم آية ١٢ .

٥ ـ سورة النمل آية ٣٩ ـ ٤٠ .

٦ ـ سورة الأحزاب آية ٩ .

٧ ـ سورة الفتح آية ٢٦ .

بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا)[1] . وقال تعالى : (إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الملائكة أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ)[2] . وقد ثبت في الصحيح « أن الإنسان يصوره ملك في الرحم بإذن الله ويقول الملك : أي رب نطفة أي رب علقة أي رب مضغة » فإذا كان الخلق المعتاد يكون بتوسط الملائكة ، وقال يقرر التوحيد بقوله تعالى : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ)[3] . الآيات ، ثم النبوة بقوله :(وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ)[4] .

وكذلك الانعام يقرر التوحيد ، ثم النبوة في وسطها ثم يختمها بأصول الشرائع والتوحيد أيضاً ، وهو ملة إبراهيم ، وهذا مبسوط في غير هذا الموضع .

والمقصود : أنه قد بين انفراده بالخلق والنفع والضر والإتيان بالآيات وغير ذلك ، وإن ذلك لا يقدر عليه غيره قال تعالى : (أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ)[5] . وقال تعالى : (وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ، وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ

---

١ ــ سورة التوبة آية ٤١ .
٢ ــ سورة الانفال آية ١٢ .
٣ ــ سورة البقرة آية ٢١ .
٤ ــ سورة البقرة آية ٢٣ .
٥ ــ سورة النحل آية ١٧ .

يَعلمُونَ اتّبِعْ مَا أوحِيَ إليكَ مِنْ رَبِّكَ لاَ إلَهَ إلاَّ هُوَ وَاعْرِضْ عَنِ المُشْرِكِينَ وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا أشركُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِم حَفِيظاً وَمَا أنْتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ . وَلاَ تَسُبُّوا الّذِينَ يَدعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ فَيَسُبُّوا اللهَ عَدواً بِغيرِ عِلمٍ كَذَلِكَ زَيّنّا لِكُلِّ أمّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمّ إلى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُم فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ وَأقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أيمَانِهِم لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيؤمِنن بِهَا قُلْ إنّمَا الآيَاتُ عِنْدَ اللهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أنّهَــا إذا جَاءت لاَ يُؤْمِنُونَ وَنُقَلِّبُ أفئِدَتَهُمْ وَأبصارَهُمْ كما لم يؤمِنُوا بِهِ أولَ مَرّةٍ وَنَذَرهُمْ في طُغْيَانِهِم يَعْمَهُونَ)[1] .

ففي هذه الآيات تقرير التوحيد حتى في إنزال الآيات قال : (إنما الآيَاتُ عِنْدَ اللهِ) . وكذلك قوله في العنكبوت : (وَقَالُوا لَوْلاَ أنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إنّمَا الآيَاتُ عِنْدَ اللهِ وَإنّمَا أنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ أوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أنا أنزلنا عَلَيْكَ الكِتَابَ يُتْلَى عَلَيهم إنّ في ذَلِكَ لَرَحمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ قُلْ كَفَى بالله بيني وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً يَعْلَمُ مَا في السّمَوَاتِ وَالأرْضِ ، والّذِينَ آمَنُوا بِالبَاطِلِ وَكَفَرُوا باللهِ أولَئِكَ هُمُ الخَاسِرونَ)[2] .

وقال أيضاً : (وَقَالُوا لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آية من رَبِهِ قُلْ إنّ اللهَ قَادِرٌ عَلَى أن يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِن أكثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ)[3] هذا بعد قوله : (فَإنْ اسْتَطَعْتَ أنْ تَبْتَغِي نَفَقاً في الأرْضِ أوْ سُلّماً في السّمَاء فَتَأْتِيهِم بآية وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الهُدَى فَلاَ تَكُونَنّ مِنَ الجَاهِلِين)[4] . وهو أرسله بآيات بان

١ ـ سورة الانعام آية ١٠٠ ـ ١١٠ .
٢ ـ سورة العنكبوت آية ٥١ ـ ٥٢ .
٣ ـ سورة الانعام آية ٣٧ .
٤ ـ سورة الانعام آية ٣٥ .

بها الحق ، وقامت بها الحجة ، وكانوا يطلبون آيات تعنتاً فيظن من يظن أنهم يهتدون بها ، لكن لا يحصل بها المقصود ، وقد تكون موجبة لعذاب الاستئصال فتكون ضرراً بلا نفع ، وبين سبحانه أنه قادر على إنزال الآيات ، وأنها ليست إلا عنده ، وغير أفعال العباد قد اتفق الناس على أنه لا يخلقه إلا الله ، وإنما تنازعوا في أفعال العباد .

والصواب أنها أفعال لهم ، وهي مخلوقة لله ، لكن آيات الانبياء لا تكون مما يقدر عليه العبد كما قال : (قُلْ إنَّمَا الآيَاتُ عِنْدَ اللهِ)[1] والملائكة إنما هي سبب من الاسباب كما في خلق المسيح من غير أب ، فجبريل إنما كان مقدوره النفخ فيها ، وهذا لا يوجب الخلق بل هو بمنزلة الإنزال في حق غير المسيح ، وكذلك المسيح لما خلق من الطين كهيئة الطير إنما مقدوره تصوير الطين ، وإنما حصول الحياة فيه فبإذن الله ، فإن الله يحيي ويميت ، وهذا من خصائصه ولهذا قال الخليل : ربي الذي يحيي ويميت ، وفي القرآن في غير مواضع : (يُخْرِجُ الحَيَّ مِنَ المَيِّتِ وَيُخْرِجُ المَيْتَ مِنَ الحَيِ وَيُحيِي الأرْضَ بَعْدَ موتِهَا وكذلك تُخْرَجُون)[2] .

وما يتولد عن أفعال الملائكة وغيرهم ليسوا مستقلين به ، بل لهم فيه شركة كطمس أبصار اللوطية ، وقلب مدينتهم ، وكذلك النصر إنما يقدرون على القتال كالإنس والنصر هو من عند الله كما قال تعالى : (ومَا جَعَلَهُ اللهُ إلا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إلاَّ مِنْ عِنْدِ اللهِ)[3] . والقرآن إنما يقدرون على النزول به لا على احداثه ابتداء فهم يقدرون على الإتيان بمثله من عند الله ، وأما الجن والأنس فلا يقدرون على الإتيان بمثله لأن الله لا يكلم بمثله الجن والإنس ابتداء

---

١ ـ سورة الانعام آية ١٠٩ .

٢ ـ سورة الروم آية ١٩ .

٣ ـ سورة الانفال آية ١٠ .

ولهذا قال : (لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ) . وقال تعالى : (فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ) . وقال (فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ) . وقال : (فليأْتوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إنْ كَانُوا صَادِقِينَ) . لَمْ يكلفهم نفس الاحداث بل طالبهم بالإتيان بمثله إما إحداثاً ، وإما تبليغاً عن الله ، أو عن مخلوق ليظهر عجزهم عن جميع الجهات ، فقد يقال فنفس أفعال العباد ليست من الآيات إذ كانت مقدورة ومفعولة للعباد . وإن كان ذلك باقدار الله تعالى ولا نفس القدرة على ذلك الفعل ، فإن المقصود من القدرة هو الفعل بل الآيات خارجة عن مقدور جميع العباد الملائكة والجن والأنس . وهي أيضاً لا تنال بالإكتساب فإن الأنس والجن قد يقدرون بأسباب مباينة لهم على أمور كما يقدرون على قتل من يقتلونه وامراضه ونحو ذلك ، وآيات الانبياء لا يقدر أحد أن يتوصل إليها بسبب والسحر والكهانة مما يمكن التوصل إليه بسبب كالذي يأتي بأقوال وأفعال تحدثه بها الجن .

فالنبوة لا تنال بكسب العبيد ولا آياتها تحصل بكسب العباد ، وهذا من الفروق بين آيات الانبياء وبين السحر والكهانة . وبينهما فروق كثيرة أكثر من عشرة .

أحدها : أن ما تخبر به الانبياء لا يكون إلا صدقاً وأما ما يخبر به من خالفهم من السحرة والكهان وعباد المشركين وأهل الكتاب وأهل البدع والفجور من المسلمين فإنه لا بد فيه من الكذب .

الثاني : أن الأنبياء لا تأمر إلا بالعدل ولا تفعل إلا العدل وهؤلاء المخالفون لهم لا بد لهم من الظلم فإن ما خالف العدل لا يكون إلا ظلماً فيدخلون في العدوان على الخلق وفعل الفواحش والشرك والقول على الله بلا علم وهي المحرمات التي حرمها الله مطلقاً كما قال تعالى : (قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ والبغي

بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون)[1] .

الثالث : أن ما يأتي به من يخالفهم معتاد لغير الأنبياء ، كما هو معتاد للسحرة ، والكهان وعباد المشركين ، وأهل الكتاب ، وأهل البدع والفجور وآيات الانبياء هي معتادة إنها تدل على خبر الله وأمره على علمه وحكمه فتدل على أنهم أنبياء ، وعلى صدق من أخبر بنبوتهم سواء كانوا هم المخبرين أو غيرهم وكرامات الاولياء هي من هذا ، فإنهم يخبرون بنبوة الانبياء ، وكذلك اشراط الساعة هي أيضاً تدل على صدق الأنبياء إذ كانوا قد أخبروا بها فالذي جعله أولئك من كرامات الاولياء وأشراط الساعة ناقضاً لآيات الانبياء إذ هو من جنسها ،ولا يدل عليها، فأولئك كذبوا بالموجود ، وهؤلاء سووا بين الآيات وغيرها ، فلم تكن في الحقيقة عندهم آية وكانت الآيات عند أولئك منتقضة ، وأولئك نصروا جهلهم بالتكذيب بالحق ، وهؤلاء نصروا جهلهم أيضاً بقول الباطل فقالوا : إن الآية هي المقرونة بالدعوى التي لا تعارض ، وزعموا أنه لا يمكن معارضة السحر والكهانة إذا جعل آية ، وأنه إذا لم يعارض كان آية وهو تكذيب بالحق أيضاً ، فإنه قد ادعاه غير نبي ولم يعارض ، فالطائفتان أدخلت في الآيات ما ليس منها،وأخرجت منها ما هو منها ، فكرامات الأولياء وأشراط الساعة من آيات الأنبياء وأخرجوها ، والسحر والكهانة ليس من آياتهم وأدخلوها أو سووا بينها وبين الآيات بل ونوابها[2] .

الرابع : إن آيات الأنبياء والنبوة لو قدر أنها تنال بالاكتساب فهي إنما تنال بعبادة الله وطاعته فإنه لا يقول عاقل إن أحداً يصير نبياً بالكذب والظلم، بل بالصدق والعدل سواء قال: إن النبوة جزاء على العمل، أو

---

١ ـ سورة الاعراف آية ٣٣ .

٢ ـ هكذا الاصل ولعله بل قدموها .

قال إنه إذا زكى نفسه فاض عليه ما يفيض على الأنبياء . فعلى القولين هي مستلزمة لالتزام الصدق والعدل ، وحينئذ فيمتنع أن صاحبها يكذب على الله ، فإن ذلك يفسدها بخلاف من خالف الأنبياء من السحرة والكهان وعباد المشركين وأهل البدع والفجور من أهل الملل أهل الكتاب والمسلمين ، فإن هؤلاء تحصل لهم الخوارق مع الكذب والاثم ، بل خوارقهم مع ذلك أشد لأنهم يخالفون الأنبياء وما ناقض الصدق والعدل لم يكن إلا كذباً وظلماً .

فكل من خالف طريق الأنبياء لا بد له من الكذب والظلم إما عمداً وإما جهلاً وقوله تعالى : (تنزل على كل افاك اثيم) ليس من شرطه أن يتعمد الكذب بل من كان جاهلاً يتكلم بلا علم فيكذب فإن الشياطين تنزل عليه أيضاً إذ من أخبر عن الشيء بخلاف ما هو عليه من غير اجتهاد يعذر به فهو كذاب ، ولهذا يصف الله المشركين بالكذب وكثير منهم لا يتعمد ذلك وكذلك قال النبي ﷺ لما أفتى أبو السنابل « بأن المُتوفي عنها الحاميل لا تَحِلُّ بوَضْعِ الحَمْلِ بَلْ تَعْتَدّ أبعد الأجلَين » فقال كذب أبو السنابل أي في قوله بأن المتوفي عنها الحامل لا تحل بوضع الحمل ، بل تعتد أبعد الأجلين . وكذلك لما قال بعضهم : ابن الأكوع حبط عمله قال النبي ﷺ : كذب من قالها إنه لجاهد مجاهد . ونظائره كثيرة فالأنبياء لا يقع في أخبارهم عن الله كذب لا عمداً ولا خطأ ، وكل من خالفهم لا بد أن يقع في خبره عن الله كذب ضرورة ، فإن خبره إذا لم يكن مطابقاً لخبرهم كان مخالفاً له فيكون كذباً ، فالذي تنزل عليه الشياطين إذا ظن واعتقد أنهم جاؤوا من عند الله ، وأخبر بذلك كان كاذباً ، وكذلك إذا قال عما أوحوه اليه إن الله أوحاه اليه كان كاذباً قال تعالى: (إنَّ الشَّياطينَ لَيُوحونَ إلى أوْلِيائِهِم لِيُجادِلُوكُم)(1) .ولما

1 ــ سورة الانعام آية ١٢١ .

شاع خبر المختار بن أبي عبيد وهو أول من ظهر في الإسلام بالكذب في هذا ، وثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : « يكونُ في ثقيف كذّابُ ومُبير » فكان الكذاب هو المختار بن أبي عبيد ، وكان يتشيع لعلي ، ولهذا يوجد الكذب في الشيعة أكثر مما يوجد في جميع الطوائف ، والمبير هو الحجاج بن يوسف ، وكان ظالماً معتدياً ، وكان يتشيع لعثمان ، والمختار يتشيع لعلي ، فذكر لابن عمر ، وابن عباس أمر المختار ، وقيل لأحدهما : أنه يزعم أنه يوحى اليه فقال : صدق ، وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ، وقيل للآخر : أنه يزعم أنه ينزل عليه فقال : صدق : (هل أنبئكم على من تنزل الشياطين تنزل على كل أفاك أثيم) .

الخامس : أن ما تأتي به السحرة والكهان ، والمشركون وأهل البدع من أهل الملل لا يخرج عن كونه مقدوراً للانس والجن ، وآيات الأنبياء لا يقدر على مثلها لا الانس ولا الجن ، كما قال تعالى : (قُلْ لئن اجتمعَتْ الإنسُ والجِنُّ على أن يأتوا بمثلِ هذا القرآنِ لا يأتونَ بمثلِهِ ولَوْ كانَ بعضُهُم لبعضٍ ظهيرا) (1) .

السادس : أن ما يأتي به السحرة والكهان ، وكل مخالف للرسل تمكن معارضته بمثله وأقوى منه كما هو الواقع لمن عرف هذا الباب. وآيات الأنبياء ، لا يمكن أحداً أن يعارضها لا بمثلها ولا بأقوى منها ، وكذلك كرامات الصالحين لا تعارض لا بمثلها ولا بأقوى منها ، بل قد يكون بعض آيات أكبر من بعض ، وكذلك آيات الصالحين لكنها متصادقة متعاونة على مطلوب واحد ، وهو عبادة الله وتصديق رسله فهي آيات ودلائل وبراهين متعاضدة على مطلوب واحد ، والأدلة بعضها أدل وأقوى من بعض .

ولهذا كان المشايخ الذين يتحاسدون ويتعادون ويقهر بعضهم بعضاً

---

1 ـ سورة الاسراء آية ٨٨ .

بخوارقه إما بقتل وأمراض وإما بسلب حاله وعزله عن مرتبته ، وإما غير ذلك ، خوارقهم شيطانية ليست من آيات الأنبياء والأولياء ، وكثير من هؤلاء يكون في الباطن كافراً منافقاً وكثير منهم يموت على غير الإسلام ، وكثير منهم يكون مسلماً مع ظلم يعرف أنه ظلم ، ومنهم من يكون جاهلاً يحسب أن ما هو عليه مما أمر الله به ورسوله ، وهذا كما يقع للملوك المتنازعين على الملك من قهر بعضهم لبعض فهذا خارج عن سنة رسول الله ﷺ ، وسنة خلفائه الراشدين .

السابع : أن آيات الأنبياء هي الخارقة للعادات عادات الإنس والجن ، بخلاف خوارق مخالفيهم ، فإن كل ضرب منها معتاد لطائفة غير الأنبياء ، وآيات الأنبياء ليست معتادة لغير الذين يصدقون على الله ، ويصدقون من صدق على الله ، وهم الذين جاءوا بالصدق وصدقوا ، وتلك معتادة لمن يفتري الكذب على الله ، أو يكذب بالحق لما جاءه ، فتلك آيات على كذب أصحابها وآيات الأنبياء آيات على صدق أصحابها ، فإن الله سبحانه لا يخلي الصادق مما يدل على صدقه ولا يخلي الكاذب مما يدل على كذبه إذ من نعته ما أخبر به في قوله : (أم يقولون افترى على الله كذباً فإن يَشأ اللهُ يَختمْ على قلبِكَ)[1] ثم قال خبراً مبتدياً (ويَمْحو اللهُ الباطلَ ويُحقُّ الحقَّ بكلماتِه)[2] فهو سبحانه لا بد أن يمحق الباطل ، ويحق الحق بكلماته ، وقال تعالى : (وما خلقْنا السّماءَ والأرضَ وما بينَهُما لاعبينَ لَوْ أرَدْنا أن نتّخِذَ لَهواً لاتّخذْناهُ مِن لدُنّا إنْ كُنّا فاعلينَ بَلْ نَقْذِفُ بالحقِّ على الباطلِ فيدمغُهُ فإذا هو زاهِقٌ ولكُمُ الوَيْلُ ممّا تَصِفونَ)[3] .

كما أخبر في موضع أنه لم يخلق الخلق عبثاً ولا سدى ، وإنما

---

١ ـ سورة الشورى آية ٢٤ .
٢ ـ سورة الشورى آية ٢٤ .
٣ ـ سورة الانبياء آية ١٦ ـ ١٨ .

خلقهم بالحق وللحق ، فلا بد أن يجزي هؤلاء وهؤلاء بإظهار صدق هؤلاء وإظهار كذب هؤلاء كما قال: (بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ)[1] .

الثامن: أن هذه لا يقدر عليها مخلوق، فلا تكون مقدورة للملائكة ولا للجن ، ولا للانس ، وإن كانت الملائكة قد يكون لهم فيها سبب بخلاف تلك ، فإنها إما مقدورة للأنس ، أو للجن ، أو مما يمكنهم التوصل اليها بسبب ، وأما كرامات الصالحين فهي من آيات الأنبياء كما تقدم ، ولكن ليست من آياتهم الكبرى ولا يتوقف إثبات النبوة عليها وليست خارقة لعادة الصالحين ، بل هي معتادة في الصالحين من أهل الملل في أهل الكتاب والمسلمين وآيات الأنبياء التي يختصون بها خارقة لعادة الصالحين .

التاسع : إن خوارق غير الأنبياء الصالحين والسحرة والكهان وأهل الشرك والبدع تنال بأفعالهم كعباداتهم ودعائهم وشركهم وفجورهم ونحو ذلك ، وأما آيات الأنبياء فلا تحصل بشيء من ذلك ، بل الله يفعلها آية وعلامة لهم وقد يكرمهم بمثل كرامات الصالحين ، وأعظم من ذلك مما يقصد به إكرامهم لكن هذا النوع[2] يقصد به الإكرام والدلالة بخلاف الآيات المجردة كانشقاق القمر ، وقلب العصا حية وإخراج يده بيضاء والإتيان بالقرآن والأخبار بالغيب الذي يختص الله به فأمر الآيات إلى الله لا إلى اختيار المخلوق والله يأتي بها بحسب علمه وحكمته وعدله ومشيئته ورحمته ، كما ينزل ما ينزله من آيات القرآن ، وكما يخلق من يشاء من المخلوقات بخلاف ما حصل باختيار العبد إما لكونه يفعل ما يوجبه أو يدعو الله به فيجيبه ، فالخوارق التي ليست آيات تارة تكون بدعاء العبد ، والله تعالى يجيب دعوة المضطر ، وإن كان كافراً لكن للمؤمنين من إجابة

---

١ ــ سورة الانبياء آية ١٨ .

٢ ــ لكن هذا النوع الخ يعني بذلك مثل النصر على الاعداء وكشف الكربات ونوال الرغبات فهذا النوع فيه الاكرام والدلالة بخلاف الثاني فانه للدلالة فقط .

الدعاء ما ليس لغيرهم وتارة تكون بسعيه في أسبابها مثل توجهه بنفسه وأعوانه، وبمن يطيعه من الجن والانس في حصولها وأما آيات الأنبياء فلا تحصل بشيء من ذلك.

العاشر: أن النبي قد خلت من قبله أنبياء يعتبر بهم فلا يأمر إلا بما أمرت به الأنبياء من عبادة الله وحده والعمل بطاعته والتصديق باليوم الآخر والإيمان بجميع الكتب والرسل فلا يمكن خروجه عما اتفقت عليه الأنبياء، وأما السحرة والكهان والمشركون وأهل البدع من أهل الملل فإنهم يخرجون عما اتفقت عليه الأنبياء، فكلهم يشركون مع تنوعهم ويكذبون ببعض ما جاء به الأنبياء، والأنبياء كلهم منزهون عن الشرك وعن التكذيب بشيء من الحق الذي بعث الله به نبياً قال تعالى: (وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ)(١) وقال تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ)(٢) وقال تعالى: (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ)(٣).

وقال تعالى: (آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ)(٤) وقال تعالى: (قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا

---

١ ــ سورة الزخرف آية ٤٥.
٢ ــ سورة الأنبياء آية ٢٥.
٣ ــ سورة النحل آية ٣٦.
٤ ــ سورة البقرة آية ٢٨٥.

فإنما هم في شقاق)[1] وقال تعالى : (ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين)[2] وقال تعالى : (إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا أولئك هم الكافرون حقاً)[3] وقال تعالى : (وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين)[4] وقال تعالى : (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا اليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم إليه الله يجتبي من يشاء ويهدي من ينيب) .[5]

وقال تعالى : (يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إني بما تعملون عليم وأن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون) ثم قال : (فتقطعوا أمرهم بينهم زبراً كل حزب بما لديهم فرحون)[6] وقال تعالى لما ذكر الأنبياء : (إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون وتقطعوا أمرهم بينهم كل إلينا راجعون فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه وإنا له كاتبون)[7] وقال تعالى : (وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى تلك أمانيهم قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا

١ – سورة البقرة آية ٢٨٥ .
٢ – سورة البقرة آية ١٧٧ .
٣ – سورة النساء آية ١٤٩ .
٤ – سورة آل عمران آية ٨١ .
٥ – سورة الشورى آية ١٣ .
٦ – سورة المؤمنون آية ٥٤ .
٧ – سورة الانبياء آية ٩٢ .

خَوفٌ عليهم ولا هُم يَحزَنون َ)[1] . فالأنبياء يصدق متأخرهم متقدمهم ويبشر متقدمهم بمتأخرهم كما بشر المسيح ومن قبله بمحمد وكما صدق محمد جميع النبيين قبله ولهذا يقول : (يا أيها الّذين َ أوتوا الكتابَ آمِنوا بما نَزّلنا مُصَدّقاً لما مَعَكُم من قبلِ أن نطْمِسَ وُجوهاً فنرُدَّها على أدْبارِها أو نلعنَهُم كما لعَنّا أصحابَ السّبْت ِ)[2] وقال : (نَزّلَ عليكَ الكِتابَ بالحَقّ مُصَدّقاً لما بَينَ يديه وأنزلَ التوراةَ والإنجيلَ مِن قبلُ هُدًى للناسِ وأنزَلَ الفُرْقانَ إنّ الّذينَ كفَروا بآياتِ الله لهم عذابٌ شديدٌ)[3] وقال : (وأنزلْنا إليكَ الكِتابَ بالحَقّ مُصَدّقاً لِما بَينَ يديهِ منَ الكِتابِ ومُهيمناً عليهِ)[4]. والأنبياء وأتباعهم كلهم مؤمنون مسلمون يعبدون الله وحده بما أمر ويصدقون بجميع ما جاءت به الأنبياء ومن خالفهم لا يكون إلا مشركاً ومكذباً ببعض ما أنزل الله وبين الطائفتين فروق كثيرة غير خوارق العادات .

الحادي عشر : أن النبي هو وسائر المؤمنين لا يخبرون إلا بحق ولا يأمرون إلا بعدل فيأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، ويأمرون بمصالح العباد في المعاش والمعاد لا يأمرون بالفواحش ولا الظلم ولا الشرك ولا القول بغير علم فهم بعثوا بتكميل الفطرة وتقريرها لا بتبديلها او تغييرها ، فلا يأمرون إلا بما يوافق المعروف في العقول الذي تتلقاه القلوب السليمة بالقبول ، فكما أنهم هم لا يختلفون فلا يناقض بعضهم بعضاً ، بل دينهم وملتهم واحد ، وإن تنوعت الشرائع فهم أيضاً موافقون لموجب الفطرة التي فطر الله عليها عباده موافقون للأدلة العقلية لا يناقضونها قط ، بل الأدلة العقلية الصحيحة كلها توافق الأنبياء لا تخالفهم ، وآيات الله السمعية والعقلية العيانية والسماعية كلها متوافقة متصادقة متعاضدة لا يناقض بعضها

---

١ ـ سورة البقرة آية ١١١ .
٢ ـ سورة النساء آية ٤٧ .
٣ ـ سورة آل عمران آية ٣ .
٤ ـ سورة المائدة آية ٤٨ .

بعضاً كما قد بسط هذا في غير هذا الموضع ،والذين يخالفون الأنبياء من أهل الكفر وأهل البدع كالسحرة والكهان وسائر أنواع الكفار وكالمبتدعين من أهل الملل أهل العلم وأهل العبادة ، فهؤلاء مخالفون للأدلة السمعية والعقلية للسماعية والعيانية مخالفون لصريح المعقول ، وصحيح المنقول كما أخبر الله عنهم بقوله (كلما أُلْقِيَ فيها فَوْجٌ سألَهُمْ خزَنَتُها ألمْ يأتِكُمْ نَذِيرٌ)[1] الآية. فهؤلاء يخالفون أقوال الأنبياء ، إما بالتكذيب وإما بالتحريف من التأويل ، وإما بالإعراض عنها وكتمانها، فإما أن لا يذكروها أو يذكروا ألفاظها ويقولون ليس لها معنى يعرفه مخلوق ، كما أخبر الله عن أهل الكتاب أن منهم من يكذب في اللفظ ، ومنهم من يحرف الكلم في المعنى ، ومنهم جهال لا يفقهون ما يقرأون قال تعالى : (أفَتَطْمَعُونَ أن يُؤْمِنوا لكُم)[2] إلى قوله : (فوَيلٌ لهُم ممّا كَتَبَتْ أيديهِمْ وويلٌ لهُم مِمّا يكسِبونَ)[3] ،وكذلك هم مخالفون للأدلة العقلية فالأنبياء كملوا الفطرة وبصروا الخلق كما تقدم في صفة محمد ﷺ أن الله يفتح به أعيناً عمياً وآذاناً صماً ، وقلوباً غلفاً ، ومخالفوهم يفسدون الحس والعقل كما أفسدوا الأدلة السمعية والحس والعقل بهما تعرف الأدلة ، والطرق ثلاثة : الحس ، والعقل ، والخبر ، فمخالفوا الأنبياء أفسدوا هذا وهذا وهذا ، أما افسادهم لما جاء عن الأنبياء فظاهر واما إفسادهم للحس والعقل فإنهم قسمان : قسم أصحاب خوارق حسية كالسحرة والكهان وضلال العباد ، وقسم أصحاب كلام واستدلال بالقياس والمعقول ، وكل منهما يفسد الحس والعقل .

أما أصحاب الحال الشيطاني فقد عرف أن السحر يغير الحس والعقل حتى يخيل إلى الانسان الشيء بخلاف ما هو ، وكذلك سائر الخوارق

١ ـ سورة الملك آية ٨ .
٢ ـ سورة البقرة آية ٧٥ .
٣ ـ سورة البقرة آية ٧٩ .

الشيطانية لا تأتي إلا مع نوع فساد في الحس أو العقل كالمؤلهين الذين لا تأتيهم إلا مع زوال عقولهم وآخرين لا تأتيهم إلا في الظلام ، وآخرين تتمثل لهم الجن في صورة الإنس فيظنون أنهم إنس ، أو يرونهم مثال الشيء فيظنون أن الذي رأوه هو الشيء نفسه ، أو يسمعونهم صوتاً يشبه صوت من يعرفونه فيظنون أنه صوت ذلك المعروف عندهم ، وهذا كثير موجود في أهل العبادات البدعية التي فيها نوع من الشرك ومخالفة للشريعة ، وأما أصحاب الكلام والمقال البهتاني فإنهم بنوا أصولهم العقلية وأصول دينهم الذي ابتدعوه على مخالفة الحس والعقل فأهل الكلام أصل كلامهم في الجواهر والأعراض مبني على مخالفة الحس والعقل ، فإنهم يقولون إنا لا نشهد بل ولا نعلم في زماننا حدوث شيء من الأعيان القائمة بنفسها ، بل كل ما نشهد حدوثه ، بل كل ما حدث من قبل ان يخلق آدم إنمـــا تحدث أعراض في الجواهر التي هي باقية لا تستحيل قط ، بل تجتمع وتتفرق ، والخلق عندهم الموجود في زماننا ، وقبل زماننا إنما هو جمع وتفريق لا ابتداع عين وجوهر قائم بنفسه ، ولا خلق لشيء قائم بنفسه لا إنسان ولا غيره ، وإنما يخلق أعراضاً ويقولون إن كل ما نشاهده من الأعيان فإنها مركبة من جواهر كل جوهر منها لا يتميز يمينه عن شماله ، وهذا مخالفة للحس والعقل كالأول ، ويقول كثير منهم أن الأعراض لا تبقى زمانين ، ويقولون إنه لا يفنى ويعدم في زماننا شيء من الأعيان ، بل كما لا يحدث شيء من الأعيان لا يفنى شيء من الأعيان ، فهذا أصل علمهم ودينهم ومعقولهم الذي بنوا عليه حدوث العالم ، وإثبات الصانع وهو مخالف للحس والعقل ويقول الذين يثبتون الجوهر الفرد: إن الفلك والرحاء وغيرهما يتفكك كلما استدار ، ويقول كثير منهم أن كل شيء فإنه يمكن رؤيته وسمعه ولمسه إلى غير ذلك من الأمور التي جعلوها أصول علمهم ودينهم وهي مكابرة للحس والعقل والمتفلسفة أضل من هؤلاء ،

فإنهم يجعلون ما في الذهن ثابتاً في الخارج ، فيدعون أن ما يتصوره العقل من المعاني الغائبة الكلية موجودة في الجواهر قائمة بأنفسها إما مجردة عن الأعيان ، وإما مقترنة بها ، وكذلك العدد والمقدار والخلاء والدهر والمادة يدعون وجود ذلك في الخارج ، وكذلك ما يثبتونه من العقول ، والعلة الأولى الذي يسميه متأخروهم واجب الوجود وعامة ما يثبتونه من العقليات إنما يوجد في الذهن فالذي لا ريب في وجوده نفس الانسان ، وما يقوم بها ، ثم ظنوا ما يقوم بها من العقليات موجوداً في الخارج ، فكان إفسادهم للعقل أعظم ، كما أن إفساد المتكلمين للحس أعظم مع أن هؤلاء المتفلسفة عمدتهم هي العلوم العقلية ، والعقليات عندهم أصح من الحسيات ، وأولئك المتكلمون أصول علمهم هي الحسيات ، ثم يستدلون بها على العقليات ، وبسط هذه الأمور له موضع آخر .

والمقصود هنا التنبيه على أن من خالف الأنبياء فإنه كما أنه مكذب لما جاءوا به من النبوة والسمع ، فهو مخالف للحس والعقل ، فقد فسد عليه الأدلة العقلية والنقلية ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

فهرست

كتاب النبوات للعلامة ابن تيمية

فهرست

الموضوع	الصفحة

الموضوع **الصفحة**

الموضوع **الصفحة**

ا



